عبد اللطيف الشوّاف

عبد الكريم قاسم

وعراقيّون آخرون

ذكريات وانطباعات



عبد الكريم قاسم

وعراقيون آخرون

ذكريات وانطباعات

تأليف: عبداللطيف الشوّاف

الطبعة الأولى : 2004.

* الناشر: دار الورّاق للنشر . لندن . بيروت

Alwarrak Publishing Ltd.

Suit 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
FAX: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
P.O.Box: 113-5182 Beirut - Lebanon

www.alwarrakbooks.com

e-mail: publisher@alwarrakbooks.com

ISBN: 1 900 700 61 1

* التوزيع: **الفرات للنشر والتوزيع**

■ ص. ب 6435-113 بيروت - لبنان

■ هاتف: 750054 - فاكس 750053-1-961

* التوزيع عبر الانترنت:

www.alwarrakbooks.com

www.alfurat.com

شكر وتقدير

اود ان اعبر عن بالغ الشكر والامتنان للاستاذ الدكتور فاروق برتو للجهود الكبيرة التي بذلها في تحقيق هذا الكتاب ومساهمته في اخراجه بالصورة التي هو عليها، متفضلا بوقته الثمين وآرائه السديدة. ارجو له الموفقية والعمر المديد.

كما اود ان اشكر الاخ العزيز السيد ماجد شبر الذي اخذ على عاتقه عملية طباعة الكتاب مع كل ما يتعلق بذلك من جهد وتعب، وفقه الله لما فيه كل الخير.

واشكر ايضا كل من ساهم بجهد في اخراج هذا الكتاب، وكل من ابدى اهتماما به وبموعد صدوره. بارك الله فيهم اجمعين.

الكتاب الذي بين يديكم هو الجزء الثاني من ذكريات والدي عبداللطيف الشواف رحمه الله عن شخصيات عاصرها وتركت في نفسه اكبر الاثر. واشعر اننا العراقيين في هذه الايام احوج ما نكون الى ان نتذكر ونتعظ ونتعلم من سير هؤلاء الرجال الذين اشتركوا بصفات الكرم والتسامح والنبل والشهامة.

الدكتورعلي عبداللطيف الشواف

لندن تشرين الثاني 2004

عن اسرة المرحوم عبداللطيف الشواف

مقدمة

من الرجال من تظل ذكراه حية نابضة في نفوس من أسعدهم الحظ بمعرفته عن قرب أو بتقاطع سبل حياتهم معه، رغم غيابه عن هذه الحياة الزائلة، وذلك لما يتميز به من صفات شخصية على قدر كبير من الأصالة والقوة تترك أثارا وذكريات لا يمحوها الزمن لدى الآخرين . ولا شك عندي أن صديقي العزيز المرحوم عبد اللطيف الشوّاف (أبوعلي) واحدا منهم، فقد ظل ملء النظر والسمع وذو حضور بارز في حياة العراق السياسية والاجتماعية عبر عقود من الزمن.

لقد كتبت كما كتب وروى غيري من الأصدقاء الكثير عن هذا العراقي الوطني الغيور ذي الشخصية المحببة والعقل الموسوعي؛ وعن تميّزه وكفاءته كقاض وكوزير في العهد الجمهوري وكسياسي وطني بارز. ولكن مادام هو قد آثر أن يعيش معنا في كتابه هذا من خلال ما رواه عن نماذج عراقية أصيلة من الرجال عرفناهم وعرفهم العراق فلا بدّ لنا أن نضمّه إليهم هو ذاته في هذا الموقع كنموذج أصيل للشخصية العراقية الأمينة المخلصة التي وضعت مصلحة الوطن فوق كل اعتبار. وللتعريف بشخصية الشّواف وحياته ببعض التفصيل أحيل القارئ الكريم إلى ما سبق أن كتبه الأخ الدكتور مهدي الحافظ وما كتبته في جريدة الحياة الصادرة في لندن وقد تم ضمّه إلى هذا الكتاب.

كان أبو علي كبير الاهتمام بمتابعة الصفات و الخصائص الأصيلة في الشخصية الإنسانية والعراقية منها خاصة، كما كان واسع الإطلاع في التراث الإسلامي والعربي وتاريخ الأسر والأنساب العراقية مما هيأ له

استنباط صلة الفروع بأصولها والربط بين الصفات الشخصية ومحيط الأسرة والبلد والتراث. وقد آثر أن يدون معارفه وملاحظاته الثاقبة والموضوعية على طريقة السير الشخصية لعدد من الأشخاص عرفهم عن قرب واعتبرهم نماذج عراقية أصيلة كل في مجالها، يبعث ذكرها المثل الطيب بين الناس والأمل في انتصار الصفات الحميدة في عراق المستقبل رغم كل ما أصاب الإنسان العراقي من قهر ومهانة من قبل المتسلطين المتخلفين في العقود الأخيرة لطمس مزاياء الطيبة الأصيلة وفرض الصفات الكريهة والممارسات المشوّهة في مجتمع مزّقوا أوصاله وفتكوا بأبنائه.

صدر للشوّاف كتاب «شخصيات نافذة» عام ١٩٩٣ في لندن حين كان هو يعاني من اشتداد وطأة المرض عليه في القاهرة حيث أقام، مبتعدا عن الظلم والإفساد الذي اجتاح العراق، حتى رحيله المحزن في آب (أغسطس) ١٩٩٦ وقد أشاد المؤرخ العراقي الأستاذ عبدالرزاق الحسني بهذا الكتاب كإضافة هامة إلى ما كتب عن سير شخصيات المجتمع العراقي. ثم واصل المرحوم الشوّاف الكتابة وأكمل كتابه الثاني «عبد الكريم قاسم وعراقيون آخرون»، الذي يجده القارئ الآن بين يديه، رغم المرض القاسي الذي أقعده و شل قواه، إذ كان حريصا كل الحرص على أن يعرض صورا مشرّقة تبعث في العراقيين الثقة بقدرتهم على إعادة بناء عراق حديث متقدم بالاعتماد على عقول وسواعد أبنائه عند الفوز بالحرية والعدل و حقوق الإنسان.

في هذا الكتاب اختار الشوّاف، كما في سابقه، نماذجه العراقية من أصناف متنوعة من الناس، منهم العسكري والأديب والقاضي والبدوي مؤكدا بالدرجة الأولى على أصالة صفاتهم وشمائلهم العراقية الإنسانية بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية ودورهم في الحياة.

وكان يعشق تميّز الفرد بصفة هامّة تطغي على سلوكه فيعرف بها وإن افتقر إلى غيرها؛ فأقام علاقات صداقة ومحبّة مع أناس من أطوار ومذاهب شتى في الحياة على أساس راسخ من فهمه لطبائع البشر ومن التسامح

وحب الناس. وقد حرص في ما كتبه عن الأشخاص، كما قال لي، على إبراز صفاتهم الحميدة وإهمال جوانب ضعفهم، إن وجدت، لاستحالة خلو أي إنسان من العيوب البسيطة، وذلك بالمقارنة بما أفرز الشر والاستبداد في العراق من صفات قبيحة ودنيئة نجدها اليوم بارزة للعيان.

في اعتقادي أن ما كتبه الشوّاف، بصورة خاصة، عن المرحوم عبدالكريم قاسم، تأسيسا على علاقته الوطيدة به والعمل معه، على صعوبة ذلك والظروف الحرجة المحيطة به، يكشف لنا جوانب مجهولة ومضيئة في شخصية ذلك العراقي الوطني الثوري الأصيل كما يجعلنا نعيش عن قرب تفاصيل هامة من مسيرة العهد الجمهوري الأول، المجيدة منها والمأساوية. وهي في ذات الوقت شهادة تاريخية أمينة، من مصدر موثوق عرف بالموضوعية، على مواقف عبد الكريم قاسم وسلوكه الشخصي وبعض دخائل نفسه إزاء قضايا وأحداث هامة واجهت ذلك العهد.

كذلك تكشف لنا معالجة الشوّاف لشخصية المثقف والأديب العراقي اللامع نجيب المانع عن حسّاسيته المرهفة وإنسانيته وأساه لما عاناه ويعانيه النوابغ و المثقفون العراقيون من جحود وإهمال وتعسف، فضلا عن القمع السياسي، وهم الأجدر بالتعاطف والتفهّم والتشجيع والإكرام. وما نهاية نجيب المانع المؤلمة ومن قبله الشاعر الفذ بدر شاكر السيّاب إلا شواهد على التخلف الحضاري الآخذ بخناق العراق. لقد تعلّق الشوّاف، العاشق والمتبحر في الشعر والأدب العربي، بهؤلاء النوابغ وارتبط بهم بعلاقات إنسانية عميقة كما كان صديقا محبّا لشاعرنا الكبير الجواهري و لبلند الحيدري وعبدالوهاب البياتي ونماذج عراقية مشرقة أخرى، منهم الشوّاف ذاته، أبت العيش في ظل الاستبداد فقضت في الغربة بعيدا عن الوطن الجريح.

وأحسب أن الشوّاف قد رمى في وصفه علاقة الأخوّة والصداقة بين المرحومين سالم الوجيه وجمال النقيب ونهايتهما بحادث مرور مفجع مشابه و في نفس المكان، إلى الرابطة العضوية المتينة بين أبناء العراق على

اختلاف طوائفهم ومذاهبهم والى مصيرهم المشترك. وقد عشت بنفسي علاقات صداقة مماثلة كما عاشها الشوّاف في البصرة الفيحاء في تلك الأيام الزاهرة؛ وما أحوج عراق اليوم إلى الكثير منها.

كان عبداللطيف الشوّاف يطمح للكتابة عن سيرة عدد آخر من الشخصيات العراقية التي أعجب بصفاتها ولكن القدر لم يمهله، ومع ذلك فقد جاء على ذكر عشرات الشخصيات العراقية المهمة في هوامش هذا الكتاب وسابقه، وعلى نحو مفصل أحيانا، فكان جهده مساهمة ثريّة حقا في تدوين حقبة من تأريخ العراق بشخوصها وأحداثها، وله منا الشكر والإعجاب والتقدير.

فاروق برتو

عبد اللطيف الشواف... والأصالة العراقية المشردة[١]

فاروق برتو

كان عبداللطيف الشواف شخصية اجتماعية وسياسية عراقية مرموقة. ففضلا عن كونه الوزير الكفء النشيط والقانوني الضليع والخبير الواسع المعرفة في الجوانب القانونية للشؤون النفطية والمالية، كان شخصية موسوعية في التراث والأدب اضافة الى كونه سريع البديهة حاضر النكتة.

كذلك كان عبداللطيف موضع ثقة الفئات السياسية المختلفة لاستقلاله وانصافه، ومن انشط العاملين على تقريب وجهات النظر بينها وجمع شملها من اجل استقرار العراق وخيره وتقدمه. وكان من القلائل الذين يتفق اكثر العراقيين، على اختلاف انتماءاتهم السياسية منذ الخمسينات وحتى رحيله المحزن بعيدا عن الوطن، على كفاءته وسعة افقه وموضوعيته وحبه للناس والعمل المجدي. فقد ظل مستقلا عن الاحزاب والتنظيمات السياسية مع الحفاظ على العلاقات الطيبة دائما مع الفئات كافة. وشارك بنشاط في العمل السياسي في العراق كشخصية مستقلة مؤثرة ومحبوبة، كما أقام علاقات عربية واسعة في المجالات السياسية والقضائية والاقتصادية.

واغتراب هذا الانسان الرائع والعراقي الكفء المخلص وهجرته عن

(١) مقال نشر في جريدة الحياة بتاريخ ١٩٩٨/٣/٢م.

تراب وطنه مؤشر على تردي الاوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية في العراق، وعلى محنة مثقفيه واحراره.

كان عبداللطيف يبحث دائما عن نقاط الالتقاء ويدعو للتضامن والعدل والتعاون بين الجماعات، ومع ذلك لم ينج من تعنت البعض ممن كان يحسب انهم الاقرب اليه فكريا وسياسيا، شأن كل من يتصدى للعمل السياسي في الجو العراقي العاصف، إذ لم يرق لهم استقلال رأيه وجهره به وموضوعيته ازاء الاحداث.

كذلك تعرض لضغوط محرجة من قبل الحكام الذين طلبوا منه بالحاح تشكيل حزب سياسي يعلم هو قبل غيره ان مثل ذلك الحزب لن يكون الا ذيلا "للحزب القائد" وواجهة للتمويه بوجود تعددية سياسية في البلاد، كما دلت على ذلك التجارب الحية والواقع المر للعمل السياسي في العراق. وقد همس رحمه الله في أذني عند لقائي به في مصر آنذاك: "إن هذا هو السبب الرئيسي وراء عدم عودتي الى الوطن، إذ اخشى التعرض لضغط متزايد في هذا الموضوع." واردف ساخرا بطريقته الشعبية البغدادية المحببة ما معناه: "من يفعل مثل ذلك سوف يرميه الناس بالنعال في شوارع وأزقة الكرخ وبغداد."

وهكذا آثر ابو علي، على شيمة البغداديين الاصلاء، شظف العيش و"بهدلة" الاغتراب على "بهدلة" الكرامة في العراق. وكان يردد حتى قبل اغترابه: "انني احترم اصحاب الرأي الذين هاجروا خارج الوطن بعيدا عن اوضاع لا يقبلونها ولا يرتضون العيش في ظلها، فهذا موقف يدعو الى الاحترام"... وانتهى الامر به ان يلحق بجمهرة المهاجرين من اصحاب الرأي منذ عام ١٩٨٩.

عرفت عبداللطيف الشواف للمرة الاولى عام ١٩٥٥ وهو حاكم (قاض) نابه في محكمة بداءة البصرة. وكان معروفا للجميع بذكائه وكفاءته وشخصيته القوية ودأبه على العمل. وأكد لي احد قضاة محكمة تمييز العراق آنذاك، وهي اعلى هيئة قضائية في البلاد، ان شيوخ القضاء في

العراق في تلك الهيئة كانوا غالبا ما يبدون سرورهم واعجابهم مجمعين برصانة احكامه عندما تعرض عليهم كهيئة اعلى للمراجعة. ولا شك ان الفهم والحس القانوني العالي عند عبداللطيف هما الاساس الراسخ لما عرف عنه من انصاف وعدل وحياد.

في البصرة الفيحاء كان ابو علي محل احترام وحب وثقة زملائه من القضاة والمحامين، وكانت علاقاته الشخصية الممتازة تمتد عبر كامل الطيف الاجتماعي والسياسي فيها سواء جماعة الحزب الوطني الديمقراطي او حزب الاستقلال او الحزب الشيوعي او كبار التجار ورجال الاعمال والمثقفين والوجوه الاجتماعية المعروفة. وكنت اعلم انه كان كثيرا ما يحرر المقالات الافتتاحية - من دون توقيع - في جريدة الحزب الوطني الديمقراطي في البصرة، اقرب الاحزاب لمعتقده السياسي آنئذ، والذي كان يرأس فرعه فيها صديقه الصدوق المرحوم محمد العبد الله الفالح السعدون.

كان عبداللطيف متواصل النشاط في قلب الحركة الوطنية المناوئة للسيطرة البريطانية الاستعمارية ابان العهد الملكي منذ الخمسينيات من دون تظاهر او ادعاء. وقد اهلته كفاءته المشهودة واستقلاله وحماسه الوطني المتزن لاشغال مراكز متقدمة في الدولة بعد ثورة ١٤ تموز يوليو ١٩٥٨ حتى اختير وزيرا للتجارة، فلعب دورا فاعلا كعادته في ما تحقق من انجازات وطنية مهمة للتحرر من السيطرة الاجنبية كقانون رقم ٨٠ القاضي باستعادة ما لم يستغل من ارض العراق من قبل شركات النفط الاجنبية للدولة، والاعداد لتأسيس شركة النفط الوطنية، وتطوير علاقات العراق التجارية مع البلدان المختلفة. كما استمر في جهوده خلال تلك الفترة المعقدة سياسيا بعمل شبه المستحيل آنئذ وحتى اليوم للأسف على التقريب بين الفئات السياسية المختلفة والمتصارعة. ولعل من مزايا عبداللطيف ديبلوماسيته المرنة، إذ استطاع الخروج من وزارة عبدالكريم قاسم مع الحفاظ على علاقاته الطيبة معه ومع جميع الاطراف المختلفة، بل والاستمرار على جهوده للتقريب بينها.

ينتسب عبداللطيف الى عائلة الشواف في الكرخ ببغداد، وهي من الأسر السنية المحترمة والمعروفة بمركزها الديني المرموق. وكان والده المرحوم علي الشواف قاضيا في المحاكم الشرعية عرف بالاستقامة وحسن السمعة.

ولد عبداللطيف عام ١٩٢٦ ونشأ نشأة محافظة وتشبع بالقيم العالية وطلب العلم ومساعدة الناس والزهد في المظاهر. وتلك قيم ظلت راسخة لديه ولدى الكثيرين من ابناء جيله الذين نشأوا وترعرعوا ابان فترة الحكم الوطني في العراق.

ونظرا الى علاقاته الاجتماعية الواسعة وذكائه ودقة ملاحظته ومعرفته الموسوعية بالتاريخ والتراث وبالناس وسلوكهم واصولهم، فقد ظل يرقب بحسرة تهافت القيم وترديها منذ اخذت النزاعات السياسية والعرقية والويلات والحروب والقمع الواسع والارهاب والخوف تتفاقم وتطحن المجتمع العراقي فتحيله الى كومة من البؤس والظلم والفساد. ودفعته الحسرة على تدهور المثل والسلوك الاجتماعي وكذلك الحرص على تثبيت نقيض ذلك من الجوانب الخيرة والاصلية في الشخصية العراقية الممتهنة في المجتمع العراقي الى اعداد واصدار كتابه "شخصيات نافذة" ليسرد فيه سيرة اشخاص عرفهم عن قرب وعرف فيهم صفات حميدة رائعة ليذكر العراقيين بأن الشر والصفات الكريهة السائدة في مجتمعهم الحالي ليست اصيلة فيه وانما هي الزبد الذي سيذهب هباء على رغم طول المعاناة والآلام.

وقال لي وهو لا يزال يستطيع الكلام بعد: "انني لم اذكر جوانب الضعف والنواحي السلبية في اي من الاشخاص الذين اخترتهم للكتاب على رغم استحالة خلو اي انسان من العيوب وهي ان وجدت في اي منهم لا تستحق الذكر ازاء ما نلمسه ونعانيه اليوم من شرور. المهم ان نضرب للعراقيين امثلة طيبة تشجعهم على الامل والحب والرحمة والتكافل والثقة بقدرتهم الذاتية على تجاوز المصاعب."

لقد انتقد البعض اختياره للاشخاص باعتبار ان منها من لا يجوز وصفه بانه شخصية نافذة، وفات هؤلاء انه لم يكن يؤرخ لعظماء الدولة والزعماء وانما للصفات الشخصية العالية فيمن اختارهم في الاساس على تباين اوضاعهم الاجتماعية. والمعنى بالنفوذ عنده اثرهم كقدوة حسنة في مجتمعهم المحلي وفي مجال عملهم، وهو في ذلك يرجع الى خبرته الشخصية الوثيقة بهم. ولاشك ان العراق غني بنماذج بشرية كثيرة تدعو للفخر والاعتزاز بصفاتها الشخصية الانسانية الحميدة.

اختار عبداللطيف ستة اشخاص في كتابه شخصيات نافذة، ولكنه في الواقع لم يقتصر عليهم بل زاد العشرات من الاشخاص والعوائل البغدادية والعراقية ممن لهم علاقات قربى او صداقة او عمل او جوار معهم. كذلك استفاض في الكتابة عن الظروف السياسية والاجتماعية التي عايشوها مما يعد بحد ذاته دراسات اصيلة قيمة عن تلك الظروف.

ولو دققنا في الصفات التي ركز على التذكير بها وابرزها لوجدنا الإباء والشجاعة والكرامة والكرم والزهد لدى عبدالله الفالح السعدون، والعمل المنتج والحرص على صالح الوطن واحترام الناس لدى سليمان فتاح، والشفقة الانسانية والمرؤة والنزاهة عند شكر التكمجي، والتواضع والقناعة والوفاء والاسى لمصائب الآخرين عند محمد زينل، والعلم والنزاهة والاخلاق السمحة والدقة في العمل واللسان عند محمود خالص، والصراحة والحسم والكرم وقوة الارادة والورع والتقوى من دون ادعاء او مآرب عند حمد الذكير.

كان عبداللطيف الشواف يؤمن بأن الصفات الاصيلة الحميدة هي الباقية في المجتمع العراقي، وان الاضطراب والتدهور الاجتماعي الآخذ بخناق العراق الى زوال مهما بدا من جوانب سلبية مؤلمة وعلى رغم التشهير والتعميم. فالعراق ليس حديث عهد في التقدم الحضاري بل هو موطن اشعاع الحضارة الاسلامية في العصور السالفة.

واراد عبداللطيف ان يذكر من يدعون الفضل على الشعب العراق بما

روي عن الامام الشافعي إذ سأل صاحبه يونسا: "يا يونس، أدخلت بغداد؟" قال يونس: "لا". فرد الشافعي: "ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس!"

كما عرض في كتابه معربا عن شوقه وحبه للعراق واهله، بعض خلجات الشاعر الفيلسوف ابي العلاء المعري في حب العراق إذ قال:

على سنين تقضت عند غيركم   أسفت لا بل على الأيام والساعِ
وفي العراق رجال قر بهم شرف   هجرت في حبهم رهطي واشياعي

وقال:

إذا نأت العراق بنا المطايا   فلا كنا ولا كان المطي
على الدنيا السلام فما الحياة   إذا فارقتكم إلا نعي

في التسعينيات اعد عبداللطيف الشواف مسودة لدستور عراقي دائم، كما اعد دراسة قانونية فقهية حول النظام الفدرالي. وتلك الدراسات ما هي الا تعبير عن حبه لشعبه العراقي ووطنه، واحترام لحق الشعب الكردي في تقرير المصير حفاظا على روابط التاريخ والاخاء والتضامن بين عناصر الشعب العراقي. وهي دراسات متعمقة لقانوني عراقي ضليع يجدر نشرها للبحث والمناقشة تكريما لذكراه وحرصه على خير الوطن.

رحم الله ابا علي، فقد كان عراقيا اصيلا متحضرا محبا لشعبه ووطنه وللانسانية جمعاء، عمل دون كلل من اجل وحدة شعبه وتقدمه.

عبد اللطيف الشواف

عراقي يختصر تجربة بلده الجريح[١]

مهدي الحافظ

لم يكن غياب عبداللطيف الشواف خسارة كبيرة لاصدقائه ومحبيه وحسب، بل للشعب العراقي باكمله. فقد كان الفقيد الغالي ملتقى الفئات والتيارات المختلفة، ورجلا كبيرا من رجالات الحركة الوطنية ورموزها المضيئة. فعلى امتداد ثلاثة عقود او اكثر، برز عبداللطيف الشواف كواحد من الشخصيات الوطنية الديمقراطية في العراق، وتبوأ مراكز ومسؤوليات مهمة.

فكان وزيرا للتجارة ومحافظا للبنك المركزي العراقي ومستشارا قانونيا في الشؤون النفطية فضلا عن تدرجه وبروزه في السلك القضائي العراقي ومهنة المحاماة منذ تخرجه من كلية الحقوق في بغداد في الاربعينيات. كما كان عضوا في المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب لعدة دورات وأسهم في العديد من نشاطاته.

ولعل اهم ما تميزت به شخصية الفقيد اصالته الشعبية وتواضعه الجم وتسامحه الانساني الفياض فضلا عن عمق ثقافته العامة، ولاسيما في قضايا التراث والشعر القديم والامثال الشعبية والأسر والانساب، واحتفاظه

---

(١) مقال نشر في جريدة الحياة بتاريخ ١٩٩٦/٩/٢٣م.

بذاكرة نادرة تزخر بمعلومات وتفاصيل لآماد زمنية بعيدة تصل الى العهود الاسلامية الاولى. ومنها تضلعه بتاريخ بغداد (وهو البغدادي الاصيل) والبصرة والجزيرة العربية، وكذلك المامه العميق بالاحداث التي مرت بها الوشائج الاجتماعية والقبلية فيها بما يضعه بمستوى الرواة والتراثيين المختصين. فما اكثر المناسبات التي ابدع فيها (ابو علي) وابهر الحضور باحاديثه ورواياته الشيقة عن السير الشخصية والروابط الاسرية لاجيال مختلفة بثقة ودراية فريدتين. وقد قاد اهتمامه بمتابعة السير الشخصية الى المباشرة بمشروع كتابي طموح كتاب «شخصيات نافذة» الذي تناول عددا من الوجوه العراقية المعروفة، كتاباً آخراً هو «عبد الكريم قاسم وعراقيون آخرون» لم ير النور حتى ادركته المنية قبل اسابيع.

وكانت من ابرز شمائله رغبته وقدرته على بناء الصداقات ليس في العراق فحسب، بل في الاقطار الاخرى ايضا. فقد نجح ابو علي في كسب عدد كبير من الاصدقاء من مختلف الفئات والاجيال والاقطار على نحو يثير الدهشة بشخصيته وقابليته على التكيف مع كل هذه الالوان من البشر. وكان دافعه لذلك هو حب الناس وحساسيته المرهفة ازاء الغير والاستعداد الفطري الصادق لمساعدة اصدقائه ومشاركتهم افراحهم واتراحهم. فما اكثر المواقف المشهودة له بصنع الخير للاصدقاء ودرء الرزايا عنهم.

لقد كان الكرم والسخاء والبذل عناوين راسخة في مسلك عبداللطيف الشواف ازاء الناس في وقت تراجعت فيه هذه القيم وعزّ الاصدقاء المخلصون. كما كان يكنّ احتراما خاصا للادباء والفنانين على اختلاف عطاءاتهم واجيالهم ويتفقد احوالهم ويرعى نتاجاتهم مثل ابو سلمى (عبدالكريم الكرمي) وبدر شاكر السياب وحسين مردان وفاضل مهدي مؤرخ المقامات العراقية. أما الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، فكانت له منزلة خاصة لدى الفقيد.

وعلى الصعيد السياسي، كان لهذه المزايا الشخصية الفريدة اثر بالغ في الدور الذي اداّه الفقيد في الحياة العامة وشؤون الدولة غداة انتصار

ثورة ١٤ تموز يوليو ١٩٥٨. وبرزت منذ ذلك الحين وتنامت توجهاته الديمقراطية العميقة والتزامه الثابت بالقضايا الوطنية والتطلعات الشعبية. ومع انه لم يكن منتميا لأي حزب سياسي، إلا انه كان حريصا على الوقوف في المعسكر الديمقراطي والالتزام بمواقفه وسياساته الرئيسية حيال المشكلات المطروحة. بل ان الكثيرين كانوا يحسبونه على اليسار العراقي من حيث نظرته للاحداث والالتزام بالقضايا الاجتماعية فضلا عن صداقاته الشخصية - وهو امر لم ينكره الفقيد ويهرب منه.

ولعل تجربته مع الزعيم عبدالكريم قاسم كانت فريدة من نوعها وبالغة الحراجة.

لقد اختاره قاسم وزيرا للتجارة في منتصف ١٩٥٩ في ادق الظروف السياسية واشدها خطرا على تطور البلاد، حيث ان الانقسام الداخلي والضغوط الخارجية في تفاقم شديد، كما ان نزعة الغرور والتحكم الفردي اخذا بالتنامي في مسلك قاسم على نحو مقلق. ولم يكن لعبداللطيف الشواف اي خيار سوى السعي ـ بطريقته الخاصة البعيدة عن المجابهة والعنف ـ لترميم النهج العام والتأثير على قيادة الحكم وسط صعوبات وتعقيدات جمة وذلك عن طريق النصيحة والتحذير من الاخطار الشاخصة. إلا ان الرجل لم يفلح في تحقيق ما يطمح اليه، فوجد نفسه مشدودا لوضع لا يرتضيه، لذا اعتذر عن الاستمرار في الوزارة وخرج منها قبل سقوط قاسم. وخلال وجوده في المسؤولية اسهم في انضاج وتحقيق عدد من الانجازات في مجال النفط (قانون رقم ٨٠ والتحضير لتأسيس شركة النفط الوطنية) وتطوير العلاقات التجارية الخارجية للعراق واعداد مشروع الدستور الدائم وغيرها.

الا ان تقويمه لعبدالكريم قاسم واسلوبه في الحكم جديران بالاهتمام والمراجعة. وقد كتب الفقيد دراسة مطولة عن ذلك تنطوي على دروس وخبرات ثمينة. وتخلص الدراسة الى توكيد القناعات الوطنية والتطلعات الشعبية لقاسم ورغبته الصادقة في بناء مستقبل زاهر للعراق، غير ان ظروف

الانقسام الداخلي والضغوط الخارجية عطلت هذا التوجه وآلت الى نهايته المأسوية.

ويحمل الفقيد الشواف القوى السياسية العراقية وكذلك بعض الوزراء السياسيين البارزين مسؤولية خاصة في انحراف وانتكاس التجربة القاسمية دون ان يبرئ نفسه من قسط منها، مع انه كان خارج دائرة القرار والممارسة الفعلية. هذا ما كنا نسمعه غالبا منه.

لقد تعرفت على ابي علي في براغ صيف ١٩٦٤ بواسطة صديقنا المشترك خالد الذكر موسى اسد (ابو عمران)، وقامت بيننا صداقة حميمة هي من اثمن الصداقات التي املكها في حياتي. وفي ظلها توفر لي ان اتعرف عن كثب على مسارات تفكيره واهتماماته، وان اقف على الخلاصة القيمة من الخبرات والدروس التي خرج بها من الانتكاسة الكبرى آنذاك. وكان اهم ما توصل اليه الفقيد هو الدعوة الى المراجعة ودراسة التجربة الماضية وابقاء العقل مفتوحا لاستنتاجات ومواقف جديدة. كان هذا هو جوهر تفكيره دون ان يقدمه في صياغات نظرية منمقة، حيث كان ينأى عن التعبيرات الاكاديمية والمجردة مفضلا عليه الاداء المباشر بعبارات وكلمات شعبية مألوفة. ويدخل ضمن ذلك اعادة بناء العلاقات بين القوى السياسية العراقية على اسس جديدة، والتأكيد على حكم المؤسسات وليس الافراد او "النخب" وصياغة مهمات ومعالجات ديمقراطية واضحة للمشاكل المطروحة.

ففي الفترة التي ساهم فيها الناصريون والقوميون في الحكم في الستينات حرص على ان يردم الهوة بينهم وبين الديمقراطيين والشيوعيين والقوى الكردية. وقام بصياغة ميثاق للتعاون الوطني ذي طابع ديمقراطي، واجرى اتصالات مثمرة مع الكثير من وجوه هذه الحركات.

الا ان مشروعه هذا لم يفسح له المجال للحوار الجدي بسبب المواقف السلبية والمتزمتة لبعض الشخصيات الديمقراطية البارزة التي لم ترق لها الفكرة ولا الدور الذي نهض به الراحل عبداللطيف الشواف.

وكانت تحركها دوافع متباينة منها الغيرة و"نزعة الاحتكار" بما افضى الى موقف سلبي من مشروعه. ولم يكن هذا المشروع مبنيا على فراغ، بل استند الى الحاجة الموضوعية آنذاك لتجميع القوى وتجاوز آثار المحنة التي حلت بالعراق، فضلا عن تقديره الصائب لوجود امكانية للتقارب والسير مشتركا في هذا الطريق.

ويجدر ان اشير الى ان فكرة اللقاء القومي-اليساري الديمقراطي كانت موضع اهتمام ومتابعة من جانب مجموعة من الشخصيات السياسية والفكرية البارزة التي كانت تعمل كفريق واحد وتنشر دراسات مهمة وتصدر بيانات سياسية في تلك الفترة.

وفي بدايات ١٩٦٩، غادر عبداللطيف الشواف العراق مكدرا ومهموما حيث القي القبض على صديقه وعديله المرحوم زكي عبدالوهاب واعدام فيما بعد. قرر الشواف البقاء في الخارج واختار القاهرة للعيش فيها في بداية السبعينيات تعبيرا عن الحزن الكبير الذي اصابه واحتجاجا على الظلم. وكانت فترة مكوثه في القاهرة من الفترات المفيدة والمثمرة للغاية، حيث تيسر له متابعة البحث في قضايا العراق والعالم العربي مع كثير من الشخصيات العراقية والعربية التي كانت مقيمة آنذاك في مصر مثل الأخضر الابراهيمي (الذي كان يشغل آنذاك منصب سفير الجزائر لدى مصر) وشفيق ارشيدات (الامين العام السابق لاتحاد المحامين العرب) وابراهيم طوبال (الشخصية التونسية المعروفة) واديب الجادر واحمد الحبوبي ورشيد محسن.

كما اصبحت القاهرة محطة ثابتة للكثير من اصدقائه العراقيين في برامج سفراتهم للخارج، تطلعا للقائه والافادة من آرائه والاستمتاع باحاديثه. وقد تيسر لي ان ازوره في القاهرة عدة مرات واتداول معه في القضايا العامة. وكان يشعرني دوما بضرورة العمل وفق برنامج بعيد المدى، يقوم على المؤسسات والآليات الديمقراطية. وكان ينظر بحذر وتوجس لعودة البعث الى الحكم ولم يطمئن الى الادعاءات المعلنة آنذاك للقادة البعثيين. كما اطلعني على المشروع القيم الذي اعده بالتعاون مع الاستاذ

عبدالفتاح ابراهيم (حيث كانا يقيمان في شقة واحدة) لبرنامج ديمقراطي للحكم في العراق.

ولولا المرض الذي اقعده وشل قواه، لواصل الفقيد الشواف بجدارة وهمة عاليتين مشاريعه الفكرية والكتابية، ولاستطاع ان يضع مزيدا من الافكار والتقديرات السليمة والحكيمة لبناء العراق الديمقراطي.

لقد مات عبداللطيف الشواف مستسلما لقدره في صبيحة الخامس عشر من آب اغسطس ١٩٩٦ في القاهرة، واهيل التراب عليه في سويعات وكأنه على عجلة من امره ليضع حدا للجزع واليأس والهوان التي استبدت به وبمن حوله في السنوات الاخيرة من حياته.

أي زمن جائر هذا، الذي يعاقب فيه المخلصون لشعوبهم بهذه الدرجة من القسوة والجحود، ويتوارى في الموهوبين والمتفانين من اهل الفكر والمبادئ غارقين في لجج من القنوط والإحباط وخيبات الامل.



القسم الأول

عبد الكريم قاسم

عبد الكريم قاسم

الفصل الأول

مدخل

إذا ما كان يصح أن يُصارَ إلى القياس - في ميدان العلوم الاجتماعية والسياسة والتاريخ - قياس الأحداث والانعطافات والتحولات والظواهر المحلية والعالمية من كبرى وصغرى، وتشبيهها بالأعمال المسرحية الدرامية ليسهل على جمهور الناس فهمُها وتصوُّرُها، ومن ثم تعقب عناصرها المكتومة والمكشوفة - فإن من اللازم لذلك كله - فهم ومقارنة الحركة التاريخية الموصوفة والمقصودة بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي سار خلاله الحدث الدرامي (التغير التاريخي) ومعرفة أوصاف هذا الواقع وسماته الأساسية وخصائصه، سواء كان هذا القياس لاسباب فنية درامية روائية او كان سببه موضوعاً تاريخياً او سياسياً محضاً - اذ لا يمكن الاستغناء عن ذلك في اي توصيف للحدث التاريخي او تخيّل له لمعرفة خصائصه، أو القوى الخفية أو الظاهرة التي سَيّرته او سيطرت على صيرورته أو متطلبات فهمه بعد ذلك.

واذا كان لنا ان نتعرف على الانعطاف الذي مثلته ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقياسها على قواعد الدراما - فلا بد من وصف للأسس الاجتماعية للأحداث والقواعد والأوضاع الأولى للبيئة الفكرية والاجتماعية والسياسية التي جرت بموجبها وضمن أحداثها الثورة المذكورة، اذ من الضروري

لفهم احداثها وحبكتها ونتائجها وللتعرف على دوافعها ودخائل قادتها وشخصياتها الرئيسية. ان تجري دراسة وفهم خصائص البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية الوافية وخصائص الوضع العام ليلقي الضوء الكاشف على اسباب هذا التغيير الكبير ونتائجه وتطوره والمصير الذي آل إليه واسباب ذلك مما هو ضروري لفهم الدراما العراقية وما حدث لها من عواقب جسيمة، ولمسيرتها التاريخية وبالتالي لوضعها على الطريق الصحيح اذا كان ذلك مطلوباً أو مستهدفاً.

يتميَّز العراق وتاريخه وموقعه الجغرافي ـ السياسي، بخصائص فريدة كان لها أثر بالغ على تلوين الأحداث السياسية فيه مما أثر على تطوره اللاحق وعلى ما وقع في حدوده وعلى قرابة منه من احداث ووقائع واحوال لا تزال تؤثر فيه إلى الآن تأثيراً بالغاً وحاسماً وإن كانت هذه التغيرات ووتائرها واتجاهات تطورها وسرعة إيقاعها وتنفيذها، وحجمها قد لحقها التغيّر والتبدل أيضاً بحكم التغيير الذي طال كثيراً من الظروف المادية والمعنوية المتعلقة بالعراق والحياة فيه وفي منطقة الشرق الأوسط المتاخمة له، لا سيما المستجدات التي تفاقمت بتفاقم ظاهرة الاقتصاد النفطي خاصة، وتأثيرها على الحياة في العراق والمنطقة والعالم، وعلى الجغرافية السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً، وعلى الموارد المادية وتوزيعها ومستوى العيش وطبيعة السلطة كذلك. فالعراق أو سهول السواد الخصيبة غزيرة المياه يخترقها من الشمال إلى الجنوب نهرا دجلة والفرات وروافدهما المتقاطعة مع هذه الاتجاهات واحواض هذه الأنهر كلها علاوة على جانب من حوضي نهر كارون وشط العرب ـ تكمله وتحيط به الصحارى في بلاد العرب، في الجزيرة الشمالية والجنوبية وقبائلها البدوية المحتاجة دوماً ـ نتيجة فقر صحاريها القاحلة إلى الخام والطعام ـ كما يقول المثل البدوي في المنطقة نفسها ـ منذ أيام الساميين القدماء بل قبل ذلك!

أمّا بالنسبة إلى فارس والأناضول وكردستان في الشرق والشمال فالعراق يقع تحت تأثير مشارف جبال لورستان وأرارات وطوروس ومناطق عيلام وآشور وتأثيرات ساكني هذه المناطق الجبلية الأشداء المحاربين،

والمفتقرين دوماً إلى خيرات السواد وسهوله ونعمه وغلاله الزراعية والحيوانية وخصب اراضيه. أما في الغرب فيقع العراق إلى الشرق من البادية الكبيرة المسماة ببادية الشام ـ والتي كان يتعذر قطعها الا بمحاذاة وادي الفرات او بمعجزة عبور الصحراء سجلها التاريخ كأعجوبة للفاتحين من أمثال خالد بن الوليد حينما اجتاز البادية من العراق تنفيذاً لأمر الخليفة الإمام عمر بن الخطاب وذلك لنجدة القائد أبي عبيدة حينما سيّره لفتح بلاد الشام.

أما في الجنوب فهناك صحاري جزيرة العرب التي تفصل سواد العراق عن صحاري نجد والنفود والدهناء. لقد أدى هذا الوضع الجغرافي ـ الطبيعي ـ للعراق الى أطماع دائمة في الاقليم العراقي وخيراته الطبيعية منذ بدأ التاريخ من قبل الشعوب المجاورة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وإن نظرة سريعة الى بلاد ما بين النهرين منذ عهود الساميين القدماء، فاليونان والرومان والساسانيين من الفرس ثم العرب والسلاجقة والتتر والمغول بعد ذلك ـ يمكن ان ترسم مقطعاً أخاذاً لتطور بلاد ما بين النهرين وعلاقتها مع الشعوب المجاورة الراغبة بالتامر او الفتح في السيطرة على سهول العراق وخيراتها ومواردها وفي الهيمنة عليها، وقد تأكد هذا الوضع وتثبتت وتأكدت خصائصه بعد الفتح العربي للعراق وانهيار الدولة الساسانية على يد العرب، حتى ان النضال ضد سيادة العنصر العربي مما كان يسمى بظاهرة (الشعوبية) إنما بدأ وأصبح محوراً للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في العراق ـ بل بلدان المنطقة الاسلامية الأخرى ـ حينما أخذ الطابع المذهبي الطائفي ـ بفعل ما كان للمعتقدات الدينية من تأثيرات حاسمة على الأوضاع السياسية في تلك الأزمان ـ اذ دخلت الطائفية المذهبية كعنصر متفاعل مع مختلف عناصر المجتمع ومتوازنة مع قوى التاريخ والجغرافية والاقتصاد والسياسة لتكوين ما يسمى (بالمجتمع العراقي)، ولم تكن سبباً منعزلاً يمكن الانفراد به ومعالجة آثاره والقضاء على تأثيراته في المجتمع.

وما ان حل العصر الثاني ـ في العصور الوسطى الأوروبية ـ حتى

انتقل الصراع الطائفي الى القوميتين الاسلاميتين اللتين سادتا الساحة الاسلامية السياسية، الأتراك والفرس، وكان العراق من ميادين الصراع الرئيسية لهما وكان صراعاً دنيوياً في غالب الأحيان حتى اعتبر الهاجس الطامعي في العراق امتداداً لنفوذ كل من العنصرين التركي والفارسي في الدولة الإسلامية والثقافة الإسلامية ومظهر من مظاهر هوية كل منهما ومدى نفوذه الديني والإقليمي ـ لا سيما بعد أن تضاءل دور العنصر العراقي الأصيل ومصالحه أمام هذه العناصر المتغلبة والمتسربة من وراء الحدود، بالإضافة الى تأثير انهيار طرق المواصلات والري والغزوات في مناطق كثيرة من العراق، بحيث أصبحت أراضٍ زراعية واسعة من نوع البطائح والمستنقعات تغمرها مياه الفيضانات في وسط العراق وجنوبه مما أدى الى تراجع الحياة المدنية وتبدد التراكمات الحضارية لدى غالبية المواطنين من سكانه، حتى ليمكن القول عن ساكني هذه المناطق (المستنقعات) أنهم أصبحوا يكونون ـ اجتماعياً ـ شعباً متميزاً ومتأخراً من حيث درجة التطور المدني ـ يختلف عن سكنة المدن القديمة في بغداد والبصرة والموصل والحلة والمراقد المقدسة في كربلاء والنجف.

إن هذه الأوضاع قد أثرت في العراق تأثيراً وخلقت تعدداً دينياً وطائفياً وعرقياً وطبقياً وتاريخياً مما أدّى إلى صراعات في داخل العراق وخارجه، وانعكاسات لهذا الصراع على التطور التاريخي للعراقيين كشعب موحد ولأوضاع العراق عامة وعلى ركائز هذا التطور التعددي وطبيعته ونوعه وأساليبه، وما انطوى عليه هذا التمايز من اختلاف في درجة التحضر والعلاقات الاجتماعية وتراجع التمسك بالقيم الاجتماعية وقيم الدين الاسلامي والمجتمع المدني بحيث أصبح التمايز الاجتماعي في العراق يبدو وكأنه تمايز بين شعوب متعددة مختلفة يطلق عليها تجاوزاً اسم موحد هو الشعب العراقي.

وكان معنى ذلك في واقع الأمر ـ أن صراعاً دائماً ـ يأخذ صيغاً مختلفة ويتلون بتلون الأوضاع السياسية وألوان المتصارعين كان السمة البارزة المميزة لأوضاع العراق. وقد روى لي أحد الأصدقاء من العارفين

الدقيقي الملاحظة أن القبائل العربية المنقسمة في جنوب العراق بين حزبي الاتحاد الدستوري برئاسة المرحوم نوري السعيد وحزب الأمة الاشتراكي برئاسة المرحوم صالح جبر في العهد الملكي قد لحقها نفس الانقسام بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ولكن بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب القومية فكان الموضوع والمقصود أولاً هو التمايز والصراع تحت أي اسم وشعار مهما كان ـ بحيث ان العنصر العراقي الأصيل الموحد ـ قد تراجع بفضل هذه الخصائص منذ بدء المرحلة الثالثة في العصور الوسطى وأصبح الانقسام الطائفي ـ محور السياسة العراقية والمجتمع العراقي ـ ديناً له أيديولوجيته وطقوسه وقيمه الاجتماعية الطبقية الكلية المطلقة المسيطرة في المجتمع.

إن الصراع العثماني ـ الفارسي الذي أخذ أبعاده الطائفية الدينية الواضحة كمحرك للتاريخ، والذي استمر حتى دخول العصر الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ـ أدى إلى انقسام في الرأي العام العراقي، عند بزوغ العراق كدولة مستقلة، وقام العراق كدولة مكونة من عنصري الشيعة والسنة طائفياً علاوة على التمايز العرقي الكردي ـ العربي والتمايز الطبقي الاجتماعي نتيجة القبائل والتجمعات والاتحادات العشائرية التي تتميز بالتضاد والاقتتال الدائم وتقاليد الغزو والاستلاب البدوي، فوق التمايز الأساسي بين سكان المدن بمستوى حياة القرون الوسطى وسكان البطائح والاهوار الذين عادوا إلى حياة القرون الأولى الحجرية، علاوة على أن سكان المدن أنفسهم انقسموا وتمايزوا بين القاطنين أصلاً في مدن ريفية جنوبي دجلة والفرات أو الساكنين في المدن والمراكز الحضارية القديمة في شمالي الرافدين ممن ورثوا حياة فكرية واجتماعية ودينية وعملوا في المهن والخدمات الدينية والحكومية وتميزوا عن نظرائهم في مدن الجنوب من حيث المهن والطموح والقيم وأساليب الحياة.

لذلك فعندما تأسست الدولة العراقية في أوائل القرن العشرين، ورثت عن العثمانيين شعباً مقسماً عرقياً ودينياً وطبقياً ومذهبياً وثقافياً وجهوياً وطريقة حياة، ودرجة رقي أو تمدن وصلة ما لحياة الحضارة، كما ورثت ـ تقاليد وأساليب ونتائج صراع تاريخي قديم كان يستهدف في جوهره

الاستيلاء والهيمنة على النفوذ والثروة والتحكم بإقليم العراق وثروته وسعي تحت ذرائع وحجج مختلفة ـ هذه التقاليد التي كانت أقرب تاريخياً وأشبه بتقاليد المتسلطين من المماليك وقبائل العصور الوسطى، مما جعل تقاليد السلطة في العراق، بعد الاستقلال أقرب إلى هذه التقاليد المملوكية الشرقية وممارساتها المستمدة كقاعدة سياسية للحكم الحديث في العراق منها الى الأساليب الإسلامية.

وتجدر الإشارة ان قبل ذلك كان المفهوم المتخلف عن العصور الوسطى والعصر العثماني وما قبله للسلطة والحكم في العراق هو الاستيلاء على السلطة لكسب المال والنفوذ والهيمنة فحسب، أما الاهتمام بالشعب والمصالح والأمور العامة فقد واجهه الناس هنا في بداية عهد الاستقلال وتغلغل القيم السياسية الأوروبية الجديدة حول الدول وآلياتها ومهامها وأهدافها مواجهة كاملة بفعل قوة تأثير الحياة الأوروبية ـ مما أدى إلى صراع مرير قديم وجديد انتهى بتركيبه وتعقيده بعد عشرات السنين ـ إلى ثورة تموز سنة ١٩٥٨ التي ورث مجتمعها وقواها بالفعل كل العلاقات السياسية وخصائص المجتمع العراقي السلبية المنسوبة والمتعلقة بالتاريخ ما قبل الفتح الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي وتاريخ العهد العثماني الأقرب زماناً إلى الشعب العراقي المعاصر.

ولذلك فإن ثورة تموز سنة ١٩٥٨، وقد أعلنت متأثرة بمطالب وتوجهات إصلاحية تبلورت بشعارات إصلاحية قريبة من الماركسية الشيوعية التي انتصرت فيما وراء حدودها الشمالية بالقفقاس بعد أن كانت قد أوقفت الفاشية والنازية الألمانية وقضت عليهما من جهة في الحرب العالمية الثانية، وعكست كذلك تنافساً بين الدول المستعمرة القديمة إنكلترا وفرنسا وبين الولايات المتحدة (سياسة الباب المفتوح) ذات الاقتصاد الرأسمالي المتوسع الجديد كما عكست تصاعد الحركة القومية العربية والمد القومي التي حمل لواءها عبد الناصر ودعا اليها من جهة ثانية كما عكست حركة شعبية ديمقراطية قامت في العراق نتيجة تطوره العرقي والاجتماعي بعد المشروطية التركية عام ١٩٠٨ بل قبل ذلك منذ عهد الوالي التركي

المملوكي داوود باشا، عبر الاتصال بالغرب والشعارات التي كان ينادي بها الرأي العام العراقي آنذاك والتي تتلخص باستقلال العراق بدولة عربية إسلامية تكون جزء من أمة عربية إسلامية أكبر، تُعين كل العرب والمسلمين ولها حماية العالم العربي والإسلامي ـ تقضي على الطائفية والتمييز العرقي والديني وتنادي بحقوق المرأة والفقراء، والفلاحين، وتتشكك بالمستعمرين من الغربيين سواء منهم الانكليز أو الفرنسيين أو الألمان، وتحرر ثروات العراق واقتصاده من المستعمرين سواء كان اقتصاداً زراعياً أو نفطياً وبناء صناعة واقتصاد مبني على اساس الاكتفاء الذاتي يستند إلى حكم دستوري ومجلس منتخب من أبناء الشعب في انتخابات حرة نزيهة وغيرها من الشعارات التي تبنتها حركة الضباط الأحرار والتي قدر لها أن تهيئ من ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ المسرح للدراما العراقية الاصلاحية الثورية الجديدة بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم ـ من جهة أخرى.

الفصل الثاني

عبد الكريم قاسم والحركة الوطنية

كان المرحوم الزعيم عبد الكريم قاسم ومعه قادة وضباط ثورة تموز سنة ١٩٥٨ المسمون (بالضباط الأحرار) متأثرين جداً بشعارات الحركة الوطنية في العراق، التي تبلورت عبر التاريخ الحديث للكيان العراقي إثر اتصال العراق بالسوق الاقتصادية العالمية حيث كانت سياسات المسألة الشرقية والرجل المريض تخطط للدولة العثمانية وللعراق من بين أقطارها من قبل الدول الأوروبية التي تقود هذه الخطط والسياسات، وكانت مقاومة تلك السياسات تتبلور تدريجياً نتيجة الفهم السياسي الذي يدور حول محور ديني شعبي في البدء تعكسها الأحزاب والتجمعات والقوى الاجتماعية والدينية والوطنية وتظهر بكل جلاء ـ في أدبيات هذه القوى وشخصياتها وفي قصائد شعرائها وصحفها واراء مثقفيها ودعاتها ووجهائها وما كان يدور في المجالس والمقاهي والمدارس والمنتديات ودوائر المثقفين من

الطبقة الوسطى والشعبية وهي شعارات أخذت طابعاً معادياً للاستعمار ومواكباً ـ كما قلنا ـ لدعوات الحركة الشيوعية العالمية من جهة، والحركة القومية العربية بطابعها الناصري الذي سادت مفاهيمه في الخمسينات على أثر ما أثاره (حلف بغداد) مع الدول الاستعمارية من اضطراب وتفكك في مجتمعات الطبقة العليا المسيطرة آنئذ.

لقد كان ضباط الجيش العراقي الثوريون ـ بتأثير ووازع من الرأي العام العراقي الذي أججته الأحزاب المتعددة الرسمية وغيرها بعد سنة ١٩٤٦ ـ يتخذون لهم شعارات مستمدة من تاريخ الحركة الوطنية ـ الدينية والقومية العربية والعراقية ويتبنون ما تدعو اليه، سواء في التنظيم السياسي او الاقتصادي او الثقافي، وقد كانت هذه الشعارات قد أصبحت في نظرهم لها طابع ملزم ومقدس، حتى إن البيان الأول[1] لثورة تموز سنة ١٩٥٨

---

(١) البيان الأول الذي أذيع من دار الإذاعة العراقية صبيحة يوم ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وأعلن ـ لأول مرة ـ قيام الجمهورية العراقية، نص على ما يلي:

البيان الأول الصادر من القائد العام للقوات المسلحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب العراقي الكريم:

بعد الاتكال على الله ومؤازرة المخلصين من أبناء الشعب والقوات الوطنية المسلحة أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصبها الاستعمار لحكم الشعب والتلاعب بمقدراته لمصلحتهم وفي سبيل المنافع الشخصيه.

أيها الأخوان

إن الجيش هو منكم وإليكم وقد قام بما تريدون وأزال الطبقة الباغية التي استهترت بحقوق الشعب، فما عليكم إلا أن تؤازروه، واعلموا بأن الظفر لا يتم إلا بترصينه والمحافظة عليه من مؤامرات الاستعمار وأذنابه.

وعليه فإننا نتوجه إليكم بندائنا للقيام بإخبار السلطات عن كل مفسد أو خائن لاستئصاله، ونطلب منكم أن تكونوا يداً واحدة للقضاء على هؤلاء والتخلص من شرهم. =

= أيها المواطنون

إننا في الوقت الذي نكبر فيكم الروح الوطنية الوثابة والأعمال المجيدة ندعوكم إلى الخلود والسكينة، وإلى التمسك بالنظام والاتحاد والتعاون على العمل الحر في سبيل مصلحة الوطن.

أيها الشعب ـ لقد أقسمنا أن نبذل دماءنا وكل عزيز علينا في سبيلكم فكونوا على ثقة بأننا سنواصل العمل من أجلكم وإن الحكم يجب أن يعهد إلى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه وهذا لا يتم إلا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة وترتبط برباط الأخوة مع الدول العربية والإسلامية وتعمل بمبادئ الأمم المتحدة، وتلتزم بالعهود والمواثيق وفق مصلحة الوطن ومقررات مؤتمر باندونغ، وعليه فإن هذه الحكومة الوطنية تسمى منذ الآن (بالجمهورية العراقية) وتلبية لرغبة الشعب عهدنا برئاستها بصورة وقتية إلى مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ريثما يتم استفتاء الشعب لانتخاب الرئيس، والله نسأل أن يوفقنا في أعمالنا لخدمة وطننا العزيز إنه سميع مجيب.

بغداد في اليوم السادس والعشرين من شهر ذي الحجة الموافق لليوم الرابع عشر من شهر تموز سنة ١٩٥٨ الميلادية.

القائد العام للقوات
المسلحة الوطنية
توقيع
عبد الكريم قاسم

لقد بلور الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وعلى رأسهم المرحومين عبد الكريم وعبدالسلام عارف المبادئ التي اتفقوا عليها من شعارات الحركة الوطنية والمطالب الشعبية التي تعهدوا بتنفيذها وأذاعوها في البيان المذكور، ويبدو أنهما قد اتفقا على إعداد نص البيان المذكور بعد اتفاقهما على تنفيذها كأهداف للثورة وقاما بإعداد ومراجعة البيان ـ لذلك فقد كان المرحوم عبد الكريم وبعد ذلك المرحوم عبد السلام بعد استيلائهما على السلطة يكرران الاستشهاد بالبيان الأول والرجوع إليه كدليل يثبت الوقائع والأهداف التي اتفق عليها الضباط الأحرار وعندما تفاقم الخلاف بين عبد الكريم وعبد السلام كانا يكرران الاستشهاد بالبيان الأول كسند لكل منهما يؤيد حجته في النقاط الخلافية اعتباراً من تشكيل مجلس قيادة الثورة، أو موضوع الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة أو القضية السياسية والانسحاب وتسليم الحكم للجهات السياسية =

الذي أعلن من إذاعة بغداد صبيحة ذلك اليوم ـ قد أصبح البوصلة والحكم الذي يحكم على ثورة تموز وتصرفات قادتها وفي حقيقة التمسك بتلك الشعارات، وقد كان لتعيين واضع هذا البيان ومعظم محتوياته أثر كبير في الحكم على أخلاقية كل من قادة الضباط المنفذين للثورة وقادتها، وكان مدى التزامهم في سياساتهم بهذه الشعارات يعتبر مقياساً على مصداقيتهم والتزامهم الشخصي والأخلاقي والسياسي، حتى ليقال أن حواراً حول نفس الموضوع وبنفس الذهنية دار بين المرحومين قاسم وعارف قبل إطلاق الرصاص على عبد الكريم قاسم يوم قتله في ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ في دار الاذاعة مما يعتبر دليلاً على أهمية ما ورد في البيان الأول من شعارات الحركة الوطنية فيه لمدى صدق ضباط تموز سنة ١٩٥٨.

إن الهاجس الأساسي لعبد الكريم قاسم وسياسته وموقعه الشخصي على رأس السلطة في العراق إنما كان تنفيذ شعارات الحركة الوطنية العراقية، لذلك يمكن تشبيه هذه الشعارات بالحدث الدرامي الأساسي في دراما ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وإذا ما كانت هناك ثمة خلافات حول هذه الشعارات فهي خلافات أثيرت حول التفسير والتوقيت مما كان للجهات السياسية اليسارية واليمينية أثر فيها. ولم تكن الخلافات قائمة بين الضباط الأحرار، حين صمموا ـ بمفهومهم العفوي البسيط المخلص ـ آفاق ومستجدات الوضع السياسي والإداري الذي سينجم بعد الإطاحة بالعهد الملكي. وقد يكون لما دار بين المرحومين عبد الكريم قاسم وعبد السلام محمد عارف من خلاف شخصي حول السلطة وموقف المرحوم الرئيس عبد الناصر من هذا الخلاف أثره الحاسم في تفاقم هذه الخلافات وانتقالها من موقع ثانوي إلى موقع أساسي في سياسات ضباط الثورة وحكومة قاسم وتاريخ العراق المعاصر والتي انتهت بشكل دموي مدمر في الأخير.

= أو قضية الحقوق الكردية، وغير ذلك حتى ليقال إن عتاباً مريراً حول وقائع البيان الأول، وكيفية إعداده، والجهة التي أعدته كان قد أثير بشكل مأساوي قبل مقتل عبد الكريم في دار الإذاعة ببغداد بعد ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣.

الفصل الثالث

تأثيرات شعارات الحركة الوطنية في شخصية عبد الكريم قاسم

لقد كان لسيطرة شعارات الحركة الوطنية العراقية ـ كما تطورت إليه هذه الشعارات في الخمسينيات من القرن العشرين في ضوء الواقع السياسي الداخلي والقومي والإقليمي والدولي وظروفه وتوازن قواه وسيطرته على مساحة عريضة من المنظور السياسي العراقي والعربي ومن العمل السياسي في العراق، لا سيما وأن العمل في تنظيم الضباط الأحرار العراقيين الممتلئين حماسة ونقداً للأوضاع العامة وتطلعاً للتغييرات الثورية إلى الأحسن والمفتقرين ـ مع ذلك ـ وبشكل حاسم إلى التبصر والحكمة، والحنكة السياسية وانتظار التدرج السياسي وحسن الموائمة والاهتمام بآليات الوصول إلى تحقيق الشعارات وإلى ما يريدونه من التغيير، مع المحافظة على الوحدة الوطنية العراقية مما كان لا ينسجم مع طباعهم المفعمة بالعجلة ـ أثاره السياسية على خصائص ثورة ١٤ تموز كما يمثلها ضباطها بشكل عام أولاً، وفي التطورات التي آلت إليها الثورة نتيجة المزاج الشخصي لقائدها الرئيسي وشخصيته وتكوينه السياسي والثقافي ثانياً، مما أثر كبير الأثر على مصير أحداثها اليومية علاوة على أثره في رسم خصائصها الموضوعية ثم مصيرها بعد ذلك.

لقد اهتم المرحوم عبد الكريم قاسم وضباط تموز سنة ١٩٥٨ بمجموعهم بشعارات الحركة الوطنية ـ كما هدتهم إليها ثقافتهم وأيديولوجيتهم وأوضاعهم الطبقية وموقعهم في السلطة وكان عملهم في تحقيق هذه الشعارات والمطاليب وقيامهم بالنضال في سبيل تنفيذها وأسلوبهم الذي اختاروه لذلك مما ميز الثورة في العراق وصبغها بلونها الخاص المتسم بالتعجل والمغامرة والدموية اعتباراً من ساعتها الأولى حين قتلت العائلة المالكة في قصر الرحاب حتى انتهت الجمهورية الأولى في

قاعة الإذاعة عقب ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ حيث كان واضحاً إهمال الآليات والوسائل والأدوات والمؤسسات لتحقيق أهدافها مما كان يمثل ضرورة لا غنى عنها لنجاح الثورة وتحقيق أهدافها واستمراريتها. كتشكيل مجلس أعلى لقيادة الثورة من بين الضباط التموزيين في الأيام الأولى للثورة كإجراء مؤقت، تعقبه بفترة وجيزة مؤسسات ديمقراطية كاملة لضمان إصدار القرار الديمقراطي والرقابة على تنفيذه وتصريف ما يتخلف عنه من العوادم، ومعالجة آثاره الجانبية وعواقبه السلبية ـ كما وعد البيان الأول بذلك وكما فعلت أغلبية الثورات التي استلهمتها ثورة تموز ١٩٥٨ مثل الثورة المصرية (ثورة يوليو ١٩٥٢) المصرية التي اعتبرها الضباط التموزيون الرائد الحقيقي لثورتهم والنموذج لها، حيث اعتقد المرحوم قاسم باخلاص وعفوية وببساطة وسذاجة أيضاً، إمكانية تحقيق الشعارات الوطنية والاستجابة لمطاليب الشعب المستمرة منذ العهد العثماني في الحرية والمساواة والحكم الصالح المتوازن المستجيب لمطاليب الشعب ـ وذلك بمعزل عن إقامة ورعاية المؤسسات الديمقراطية الشعبية التي يمكن لها أن تتحقق وتفسح المجال لحرية الاختلاف والصحافة الحرة والأحزاب المتعددة من جهة، علاوة على تنفيذ شعارات الحركة الوطنية المجمع عليها من قبل الناس كالاستقلال السياسي والاقتصادي وتقدم جماهير المواطنين من جهة أخرى، ولم يشأ أن يتنبه إلى أن ذلك يصطدم بمصالح ومطامع وأوضاع معقدة وأن تنفيذها يحتاج الى تخطيط ومؤسسات سبق لدول أخرى ومجتمعات أخرى أن توصلت إليها بعد مرورها بتجارب وسوابق كان البعض منها قاسيا ودمويا وجاء بعواقب سلبية على الثورة نفسها. وكانت نتيجة ذلك ان انتهت ايام عبد الكريم قاسم بقتله بيد زملائه من الضباط الأحرار بدون أن يكون عنده مجلس قيادة ثورة أو حتى مجلس وزراء يتمتع بالمسؤولية الجدية في مسائل الحكم التي كانت تنعقد باستمرار بمتابعة البحث في أمور السياسة الملتهبة وفي أمور الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي والإدارة اليومية.

أما الأثر الثاني لسيطرة شعارات الحركة الوطنية التقليدية في العراق

على ثورة تموز سنة ١٩٥٨ وقادتها فهو أثر شخصي ـ **أشرنا إليه سابقاً** ـ وقد تجلى باهتمام الزعيم عبد الكريم قاسم وتقييم نزوعه وآماله وطبيعة أفكاره وأعماله بمدى تمسكه بتلك الشعارات والمسافة التي تقربه إلى تحقيقها أكثر من اهتمامه بكثير من المقولات الأخرى الأقرب إلى البيئة العراقية التي درج المرحوم قاسم على النشوء فيها والتطور ضمن اجوائها، لا بل ان تمسُّك قاسم بشعارات الحركة الوطنية العراقية قد حجب أهمية العناصر الأخرى الهامة بالنسبة لعراقي من أصول زراعية قبلية مثل عبد الكريم قاسم؛ **اذ تراجعت أهمية العشيرة والقبيلة والعرق القومي والمذهب والمنطقة الجهوية، مما ينتمي إليه ويرتبط به المرحوم عبد الكريم قاسم كلية**، أمام وقائع حركة شعارات الحركة الوطنية العراقية وتغلغلها في المجتمع وتحقيقها كلا أو بعضاً وهمومها ومشاكلها، **فلم يكن لأي من عناصر النسب والعشيرة والمذهب وجهة العيش والعرق القومي أي تأثير على قراراته السياسية التي كانت تستهدف تطوير المجتمع العراقي كله بالتساوي والإخاء بين تعددياته المختلفة**، بالرغم من أنه لم يكن ليلغي هذه العناصر من قاموس اهتماماته الشخصية، إذ كان كثيراً ما يردد إذا ما رغب أن يوصي بأحد خيراً أو يثير العطف عليه (أوصيكم بفلان خيراً لأنه من حمولة طيبة أو من عائلة قديمة).

كان عبد الكريم قاسم كثيراً ما يعبّر بصراحة عن اهتمامه وتقديره للقيم الشعبية البغدادية ونزوعه الى الاحتكام إليها في الحكم على الناس، والعلاقات بين الناس اذ كان كثيراً ما يردد (إن الله يحاسب المرء على جلسة واحدة فكيف بمعاملة الصديق الذي تستغرق جلساته السنوات الطوال)، وكثيراً ما يوصي بمعاملة الناس بالحسنى وعلى أساس الوفاء ورد الخير والمروءة في التعامل مع الأصدقاء وغيرهم من الناس وإني لأتذكر اهتمامه بمشايخ العشائر ـ ممَّن اصبحوا مستضعفين بعد صدور قانون الاصلاح الزراعي وحرمانهم من نفوذهم وملكيتهم، وما زلت أتذكر استقباله بكل احترام وتوقير وحثه المرافقين وغيرهم من الحضور على العناية بشيخ يرتدي الملابس التقليدية العراقية (العقال واليشماغ والعباءة)

وهو شيخ مسن ومتهدم صحياً ونفسياً حيث أجلسه على كرسي الى جانبه في البهو الذي كان يتخذ منه مجلساً للوزراء، وقد أخبرنا بعد رحيله حيث أوصله بنفسه إلى السيارة خارج بناية وزارة الدفاع ـ إن هذا الشيخ هو مزهر بن عجيل باشا السمرمد شيخ عشائر زبيد وأنه قد يحتاج إلى مساعدة بعد صدور قانون الاصلاح الزراعي وأنه يوصي به خيراً. ولكن على كل حال فقد تراجع الاهتمام ـ حتى لهذه الأسباب الإنسانية ـ لدى عبد الكريم قاسم بانتماءاته القبلية الزراعية. كما تراجع الاهتمام بهذا الموضوع من قبل مؤرخي حركة ثورة تموز أيضاً. وأنا شخصياً ـ لم أهتم بهذه النواحي الهامة من تاريخه ـ وإن كنت متأكداً من أنه لا ينتمي إلى جهات المتعصبين التي ينتسب ساكنوها إلى عصبيات عربية متشددة مثل جهات الفرات الأعلى أو جانب الكرخ من بغداد، بل كنت أعلم في البدء أنه من سكنة الجهات التي تتميز بالتواضع الاجتماعي العرقي والتذوب في الناس والنظر إليهم سواسية ما داموا من المسلمين. وهم من أهالي دجلة الوسطى من عشائر ربيعة أو زبيد والذين سكن من هاجر منهم إلى بغداد في محلات المهدية وقنبرعلي والخشالات حيث يختلط الناس أثناء معيشتهم واختلاطهم مع مختلف الأعراق والأديان والطوائف والعشائر وينصهرون معاً مكتسبين الهوية البغدادية العامة المميزة تاريخياً واجتماعياً وحضارياً ـ والتي تختلف من حيث المزاج النفسي الداخلي والنظرة إلى الناس عن نظرة الأعراب الساكنين في المناطق الأخرى والمتعصبين لانسابهم وأعراقهم وبلداتهم.

كان قاسم ـ يحسب طيلة حكمه في النظر إلى الأشخاص من مواطنين أو سياسيين، موالين أو معارضين ـ لموقف كل منهم من شعارات الحركة الوطنية، وليس من زاوية دينية أو مذهبية، أو جهوية، أو من زاوية العرق القومي او الطبقة الاجتماعية أو العشيرة أو النسب أو الجهة أو المنطقة بالرغم من أنه لم يكن ليجهل او يتجاهل الأحساب والأنساب والوضع العائلي والاجتماعي والسمعة العامة واهميتها في النظر إلى هؤلاء الأشخاص وأدوارهم، بل إنه لا يغفل او يتغافل حتى عن المنسوب في الأقاويل الشعبية من صفات إيجابية أو سلبية إلى شخص أو مجموعة

أشخاص يشتركون بوصف معين كانتسابهم لبلد او جهة معينة من سماتٍ واقاويل بعيدة او قريبة من الصدق والحقيقة. وإني لأذكر كمثال على ذلك ـ أني كنت قد عددت له أسماء جماعة ممن ينتسبون إلى اتجاهات سياسية مختلفة لتكوين مجلس إدارة شركة النفط الوطنية في أواخر سنة ١٩٦٢ ـ محدداً تشكيل المجلس المذكور تشكيلاً جبهوياً يجمع الاتجاهات السياسية ما دامت قضية النفط إنتاجاً وتسويقاً كانت في ذلك الوقت وفي ظل النزاع المحتدم مع الشركات الأجنبية آنئذ هي المسألة السياسية الأساسية التي تمثل عنوان النزاع مع بريطانيا، وما أن عددت أسماء (محمد حديد، وصديق شنشل وأديب الجادر)[1] وغيرهم ـ لأن عدد أعضاء المجلس كان

---

(1) **الاستاذ محمد حديد:** هو ابن الحاج حسين حديد من اكبر وجهاء الموصل وتجارها وأغنيائها العقاريين، وهو أقدم من سمعت بهم من تجار الموصل وأتقيائها من كبار السن من عائلتي الكرخية وقد سمعت أنه كان صديقاً لوالدي الذي توفي وهو قاض في الموصل في تشرين ١٩٣٠ وكنت في طفولتي المبكرة أسكن في دار موصلية مستأجرة من قبل المرحوم والدي وعائدة إليه، وكانت سمة التقية هنا مثار لغيرة وحسد زملائه من أبناء العوائل الأخرى الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه من السمعة والمكانة على الطريقة المتبعة لدينا في العراق.

يبدو أن الأستاذ محمد قد درس وتخرج من الثانوية في المدارس الرسمية في الموصل والتحق في الثلاثينات من القرن العشرين بكلية الاقتصاد في لندن. وكانت مركزاً لدراسات الاشتراكية الانكليزية الغالبة، وقد تأثر بالبرفسور لاسكي أستاذ الاقتصاد والمنظر لاشتراكية حزب العمال المناهضة للاستعمار آنذاك، المستندة إلى المبادئ الدستورية البريطانية الديمقراطية، علماً بأن الأستاذ محمد حديد حسب ما سمعت كان متصلاً قبل سفره إلى إنكلترا بالحركة المناهضة للاستعمار في العراق وفي الموصل على الخصوص والتي كان من المبشرين بها الأستاذ ذو النون أيوب والأستاذ عبد الحق فاضل وجماعة الأهالي وحسين الرحال، وبعد تخرج الأستاذ محمد حديد وعودته إلى العراق عمل موظفاً في وزارة المالية مع وزرائها المرحومين جعفر أبو التمن وإبراهيم كمال أيام المدفعي ـ وإبراهيم كمال من الموصل أيضاً ـ ثم اتصل بالأستاذ المرحوم كامل الجادرجي وجماعة الأهالي وعبد الفتاح ابراهيم وعاش مشاكلهم وخلافاتهم السياسية والنظرية إلى سنة ١٩٤٦ حيث دخل الوزارة لأول مرة وزيراً للتموين بعد أن كان قد تزوج من ابنة الحاج مصطفى =

= الصابونجي التاجر الكبير والوجيه المعروف وصديق المرحوم نوري السعيد.

وكان السائد أنه دخل ممثلاً للحزب الوطني الديمقراطي في الوزارة المذكورة لأنه كان يحتل المركز الثاني في إدارة الحزب المذكور بعد المرحوم الجادرجي على الرغم من كثرة المتصلين بالحزب الوطني الديمقراطي وتعدد مبررات الاهتمام بهم بالنسبة لتلك الأيام.

لقد ظل الأستاذ محمد حديد فيما بين ٤٦ ـ ١٩٤٨ في الحزب الوطني الديمقراطي في مركزه المرموق شعبياً ووطنياً وكان يبلور نشاطه الذي لا يكل أو ينقطع مسؤولاً عن بلورة الرأي الشعبي الوطني المعارض في مفاوضات النفط والعملة والصناعة والتطور الاقتصادي عامة، وقد كانت سمعته هذه ـ والمستمدة مما كان يكتبه في جريدة الأهالي من افتتاحيات حول المواضيع الاقتصادية سبباً أساسياً في اختياره لمنصب وزارة المالية من قبل الضباط الأحرار عند إعلان الجمهورية في إذاعة بغداد صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، وقد تولى الأستاذ محمد حديد هذا المنصب فعلاً ـ لثقة الضباط الأحرار بمختلف قياداتهم به، ولثقة الرأي العام العراقي والبغدادي به وبوطنيته وكفاءته وديمقراطية ومعالجته لمسائل السياسة الاقتصادية والعلاقات الوطنية، كما أنه كان قد ساهم في حركة تضامن الشعوب الآسيوية ـ الافريقية واشترك في مؤتمرها الذي انعقد بالقاهرة وقابل الرئيس عبد الناصر.

لقد كان إعلان إسم الأستاذ محمد حديد في وزارة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ صبيحة ذلك اليوم وقبل انضاح انتصار الثورة، مبعثاً للثقة ـ حقيقة ـ بثورة العراق في ذلك اليوم سواء في داخل العراق أو خارجه لا سيما في برنامجها الاقتصادي وفي اعتدالها وتمسكها بالمصالح الوطنية للشعب العراقي والمتطلبات الأساسية للاقتصاد الدولي في وجه ما بدا فيها في الأيام الأولى من العنف، وما نجم عن مقتل أفراد العائلة المالكة رجالاً ونساءً وقتل بعض الوزراء وبعض المتواجدين في فنادق بغداد صبيحة ذلك اليوم ومظاهر السحل والارهاب، من ضغوط على سمعة الثورة ومكانتها الاخلاقية والإنسانية، وقد بدا ـ مؤخراً ـ إن هذه الثقة بالأستاذ محمد حديد كانت في محلها إذ كان كسباً حقيقياً للثورة والثوار لاستقرار وضع العراق في الأيام المباشرة الأولى للثورة حيث كان سلوك محمد حديد في السلطتين التنفيذية والتشريعية لمجلس وزراء تموز ١٩٥٨ وتمسكه بالحياد الإيجابي وتحقيق المصالح الوطنية بالنسبة إلى متطلبات المعسكرين المتناقضين الذين كانا يقتسمان العالم آنذاك ـ المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي ـ وبالنسبة =

= لمختلف طبقات المواطنين من ملاك وفلاحين ورأسماليين وتجار كبار وتنظيمات اجتماعية ولتمسك الأستاذ محمد حديد بالحكم القانوني تمسكاً ثابتاً لا سيما في سياسته الاجتماعية التي كانت تمر في تحقيق الاتجاه الاشتراكي وتوزيع الثروة عن طريق ضريبة الشركات والدخل والجمارك وزيادة الموارد النفطية وليس بالإجراءات الاعتسافية التي قد تعيق حركة الإنتاج ولا تؤدي إلى الغرض المنشود.

ولقد كانت سمعة الأستاذ محمد حديد كإقتصادي وسياسي ورجل دولة، وكربُّ عمل ـ إذ أنشأ وأدار بشكل ناجح شركة استخراج الزيوت النباتية ـ كما أنه ساهم في كثير من فروع الصناعة الوطنية التي بدأت بواكيرها بالتفتح بعد توسع الاقتصاد العراقي بعد تعديل اتفاقيات النفط وزيادة الواردات بعد عام ١٩٥٢ ـ قد أعطت سنداً حقيقياً وثابتاً لدى أوساط رجال الأعمال والاقتصاد في داخل العراق وخارجه في أوائل العهد بثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ حيث كانت الثقة ضرورية لنجاح الثورة آنياً ونجاح سياساتها على المدى الطويل، لا سيما وأن الأستاذ محمد قد عمل الكثير وعكس التضحيات المادية والمعنوية في سبيل إسناد هذه السياسة التي كان يؤمن بها المواطنون والضباط الأحرار بتوجهاتهم المحلية وعبد الكريم قاسم أيضاً.

كان الأستاذ محمد حديد في موقعة هذا منطقياً بالنسبة لتكوين العراق التاريخي وتركيب اقتصاده ومجتمعه وعلاقاته الدولية والقومية والإقليمية، وإذا ما كان من الضروري أن ينسب إلى الأستاذ محمد حديد خطأ أودى بعبد الكريم قاسم وثورة تموز إلى المصير المأساوي المعروف فإن الخطأ لا يمكن أن ينسب كله أوجله إلى محمد حديد في سلوكه بمحاولة تصحيح بعض الأوضاع التي حدثت بعد الثورة بغية إنقاذها وهو ما قام به الأستاذ محمد وحزبه ورفقاؤه في الوزارة. بل إن الخطأ إنما يكمن في الانصراف إلى الركض وراء حركة عسكرية متعجلة تحفزها على مواقفها ردود الفعل والدعايات الغوغائية، بعيداً عن دراسات مفصلة للقوى الحقيقية التي تفعل فعلها المؤثر في أعماق المجتمع العراقي، أو التشجيع على تغيير تقوده الحركة العسكرية تشجيعياً متيناً على ما تسمح به ظروف حركة انقلابية عسكرية من اتفاقات ـ خارج الصف ـ ومعلومات كما ثبت ذلك فيما بعد من عدم التلاقي بين حركة الضباط الأحرار وقائدها وبين مسؤولي الحركة الوطنية تلاقياً كاملاً وتبادل الآراء والدراسات المستندة إلى علم الاجتماع والسياسة والتاريخ والاقتصاد، مما كان مسؤولية الحركة الوطنية الحزبية ـ لا سيما وأن تاريخ العراق زاخر في عصره الحديث بتجارب حركات عسكرية ـ كانت نتائجها وعواقبها سلبية بخلاف أهدافها الأولى ومدعيات القائمين بها وقادتها ـ لذلك فقد كان على جبهة =

= الاتحاد الوطني علم المغامرة بفتح الضوء الأخضر لتأيد حركة الجيش على بيضا ـ كما حدث ـ وهذا هو خطأ يمكن أن يعزى ـ لا إلى محمد حديد وحده بل إلى الحركة السياسية الوطنية جميعها، بالإضافة إلى أن الحزب الوطني الديمقراطي وقيادته والأستاذ محمد يتحملون مسؤولية إضافية ـ وقد تبين أنّهم يختلفون عن الخط الشيوعي والخط الناصري روحاً خطا التغيير الأساسي ـ في المنطقة آنذاك.

ومن الصعوبة على الحركة الثورية العراقية الفقيرة فكرياً وأيديولوجياً ـ تبني خط ثالث كان على قيادة الحزب الوطني أن تتبنى وتعمل على خط إصلاحي ـ غير ثوري أو دموي أو عسكري يمكن أن يتحملوا عواقبه، وربما كان هو خط إصلاح النظام الملكي بالضغط السياسي السلمي عليه بدلاً من مغامرة التأييد ودخول حركة الجيش التي هي في أحسن الأحوال مجهولة المصير ـ عندهم وقد تدخل عواقبها البلاد في متاهة التجهيل وعدم وضوح المصير وقد سبق لهم في زمن بكر صدقي أن دخلوا بظروف أبسط وبقوة ثمّ انتهت مشاركتهم في السلطة إلى فشل تام، خاصة أيضاً أن الظاهرة التاريخية المتمثلة في الانتقال الفوري بمجتمع معقّد التركيب جغرافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً والدخول به من مجتمع العشائرية والقبلية ـ فيما قبل الإقطاع إلى مجتمع صناعي اشتراكي في ظل وضع دولي وقومي ووطني تتقاسمه المصالح الاستثمارية والأيديولوجية ـ ليس بالأمر الممكن إذا لم تكن أيديولوجية الدولة أيديولوجية شمولية غير ديمقراطية مؤمنة بالتحكم والسيطرة الدكتاتورية سواء دكتاتورية البروليتاريا أو الحزب ولما لم تكن الدولة المستهدفة من قبل توجهات الحزب الوطني الديمقراطي ذات طبيعة ليبرالية حزبية تعددية، فإنّ أي تغيير ثوري إنما يمنح الشعارات المتطرفة والأكثر تطرفاً ـ المكان الأوسع والأقوى والأكثر قبولاً من لدن الجماهير المحرومة والمتطلعة إلى الحقد المقدس، وبذلك فإنّ الشعار المتطرف هو الذي يحدّد موقع السلطة ونوعها مما تعود عواقبه على الرأي العام والجيش والأحزاب معاً وتقود أمّا إلى حرب أهلية أو دكتاتورية من نوع ما في الأخير.

ولما كانت الظروف لا تسمح مقدماً ببحث مبدأ أساسي للحزب الوطني الديمقراطي وهو إقامة حكم ديمقراطي اشتراكي فأبى التدرج ـ مع حركة الضباط الأحرار، أو مع الأحزاب الأخرى، وذلك لبلورة هذا المفهوم وفرضه كأيديولوجية لجبهة الاتحاد الوطني وحركة الضباط الأحرار بل إنّ الجميع كانوا يدعون للتغيير وإزالة النظام الملكي القائم وليحدث بعد ذلك الطوفان، فإنّ التغيير الذي حدث صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ على هذه الشاكلة قد جعل الشارع السياسي في العراق عقب الثورة يعج بشعارات متباينة بتباين أيديولوجيات القوى المتنافسة والمتواجدة =

= على الساحة وكان للشعار المتطرف القدح الأعلى في التأييد الشعبي الجماهيري ـ حتى إنّ كثيراً من القوى المعتدلة المؤيدة للأستاذ محمد حديد كانت تلجأ إلى مقولات ماركسية وآراء المنظّرين الماركسيين إسناداً لتوجهاتهم التي كانت تعارض الشعارات الشيوعية الأكثر تطرفاً.

لذلك فقد كان أمام قوى الحزب الوطني الديمقراطي والأستاذ محمد حديد وقوى الوسط التي كان يمثّلها ـ قبل الثورة ـ خيار الاتفاق مع قوى الثورة مدنية وعسكرية على مفهوم محدد لعملية التغيير يؤدي إلى وصولهم إلى أهدافهم أو محاولة تبديل خططهم وإحداث التغيير من داخل النظام نفسه وذلك بتبني إصلاحات دستورية، وهو الطريق الذي لم يحاول الحزب الوطني الديمقراطي ولوجه وتطويره.

إن أي تغيير عنيف وثوري يكون سبباً لعنف وتطرف أكبر، وقد أدى مقتل الملك والوصي والعائلة المالكة وسحل الجثث إلى كشف الغطاء عن نوازع العنف (الصادقة وغير الصادقة) المكبوتة في المجتمع العراقي بحيث كان على قيادة السلطة والثورة ـ في جو التنازع والانقسام أن تداهن وتتملق هذه النوازع المتطرفة وأن تجد معها قواسم مشتركة تؤثر على مسيرة السلطة واستقرار الأمر في البلاد وإلّا اتهمت السلطة ـ على وطنيتها وثوريتها ـ بممالأة القوى المضادة والرجعية من قبل قادة المتطرفين الطامعين بالسلطة في اتجاه تصفية القوى المعتدلة والقضاء عليها. وقد حدث هذا في كل الثورات الكبيرة المعروفة في العصر الحديث، الثورة الفرنسية ثم السوفييتية، كما حدث مثله في سنتي ٥٨ و١٩٥٩ عقب ثورة العراق حيث حددت الشعارات المتطرفة وتطبيقها العنيف ـ لون الثورة ولون السلطة المطلوبة جماهيرياً في الشارع أمّا التعقل ومحاولة دراسة العوامل الداخلية والخارجية لأي حدث بما يوصل الى القرار الصائب، فكان يتهم بالرجعية والتآمر والثورة المضادة وغير ذلك من الاتهامات.

إن بقاء الأستاذ محمد حديد إلى جانب المرحوم عبد الكريم قاسم بعد استقالة وخروج وزراء جبهة الاتحاد الوطني في شباط ١٩٥٩ كان لمعالجة هذا الوضع بشكل سلبي من أطراف الجبهة الوطنية، ما عدا الأستاذ محمد حديد وزميله الأستاذ هديب الحاج حمود اللذين عالجا الوضع معالجة إيجابية بالوقوف إلى جانب عبد الكريم قاسم مما قدره قاسم تقديراً كبيراً فأصبح الأستاذ أبو هيثم المستشار السياسي الأساسي لسياسة عبد الكريم المتبعة منذ أواخر ١٩٥٨ والمصممة على أساس الوقوف أمام الشيوعية كتغيير عنيف للمجتمع وكذلك على =

= أساس كل ما يتصل بهذا الموقف في جامع السياسات الداخلية وحتى في حركة التغييرات الإدارية وتعيينات الموظفين التي كانت متفقة مع هذا التوجه أيضاً، على أن ذلك قد أدى - في السنة الثانية من الثورة وما بعدها إلى ازدواجية عملت على جذب عواقب سلبية جانبية أضعفت السلطة وقللت من مصداقيتها وأدت بالتالي إلى موقف جعل الجهات السياسية الأخرى تسأل عن آثاره السلبية المرحوم عبد الكريم والأستاذ محمد حديد فقط.

إن غالب قرارات المرحوم عبد الكريم قاسم في مسائل التشريع والتنفيذ والإدارة بإقامة المؤسسات أو تعيين واختيار مديريها كانت تمثل القاسم المشترك لخطوط متعددة ولاتجاهاتها المتنافية، وكان خط الأستاذ محمد حديد فيها ملحوظاً، أو على أقل تقدير كان سكوت الأستاذ محمد وعدم إبداء رأيه فيها من عوامل صدور قرار عبد الكريم أيضاً وإن كانت الخلافات بينهما حول السياسات الداخلية وغيرها قد نشأت وتفاقمت أخيراً وأخذت في بعض الأحيان طابع المناكفة الشخصية كتأخير منح الأستاذ محمد حديد جواز سفر إلى أوروبا، والملاحظات التي كان يبديها الأستاذ محمد حديد حول السياسات الحكومية كانت سلبية بوضوح.

صديق شنشل: هو الأستاذ المحامي صديق الحاج اسماعيل شنشل من عائلة تجارية عربية في الموصل شمالي العراق. وقد سكن والده في أواخر الثلاثينيات في الأعظمية ببغداد وأصبح خلال الجيل نفسه وبفضل تعاطفه مع الأعظميين ومساعدة شنشل لمن يحتاج إلى المساعدة منهم - أعظمياً حيث يعتبره الأعظميون من أبناء بلدتهم - على صعوبة ذلك بالنسبة للأعظميين، والمعروف عنهم شدة تمسكهم بانتسابهم إلى الأعظمية حتى إنهم ليبقون إلى أجيال عديدة يطلقون على من يعايشهم في الأعظمية (ابن الغريبة) كناية عن أصوله الأولى الغريبة عن الأعظمية ..

أكمل صديق دراساته الابتدائية والثانوية في الموصل ثم سافر إلى فرنسا لإكمال دراسته القانونية ودخل جامعة السوربون في باريس، وهناك اتصل بالحركة السياسية النشطة في عهد ألمانيا الهتلرية في باريس لا سيما الحركة الوطنية العربية في بلدان المغرب الأقصى، أبو رقيبة التونسي، ومصالي الحاج الجزائري وغيرهما اتصالات عاد بها إلى العراق. وفي عقب انهيار الوضع الدولي عشية الحرب العالمية الثانية، انضم إلى المعسكر القومي المناهض للاستعمار البريطاني وللغرب وساهم في ثورة المرحوم رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١م وصار مديراً عاماً للدعاية فيها مشهوراً =

= بخطبه الموجهة إلى الشارع العراقي ضد الإنكليز والجيش البريطاني، ولما فشلت ثورة الكيلاني ذهب إلى إيران — مع من ذهب من قادة الثورة المذكورة — حيث فقد وحيده الصغير غرقاً في حوض مما يبقيه الإيرانيون في دور سكناهم عادة، ثم بادر في بغداد في عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ بالاشتراك مع بعض الشبان القوميين بتأسيس حزب الاستقلال الذي أجيز عندما أجيزت الأحزاب في عهد وزارة توفيق السويدي عام ١٩٤٦ وكان لهذا التجمع القومي الحزبي دور كبير في المعارضة وفي الحياة السياسية آنذاك، وكان من أقطاب المفاوضين لتأسيس حزب (المؤتمر الوطني) الذي كان يضم حزبي الاستقلال والوطني الديمقراطي بمكانتهما الاجتماعية وشخصياتهما والذي اشتدت الدعوة له في الخمسينيات في بغداد أسوة بحزب المؤتمر الوطني في الهند الذي تولى السلطة فيها بقيادة الرئيس نهرو، وكان حزب المؤتمر في العراق يستهدف بناء تنظيم موحد للحركة الاشتراكية والحركة القومية تتلافى العواقب السلبية التي يمكن أن تتخلف عن انشقاق هذين الاتجاهين على الحياة السياسية في العراق — كما وقع فعلاً بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨.

لقد ساهم المرحوم صديق في التهيئة لإقامة جبهة الاتحاد الوطني سنة ١٩٥٨ التي كانت إطاراً سياسياً في المراحل الأولى للتحضير لثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ واندلاعها ولحكومتها بعد ذلك، وكان كما يبدو من المتصلين في حينه بالجماعات القومية من مدنيين وضباط الذين كانوا يعملون لتفجير ثورة ١٤ تموز ضد العهد الملكي استجابة لدعوة الرئيس عبد الناصر الذي قاد آنئذ حركة المعارضة لحلف بغداد الذي تمسك به الملكيون في العراق لتنظيم علاقات العراق بالعرب ومنطقة الشرق الأوسط في مشارف الحرب الباردة بين السوفييت وسكان المنطقة ودولها.

ولما حصلت ثورة تموز سنة ١٩٥٨ في بغداد كان اسمه بين أسماء وزرائها التي أعلنت في الإذاعة صبيحة الثورة في ١٤ تموز وبقي فيها إلى أن خرج مع باقي الوزراء القوميين في شباط سنة ١٩٥٩، وبقي منذ ذلك الحين يتصل بالمعارضة القومية لحكومة المرحوم عبد الكريم قاسم حتى حوادث ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ التي قتل فيها المرحوم قاسم وصار صديق شنشل قريباً لسلطة عارف وللتأثيرات القومية الناصرية فيها ولعب دوراً كبيراً وهاماً في معركة النفط بين ١٩٦٥ — ١٩٦٨ أثناء حكم عبد السلام عارف وأخيه عبد الرحمن بحكم صلته بوزير النفط الأستاذ عبد الستار علي الحسين وصداقته له، وكان وجوده ونشاطه مقنعاً للكثير من ضباط الجيش ووزراء السلطة بالحفاظ على جوهر القانون رقم ٨٠ سنة ٩٦١ وأهدافه ومنع إعادة الأراضي المنتزعة من براثن شركات النفط إليها أو إعادتها إلى شركات أخرى بمنح امتيازات أخرى، والاهتمام بإنشاء قطاع نفط وطني تكون الأراضي =

= المنتزعة بموجب القانون رقم ٨٠ قاعدة إنتاجية له، كما لعب دوراً بالغاً في تشريع قانون رقم ٩٧ سنة ١٩٦٦ الذي هدف إلى تحقيق هذه السياسة وفي التهيئة لقانون شركة النفط الوطنية التي تأسست بعد ذلك كما كتب في الصحافة ـ في تلك الأيام ـ معارضاً امتياز الكبريت الذي كثر الجدل حوله.

وقد أوقف الأستاذ صديق بعد مجيئ السلطة الجديدة (البعث) في ١٧ ـــ ٣٠ تموز سنة ١٩٦٨ ثم أفرج عنه، وعاش بعد ذلك يائساً في بيته بالأعظمية، منصرفاً إلى أموره العائلية بعد حياته الطويلة الحافلة بالنضال حتى إنه كان في أواخر أيامه يعتذر عن مقابلة زواره وتلاميذه ومريديه وأصدقائه بعدم استطاعته ترك فراش المرض ومجاملة الزوار. إلى أن توفاه الله في أواخر سنة ١٩٨٩ حيث لحقت به زوجته بعد وفاته.

كان الأستاذ (صدّيق) رحمه الله صديقاً مخلصاً ودوداً كريماً عزيز النفس عربياً أصيل السمات والصفات، وكان من الناحية السياسية شخصية ملتزماً باهدافها. لا يخلو من الدهاء والمناورة الضروريتين في العمل بالسياسة في مثل بلاد العراق حيث تختلط الأهداف المتناقضة، والأعراق والأديان والمذاهب والمصالح والأيديولوجيات المختلفة وذلك بحكم موقع العراق وخيراته وتاريخه منذ قديم الزمان إلى زمن الاقتصاد النفطي الدولي في الأخير، كما كان الأستاذ صديق شنشل شعبياً مؤمناً بنبض الشارع وأهميته في تقرير مصير القرارات السياسية، وكان عملياً يمكنه أن يعمل مع مختلف التيارات السياسية الدينية، والقومية، والاشتراكية، لأنه كان مؤمناً بأهدافه في سعادة الوطن وإيثاره لا بالشعارات وما تعكسه من خلافات حادة ودموية فحسب. وإني لأعتبره ـــ وقد عملت معه فيما بين ١٩٦٥ ـــ ١٩٦٨ في مسألة النفط ـــ من شخصيات العراق التي لو ساندتها الظروف السياسية لكان لها شأن عظيم في بناء عراق موحد سعيد.

أديب الجادر: هو أديب بن عزة الجادر من عائلة موصلية عريقة في المجتمع الموصلي، كان عمه نجيب من كبار تجار وملاكي وأغنياء الموصل والعراق منذ أواخر العهد العثماني، وكانت وفاة والد أديب في حياة جده سبباً في حرمان أديب من ميراث العائلة وأملاكها وفقاً للشرع الإسلامي. الأمر الذي أدى بالأستاذ أديب ـــ الذي تخرج من كلية الهندسة في أسطنبول بتركيا إلى الالتحاق مهندساً فمديراً مفوضاً لبعض الشركات الصناعية في الخمسينيات ـــ كشركة الغزل والنسيج العراقية في الكاظمية المسماة بمصنع (الوصي) لمساهمة الخزينة الخاصة فيها.

لقد انخرط الأستاذ أديب في الحياة السياسية التي سبقت ثورة ١٤ تموز سنة =

١٩٥٨ سياسياً قومياً معارضاً مؤمناً بالديمقراطية قريباً للاتجاه الناصري، وقد كون منذ ذلك التاريخ صلات جيدة مع مجموعة السياسيين القوميين اللبنانيين وبقي على هذه الحال حتى اندلاع ثورة ١٩٥٨ وزوال العهد الملكي، حيث عين في وزارة الاقتصاد ـــ ووزيرها الأستاذ ابراهيم كبه ـــ مديراً عاماً لشؤون النفط، ليشرف منذ ذلك العهد المبكر على شؤون العلاقات مع الشركات المنتجة للمادة الأولى في شرايين الاقتصاد العراقي.

ومن ذكرياتي عن الأستاذ أديب أنه سافر معي في أوائل سنة ١٩٥٩ من بين أعضاء الوفد العراقي المسافر إلى مصر برئاسة الأستاذ إبراهيم كبه لحضور المجلس الاقتصادي للجامعة العربية أيام الوزير الناصري القيسوني حيث حضر المرحوم رشيد كرامي عن لبنان وذلك بعد أن كنت تعرفت عليه في مكتب الوزير الأستاذ إبراهيم كبه وكنت أنا أعمل رئيساً للجنة تنظيم تجارة الحبوب. لقد كنت أنا والأستاذ أديب وآخرون من الوفد العراقي الذي كان يضم عدداً كبيراً من العراقيين هم المرحوم طالب جميل مدير الاقتصاد العام والدكتور جميل ثابت مدير الصناعة العام، والدكتور محمد سلمان حسن من وزارة التخطيط وأندراوس مراد الشيخ من مديرية الكمارك العامة، والدكتور طلعت الشيباني من اتحاد الصناعات، وغيرهم أعضاء في هذا الوفد الذي كان الاهتمام به خاتمة العلاقات الجيدة التي انبثقت بعد ثورة تموز ١٩٥٨ بين العراق وشقيقاته العربيات حيث خمدت هذه العلاقات ثم انقطعت إلى سنة ١٩٦٣ نتيجة الخلافات بين القوى السياسية وبين شعاري الوحدة والاتحاد الفدرالي التي نشبت وتفاقمت في العراق.

لقد كنت والأستاذ أديب أعضاء في لجنة المواصلات في الاجتماع نناقش موضوع إنشاء شركة عربية للملاحة البحرية وتضع وثائق عقدها ونظامها الأساسي، هذا إلى مواضيع أخرى ـــ وقد وجدت في الأخ أديب قومياً متمسكاً بمنطلقاته القومية الأيديولوجية، لحوحاً عجلاً في تعامله مع أعضاء الوفود الأخرى في ذلك، وبعد عودتنا إلى العراق استقال الأستاذ أديب بعد استفحال الخلاف منذ أوائل ١٩٥٩ بين القوميين واليساريين وعمل في معارضة حكم عبد الكريم قاسم إلى أن أصبح قريباً من السلطة بعد مقتل المرحوم عبد الكريم في سنة ١٩٦٣ ثم استوزر وزيراً للصناعة بعد تشرين ١٩٦٣ أي بعد خروج البعثيين من السلطة، وقد رأيت منه بادرة قل نظيرها في حياتنا السياسية حيث طلب مني عندما أصبح وزيراً للاقتصاد أن أكتب له تقريراً عن آرائي وتجاربي عن وزارة التجارة وأقسامها وإعادة النظر في أقسامها ومديرياتها بهدف إصلاحها، وقد كتبت له ذلك وأنا فرح، كما سأل عن الأستاذ إبراهيم كبه ليطلب رأيه كذلك وقد أجيب في حينه بأن الأستاذ =

ستة بموجب مشروع القانون ـ آنئذ ـ ولما سمع عبد الكريم رحمه الله بهذه الأسماء تبادر الى ذهنه ان كلهم من الموصل فقال باللّهجة البغدادية المحببة (يبدو أنهم جميعاً من المواصلة! أليس هناك غيرهم من مدن أخرى؟) منتبهاً رأساً إلى الحساسية عند البغداديين التي ينظرون بها إلى الموصليين وإلى التضامن فيما بينهم والتعاون المعروف بين عناصر الموصلين في الجيش مما لا تسمح به قواعد المساواة والمصلحة العامة بين العراقيين جميعاً. لقد كانت التمايزات الدينية والمذهبية والعرقية والجهوية أسلحة إيجابية قد يلجأ إليها المرحوم عبد الكريم ـ لفرض التوازن وتحقيق العدل والوصول إلى الهدف العام، وليس اسلحة سلبية تستعمل للهيمنة، ومنع بعض أصحاب الحقوق من الحصول على حقوقهم أو التمتع بها وتحقيق مكاسب شخصية لحساب جهة على حساب جهات أخرى، كما أنها ليست هدفاً بطبيعة الحال.

= إبراهيم في مصايف كردستان مع عائلته، وفي السنين الأخيرة من حكم عارف إنصرف الأخ أديب إلى العمل في المعركة النفطية بعد أن أصبح عضواً في اللجنة العليا للنفط التي شكلها الأستاذ ناجي طالب برئاسته، وقد استقلنا معاً أنا والأستاذ أديب من هذه اللجنة.

تعين الأستاذ أديب في عهد وزارة المرحوم طاهر يحيى رئيساً لشركة النفط الوطنية وعمل على تنفيذ مخططات وأهداف الجانب الوطني فيها. وفي عام ١٩٦٨ تم إيقافه بعد الثورة التي جاءت بالسلطة البعثية للحكم، والكثير من المهتمين بالأمور السياسية يعتقدون أن السبب في إنهاء توقيفه آنذاك ــ كانت علاقته بالقوى القومية في لبنان وبنفوذ عبد الناصر قبل موته، وفي عام ١٩٦٩ بعد إطلاق سراحه جاء إلى القاهرة وسكن فيها مع عائلته إلى أن انتقل إلى جنيف مديراً في منظمة (أونكتاد) للأمم المتحدة وذلك إلى أن تقاعد منها، وقد عمل قبل ذلك في دار الهندسة الاستشارية اللبنانية في بغداد وبيروت والجزائر في فترات تفرغه من أعماله الأخرى.

ويرأس الأستاذ أديب الآن المنظمة العربية لحقوق الانسان ويمارس عمله من جنيف أيضاً كما يعمل رئيساً للهيئة الاستشارية العراقية التي تمارس نشاطها من الخارج وهي هيئة علمية تقدم دراسات حول القضايا العراقية.

لقد كان عبد الكريم قاسم يكرر في أحاديثه دوماً أنه بمجرد تحقيق شعار (تأسيس الجمهورية العراقية واعلانها) قد حقق إنجازاً كافياً لإدخاله التاريخ، يضاف إلى ذلك الإصلاح الزراعي وحقوق النساء والانسحاب من الاسترليني ثم الاجراءات لاسترداد حقوق العراق في قطاع النفط تجاه الشركات الامتيازية وبناء قطاع نفطي وطني، وفي تطوير العلاقات السياسية والاقتصادية مع الاتحاد السوفييتي والصين والهند وإعلان حياد العراق الإيجابي في الصراع السياسي العالمي. وإن لم يبق إلا ما عبر عنه (برفع مستوى الفقراء العراقيين إلى مستوى الأغنياء العادل!)، وإقامة حكومة ديمقراطية مبنية على أحزاب تعبر عن الرأي العام العراقي ومجلساً وطنياً مبنياً على انتخابات حرة، وهو ما كان يدعو له في السنة الأخيرة من حكمه، وهيأ مشروعاً (مسودة) لقانون انتخاب النواب بواسطة لجنة في وزارة الداخلية وشكل لجنة وزارية لدراسته أسوة بقانون الجمعيات والأحزاب تشكلت قبل سنة ١٩٦٠، لا بل إن المرحوم عبد الكريم قاسم في مزاجه العراقي المحب لخير الجميع ـ كان يفرح بصدق إذا رأى السحاب يتجمع في السماء، لاحتمال سقوط المطر انتظاراً لموسم زراعي جيد، كما كان يفرح لسماع إقامة مشروع صناعي أو شركة خاصة، ويعتبر القائمين بذلك قائمين بواجب وعمل وطني يعادل تحمل المسؤولية السياسية، وطالما امتدح المرحوم عبد الكريم الأستاذ محمد حديد لاشتغاله في تأسيس مشروع صناعي بعد استقالته من الوزارة.

الفصل الرابع

ثورة ١٤ تموز وتأثيراتها الاجتماعية

لقد تراجعت مساحة الاهتمام بالعشائرية والقبلية والتمايز الديني والطائفي والمذهبي ـ وحتى العرقي والقومي طيلة العهد الذي أقامته ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وفي سني بدء الثورة أمام ما احتلته شعارات الحركة الوطنية العراقية في نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في منظور

الزعيم عبد الكريم قاسم وحكومته وفي منظور أنصاره ومن يلوذون به، وهم سلطة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ على الرغم من الاهتمام الشخصي من قبل قاسم بالموروثات والتقاليد الشعبية العراقية التي من مقوماتها الاهتمام بالتقسيم العشائري والتمايز الطائفي والديني واختلاف العرق القومي أيضاً، ولكن لم يكن أي متتبع لعبد الكريم قاسم أو وزرائه أو توجهاته في السلطة أن يلحظ الاهتمام بالقيم العشائرية أو الطائفية أو القومية كما حدث بعد مقتل المرحوم عبد الكريم قاسم بعد ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ حيث أخذ الناس في العراق وخارجه من المهتمين بثورة العراق والمتتبعين للسياسة فيه ـ يهتمون في المقام الأول ـ لمعرفة توجهات القرارات السياسية والإدارية ـ بالأصول العشائري والجهوي والطائفي لكل من الرؤساء عبد السلام محمد عارف وأحمد حسن البكر وأعوانهما وعلاقتها بالقرارات وبالآخرين من الأشخاص الذين كان لانتماءاتها العشائرية والقومية والمذهبية انه يتوازن مع مواقع عشائرهم أو انتمائهم الطائفي أو العرقي في السلطة أيضاً.

وفيما يتعلق بالمرحوم عبد الكريم قاسم ـ فإني على قدر قربي من موقع انطلاق التيارات الشعبية في بغداد والكرخ بالتحديد ـ لم أكن متأكداً وما زلت كذلك إلى الآن من حقيقة الانتماء العشائري له، وإن كنت أعتقد بوجود ما يربطه من الوشائج النسبية والعشائرية بقبائل زبيد وربيعة وغيرهما من قبائل دجلة الوسطى في محافظة واسط (الكوت)، كما إني لا أعرف انتماءه الطائفي (شيعياً أو سنياً) وقد قرأت أخيراً في الكتاب الجيد المليء مروءة والذي وضعه الأستاذ حسن العلوي بعنوان (عبد الكريم قاسم ـ رؤية بعد العشرين) إن أم المرحوم عبد الكريم واسمها الحاجة (كيفية) كانت شيعية وأن أباه كان سنياً، كما أن محل سكن عائلته وأهله في بغداد كان في منطقة قنبر علي والمهدية، وهي مجمع سكني قديم في الجانب الشرقي من بغداد سكنته أقوام مختلفة الدين والعرق والمذهب والقومية والأصل الجهوي إذ لم تكن محلات المهدية وقنبر علي محلات مغلقة مسكونة بمن يتعصبون لانتماء طبقي أو قومي أو ديني، ومذهبي معين، بل إني عرفت

عبد الكريم معجباً بقادة أكراد مثل (بكر صدقي العسكري)[١] باعتباره

(١) شارك في أوائل العهد الملكي بالقضاء على ثورة الآشوريين وثورات الجنوب في الثلاثينات ثم دبر أول انقلاب عسكري في العراق والمنطقة العربية في تشرين ١٩٣٦ حيث كان وكيلاً لرئيس أركان الجيش وقائداً لإحدى الفرق فضرب بغداد بقنابل احدى الطائرات التي أصابت بناية البريد مقابل الثانوية المركزية (قرب السراي الحكومية) طالباً إقالة وزارة ياسين الهاشمي وتعيين المرحوم حكمت سليمان رئيساً للوزراء بدلاً عنه. وكان ذلك حسبما أفصح في خطب له في البصرة وبغداد ــ منسجماً مع الجو الدولي الذي سيطرت عليه الفاشية والنازية ــ من إقامة دكتاتورية قومية في العراق.

لقد شكل المرحوم حكمت سليمان وزارته وحاز تأييد المعارضة من الاشتراكيين وجماعة الأهالي. وقد قتل وزير الدفاع المرحوم جعفر العسكري (صهر نوري السعيد) أثناء زحف فرقة بكر صدقي إلى بغداد، أثناء محاولة جعفر العسكري مناقشة الضباط الانقلابيين ومحاولة حملهم على عدم تنفيذ الانقلاب.

لقد كان لموقف ياسين الهاشمي من الثورة الفلسطينية ومن التوجهات القومية التي كانت سائدة في أيامه، ولقتل جعفر العسكري ولمناصرة جماعة الأهالي المعارضة وعلى رأسها جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي لانقلاب بكر ودخولهم وزارة حكمت أثر كبير في معارضة العناصر القومية للانقلاب ومنهم المرحوم طالب مشتاق وضياء يونس (سكرتير مجلس الوزراء أيام ياسين الهاشمي) وغيرهما الأمر الذي أدى إلى اضطهاد العناصر القومية وإحداث ضغط شديد على حكمت سليمان وبكر صدقي مما اضطرهما إلى تعديل الوزارة وإخراج العناصر اليسارية وإدخال عناصر معروفة باتجاهها القومي مثل علي محمود الشيخ علي، وصالح جبر وغيرهما في الوزارة. وابتدأ منذ ذلك الحين الخلاف العقائدي الذي شق الحركة الوطنية إلى يسار ويمين. فقتل المرحوم بكر صدقي في مطار الموصل ــ في طريقه إلى تركيا ومعه محمد علي جواد آمر القوة الجوية في عهده، مما أدى إلى استقالة حكمت سليمان وتشكيل وزارة جديدة هي وزارة جميل المدفعي التي كان شعارها (نسيان الماضي) في سنة ١٩٣٧، وقد اتهم المرحوم الملك غازي الأول بمناصرته المكتومة لانقلاب بكر صدقي، كان لقتل وزير الدفاع جعفر العسكري ــ أثر كبير في اضطراب الوضع السياسي في العراق ــ لأنه أدخل القتل لأول مرة كإحدى الممارسات السياسية المهمة في العمل السياسي، وكسب عداوة المرحوم نوري السعيد نصير جعفر وصهره ولأن جعفر كان يعتبر باني الجيش العراقي في حينه. =

ضابطاً وقائداً عسكرياً للعراق كله، وكان يحب ويحترم كلاً من خالد النقشبندي[1] وفؤاد عارف[2] حباً واحتراماً مما لا علاقة له بالسياسة أو

= كان المرحوم عبد الكريم يحترم بكر صدقي لأنه عسكري كبير نظرياً وعملياً ولأنه صديق ابن خالة عبد الكريم ـ محمد علي جواد ـ قائد قوته الجوية، وكان يذكره بالخير وبلقب (باشا) دوماً.

(١) خالد النقشبندي كان ضابطاً وصديقاً للضباط الأحرار ولا أدري إن كان يعتبر واحداً من إحدى مجموعاتهم ام مجرد صديق. في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ عين (عضواً في مجلس السيادة) وهو مجلس لرئاسة الدولة يقوم مقام رئيس الجمهورية ويتكون من رئيس هو اللواء نجيب الربيعي، وعضوين هما خالد النقشبندي ومحمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال. كان المرحوم خالد النقشبندي وزميله اللواء نجيب الربيعي ـ ومحمد مهدي كبه ـ الذي استقال وخرج من مجلس السيادة قبل أن أعين وزيراً ـ يحضرون اجتماعات مجلس الوزراء، ويساهمون بمناقشاته، وكان المرحوم خالد رصيناً مؤدباً وطنياً قليل المناقشة والكلام، ولم تكن له سمات أيديولوجية واضحة ما عدا موقفه الوطني في جميع الظروف، وقد توفي المرحوم خالد سنة ١٩٦١ مما اضطر المرحوم قاسم بعد أن فقدت أغلبية مجلس السيادة (اثنين من ثلاثة) لإعادة تشكيله من نجيب الربيعي رئيساً، وفؤاد عارف وعبد المجيد كمونة كعضوين.

(٢) فؤاد عارف هو ابن أخ المرحوم (نوري البرزنجي) أحد كبار موظفي وزارة المعارف في أوائل العهد الملكي وفي عهد المرحوم ساطع الحصري، وكان مدير المعارف في البصرة وكركوك، كما أنه ابن أخت المرحوم ماجد مصطفى من كبار الساسة الأكراد وكان متصرفاً ووزيراً في العهد الملكي أيضاً.

كان فؤاد ضابطاً في الجيش العراقي وقد تولّى موقع انضباط بغداد وعين مرافقاً للملك فيصل الثاني عند صغره، وكان صديقاً للمرحوم عبد الكريم قاسم ويبدو أنه من دورته في الكلية العسكرية، وقد تولى الوزارة في شباط ١٩٥٩ لأول مرة ثم تولى وزارات الإرشاد والزراعة وكالة في عهد المرحوم عبد الكريم وفي شباط ١٩٦٣ تولى الوزارة مع عبد السلام عارف، بعد أن كان قد اختلف مع عبد الكريم في السنة الأخيرة من حكمه حول موقف عبد الكريم من القضية الكردية. وقد بقي شخصية بارزة في أحداث القضية الكردية حتى مؤتمر الجزائر سنة ١٩٧٥ حيث اعتزل السياسة وعاد بعده إلى بغداد وفقد زوجته إبنة عمه السيد نوري البرزنجي، أما قبل ذلك فقد ساهم في إحداث الجبهة الوطنية وبيان آذار وقانون الحكم الذاتي =

الجيش أو العرق وكان المرحوم (محمد علي جواد)[1] ابن خالته الذي قتل مع بكر سنة ١٩٣٦ ممن يذكرهم قاسم بالخير والثّناء، والاحترام، والرأي السديد أيضاً، وكان ممن يحترمهم من الضباط ذوي الأصل القفقاسي من داغستان التابعة لروسيا الآن المرحوم غازي الداغستاني[2] وغيره،

= والحركات الكردية مع المرحوم الملا مصطفى التي انتهت بمؤتمر الجزائر بالاتفاق مع شاه ايران عام ١٩٧٥.

زاملت الأخ فؤاد في مجلس وزراء المرحوم قاسم، ثم في سفرة لأوروبا عام ١٩٦١ ثم عرفته صديقاً اجتمع به كثيراً فوجدته رجلاً حازماً صادقاً صريحاً عراقياً صحيحاً وقد حاول ـ بصدق ـ مع المرحوم أحمد حسن البكر وقبله مع عارف وقاسم أن يحول دون اندلاع الثورة في كردستان وأن يتفادى الاقتتال بين الجيش العراقي والأكراد فلم يوفق.

(١) محمد علي جواد ـ ابن خالة المرحوم عبد الكريم قاسم وأخ اللواء عبد الجبار جواد أحد قادة الفرق العراقية في أيامه، وهو صديق المرحوم بكر صدقي العسكري وآمر القوة الجوية في عهده ومعاونه العسكري الرئيسي وقد قتل معه في الموصل في الطريق إلى أوروبا عام ١٩٣٧.

كان محمد علي جواد من الملهمين لعبد الكريم قاسم، وقد يكون أعجاب المرحوم عبد الكريم بابن خالته محمد علي جواد واحتفاظه له بالاحترام والتبجيل أثر في سلوكه اللاحق لتنفيذ الثورة العسكرية التي تمخضت عن إزالة الحكم الملكي وأثر في تفضيله هذا الطريق ـ طريق الانقلاب العسكري لتحقيق شعارات الحركة الوطنية التي يبدو أن محمد علي جواد كان مؤمناً بها ساعياً إلى تحقيقها قبله.

لقد كان محمد علي جواد من الشخصيات المؤثرة على عبد الكريم في دخوله الكلية العسكرية وتبنيه شعارات الحركة الوطنية الواسعة وكان يذكره دوماً بالاحترام والتبجيل.

(٢) غازي الداغستاني ـ هو اللواء غازي بن محمد باشا الداغستاني الشهير في آخر العهد العثماني ببغداد بهيبته ووقاره وحسه الاسلامي.

كان اللواء غازي عسكرياً محترفاً وكان من اكثر العراقيين في العهد الملكي تمسكاً بالتربية العسكرية، وكان محترماً ومحبوباً بين زملائه الضباط من مختلف الطبقات والفئات في الجيش وقد قدم للمحاكمة أيام محكمة الشعب برئاسة =

باعتبارهم ضباط عراقيين أكفاء. ما داموا قد أقاموا في العراق وعملوا فيه وآمنوا بشعارات الحركة الوطنية العراقية، علاة على حبه لأصحابه الضباط القدماء من مؤسسي الجيش العراقي الأول مثل (عبد الرزّاق الحسين)[١] وغيره.

= المهداوي في بداية الأيام لثورة تموز ١٩٥٨ وقد مضت محاكمته بجدية ومنطقية واحترام، وقد توفي بعد أن أطلق سراحه في لندن وكانت جنازته في بغداد ـــ في الستينيات مثالاً لتجمع الناس من مختلف الطبقات ودليلاً على الإجماع لدى الشعب على حبه واحترامه.

(أنظر الحاشية المتعلقة بالداغستاني في حواشي شخصيات نافذة).

(١) هو المرحوم اللواء الركن عبد الرزاق بن حسين بن داود، كان أبوه حسين من موظفي الدولة القدامى في العراق، وهو ينتسب إلى عشائر «بيات» وهي تجمع قبلي كبير دخلته عناصر عربية وتركمانية وكردية استقر معظمها في منطقة شهرزور في شمالي شرقي العراق على خط مندلي ـ جلولاء ـ كركوك في مناطق الاصطدام القديم بين الإمبراطورية الفارسية في شرقي العراق والإمبراطورية العثمانية على حدود السواد العربي وشماله الشرقي.

كان المرحوم عبد الرزاق حسين بغدادياً من سكنة محلة الفضل ـ وهي محلة شعبية بغدادية معروفة بتقاليدها البغدادية القديمة وقد سكن اللواء عبد الرزاق في العصور الحديثة في دار بالكرّادة الشرقية، ثم انتقلوا إلى دارهم التي اشتروها في (أبي قلام).

تخرج المرحوم عبد الرزاق على عهد الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى ضابطاً بغدادياً من الكلية العسكرية في الاستانة، وكانت المدرسة ـ على رابية تقع على البسفور، وشارك بعد تخرجه منها ـ في حرب البلقان قبل الحرب العالمية الأولى وأسر في يوغوسلافيا كما شارك في الهجوم ضد جيش الثورة العربية بقيادة الشريف حسين ملك الحجاز ووقع أسيراً في العقبة ومشى سيراً على قدميه ٤٢ يوماً عبر خلالها سيناء متوجهاً إلى مصر وأطلق سراحه بعد وصوله فعاد إلى العراق حيث كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت فاشترك مع بقية الضباط العراقيين الذين كانوا في الجيش العثماني في بناء الجيش العراقي الجديد بعد الحكم الملكي العربي الفيصلي في بغداد وكان من زملائه في هذه المهمة كل من نظيف الشاوي وطه الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهم من رجالات العهد الملكي، وتولى آنئذ قيادة الفرقة الثانية والثالثة من أوائل الفرق التي تكونت في إطار الجيش =

على كل حال فاستطيع القول أني لم أر المرحوم عبد الكريم قاسم، ولم أسمع به قبل ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، وقد كان معروفاً لدي ولدى غيري من المتصلين بالحركة السياسية الوطنية ـ وقد كنت في حينها قريباً من أعضاء أساسيين في الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي وفي

= العراقي كما أنه أثناء الحرب العالمية الثانية (قائد قوات عسكرية) وحاكماً لمنطقة عسكرية عراقية، وكان قبل ذلك في سنة ١٩٢٧ قد دخل دورة ضباط في الهند. وسافر إلى إنكلترا حيث درس العلوم العسكرية في كمبرلي في بريطانيا وفي ساند هيرست المدرستين العسكريتين الشهيرتين هناك، وعاد وهو يعتبر من الضباط العسكريين الجيدين ومن آباء الجيش العراقي وألف كتاباً عسكرياً حول التدريبات الليلية وكتاباً آخر حول رشاش فيكرز باعتباره أخصائياً في الأسلحة الميكانيكية الخفيفة.

تقاعد المرحوم عبد الرزاق حسين عام ١٩٤٧ بعد خدمة في الجيش أكسبته سمعة علمية عسكرية ومكانة قيادية وتوفي عام ١٩٦٤ وكات علاقته بالمرحوم عبد الكريم جيدة حتى عام ١٩٦١ حيث تدهورت هذه العلاقة عبر اعتقال ابنه سعد، ولكن بقيت صلاته وطيدة بالزعيم الركن محي الدين عبد الحميد (وزير الصناعة) آنئذ وباقي الضباط الذين كان أغلبهم من تلامذته في الجيش العراقي أو من مريديه.

وعند وفاته سنة ١٩٦٤ ترك ابنه أرشد وهو الآن ضابط متقاعد وعلي وهو دكتور متخصص بالهندسة الكهربائية ويعيش الآن في موسكو، وسعد وهو دكتور في علم الاجتماع من جامعة لندن وسجل أستاذاً في جامعة الجزائر ويعيش الآن في لندن. أما نوري عبد الرزاق الذي كان منخرطاً في الحركة الوطنية ووجهاً معروفاً في حركة الشبيبة الديمقراطية العالمية في بغداد وبراغ بعد أن كان رئيساً لاتحاد الطلبة. وهو بعد أن عمل في السياسة في بغداد توجه إلى القاهرة عضواً في منظمة التضامن الأفرو ـ اسيوية بعد اختياره لذلك من اللجنة العراقية وهو الآن أمين عام المنظمة المذكورة مع الدكتور مراد غالب رئيس المنظمة بعد المرحوم الشاعر الكبير عبد الرحمن الشرقاوي. لقد اكتسب الأستاذ نوري عبد الرزاق خلال عمله في منظمة التضامن الأفرو ـ اسيوية، خبرة ثمينة بالتطور السياسي والاقتصادي لحركة استقلال دول أفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا وفي توجهات السلطات وحركات الاستقلال في كل من بلدانها مما يستحق تسجيلاً لما يكون معرفة تاريخية وسياسية لتطور هذه البلدان.

الحركة اليسارية ـ وجود خط للضباط الأحرار يعمل على القيام بثورة تنتفض على الحكم الملكي والطبقة الحاكمة بشكل سري ـ على غرار حركة الضباط الأحرار المصريين الذين قضوا في سنة ١٩٥٢ على النظام الملكي المصري، كما كان معروفاً إن الوحدة المصرية ـ السورية والاتحاد المواجه لها بين العراق والأردن ومحاولات توسيع حلف بغداد وإدخال سوريا ضمن الأحلاف الغربية.

قد أقامت الصلات بين حركة الضباط الأحرار العراقيين والثورة المصرية التي قد تكون أيدت حركة الضباط العراقيين بالمدد المعنوي والمادي التسليحي الخفيف، كما أن تكوين (جبهة الاتحاد الوطني) في العراق قد أقامت الإطار السياسي لحركة الضباط في العراق، على أن المدعين بمعرفة قاسم وانعقاد الصداقة معه قد كثروا بعد الثورة، كما أن المدعين بمعرفة صفاته وأخلاقه ونفسيته كثرت دعاويهم أيضاً ـ وكثير منهم ممن فاتهم قطارها حقيقة فأخذوا يكثرون القول عن شذوذ عبد الكريم قبل الثورة وانعزاله وغرابة بعض تصرفاته وبعض الحكايات عنه عندما كان ضابطاً صغيراً في البصرة أو الناصرية أو في فلسطين في (كفر قاسم) أو في جلولاء مما كانت في الغالب من باب الأقاويل والدعايات التي لا يمكن تصديقها والتي يمكن اعتبارها دليلاً على حذره الشديد وحيطته وكجزء من تخطيطه الناجح لثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، لصرف الانتباه عنها وعن قيادتها وتنظيماتها قبل أن تبدأ، وفي مراحل التحضير لها.

إن مما يميز قاسماً عن هذا كله تواضعه الشديد وحبه الابتعاد عن دائرة الضوء وصحافة الإثارة التي كانت تمتاز بها الصحافة العربية آنئذ. ولعل موقفه من هذه الصحافة عندما رفض تمويلها في أوائل عهد الثورة ـ ما يفصح عن مزاج قاسم ـ قبل التعقيد الذي أصاب نفسيته، وطموحاته بعد نزاعه مع عبد الناصر بل لعل هذا المزاج المتحفظ هو الذي أدى إلى نجاح التخطيط للثورة سنة ١٩٥٨ في تموز مع صديقه الجريء عبد السلام عارف بمعزل عن الضباط الأحرار ومجموعاتهم.

الفصل الخامس

عبد الكريم قاسم: سيرة حياته ونشأته

لا أعرف تاريخ ولادة المرحوم عبد الكريم قاسم بشكل دقيق ولا أظن أنه يعرف عيد ميلاده باليوم والشهر والسنة على عادة العراقيين في تلك الأيام حيث لا يعرف جمهرتهم موعد ولادتهم، وكان مثقفوهم المتدينون يكتبون خبر مولود إذا جاءهم على الورقة الخارجية لأحد الكتب التي يملكونها، على أني أقدر أن قاسم البكر والد المرحوم عبد الكريم قد ولد له عبد الكريم في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين في الحقبة بين ١٩١٠ و١٩١٣، ذلك أني سمعت ممن يدعون معرفته أنه عندما قتل في دار الإذاعة العراقية ببغداد عام ١٩٦٣ كان حوالي الخمسين سنة عمراً.

لقد ترعرع قاسم مع أبيه في محافظة واسط في الصويرة (لواء الكوت) والصويرة قضاء زراعي يقع على دجلة على بعد يناهز المائة كيلومتر جنوبي بغداد، ويقال أن قاسم البكر (والد عبد الكريم)، اشتغل نجاراً في الصويرة وقد كان عبد الكريم الابن الثاني ـ عمراً ـ لأبيه من أخوة ثلاثة الأكبر حامد، وقد اشتغل تاجراً ووسيطاً للتعامل في الحبوب (الحنطة ـ والشعير) التي كانت تنتج في المنطقة الوسطى من العراق ثم تنقل ولا سيما (الشعير) منها إلى البصرة حيث تشحن إلى الخارج ولا سيما إلى أوروبا وتعتبر السّلعة الأولى للتصدير إضافة إلى التمور، أما الأخ الأصغر فهو عبد اللطيف الذي عمل (نائب ضابط) في الجيش العراقي وبقي بهذه الرتبة في الجيش إلى ما بعد ثورة تموز سنة ١٩٥٨. ولعبد الكريم أختان هما نجية زوجة قائد فرقة في الجيش العراقي «عبد الجبار جواد» وهو أخ محمد علي جواد قائد القوات الجوية العراقية في زمن بكر صدقي العسكري، وقد كان عبد الجبار جواد في الستينيات ضابطاً معروفاً في الجيش العراقي، واخت أخرى هي زوجة نائب ضابط صغير من أقربائها في الجيش لا أعرفه ولا أعرف اسمه ولكني سمعت بعد ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ وهو تاريخ الانقلاب ضد قاسم وقتله ـ إنها كانت تسكن داراً في

محلة الوزيرية وقد زارها قاسم في دارها قبل رمضان سنة ١٩٦٣ فأودعت لدى قاسم ٥٠٠ دينار كانت قد استلمتها عن استحقاق تقاعدي لها خوفاً من أن يُسرق منها إذا بقيت لديها، وقد ضاع المبلغ على الأخت بعد أن فقدت أخاها المرحوم عبد الكريم، وقتله ومصادرة ما لديه في صندوقه بوزارة الدفاع من مالٍ بضمنه المبلغ المذكور لأخته.

لقد تعرفت على السيد حامد قاسم أيام أن كنت في أواخر سنة ١٩٥٨ رئيساً للجنة تنظيم تجارة الحبوب وكان من مسؤولية عملي شراء الحنطة لمديرية الإعاشة العامة لتجهيز المواطنين برغيف الخبز، وقد عينت المرحوم حامد خبيراً للكشف على الحنطة المعروضة للبيع محلياً وكان يقوم بمهمته في الكشف على بيادر أو أكياس الحنطة المطروحة في محلاتها ومخازنها في العراء تحت شمس بغداد المحرقة في الصيف لقاء مبلغ لا يتجاوز ربع دينار لكل نموذج من الحبوب المعروضة. وقد أوصيت في حينه الصديق المرحوم حازم يونس ـ وكان ممثل مديرية الإعاشة في لجنة شراء الحنطة بأن يهتم بصحة الخبراء من ذوي السن المتقدمة لضآلة أجورهم ومنهم حامد قاسم البكر (أخ الزعيم) وآخرون من أهل بغداد من العارفين بالحنطة وأثمانها ومنهم شخص محترم جداً هو السيد محمود مصطفى الخليل[1]. من عائلة مصطفى الخليل الشهيرة في الكرخ وقد عينته

(١) محمود مصطفى الخليل: هو السيد محمود بن السيد محمد سعيد مصطفى الخليل وينتسب إلى آل مصطفى الخليل العائلة الكرخية ذات الأصول الزراعية الريفية بحكم اشتغالها بالزراعة قرب بغداد. ظهر منها في العهد الملكي السيد خليل مصطفى الخليل مدير شرطة الموانئ العامة وكان رجلاً فاضلاً عزيزاً يمتاز بأنه أكبر من وظيفته في تعامله معها ومع الناس، ولا أعلم أين صار ولده طارق بعد أن كان زميلاً لنا في الدراسة الابتدائية ومنهم كذلك المعلم والضابط عبد الجليل مصطفى الخليل الذي توفي مبكراً، ومنهم العالم الذكي والمنكت البغدادي الذائع الصيت السيد محمد سعيد مصطفى الخليل والد السيد محمود، ويقال أنه وصديقه الحاج عبد اللطيف ثنيّان كانا يتعاونان في إخراج الكتاب الشهير (أمثال العوام في دار السلام). =

ـ تقديراً له ولمواهبه مخمناً خبيراً في اللجنة أيضاً. لقد توطدت العلاقة بيني وبين حامد في آخر الأمر وكنت أراه في مجلس الوزراء ـ كان كثير من الوزراء لا يستسيغون مراجعته ويعتبرونها ضغطاً وإلحاحاً على تواضعه وخفة ظله.

أول ما التقيت المرحوم قاسم كان بوزارة الدفاع في أواخر سنة ١٩٥٨ عندما كنت رئيساً للجنة تنظيم تجارة الحبوب، حيث اتصل بي المرحوم المقدم عبد الغني عبد الستار معيناً لي موعداً، لمقابلة الزعيم بناء على طلبه وقابلته في مقره بوزارة الدفاع ـ في غرفة مجلس الدفاع الأعلى التي كان يتخذ منها محلاً لإجتماع مجلس الوزراء ومكتباً لمقابلة الشخصيات السياسية الهامة والسفراء ـ وممن كان يشاع أن عبد الكريم كان يقابلهم هناك كل من تريڤيليان السفير[1] البريطاني وچوبرا سفير

= كان المرحوم السيد محمود مصطفى الخليل أحد رواد مقهى البيروتي في الثلاثينات والأربعينات وكان يعتبر آية من آيات الخلق الرضي والطيبة وإيفاء الحقوق، لذويها والاحسان والعمل الصالح وكان صديقاً لعدّة أشخاص من عائلتنا ومن احب الناس لخالي المرحوم أحمد الأمين المحامي وجليسه في المقهى.

تُذكر عن المرحوم محمد سعيد مصطفى الخليل نكات وكلمات لاذعة تنم عن الجرأة والذكاء يعرفها عشاق الفولكلور البغدادي ويتذكرونها إلى الآن، وقد ساهم في الحوار الذي دار حول ثورة ١٩٢٠ مع زملاء له مثل الشيخ أحمد الداود وغيره وكان له مجلس (ديوان) معروف في الكرخ يستقبل به الزوار.

ولآل مصطفى الخليل مصاهرة مع آل القصاب في الكرخ ومع آل كبّاره في باب الشيخ.

(١) همفري تريڤليان: كان سفير بريطانيا في العراق في عهد عبد الكريم قاسم، كما أنه كان مبعوثاً دبلوماسياً لدى حكومة عبد الناصر خلال أيام الثورة المصرية التي أعلنت الجمهورية المصرية بعد مملكة فاروق، كما كان مبعوثاً دبلوماسياً في الصين أثناء انتصار الثورة الشيوعية الصينية، وعندما تأسست حكومة الجبهة القومية في اليمن الجنوبي أثناء انتصار ثورة حكومة اليمن الديمقراطية. ويقول بعض المحللين السياسيين أن كفاءة تريفليان وقتئذ ومعرفته، بطبيعة حكام الشرق والمشاعر التي تؤثر على سلوكهم ومناوراته كانت وراء بعض مظاهر التحدي الذي طبع علاقات =

الهند[١] وغيرهما. وهناك رأيت شخصاً متواضعاً بسيطاً خجولاً ـ على الطريقة البغدادية ـ وطلب مني أسماء من أعرفهم ممن يمكن أن يشغلوا مناصب السفراء في وزارة الخارجية او المتصرفين (المحافظين) داخل العراق وقد هيأت له قائمة قدمتها إليه في المقابلة التالية بها اسم الدكتور فاروق برتو[٢] ومحمد عبد الله

= عبد الناصر مع الثورة العراقية وموقف عبد الكريم قاسم والضباط العراقيين تجاه مصر مما كان له أكبر الأثر في التطورات اللاحقة على الوضع في العراق ومصر وكل فكرة الوحدة العربية.

لقد كان تريفيليان نشطاً وحكيماً ومدبراً وقد رأس الوفد البريطاني الذي أنهت مفاوضته ارتباط الاقتصاد العراقي بالكتلة الاسترلينية، كما كان في العراق أثناء الزيارة الأولى لوزير التجارة البريطاني للعراق لمحاولة معالجة العلاقات البريطانية ـ العراقية، والتركيز على الناحية التجارية فيها، وعلى أي حال فقد كان الرأي العام العراقي يعتبره سفيراً ناجحاً، وقد كان يمتاز بالذكاء والنكتة العميقة الكاريكاتورية والعلاقات الجيدة المتطورة مع مختلف الناس وقد سمعت منه أنه ابن أخ تريفيليان المؤرخ البريطاني الشهير مؤلف الكتاب المشهور عن التاريخ البريطاني الذي حاز إعجاب كارل ماركس فأطرى على كتابه في معرض مؤلفاته.

كانت علاقات تريفيليان بالمرحوم قاسم جيدة وكان يزوره في وزارة الدفاع ويتناول معه طعام الغداء من السفرطاس. وقد سمعت أنه عُين بعد تقاعده من الخارجية البريطانية عضواً في مجلس ادارة شركة نفط العراق البريطانية، ومن ثم أميناً من أمناء المتحف البريطاني وقد بقي صاحب مكانة اجتماعية متميزة في الأوساط الإنكليزية في لندن.

(١) جوبرا: سفير الهند في العراق أيام الثورة، وكان قاسم يرتاح إلى زياراته وتعليقاته وهو ضابط في الجيش الهندي أساساً وبعد استقلال الهند انتقل إلى وزارة الخارجية الهندية ووضع الأسس الأولى لتنظيمها، كان المسموع أن (جوبرا) نشأ على سياسة الهند أيام نهرو وما تنطوي عليه من حياد وصدق وإنسانية ـ وانه كان مقرباً من المرحوم عبد الكريم ويؤثر على قراراته. وبالرغم من علاقاتي الجيدة مع جوبرا في الوزارة والبنك المركزي فإنني لا أعرف مدى صحة ودقة هذه الإشاعات.

(٢) فاروق برتو ـ أنظر الفصل المتعلق بوالده المرحوم عبد الجليل برتو في الكتاب.

الفالح السعدون[١] ونائل سمحيري[٢] وشريف الشيخ[٣] وآخرون لا أتذكر أسماءهم الآن لاختيار من يشاء منهم كسفراء، أو محافظين كما قابلته مرة أخرى عند عودتي من أوروبا (معرض لايبزك) حيث عدت في حزيران

---

(١) محمد السعدون ـ أنظر الفصل المتعلق بوالده المرحوم عبد الله الفالح السعدون في هذا الكتاب شخصيات نافذة.

(٢) نائل سمحيري ـ انظر الفصل الخاص به في هذا الكتاب.

(٣) شريف الشيخ بن السيد محمد سعيد الشيخ، من آل الشيخ رجب الرفاعية الساكنين في راوة وفي عانة حيث كان أبوه السيد محمد سعيد الشيخ رجب، من الوجهاء الكرماء الساكنين في محلة السدة ذوي الدواوين المفتوحة للضيوف والزوار على مدى الليل والنهار. وكان هو الأصغر من أربعة أخوة أكبرهم السيد ثابت وكان مديراً في جهاز إدارة مجلس النواب العراقي، والثاني توفيق وكان في البدء مدير ناحية في الزبير وغيرها بعد أن ترك التعليم، أما الثالث فقد كان أحد طلاب البعثة العراقية في الولايات المتحدة الأميركية، وقد توفي هناك بحادث سيارة ـ كما يقول أقرباؤه واسمه «فخري» والرابع هو شريف، وقد تخرج من كلية الحقوق العراقية محامياً سنة ١٩٤٠ وعمل في بغداد محامياً معروفاً في الأوساط الوطنية وقريباً عندما تشكلت الأحزاب عام ١٩٤٦، إلى حزب الاتحاد الوطني وهو حزب الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم والجواهري ولفيف من أساتذة الجامعات والمثقفين في العراق حينئذ ثم انتمى الأستاذ شريف الشيخ إلى الحزب الشيوعي (غير الرسمي المجاز ـ وكان معروفاً بالخلق الرصين والآراء والوطنية الحقه إلى أن اندلعت ثورة تموز ١٩٥٨ فكان من قادة الحزب الشيوعي المعروفين خلال تلك الأيام. وبعد حوادث ٨ شباط سنة ١٩٦٣ أجبر على الاعتراف بدوره في الحزب الشيوعي وذلك في مقابلة تلفزيونية على حساب سمعته ومكانته كمناضل معروف مما اضطره إلى الانزواء والعزلة والابتعاد عن المجتمع السياسي وعين في أول السبعينيات مديراً للأمور القانونية في المؤسسة العامة لاستيراد المواد الانتاجية التابعة لوزارة التجارة، وكانت المؤسسة المذكورة يرأسها السيد المرحوم مدلول المحنّه، وقد تزوج المرحوم شريف الشيخ في أواخر الستينات وخلف أولاداً لا أعلم عددهم ومصير أي منهم.

لقد كان شريف الشيخ من أفاضل الناس، طاهر اليد والضمير عفيفاً وكان مؤثراً في أوساط عانة والفرات الأعلى وله أثر على شبابها ومتعلميها ودافعاً لهم للتوجه نحو الأفكار التقدمية منذ أواسط الثلاثينيات.

١٩٥٩ بعد زيارة ألمانيا الديمقراطية وبولونيا وجيكسلوفاكيا وكنت مسؤولاً عن جناح العراق الأول في معرض لايبزك وبعد عودتي إلى بغداد زرت المرحوم عبد الكريم قاسم في مقره بوزارة الدفاع..

كانت قد حدثت أثناء غيابي في أوروبا أحداث هامة بالنسبة للوضع السياسي الثوري العام في العراق، وبالنسبة لي شخصياً إذ اندلعت في شباط ١٩٥٩ «ثورة الموصل» التي قادها ـ بعد أن أعلنها ـ عبد الوهاب الشواف، وهو ابن عمي وابن خالتي أيضاً وكان عبد الوهاب الشواف من كبار الضباط الأحرار برتبة عقيد عند اندلاع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وكان ممن يظهر المعارضة العلنية والاحتقار للعهد السياسي (عهد ما قبل ثورة تموز) متأثراً بآراء اليسار الديمقراطي ولا سيما الحزب الوطني الديمقراطي، وقد روى لي المرحوم العقيد خالد النقشبندي عضو مجلس السيادة ـ أن في العهد الملكي ـ عندما كان ضابطاً ـ كان يتخوف ويتعجب من جراة صديقه وزميله عبد الوهاب وتطاوله ضد حكومة العهد الملكي والوصي على العرش في أقواله وسلوكه. وقد عين آمراً لحامية الموصل ضمن المراسيم الأولى التي اشتملت على أوامر التعيينات الثورية يومي ١٤ و١٥ تموز سنة ١٩٥٨ وعندما زار بغداد في عام ١٩٥٨ كان موضع حفاوة وتكريم زملائه من الضباط في بيوتهم وفي نادي الضباط أيضاً، وقد نبهت أبناء عمي (اخوة عبد الوهاب) إلى ما قد يحيق به من الخطر نتيجة الجو السياسي الملتهب في بغداد آنئذ، سيما وأنه كان يظهر المعارضة للمرحومين عبد الكريم وعبد السلام لاختلافهما في تصرفاتهما وخطبهما مما أصبح موضع حديث النوادي والمجالس البغدادية آنذاك، وقد قال لي عبد الوهاب عندما لمته على هذه الخلافات الخطيرة التي قد تطيح بالثورة وتهدد وحدة الشعب إذا ما تفاقمت في عين الاتجاه: قل لي ماذا أعمل للاثنين عبد الكريم وعبد السلام. لقد تكلمت معهما أكثر من مرة.. لم يبق إلا أن أقتلهما بمسدسي فهل تنصح بذلك لنتخلص من الاثنين. كما أتذكر أنه قال لي مرة عقب حوار حول السياسة الناصرية ومسؤولية عبد الناصر الشخصية عن أوضاع العراق التي كانت تتردى (ان عبد الناصر وسياسته

أحسن بكثير للعراق ولأوضاع العراق من سياستي عبد الكريم وعبد السلام معاً) وذلك في معرض تزكية الحكم الناصري الذي كانت تزكيته موضوع خلاف شديد بين القوى السياسية العراقية آنذاك.

أما المرة الثالثة التي كنت قد رأيت فيها المرحوم عبد الكريم قاسم ـ قبل استيزاري ـ فكانت مساء ١٢/٧/١٩٥٩ عندما دعيت تلفونياً لمقابلته في الثامنة من مساء ذلك اليوم في مكتبة بوزارة الدفاع، وكانت بغداد بشوارعها حافلة ومفعمة ومليئة بمهام التحضير للاحتفال بمرور سنة على اندلاع الثورة، وحيث قامت الترتيبات لاستعراض عسكري وشعبي في ساحة الباب الشرقي صباح ١٤/٧/١٩٥٩، وقد قابلت عبد الكريم في وزارة الدفاع تلك الليلة. كما رأيت لأول مرة الزعيم عبد الوهاب الأمين والاستاذ حسن الطالباني أيضاً، وهناك عندما كنا في غرفة الزعيم فتح المذياع (الراديو) وتليت المراسيم الجمهورية بالتعديل الوزاري الذي دخل فيه كل من فيصل السامر وعوني يوسف والدكتورة نزيهة الدليمي وأنا وزراء في الحكومة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي نسمع فيها بشكل رسمي قاطع أو أفاتح بها رسمياً أيضاً بالوزارة، على أني كنت أسمع على مدار الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٨ إشارات من أصدقاء تدل على قرب تسلمي منصباً وزارياً ونقلي من لجنة الحبوب وذلك منذ التعديل الأول مع الأستاذ هاشم جواد والدكتور طلعت الشيباني ومحي الدين عبد الحميد والدكتور محمد الشواف كما كنت أسمع بعض الشائعات بأن هناك نية لتعييني سفيراً في مصر أو وزيراً للمعارف ولكنها شائعات غير رسمية بالرغم من أني لم أكن بعيداً عن مركز صدور القرار.

على أني فيما يتعلق بوقائع الملف الشخصي للمرحوم عبد الكريم قاسم قد أطلعت مؤخراً على كتاب للأستاذ عبد الرزاق البارح، وهو ممن تربطه بعبد الكريم صداقة وروابط عائلية إذ ألف البارح عن عبد الكريم كتاباً في عام ١٩٦١ بعد أن أصدر صحيفة هي (العهد الجديد) قريبة من المرحوم عبد الكريم ويؤكد الكتاب أن عبد الكريم من مواليد ١٩١٤ وأن بيته ومحلته في المهدية في شارع الكفاح مقابل عمارة بنيّة، وأن أباه قاسم

محمد البكر من قبيلة زبيد القحطانية الساكنة قرب الكوت (محافظة واسط)، أما أمه فهي «كيفية بنت حسن» من قبيلة بني تميم العدنانية، وأن للمرحوم عبد الكريم شقيقان وشقيقتان وخالتان هما عاب بنت حسن اليعقوب الساكني والدة العقيد فاضل المهداوي، والثانية هي وصف بنت حسن اليعقوب الساكني وقد توفيت غير متزوجة.

في سنة ١٩٢٧ تخرج عبد الكريم من الابتدائية ودخل الثانوية المركزية في عهد كان فيه الأستاذ طالب مشتاق مديراً للثانوية المركزية ببغداد[1] وأنه في سنة ١٩٣١ انخرط معلماً في الشامية وفي أيلول ١٩٣٢

---

(١) طالب مشتاق: طالب بن مشتاق بن ثابت، ولد عام ١٩٠٠ ميلادية في الكاظمية من ـ أعمال بغداد ـ من أسرة معروفة بغدادية من حيث تكوينها الاجتماعي والثقافي والروحي، ذات أصول تركية من الأناضول من منطقة تطورغولا التي تقع قرب أنقره ـ كشأن الغالب الأعم من أسر العراق في أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت أعراقها تنتمي إلى الأناضول أو إيران أو نجد أو الشام. بل كان بعضها يرجع في أصوله إلى بلاد إسلامية بعيدة في أذربيجان أو ما وراء النهر ـ بلاد الأزبك وبخارى ـ أو بلاد الهند، وفقاً للنظرة الإسلامية المبنية على وحدة بلاد الإسلام.

لقد هاجر ثابت ـ جد طالب ـ إلى العراق وتعين موظفاً في كفري (إحدى المدن التركمانية على خط الحدود الفاصل بين العراق العربي ومنطقة شهرزور الكردية) وتزوج هناك واستقر مع عائلته وابنه محمد مشتاق في مختلف المدن العراقية في الجنوب قبل أن تستقر العائلة في الكاظمية حيث عمل محمد مشتاق في الدوائر المالية العثمانية وحيث ولد (طالب) في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر).

(نشأ طالب) كما ينشأ أبناء البغداديين، ودرس في المدارس الرسمية العثمانية (السلطانية) ثم سافر إلى العاصمة إسطنبول لإكمال دراسته وعاد إلى العراق عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى حيث عمل معلماً في قرية (الهويدر) القريبة من مدينة بعقوبه عام ١٩١٩.

كان (طالب)، أحد خمسة أخوة ـ أبناء المرحوم محمد مشتاق وهم: طالب وأكرم وأدهم وثابت وناظم، وكانوا فيما بين العشرينات والخمسينات من القرن =

= العشرين يمثلون أفراد عائلة بغدادية نشطة اجتماعياً ومحترمة ومحبوبة عند الناس من الطبقة الوسطى ومتشبعة بالعادات والقيم البغدادية وهوايات الناس وشعاراتهم وهمومهم واهتماماتهم السياسية والاجتماعية سواء كان ذلك من حيث صلاتهم بالسلطة الحكومية ووظائفها، أو من حيث اتصالاتهم بالمصاهرة والصداقة لمختلف البغداديين البارزين بمجالسهم ونواديهم كنادي المثنى بن حارثه في الوزيرية حيث كان النادي المذكور معقلاً قومياً ـ وكان طالب من أعضائه البارزين، ومن مجالسيه وأصدقائه عبد الغفور البدري صاحب جريدة الاستقلال المعروفة بمعارضتها واتجاهاتها القومية آنذاك. ومن مظاهر صلة العائلة بمجتمعها البغدادي إن المرحوم أدهم مشتاق وهو أحد أبرز موظفي وزارة العدل حيث عمل مديراً للأيتام أو لأموال القاصرين ثم مديراً عاماً للعدلية كان صديقاً ومقرباً لمجموعة القضاة مثل أحمد مختار بابان ومحمود خالص، وقد صاهر آل الباججي (العائلة المشهورة في تاريخ بغداد السياسي والاجتماعي في العصر الحديث). كان المرحوم أدهم أبرز هواة المقام ـ وهو الغناء البغدادي القديم ـ وكان يجمع أسطوانات كل من القراء عثمان الموصلي وأحمد زيدان وغيرهما في نمطها القديم قبل ظهور الاسطوانات الشمعية الحديثة وهو مشهور بذاك لدى هواة المقام والفنون البغدادية، وقد تعرفت عليه في حينه.

أما ناظم ـ وقد كان ضابطاً طياراً في المراحل الأولى لتأسيس القوة الجوية العراقية ـ فقد كنت أراه وأنا طالب يافع في عيادة ابن عمي الدكتور محمد الشواف مقابل سوق الصفافير في شارع الرشيد في بغداد، وقد كان طياراً كفوءاً، جريئاً وصريحاً ومحبوباً لدى أصدقائه ومعارفه، وعندما عرفته كانت آثار الحادث الذي حدث له نتيجة تحطم طائرته قد بقيت في يده ووجهه. وقد كان ابن عمي ـ الدكتور محمد الشواف ـ طبيباً للقوة الجوية العراقية، وكثيراً ما كان ينصحه نصائح تتعلق بمعالجة الحروق والآثار التي حلت به.

أما أكرم فلم أتعرف عليه وإن كنت أسمع به كثيراً، وقد تولى أمريه القوة الجوية العراقية، ثم صار مديراً عاماً للطيران المدني وقد أصهر للشيخ أحمد الداود، أحد البغداديين من المتصوفة ورجال الدين وأبطال ثورة العشرين في العراق.

أما ثابت مشتاق فقد كان ضابطاً خيالاً في الجيش العراقي وقد شارك في حرب ١٩٤٨ في فلسطين وتوفي في الثمانينات في بغداد.

لقد انخرط (طالب) في الخدمة المدنية في وزارة المعارف العراقية حيث عين =

= سنة ١٩١٩ معلماً في قرية الهويدر قرب بعقوبه. وكان طيلة عمله في وزارة المعارف ـ بعد ذلك ـ من العناصر القومية الموالية للمرحوم ساطع الحصري وأفكاره ضمن الصراعات التي كانت قائمة آنذاك في مجال التعليم ومجال السياسة العراقية. وقد درس المرحوم (طالب) في كلية الحقوق العراقية وتخرج في دورة ١٩٢٣ وتولى المرحوم (طالب) إدارة الثانوية المركزية في بغداد بين سنتي ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ ـ وكانت هي المدرسة الثانوية الوحيدة في بغداد وكانت إدارتها من المناصب الهامة في الدولة العراقية ـ فلم يكن هناك منصب جامعي، وقد تولى إدارة الثانوية المركزية أيضاً المرحوم اللواء الركن نظيف الشاوي (وزير الدفاع السابق وأحد كبار قادة الجيش العراقي ومؤسسيه والمثقفين من أبناء العراق ـ آنذاك).. وقد أصهر المرحوم طالب مشتاق إلى السيد حميد البياتي أحد الضباط البغداديين المعروفين ووالد الأستاذ ناظم حميد «ابو غزوان» أحد الديمقراطيين المعروفين من مؤسسي الحزب الوطني الديمقراطي اليساري الاتجاه.

كان طالب مشتاق وأخوته من الأسر المشهورة التي عمل شبابها في المسائل العامة التي كان يزخر بها الرأي العام العراقي آنذاك، والمعروف عن المرحوم طالب مشتاق ـ كما تؤكد ذلك مذكراته أنه كان يعمل في السياسة إلى جانب القوميين من الشباب الملتف حول آراء ساطع الحصري وإلى جانب ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ وتوجهها ضد الإنجليز، وقد عانى في سبيل آراءه السياسية ما عانى من الضرر والملاحقة والتشرد والاعتقال، وقد رأيته عام ١٩٦١ في ديوان عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع أثناء زيارة له لبغداد من أنقره حيث كان سفيراً للجمهورية العراقية فيها، وكان المرحوم عبد الكريم قاسم يجله ويستمع إلى آرائه وتعليقاته باهتمام وكان المرحوم طالب جريء في مخاطبة عبد الكريم وقد سمعت أنه كان أستاذاً لعبد الكريم قاسم في الثانوية المركزية ببغداد.

لقد عمل المرحوم طالب مشتاق مفتشاً في وزارة المعارف للواء البصرة بعد إدارته للثانوية المركزية، ثم انتقلت خدماته إلى وزارة الخارجية حيث عين قنصلاً عاماً فمديراً للدائرة القنصلية في وزارة الخارجية كما عمل مديراً عاماً للدعايه في ١٩٤٠ وللمحاسبات في سنة ١٩٣٩ وقد كان قنصل العراق العام في فلسطين وشرقي الأردن وفصل سنة ١٩٤١ لولائه لثورة رشيد عالي الكيلاني واعتقل بعد ذلك في معتقل العمارة ولما أطلق سراحه عمل مديراً عاماً للبنك العربي عندما فتح فرعه ببغداد إذ كان صديقاً لصاحبه المرحوم عبد الحميد شومان منذ أن كان قنصلاً للعراق في عمان قبيل الحرب العالمية الثانية. وفي ثورة تموز ١٩٥٨ أعيد إلى وزارة الخارجية وعين سفيراً في أنقره وأحيل للتقاعد في ١/١/١٩٦٥ بعد أن مددت =

التحق بالكلية العسكرية وفي سنة ١٩٣٨ تخرج من دورة الرمي وقيادة الحضيرة وفي عام ١٩٤٠ دخل كلية الأركان وفي ١٩٥٠ التحق بدورة الضباط الأقدمين في إنكلترا. وقد اشترك في حركات الجيش العراقي بالفرات عام ١٩٣٥. وفي ثورة رشيد عالي (مايس «مايو» ١٩٤١) وفي حركات برزان الثالثة في كردستان (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) واشترك في حرب

= خدماته سنة في وزارة الخارجية، وقد سكن بعد اعتزاله الخدمة الحكومية وكبر سنه في لبنان ولما بدأت الحرب الأهلية هناك سافر إلى تركيا وتوفي في إسطنبول على ضفاف البسفور في عام ١٩٧٧ ودفن ببغداد.

ـ لقد خلف المرحوم طالب ولدين أكبرهما الدكتور حازم أستاذ الفلسفة اليونانية في جامعة بغداد وثانيهما الأستاذ باسم مشتاق وهو يعيش الآن في القاهرة بعد أن كان إلى سنة ١٩٦٣ عضواً بارزاً من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي وكادره الشبابي والطلابي وعمل في الحركة الوطنية الممهدة لثورة تموز ١٩٥٨. ـ كما خلف المرحوم طالب ثلاثة بنات كانت كبراهن (حزيمه) زوجة الدكتور خيرالدين حسيب وأم أولاده طارق ودينا. والثانية (ندى) زوجة صلاح رفيق طيب وهو دبلوماسي متقاعد، والثالثة (لينا) زوجة هيثم حسن عجينة.

لقد ألف طالب مشتاق كتاب (أيام النكبة) في وصف ما جرى في العراق أثناء حكم بكر صدقي العسكري الذي كان في البدء يعتبر حكماً لا قومياً، وطبع في بيروت في مطبعة الكشاف ١٩٣٧، ثم أصدر ١٩٦٨ مذكراته تحت اسم (أوراق أيامي) للمدة من ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ وطبع في بيروت (دار الطليعة) كما كتب بعد ذلك الجزء الثاني من مذكراته تحت اسم (مذكرات سفير عراقي في أنقره) عن المدة التي أعقبت ثورة ١٩٥٨، ولم أر هذا الجزء منشوراً.

لقد سمعت من الأستاذ عباس كاشف الغطاء وهو صديق أثق بدرايته وذمته أن المرحوم طالب ـ وقد عاصره في العمل في وزارة المعارف في العراق ـ كان من أقدر الناس في إدارته وخلقه وعدله وحسن سيرته.

ولعل خير ما نختم به هذا التعليق قول الدكتور حازم مشتاق في المقدمة التي كتبها للطبعة الثانية العراقية من كتاب أوراق أيامي في ١٩٨٩:

«رحم الله الحاج طالب مشتاق إنساناً عربياً طيباً ومواطناً عراقياً صالحاً ومجاهداً سياسياً وطنياً قومياً غيوراً، وتربوياً قديماً جليلاً وإدارياً قديراً حازماً ودبلوماسياً بارعاً محنكاً».

فلسطين برتبة مقدم ركن ـ وقد ترك ذكريات عن شجاعته ووطنيته في فلسطين، في «كفر قاسم» وعن ولعه بالتعمير والتشجير في معسكر المنصور، وعن عدله ونزاهته وتميزه على أقرانه من الضباط بالثقافة والجرأة والخلق الرضي.

الفصل السادس

التأثيرات الثقافية في شخصية عبد الكريم

على أن من الأمور التي تركت تأثيرات واضحة على شخصية عبد الكريم الثقافية، وعلى ارتباطاته العسكرية اللاحقة ومن ثم أثرت على اصطفاف القوى الجبهوية في صف ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ أو ضدها ـ كانت مسألة التحاقه وتخرجه من دار المعلمين الابتدائية التي كانت تتخذ من المدرسة الكرخية ـ الثانوية مقراً لها، فقد كان من آثارها اهتمام عبد الكريم بالثقافة والقراءات الإسلامية ولا سيما التاريخ الإسلامي وكتب الرحلات الإسلامية واهتمامه بالنحو والصرف وأدبيات اللغة العربية ـ مما لاحظه الأستاذ حسن العلوي في كتابه الذي مر ذكره عن عبد الكريم قاسم.

وأريد أن أضيف الى رواية الأستاذ حسن العلوي أن عبد الكريم كان يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية ـ أنه كان يستعين بكتاب ألّفه أحد المستشرقين الفرنسيين ـ صنف فيه آيات القرآن الكريم حسب موضوعاتها، مما يجعل التهيؤ والتحسب لاستعمالها ممكناً ـ سيما في الخطب الارتجالية، وقد جلبته أنا له تسهيلاً له لإعداد خطبه التي كان يعتبرها أساساً لسياسة الثورة والجمهورية وشرحاً وافياً لمنطلقاتها وتفاصيلها وأهدافها.

أما الأثر الثاني لدراسة عبد الكريم قاسم في دار المعلمين فهي صداقته لمجموعة الضباط والمثقفين والطموحين الذين كانوا في أصولهم من المعلمين وكانوا محوراً لتجمعات الضباط الآخرين من رفقائهم وأبناء

محلاتهم وغيرهم. وكانت هناك دار معلمين في الكرخ وكثير من خريجيها من الكرخيين ذوي الميول الاجتماعية القحّة الودودة المضيافة، حيث كانوا يقضون أوقات فراغهم ودراستهم في مقهى على شاطئ دجلة مقابل القشلة أمام دار المعلمين فانعقدت الصداقة بينهم واتصلت الى العمل الوطني المشترك وانتقلت مع خليل القيسي[1] (صاحب المقهى) إلى منطقة جامع الحيدر خانة على شارع الرشيد بعدما انتقل القيسي إلى مقهاه المشهورة هناك وانتقل عملهم من التعليم إلى العسكرية وأضيف لهم ضباط المنطقة في الرصافة وهم كثر في بغداد ذات التقاليد العثمانية التركية العسكرية.

(١) خليل القيسي ـ صاحب المقهى المواجهة لشارع المتنبي على شارع الرشيد وكان قبل ذلك صاحب المقهى التابعة لثانوية الكرخ والمحاذية لنهر دجلة مقابل القشلة في الرصافة وقرب (بيت النواب) حيث كانت البناية قبل أن حلت بها ثانوية الكرخ ـ مقراً لدار المعلمين يأمها الشباب الكرخي وغيرهم ممن انضموا أولاً إلى سلك التعليم ثم انتقلوا إلى العسكرية ـ بعد أن فتحت أمامهم الكلية الحربية وأصبحوا ضباطاً في الجيش العراقي وأثروا على الأحداث المتلاحقة حينئذ والتي انتهت بثورة تموز سنة ١٩٥٨، حيث كان خليل قد انتقل إلى المقهى التي سميت باسمه في شارع الرشيد قرب جامع الحيدرخانة والتي أشرنا إليها آنفاً.

في المقهى التي كان يجتمع فيها لفيف من شباب بغداد لا سيما الضباط منذ أيام ـ دار المعلمين ـ تمت الصداقة وتوطدت بين خليل القيسي ورواد المقهى، من الضباط الأحرار، محيي الدين عبد الحميد، وعبد الوهاب الشواف، ناظم الحاج سري، وعبد الكريم قاسم، ورفعت الحاج سري، وعبد الحميد نعمان الحفار وغيرهم من سكنة منطقة مقهى خليل علاوة على سكنة الكرخ السابقين، وقد كنت أرى الضباط يجلسون في مقهاه في أوائل الأربعينيات قرب مائدته حيث يجمعون النقود من رواد المقهى، وكثيراً ما أمسك أحدهم برغبة ـ بالصينية التي يجمع فيها النقود.

كان خليل من عشيرة (الكروّية) شجاعاً كريماً ولا أدري ماذا حل به أو بمقهاه الآن، ولكنه بعد الثورة ـ كان يخرج من مقهاه لتحية المرحوم عبد الكريم ـ كلما مر أمامه في شارع الرشيد بالسيارة العسكرية في طريقه إلى وزارة الدفاع، ولعله قد أصيب بخيبة أمل وأسى لإعدام ناظم الطبقجلي الذي كان من أصدقائه ومن زبائن مقهاه، كما أصيب بذلك العديد من رواد المقهى.

وكان مجيد شريف وحميد نعمان وأحمد حسن البكر ومرافقيهم عبدالسلام عارف وعبد الوهاب الشواف وطاهر يحيى وخليل إبراهيم الحسين ممن يمثلون الفئة الأولى يضاف لهم باقي ضباط سامراء وتكريت وعانة، أما الفئة الثانية فيمكن اعتبار رفعت الحاج سرّي وناظم الطبقجلي ومحي الدين عبد الحميد واسماعيل العارف وعبد الوهاب الأمين ووصفي طاهر من الأمثلة عليهم.

أما الأثر الثالث فكان ضلوع الضباط من خريجي دار المعلمين أو المتأثرين بمقهى خليل إلى معارضة عبد الكريم عندما انتقلت وتطورت الثورة إلى تمايز قوى جهوي فأصبحت الرصافة ومناطق التجمعات العرقية المتعاونة مع الثورة، وأصبحت الكرخ والأعظمية ضد الثورة وضد عبد الكريم ـ مع ورود الاستثناءات الطبيعية على هذه الظاهرة بطبيعة الحال.

لقد قضى المرحوم عبد الكريم بعض سنيه معلماً في الناصرية ومدة أخرى في دراسته بالكلية العسكرية ببغداد تم تخرج ضابطاً ولا أعرف من معالم حياته الكثير خلال تلك الفترة.

الفصل السابع

عبد الكريم قاسم ومجلس الوزراء

كان المرحوم عبد الكريم قاسم قد اعتاد عقد جلسات مجلس الوزراء في مقره بوزارة الدفاع بعد الثامنة ليلاً حيث يبدأ توافد الوزراء تباعاً إلى البهو الخاص بمجلس الدفاع الأعلى قبالة غرفة وزير الدفاع ـ وكان ذلك تحت تأثير زحمة العمل الإضافي الذي كان قاسم وضباطه يرون فيه واجباً شخصياً بالنظر للظروف الأمنية التي سادت العراق والمنطقة العربية ـ لبنان والاردن ـ في بداية أيام ثورة تموز سنة ١٩٥٨، وتحت تأثير الضغوط الإدارية الناشئة على وزارات الدولة الأخرى في تلك الأيام الأولى بعد الثورة من إصلاح وتغيير في الإدارات وأساليب العمل مما كان يفرض على الوزير دوامه الصباحي المعتاد ودواماً مسائياً إضافياً لتصريف الشؤون

الإدارية الروتينية التي كان فصل كثير من المدراء والموظفين السابقين في جهاز الدولة سبباً في تراكمها على عاتق الوزير فضلاً عن افتراض الباقين من موظفي الوزارات.

إن العهد عهد تغيير كلي وأن الوزراء هم أفضل العارفين وبل ربما هم الوحيدون في الأجهزة الذين يعرفون أبعاد هذه التغييرات ومداها سواء فيما يتعلق بالموظفين والأجهزة أو بالأساليب والإدارات، لذلك فقد كان الوزراء ملتزمين بالدوام في وزاراتهم أثناء الدوام الصباحي المعتاد والدوام المسائي اليومي الإضافي ولا يبقى من الوقت إلا النصف الأول من الليل لاجتماعات مجلس الوزراء.

لقد كان بهو (مجلس الدفاع الأعلى) ـ (حيث يعقد مجلس الوزراء) ـ يحتوي على مائدة كبيرة وعلى كراسي كافية للوزراء جميعاً ممن يبدأون في إشغال مقاعدهم بين الساعة الثامنة والتاسعة مساءً منتظرين مجيء المرحوم عبد الكريم قاسم ببزته العسكرية الذي كثيراً ما تأخر قدومه إلى الحادية عشرة ليلاً، لانشغاله ـ هو الآخر ـ بتصريف بعض الأعمال المتعلقة بوزارة الدفاع أو بمقابلة الضباط من زملائه القدامى أو بعض العاملين في النشاط السياسي كممثلي التنظيمات المهنية أو مراسلي الصحافة وغيرهم، أو بالتفتيش على أعمال الإنشاءات الحكومية التي كان قاسم يهتم بها بصفة خاصة ـ كحفر قناة الجيش وبناء دور الضباط في الكرخ (اليرموك) والرصافة (الحرية) أو دور مدينة الثورة أو الشعلة التي أعدت لفلاحي الجنوب المهاجرين إلى بغداد والقاطنين في ضواحيها، والذين كان المرحوم قاسم يعيرهم ويعير سكناهم اهتماماً خاصاً، أو غير ذلك من مهام الدولة والثورة الداخلية والخارجية مما كان يؤدي ـ غالباً ـ إلى تأخره عن الحضور إلى قاعة اجتماعات مجلس الوزراء وبالتالي تأخر وقت اجتماع المجلس وما يتبع ذلك من قلق الانتظار إلى أن يأخذ التعب مأخذه من الوزراء ولا سيما الوزراء المتعبين من ذوي السن المتقدمة أو الأعمال الإضافية كالأستاذ مصطفى علي ومحمد حديد ومن الوزراء غير المعتادين على السهر.

أما الوزراء العسكريون والشباب فكانوا الأقل تأثراً من متاعب وآثار السهر إلى ساعة متأخرة من الليل وقد أقر المرحوم عبد الكريم ـ مرة ـ بجلب جهاز تلفزيون إلى بهو مجلس الوزراء ليتمتع بالمشاهدة الوزراء الذين ينتظرونه، كما جلب مرة مسجلاً كهربائياً و(شريطاً) للمقامات العراقية التي سجلت أثناء مؤتمر الموسيقى الشرقية الأول في القاهرة في الثلاثينيات وكان الوفد العراقي يضم العازفين من (جالغي بغداد) كما يضم الموسيقار العراقي الشهير «محمد القبنجي» الذي كان لأدائه الشرقي الأصيل مكانة وسمعة لا يزال يذكرها بإعجاب محبو الموسيقى الشرقية، ومحبو المقام البغدادي إلى الآن. وكان المرحوم علي صائم العسكري قد أهدى تسجيل هذه المقامات إلى المرحوم عبد الكريم عندما زاره في الستينيات.

لقد كان لهذا الأسلوب في الاجتماعات التي يعقدها مجلس الوزراء لا سيما تأخره إلى الهزيع الأخير من الليل آثار سلبية عديدة إذ بالكاد إنجاز البت في البرنامج الإداري للمجلس كمسائل الإيفادات، والترفيعات والتعيينات والمخصصات، أما المهام الموضوعية والتشريعية والنظر في دراسة والمصادقة على مشاريع القوانين والأنظمة والتقارير المهمة فكان التأخير يلحقها من جلسة إلى أخرى ـ وكان ذلك يؤدي إلى التأخير في العمل الحكومي لا سيما وأن تشريع القوانين كان من اختصاص مجلس الوزراء بموجب الدستور المؤقت لعدم وجود مجلس تشريعي، أما النظر في السياسات الأمنية والدفاعية والاقتصادية وأطر النقاش الضروري حولها فكان من الأمور المتعذرة عملياً، الأمر الذي أدى إلى أن تكون دراسة هذه المواضيع وخصوصاً الأساسية خارج نطاق مجلس الوزراء وتعتمد على خطب إرتجالية يلقيها المرحوم عبد الكريم في المناسبات العامة باعتبارها سياسة الثورة، أو من اختصاص الجهات ـ غير المسؤولة ـ مثل الصحف والتجمعات السياسية المختلفة إلى حد الاقتتال! وحتى القوانين الهامة الإدارية فقد كانت تواجهها الاستحالة المادية (الفيزيولوجية) لإجراء مناقشتها في ساعات الصباح الأولى بعد منتصف الليل.

وإني لأتذكر قانون (إدارة البلديات) ـ الذي وضعت الدكتورة نزيهة

الدليمي وزيرة البلديات مشروعه الأول ـ على أهميته البالغة في الوضع السياسي والإداري في العراق في المراحل الأولى من التغييرات التي أحدثتها الثورة ـ قد استمرت قراءة بعض منه كل جلسة إلى أن استبدلت الوزيرة الدكتورة نزيهة والوزير الأستاذ عباس البلداوي ثم تأخر إلى ما بعد سنة ١٩٦٣ حيث تبدلت منطلقات القانون وأهدافه ومبادئه التي وضعتها الدكتورة نزيهة ودرسها معها الدكتور صفاء الحافظ[1] بروح تقدمية ديمقراطية وشعبيه وقد قمت بدراسة المسودة (المشروع) عند وضعها وساهمت معهما، ولكن لم أكن متوقعاً تشريعها منذ سنة ١٩٦٠، ومن بين أسباب تشاؤمي تخصيص الهزيع الأخير من الليل ـ بعد إكمال برنامج مجلس الوزراء ـ لدراسته ومناقشة مواده لتشريعه وإصداره قانوناً.

كان طعام العشاء ـ وهو على الغالب من مطعم الجنود في وزارة الدفاع ـ (قطعاً من شواء اللحم المفروم كباباً ورغيفاً من خبز السوق) يقدم

---

(1) صفاء الحافظ ـ من مثقفي الحزب الشيوعي ومن أعضائه النشيطين ذوي العلاقات الاجتماعية الواسعة والمتذوبين في الناس وفي المنتديات البغدادية في الخمسينيات والستينيات أثناء النشاط السياسي الذي اضطلعت به الحركة الوطنية قبل ثورة تموز سنة ١٩٥٨ وخلال ما أعقبها من أحداث. يعود الأستاذ صفاء إلى عائلة دينية من أهالي هيت إحدى القرى القديمة في الفرات الأعلى شمالي مدينة الرمادي بما يناهز المائة والخمسين كيلومتراً، وقد هاجرت عائلة الدكتور صفاء إلى الحلة من أعالي الفرات إلى الفرات الأوسط وسكنت هناك. اذ كانت الحلة نهاية خط الملاحة النهري بين حلب وسورية وبين العراق عبر نهر الفرات الأعلى، إذ كانت المواصلات في أواخر أيام الدولة العثمانية بين الحلة وبغداد أسهل وأكثر أماناً مما هي عليه بين الفلوجة وبغداد، وإن كان هذا الطريق أقصر، ولكن الناس كانوا يفضلون طريق الحلة كمعبر إلى بغداد. تخرج الدكتور صفاء من كلية الحقوق العراقية وأكمل الدكتوراه في القانون في فرنسا، ويعتبر من فقهاء القانون الاشتراكي وله مؤلفات في هذا الموضوع.

كان الدكتور صفاء من أرصن المثقفين العراقيين وأكثرهم رضئ وأحسنهم خلقاً ووطنية وتذوباً في الناس واهتماماً بجماهير الناس ومصلحة فقرائهم، واستمر مناضلاً حقيقياً حتى السبعينات حيث فقد ولم يعرف أحد عن مصيره إلى الآن.

أثناء الاجتماعات مع الشاي أو الشاي بالحليب، وكثيراً ما كانت الحاجة إلى إفطار الصباح ـ إذا استمرت الجلسة إلى الصباح وسمعنا صوت مؤذن مسجد الدفاع أو المساجد المجاورة مؤذنين داعين لصلاة الفجر ـ سبباً مؤدياً إلى أن الأخ الزعيم ـ اللواء بعدئذ ـ فؤاد عارف يقوم بإصدار أوامره إلى بعض جنوده بوزارة الدفاع أن يجلبوا لنا من الباعة المتجولين قرب الوزارة المذكورة صحناً من ثريد الباقلاء أي (تشريب الفول) فوقه بيضة مقلية ـ وهي أكلة بغدادية قديمة ـ للإفطار وذلك بمعزل عن الآخرين من المرافقين أو باقي الوزراء وخوفاً من أن يشاركونا فيه .

لقد كان وضع العمل في مجلس الوزراء بما في ذلك الطعام حريصاً ومتعباً، وقد حضرت بنفسي ـ عتاباً وشكوى من المرحوم الأستاذ مصطفى علي وزير العدل السابق للتأثير على المرحوم عبد الكريم وإثارة شفقته لتعيين موعد مناسب وغير متأخر لاجتماعات مجلس الوزراء. وقد أخبر المرحوم مصطفى علي الزعيم عبد الكريم في حينه بأن (سمنته ليست سمنة طبيعية إنما هي ورم نتيجة التعب والسهر كما أخبره الطبيب بذلك).

إن النكات التي كان يرددها العارفون بالحال والمنسوبة للعراقية وأصدقائهم آنذاك ـ وهم كثيرون ـ كانت تتعلق بالاجتماعات الليلية المتعبة للوزراء أو المثيرة لدهشة ضباط وزارة الدفاع والمرافقين عندما تستمر طيلة الليل كل أيام الأسبوع؛ وبهذه المناسبة أتذكر أن أحد الأصدقاء من المسؤولين الاقتصاديين في موسكو والذي كان في بغداد يعمل بالسفارة السوفييتية مستشاراً اقتصادياً لمدة أكثر من ثلاثة سنوات واسمه (بتروف) سألني أثناء زيارتي لموسكو سنة ١٩٦٠ عما إذا كان مجلس الوزراء لا يزال يعمل ويعقد اجتماعاته في الليل إلى ساعة متأخرة، فأجبته بأنني لا أعلم الوضع الآن بدقة بعد خروجي من مجلس الوزراء، ولكني سمعت بأن الوضع قد تغير الآن؛ فأجاب ساخراً وضاحكاً (نحن أيضاً في موسكو كنا نسهر إلى الصباح في زمن ستالين عندما كانت اجتماعات المجلس متعبة فأقلعنا عن ذلك وجعلنا الاجتماعات نهارية) ثم أردف بمزيد ملحوظ من

السخرية (أقلعنا عن هذه العادة السلبية، ولكن بعد أن عانينا منها أربعين سنة).

ويبدو أن المرحوم عبد الكريم قاسم قد اعتاد على طبيعة العمل في الليل من خلال عمله في المعسكرات حيث يطيب العمل الليلي لاعتدال المناخ وانصراف الحر الحارق بانصراف شمس النهار وحلول عتمة الليل، وإن كان الكثير من الناس يتصورون أن اجتماعات الليل اليومية والسهر حتى الصباح ـ انما تعكس خوف المرحوم عبد الكريم من الظلام وحذره وشكوكه من النوم في ظلام الليل الذي يغطي التآمر والانقلابات كما سبق وأن غطى تحرك الجيش صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وأدى إلى نجاح الثورة. وعلى أي حال فقد كان هذا الوضع صعباً على الوزراء وعلى عبد الكريم ومرافقيه من الضباط أنفسهم، وكثيراً ما كان عبد الكريم يفاجئنا بوضع يديه على وجهه مغطياً عينيه كما لو كان غافياً بعض الوقت ـ ربع ساعة أو تزيد قليلاً ـ ليأخذ قسطاً من الراحة يبدو أنه في أمس الحاجة إليها كحاجة بيولوجية.

ولهذا السبب فقد كانت القرارات السهلة ـ كما قلنا ـ ذات الاختيارات التي لا تنطوي على مسؤولية سياسية تصدر وتنفذ أولاً وكانت القوانين والتشريعات الهامة والتطورات في المسائل السياسية والاقتصادية بل وحتى الأمنية الهامة لا تصادف حظها من الدراسة والتدقيق بل تؤجل ثم يبت بها مفتقرة إلى الدراسة الكاملة والتأني والحذر والمشورة وكان هذا عاملاً سلبياً حقاً على حكومة قاسم وسلامة قراراتها وأولوياتها وإنجازاتها.

الفصل الثامن

عبد الكريم قاسم، الأولويات والصراعات

لقد استمر المرحوم عبد الكريم قاسم طيلة عامي ٥٩ و٦٠ وفيما قبل ذاك وبعده طيلة بقائه في السلطة مشغولاً يومياً بلا إجازة ليلاً إلى الصباح حيث يعود إلى داره في العلوية ليأخذ قسطاً من الراحة بعد بزوغ الصباح

ولمدة لا تتجاوز الأربع ساعات يومياً يعود بعدها إلى مزاولة أعماله في وزارة الدفاع ومقابلاته ومشاريعه هناك أو في محلات العمل الأخرى. لذلك لم تتهيأ له فرصة لمناقشة ووضع خطط أو خطوط عامة لسياسات الدولة في مواضيعها المختلفة بل كانت سياسة حكومة الثورة إنما تسير وفق الشعارات العامة للحركة الوطنية العراقية، أو كما يعلنها الزعيم عبد الكريم نفسه ويراها في خطبه الارتجالية بمناسبة القضايا الملتهبة التي تشغل الرأي العام.

لقد كانت هناك محاور أساسية كانت تدور حولها الخلافات بين القوى الشعبية الرئيسية من أنصار ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ بقيت متروكة تدور وحدها بلا قرار حسب شعارات الحركة الوطنية وهي شعارات عامة وقديمة وليس هناك نصاً رسمياً يحدد أبعادها إلا البيان الأول للثورة، مع أن الانعطافات والمناورات والتحركات التي لحقتها بعد الثورة كانت جديرة بالتدارس والحسم لتسويتها وإعلانها والعمل بموجبها وعدم تركها مكتومة أو شخصية تابعة لتوجهات قادة الثورة من ضباط أو جهات غير مسؤولة من محترفي السياسة من مختلف الميول والاتجاهات وخلال فترة كانت السلطة وأعضاؤها ـ وهم مشتتون سلفاً ـ مشغولون سياسياً وفكرياً وراء رأي عام بالغ الانقسام والخلاف نتيجة الظروف والمداخلات والمصالح الدولية والإقليمية والداخلية واختلاف الأيديولوجيات ولقد بقيت هذه المحاور بدون بحث جدي داخل مجلس الوزراء أو خارجه وتركت على عاتق القيادة المكونة في الأصل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ومن حولهما من رجال الثورة العسكريين المفتقرين أصلاً إلى النضج السياسي والحكمة والاستشراف لمثل هذه الأمور المعقدة.

لقد بقيت دون بحث جدي في المناخ العراقي السياسي وتركت على عاتق الخلافات والأطماع والأهواء مواضيع بالغة الأهمية في تقرير مستقبل الثورة والبلاد مثل:

١ ـ موضوع العلاقات الوطنية الداخلية وإدارة الدولة والتعامل مع

العهد الملكي ومنطلقاته ورجاله وقواه الاجتماعية، مثل الأقطاع وكبار المشايخ والمزارعين ورؤساء القبائل في الريف، ممن تأثروا وأضيروا بقانون الإصلاح الزراعي وبخطب المرحومين قاسم وعارف ضد الإقطاع والأساليب المتخلفة للإنتاج الزراعي، وبنشاط الحزب الشيوعي العراقي.

٢ ـ ما كان يشاع عن تأميم الصناعة والتجارة ومعاملة المستثمرين الصناعيين والمتمولين ووكلاء الشركات الأجنبية والكومبرادور الذين كانت أهميتهم الاجتماعية تتزايد نتيجة توسع الاقتصاد العراقي بتأثير زيادة الموارد المالية النفطية وتزايد الاستهلاك وتعميق وتوسيع وشائج ارتباط السوق العراقية استيراداً وتصديراً بالسوق الدولية التجارية.

٣ ـ مواضيع العلاقات العربية مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسورية) في ظروف أهمية وتوجه الزعامة الناصرية ودورها في قيادة مصر وسوريا، ودورها في الحركة التحريرية وحركة باندونغ عامة، وأهمية التقارب الاجتماعي والحدود المشتركة ومخاض التغيير في سوريا وعواقب ذلك السياسية والاجتماعية والاقتصادية في شمال العراق خاصة من ناحية دجلة والفرات وفي جنوبه بشكل عام ومصالح المواطنين هناك على جانبي الحدود.

٤ ـ يضاف إلى ذلك الموقف الأيديولوجي العراقي لدى التموزيين من الوحدة العربية وشعاراتها الشاملة من الخليج إلى المحيط، وعلاقتها بالقوى الدولية الشرقية والغربية وبمحور الصراع حول السلطة في أوساط الرأي العام العراقي وفي أوساط الجيش بين العسكريين ومن يرتبط بهم من الجهات السياسية داخل العراق وخارجه.

٥ ـ وقد كان الموقف من القضية الفلسطينية المتصلة بمحاور السياسة العربية والداخلية والدولية جديراً بالتشاور والمدارسة لا سيما بعد بروز الصراع داخل البيت الفلسطيني العربي، وعودة الهيئة العليا بشخصياتها التقليدية إلى ميدان السياسة العربية بعودة مفتي فلسطين الحاج أمين

الحسيني وبعض مساعديه إلى الميدان السياسي العربي بعيداً عن القوى الناصرية الجديدة في فلسطين.

٦ ـ العلاقات مع الدول الاشتراكية بعد أن أصبحت الظهيرة الأساسية لحركة التحرر العربي منذ حرب ١٩٥٦ مع انكلترا وفرنسا وإسرائيل ـ نوعيتها واتجاهاتها ووتائرها والعلاقات الخاصة بقواها ومحاورها المختلفة لا سيما في مشارف عهد الخلاف (الصيني ـ السوفييتي) الذي بدت مظاهره إلى العلن ببداية سنة ١٩٦٠ واتضح تأثيره في السياسات الدولية منذ ذلك الحين.

٧ ـ السياسات التجارية والعلاقات الاقتصادية مع التكتلات الدولية المختلفة لا سيما التناقض بين أسواق العراق التقليدية في الغرب استيراداً وتصديراً واستثماراً وبين الأسواق الجديدة ومساعي الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث لبناء علاقات اقتصادية مع السوق العراقية والصعوبات التي صادفت ذلك في العراق والخارج.

٨ ـ السياسة النفطية وأهمية ودور العلاقات الداخلية والخارجية مع شركات النفط المنتجة وأهمية الدور العراقي في الاقتصاد النفطي الدولي، وطاقة العراق في تنفيذ سياسة نفطية مستقلة في ضوء الموارد النقدية النفطية وتأثيرها على الوضع المالي للخزينة العراقية والضغوط التي تمارسها شركات النفط بشأن تنفيذ سياساتها وسياسات دولها بالنسبة للعراق.

٩ ـ السياسات الخليجية عشية انسحاب القوى الاستعمارية البريطانية واستحداث سياسة نفطية جديدة، وانعكاس ذلك على الوضع في الكويت والسعودية واليمن وعُمان في ضوء تحركات السياسة الناصرية ومخاوفها ومقاومة القوى الاستعمارية لها.

١٠ ـ العلاقات مع المحاور المقابلة للسياسات السوفييتية ـ الناصرية والدول ذات العلاقة بهذه المحاور من عربية وإقليمية كالأردن وإسرائيل وتركيا وإيران ودول الخليج.

١١ ـ العلاقات مع القوى الإسلامية الشعبية والدولية التي نشطت وسمح لها بالعمل مقابل الدعوة الشيوعية من ناحية أيديولوجية ومادية وإن كانت القوى الإسلامية لم تتبلور كقوى مسلحة صدامية بعد كما حدث في الحقب التالية.

وفي غير قضية النفط التي درست باستفاضة من قبل لجنة مفاوضات النفط في مراحلها المتعاقبة، ورسمت لها أهداف تقنية وسياسية وأهميتها في إعداد ميزانية الدولة المالية الضرورية لسير الحكم في العراق ـ فإن المحاور الأخرى لم يكن ممكناً دراستها والنقاش حولها بناء على الافتقار إلى الأجهزة اللازمة لإعداد الدراسات الأولية والأصلية لها، ولأن كثيراً من الوزراء لم يجدوا ضرورة لعرض هذه المشاكل ومناقشتها والاتفاق عليها بسبب افتقارهم إلى الخيال والعزيمة السياسية لمعالجة هذه المشاكل الملتهبة في وقت كان فيه زعيم الثورة عبد الكريم قاسم راضياً بل راغباً في السكوت عن هذه المحاور لكثرة مشاغله وعدم انتظام وقته وأجهزته وقصور خياله أيضاً.

لذلك فقد كادت هذه المحاور إنما يبت فيها الوزراء بناء على ما هو معلن من شعارات الحركة الوطنية العامة وغير المحددة رسمياً وكان هذا العنصر احد الأسس التي تقود بوصلة المرحوم عبد الكريم قاسم إضافة إلى تأثيرات المواقف الآنية للقوى السياسية المؤثرة في الساحة السياسية العراقية والتي كان المرحوم عبد الكريم قاسم أعرف بها لاتصاله بأجهزته الأمنية والسياسية لحكومة الجمهورية وإلى العنصر الأساسي من عناصر التوجه والقرار القاسمي القاضي بالمحافظة على سلامة الثورة والشعب العراقي والدولة العراقية، وعدم وضعها في مقابلة مسلحة مع القوى الدولية المناهضة.

وفي ذلك فقد كان المرحوم عبد الكريم قاسم شديد التخوف والحذر من تصرفات القوى الاستعمارية الأوربية القديمة ومن قدرتها على خلق المشاكل للثورة الوليدة ورجالها وللشعب العراقي، وكثيراً ما عبر المرحوم

عبد الكريم عن هذه المخاوف بمهاجمة الاستعمار ومؤامراته وضغوطه التي تستمر ما دام الحكم استقلالياً متحرراً، وكان هذا التخوف ديدن كثير من العراقيين المتعلمين والشعبيين المؤمنين بها من غير المتعلمين أيضاً. وإني لأتذكر ذات مرة أني قدمت هدية إلى المرحوم عبد الكريم ساعة منضدية سويسرية ملحق بها جهازي بارومتر وترمومتر واعتذرت بعدم معرفتي بقياس ملابسه أو أحذيته لأجلب له هدية شخصية من الأحذية والملابس من سويسرا ـ عند زيارتي إياها ـ فأجاب المرحوم عبد الكريم (إنه سيبقى بالملابس العسكرية (الخاكي) إلى أن يقضي الاستعمار على حياته).

وبالإضافة إلى هذه العناصر التي كانت تقوم بديلاً عن دراسة ووضع برامج كافية من قبل مجلس الوزراء، فإن عبد الكريم في إدارته الدولة وتكوين وزاراتها وأجهزتها ـ كان محافظاً، غير مؤمن بالتغييرات الواسعة والسريعة ـ وكان لهذا المزاج ـ دور سلبي في كثير من الأحيان، لأن سياسات حكومته وقد كانت سياسات جديدة كانت تحتاج لتنفيذها إلى إدارات وأساليب وحوافز جديدة أيضاً، ولعل السبب فيما كان يبدو على المرحوم عبد الكريم من محافظة وتفضيل للقديم المجرب على الجديد غير المجرب.

كانت تجربة عبد الكريم قاسم خلال السنتين الأوليتين من عمر الثورة مع زملائه من السياسيين والوزراء، في إنشاء وزارات ومديريات عامة وأجهزة جديدة، ضخمت الملاك وألقت أعباء مالية أضعفت السلطة في سياساتها العامة وأضعفت قبضتها على الحكومة وخصومها في الداخل والخارج، ومع ذلك فإن الأجهزة الجديدة لأسباب سياسية أو سلطوية، وإدارية أو حتى شخصية لم تستطع أن تقوم بواجباتها الإدارية أو ان تحقق أهدافها التامة اذ تراجعت الإدارة في هذه الأجهزة الجديدة وزادت نفقاتها وانحسرت إنتاجاتها مقارنة بالأجهزة النشطة الصغيرة المتخلفة من العهد الملكي، والتي كانت الإدارة المدنية فيها Civil Service قد بلغت في ذلك العهد دوراً هيأ لها أن تحتل المرتبة الأولى بالمقارنة بالبلاد المجاورة جميعها - وإني لأذكر ـ أني شكوت له مرة صعوبة العثور على مدراء مؤهلين بالمعارف والشهادات لإدارة الإدارات الاقتصادية التابعة

لوزارة التجارة بسياساتها الجديدة التي تستهدف التعريف بالإنتاج العراقي وتصريفه ومعرفة الاستيرادات الجديدة المنافسة وتسهيل جلبها إلى العراق أن قال لي بحزن وأسى (لو كنت حاضراً الضغوط التي سلطت عليّ لتقسيم وزارة الاقتصاد إلى وزارة للصناعة وأخرى للنفط وأخرى للتجارة وإلى تشكيل وزارتي الإصلاح الزراعي والزراعة وغيرها لتصورت الآن مدى الظلم الذي وقع عليَّ من قبل الوزراء والعناصر السياسية التي ألحت وحظتني على الموافقة على ذلك).

كما أذكر عندما رفض المرحوم عبد الكريم في سنة ١٩٦٠ اقتراحاً للجنة تنسيق الملاك الحكومي التي شكلها مجلس الوزراء برئاسة عبد الجليل برتو رئيس مجلس الخدمة العامة لتنسيق ملاك ديوان مجلس الوزراء ـ الموروث من العهد الملكي ـ بالرغم من تجميده وجعل رعايته من اختصاص مكتب وزير الدفاع من الضباط المرافقين لعبد الكريم قاسم، وبالرغم من أن عبد الكريم هو الذي شكل اللجنة، وكان واثقاً بالمرحوم عبد الجليل برتو وبأعضاء اللجنة الباقين وكان الهاجس الوحيد وراء رفض اقتراحهم هو ولعه بالمحافظة على الترتيبات القديمة لا غير.

وإني لأتذكر أيضاً كمثال على قياس ما يستجد من مشاكل سياسية، واقتصادية على حلولها الموضوعة لها والمسطرة في البيان الأول للثورة وغيره، من شعارات الحكومة الوطنية القديمة في العراق، عندما اقترحت عليه أول استيزاري في وزارة التجارة وبصورة رسمية بكتاب إلى مجلس الوزراء موجه باسم (رئيس الوزراء) وليس سيادة الزعيم ـ كما كان يحب دوماً أن يخاطب ـ بأن يرفع من أسعار التمور المحتكرة من قبل الحكومة تشجيعاً لإنتاج التمور المحتكرة ولاحتمالات تحسينها، واستجابة لرغبة الناس وانتظارهم لتحسين أحوالهم المادية ومواردهم ـ التي هي في البصرة تنحصر في إنتاج ثمرة التمور منذ قديم الزمان ـ وذلك بعد أن حل العهد الجمهوري وتطلع الناس إلى تحقيق آمالهم. وقد استعملت في الكتاب الرسمي لزيادة أسعار تمور الاحتكار عبارة (ملاكي التمور) دلالة على المنتجين وانعكاساً لمعنى كلمة (الملاك) في البصرة التي لا تعني أكثر من

مفهوم قانوني هو الحق القانوني في تمور منتجة ـ مهما كانت كميتها ـ حتى لو كانت جزء مشاعاً من ثمرة نخلة واحدة مملوكة مشاعة ـ ولا تعني مفهوماً طبقياً ينطوي على السعة والغنى والثراء، إذ كان العمال والسواقون يعتبرون من ملاكي النخيل إذا كانت لهم حصص مشاعة من عدد معدود ومحدود من النخيل في بستان أو حديقة ـ ولما أن قرأ المرحوم عبد الكريم كتابي انتفض قائلاً (أنا نصير الفلاحين ومالكي الحصص الصغيرة في النخلة الواحدة ـ وإني أرفض الزيادة في أسعار الاحتكار لأن ذلك يحتاج إلى دراسة أعمق، وقد سبق لنا في العام الماضي أن وافقنا على زيادة سعر الاحتكار الذي تدفعه الحكومة عما تتسلمه من التمور.

وكانت النتيجة خسارة الخزانة العامة لعدم بيع التمور بسعر شرائه (سعر الاحتكار) وكانت لائمة المرحوم عبد الكريم تنم عن مواجهة حادة ـ أول دخولي الوزارة ـ لأني وقفت موقفاً قوياً من تأييد فكرة زيادة أسعار الاحتكار لا سيما بعد أن شرحت جهود الحكومة في فتح الأسواق الجديدة للتمور في أوروبا والدول الاشتراكية وأن الموضوع له علاقة بالسنة الماضية والسلفة التي دفعتها الخزانة العامة لأنها تتعلق بتمور الفرات الأوسط من الزهدي ـ وليس بتمور البصرة وأسواقها التقليدية، وقد عوتبت على المواجهة بيني وبين المرحوم قاسم حول هذا الموضوع ـ والتي لم تتعد تأجيل الموضوع والإشارة على اقتراحي بإشارة بخط المرحوم قاسم بأن (يدرس مجدداً) ـ إذ عاتبني على ذلك ابن عمي المرحوم الدكتور محمد الشواف وصديقي الدكتور إبراهيم كبة وزير الاصلاح الزراعي ـ الأمر الذي حملني على إنهاء المواجهة والخلاف بمقابلة منفردة ومستقلة، وتعمقي معه بشرح الموضوع حيث وافق على زيادة سعر الاحتكار لتمور البصرة موسم سنة ١٩٦٠ بمعدل يناهز ٢٠٪ من سعر السنة الماضية وانتهت المشكلة بذلك.

لقد جاء ذلك العتاب بعد أن كان عبد الكريم ـ على العادة ـ قد طرح الموضوع على المرافقين من الضباط بعد انفضاض اجتماعنا، لأن أحد المتصلين بهم جاء يمدح موقفي من الإصرار على زيادة الأسعار في اليوم التالي حيث أنكرت أمامه أي إدعاء برغبتي في المواجهة مع الزعيم لا

سيما في تلك الأيام التي كانت تدور فيها محاكمة المتهمين بموالاة ابن عمي عبد الوهاب الشواف حيث كانت سيرته تتردد على لسان رئيس المحكمة المرحوم المهداوي[١] وما يرافق ذلك من التقريع والهجاء والتشهير وأني بمناسبة هذه الحادثة لأقسم بأني لم أجد أكثر أدباً من المرحوم عبد الكريم في تعامله مع مرؤوسيه أو وزرائه أو ضباطه أو مرافقيه أو جنوده أو أي من البشر الآخرين المرتبطين به، كما لم أجد أكثر وداً وتودداً ومنطقية منه، وأبعد عن المهاترة والتهديد أو التلون ولم أره خلال تعرفي عليه لبضعة سنوات يتفوّه بعبارة واحدة من السباب أو الشتيمة أو يسيىء الأدب مع أحد حاضراً أو غائباً رغم تصرف البعض من العاملين بالسياسة ضده.. حتى أنه لم يذكرهم بصراحة أو يحمل عليهم في خطاب أو حديث عام أو خاص بما ينم عن السباب والتقريع. وغالباً ما كان يعفو عنهم ويردد دائماً عبارته المشهورة (عفا الله عمّا سلف).

الفصل التاسع

عبد الكريم قاسم في مواقف خطرة

إن حياة المرحوم عبد الكريم قاسم الحافلة بالأحداث الهامة في تاريخ

(١) المهداوي: العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب التي تشكلت في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ لمحاكمة سياسات العهد الملكي عن طريق محاكمة شخوصها ومنفذيها، وانتهت إلى الخوض كطرف ـ في الخلافات والخصومات التي نشأت بعد الثورة، وبذلك فقدت المحكمة مبرر كونها وسيلة إعلام ودعاية للثورة وأصبحت ـ على العكس من ذلك ـ وسيلة إعلام ودعاية لانحراف الثورة عن مبادئها وتضامن ضباطها وعن المبادئ التي أعلنتها وعن مبادئ العدل وآداب المحاكمة وسلوكياتها مما يضمن احترام المتهمين والناس والمجتمع عامة للمحكمة وقراراتها، وهذا ما انتهت إليه محكمة الشعب العراقية في داخل العراق وخارجه، وقد يكون للدعاية الناصرية والغربية أثر في ذلك ولكن المحكمة على حقيقتها لم تستطع القيام بدورها حسبما هو مرسوم لها بنجاح بالرغم من طيبة رئيسها ووطنية توجهاته وإخلاصه.

العراق ـ تنطوي على معالم كثيرة متعددة من المواقف السياسية والعامة، والمواقف الشخصية تدل على تمسكه بشعارات الحركة الوطنية العراقية التي تبلورت ونضجت منذ أواسط العهد العثماني في القرن السابع عشر، كما تبدو في علاقاته وتصرفاته بشكل عام وذلك لما تنم عليه علاقاته في الحدود التي تكونت تاريخياً لتحديد صيرورة شخصيته وتاريخه، وذلك مثل حفظ الهوية الوطنية للتراب العراقي بحدوده المائية والبرية وللعراقيين أيضاً والخوف من الغربيين المستعمرين وطاقتهم التنظيمية في تدمير العراق وغير ذلك من الهواجس التي كانت تسير المرحوم عبد الكريم وتملأ حياته وتلون أحداثها. وبالرغم من أن الأمثلة على هذه المعالم لا يمكن حصرها إذ يدخل فيها مزاج عبد الكريم الخجول والمتواضع والوفي والقنوع والمحب للخير والاختيار، وأخلاقه ونزعاته البسيطة، فإن أحداثاً مركبة تشمل مواقفاً سياسية واجتماعية يمكن النظر إليها وتقييمها في هذا الإطار أيضاً.

إن موقف المرحوم عبد الكريم من قانون الأحوال الشخصية الذي عدل بعد وفاته عام ١٩٦٣، ومن زيارة ميكويان، ومن السياسة النفطية، ومن مشكلة الكويت، ومن العلاقات مع ايران أو من العلاقة مع عبد الوهاب الشواف والناصريين ومن علاقته بقضية إعدام ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري ومع بقية زملائه من الضباط التموزيين أو من عمليات البناء الصناعي، وشركات الصناعات الخفيفة وإعادة التأمين العراقية، وغير ذلك من مسائل نظرته إلى النضال الفلسطيني، والعلاقات التجارية مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا)، ومع عبد الوهاب الشواف وأخيه الدكتور محمد الشواف، وطبيعة الاجتماعات الليلية لمجلس الوزراء والغذاء على مائدة الزعيم ظهراً، وطريقتها المتواضعة، وقانون الجمعيات لسنة ١٩٦٠، وقانون انتخاب النواب، والدستور الدائم وتأسيس مصلحة المبايعات وتشجيع تصدير السمنت وإنشاء صناعة الرخام، وتعيينات الموظفين وفتح الأسواق أمام الحبوب والتمور ووضع تجارة الاستيراد في خدمة التصدير، وأهمية المرافقين من الضباط في اتخاذ القرارات وفي كونهم حقاً قنوات الاتصال سلباً وإيجاباً مع الرأي العام، وثقته بمرافقيه

ووضعهم بالتقابل يراقبون بعضهم بعضاً ـ وكان هذا عاملاً سلبياً لأنه دل على عدم ثقة المرحوم عبد الكريم بأي منهم، ثم استقالتي من الوزارة أوائل سنة ١٩٦٠ ثم من البنك المركزي آخر سنة ١٩٦٢، ودعوة رشيد مطلق وحبه للمقام البغدادي وما كان الوضع المالي يفرضه من الضغوط على عبد الكريم وإدارته وأهدافهما، وهي أكثر المواضيع التي تنم عن طبيعة مزاجه الشخصي والسياسي والتي تكون أمثلة على تقيده بالشعارات الوطنية التي تكونت عبر تاريخ الحركة الوطنية وتاريخ عبد الكريم وعلى تطور شخصيته علاوة على أصالته البغدادية العراقية العربية وسأحاول في نفس هذه الفقرة أن أشرح بعض هذه المواقف وألقي نظرة مختزلة تساعد على الإفصاح عن السريرة والنوايا الداخلية للمرحوم عبد الكريم.

ففيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٦٠ والذي ساوى بين نصيب الذكور والإناث في الميراث، كانت قد نشأت وتبلورت بعد تشكيل الحكومة الوطنية في العراق سنة ١٩٢٠ مطاليب مؤثرة في الرأي العام وأوساط البغداديين وأهل البصرة والفرات الأوسط وغيرها من بلاد الرافدين ترفض الطائفية المذهبية والتمييز الذي كان يسود المذهب الرسمي العثماني وتدعو إلى المساواة والعدالة في الحقوق الرسمية والعرقية التي شرعتها السلطة ويرتبها فقهاؤها والتي تتنافى مع مبدأ المساواة في الحقوق ومع منطلقات استقلال العراق وتمتعه بالسيادة الوطنية، علاوة على مبدأ تساوي الرجال والنساء ما كان ينادي به المثقفون باعتباره علة التقدم للمجتمع في العراق، وقد أدى تزاوج هذين المطلبين إلى الدعوة إلى تقنين أحكام الأحوال الشخصية وتوحيدها في مجموعة واحدة تضم أحكام النكاح والموارث، بعد أن كانت قد تركت إلى أقوال الأئمة من فقهاء المذاهب المختلفة، وتضارب أقوالهم وصعوبة الوصول إلى الحدود والنسب في المواريث التي كانت تقتضي في بعض تطبيقاتها معادلات حسابية، والتي جاء في الحديث الشريف عنها أن الفرائض أول علم يرفع من الأرض وقد أنشأت وزارة العدل في زمن العهد الملكي لجنة لتقنين وتوحيد أحكام الأحوال الشخصية لم تكمل عملها إلّا في سنة ١٩٦٠.

وقد جاء في حينه فقيه اللجنة ورئيسها المرحوم الأستاذ شفيق العاني إلى مجلس الوزراء لدراسة اللائحة ثم تشريعها، وقد كان عمل اللجنة قد أحال في غالبية الأحكام الخلافية بين المذاهب على القول الصحيح لفقهاء المسلمين وبذلك أبقى المسائل الخلافية ولم يحسم فيها برأي، وإن كان قد جمع الأحكام ضمن دفة مجموعة واحدة، كما أنه لم يبحث في مسألة الفرائض والمواريث أصلاً وتركها للقول الصحيح الشرعي على حالها، مع أن ذلك كان من أسباب تكوين اللجنة وكان المتوقع منها أن تحسمه برأي موحد يتفق مع تطور الظروف الاجتماعية والدعوة إلى التنمية وحقوق المرأة وغيرها من الظروف الاجتماعية والاقتصادية مستجدة نتيجة تطور الوعي في العراق، ولما أن أثرتُ هذه النقاط بعد إكمال تلاوة المشروع واستشهدت بما فعله المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهوري في القانون المدني عندما عالج قضية الميراث في الأراضي الأميرية المفوضة بالطابو بأحكام قديمة كان قد استند في وضعها إلى فتوى تقول إنّ الإرث في الأراضي الأميرية ـ هو إعادة تخصيص هذه الأراضي للمتصرفين بها وليست إرثاً بالمعنى الفقهي الإسلامي ـ.

وقد جلب المرحوم عبد الكريم القانون المدني واطلع على القسم الخاص بانتقال حقوق التصرف في الأراضي الأميرية المفوضة بالطابو، وبما تنطوي عليه من البساطة ومن المنطقية وسهولة الفهم، واقترح وطلب إضافة المواد ـ كما وضعها السنهوري في القانون المدني إلى قانون الأحوال الشخصية، لتطبق على المواريث كلها وبذلك نكون قد أكملنا نقص عدم وجود قسم للميراث في المشروع، علاوة على توحيد أحكام المذهبين السني والجعفري في هذه المسألة الهامة من مسائل الحياة، وقد أوضحنا ـ في حينه مخالفة هذا التوجه إلى نصوص آمرة في الشريعة الإسلامية إذا ما عممت هذه الأحكام على الموروثات كافة ـ وذلك أثناء النقاش وفي اليوم الثاني عندما ذهبت إليه بصحبة الأستاذين محمد حديد وزير المالية وهاشم جواد وزير الخارجية شارحين له وجهة نظرنا بأن المعارضة الإسلامية كانت نشطة في مزاعمها بأن الحكومة كافرة أو غير مهتمة بقيم الدين! ـ مما كان قد اضطر المرحوم

قاسم في حينه إلى القيام بإجراءات واضحة لتكذيب هذه المزاعم، وأن ذلك من الناحية السياسية سيلحق ضرراً بالحكومة يحرجها سياسياً وقد رفض قاسم هذا الاتجاه مستنداً إلى رأي أبداه رئيس مجلس السيادة اللواء نجيب الربيعي، بأن الإرث وتحديده قد جاء في القرآن بصيغة الوصية (يوصيكم الله. . .) وأنه لذلك جائز شرعاً مخالفة النصوص ـ حتى القرآنية ـ الواردة عن أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وكان ذلك أن صدر القانون كما ارتأى المرحوم عبد الكريم قاسم، مما أثار ضجة كبيرة في الأوساط الدينية وأوساط المعارضة في حينه جعلت من المهام الأولى لحكومة ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ إلغاء هذا الحكم وتعديل قانون الأحوال الشخصية. وكان المرحوم قاسم يعرض دائماً بعدم دقة اهتمامنا بالمعارضة الدينية لهذا القانون.

أما زيارة ميكويان فتندرج في إطار شعارات الحركة الوطنية القائمة على عدم الإنحياز والاستفادة من التناقض بين الدولة المستعمرة (إنكلترا وحلفائها) وبين المعسكر الاشتراكي الذي كان يسند المواقف العربية والعراقية باستمرار، فقد جاء إليّ المستشار التجاري في السفارة السوفييتية (بتروف) طالباً رأي الحكومة العراقية بإقامة السوفييت معرضاً سوفيتياً في أرض المعارض في كرادة مريم يحضره ويخطب في افتتاحه أحد كبار المسؤولين السوفييت، وقد وافق عبد الكريم قاسم على هذه الفكرة باعتبار أثرها في الصراع والتنافس القائمين بين المعسكر الاستعماري الغربي وبين العراق ومؤيديه في المعسكر الاشتراكي وأثر ذلك في دعم المقاومة العراقية ضد الاستعمار.

ولما أن تم بناء موقع المعرض القريب من دار الإذاعة في كرادة مريم بالكرخ وحل موعد افتتاح المعرض من قبل ميكويان تأخر المرحوم عبد الكريم قاسم في الحضور لحفلة الافتتاح ثم حدثت جلبة علمنا ـ فيما بعد ـ أن وزير الخارجية المرحوم هاشم جواد قد وصل ثم رجع إلى سيارته لخطأ بروتوكولي بسيط جرى أثناء استقباله من قبل مسؤولي الاستقبال في باب المعرض. ثم جاء المرحوم عبد الكريم بعد دقائق انتظار وضعت المسؤولين السوفييت، (السفير زايتسف) والمستشار (بتروف) (والسيد

ميكويان) في مأزق حقيقي لعدم وجود عراقي يرد على خطاب ميكويان الافتتاحي ـ بعد أن كان المرحوم قاسم قد وعد بأن يكون هو المفتتح للمعرض في خطاب يرد فيه على خطاب ميكويان.

لقد بدأت مراسيم الافتتاح وخطب السيد ميكويان مشيراً إلى نجاحات الاتحاد السوفييتي ومقارناً بينه وبين أميركا سنة ١٩٧٠ في دعاية واضحة للحياة والتقدم في الاتحاد السوفييتي، ولما أن جاء دور المرحوم قاسم أكد على أن عربة العراق لا يمكن أن يجرها إلا جواده، وأن العراق في سنة ١٩٧٠ سيصدر العلماء والفنيين، وغير ذلك من تزكية للعراق وابتعاد عن الأحلاف والحرب الباردة والمعسكرين العالميين المتنافسين مما أثار الاستياء لدى العناصر التي كانت تؤيد المواجهة بين العراق والمعسكر الغربي الاستعماري، وإني لأذكر أن في مساء ذلك اليوم بعد منتصف الليل سألني ـ المرحوم قاسم ـ ونحن في سيارته أثناء عودته إلى بيته عن خطابه فقلت له: (إن الخطاب وما فيه جواب جيد لو كان هناك سؤال) ولكن السوفييت لم يكونوا في واجهة المنافسة مع العراق، وإنما مع المعسكر الأميركي والخطاب موجه لهم، فكان جواب المرحوم قاسم أعلم أن الأمر قد انتهى ولا أهمية للنتائج، وذلك باللّهجة البغدادية العامية التي تعبر عن هذا المعنى بوضوح ودقة أكبر.

لقد كان لما حدث أثناء افتتاح المعرض ولخطابي المرحوم عبد الكريم والسيد ميكويان ومضامينهما وما يحملان من المعاني والظلال ولنشاطات السيد ميكويان في زيارة الوزارات والقطاع الخاص الصناعي والتجاري العراقي وحتى في وزارة الدفاع: (إذ لاحظ ميكويان القميص المخضب بالدم المعلق في غرفة مجلس الوزراء) بعد المؤامرة لاغتيال قاسم وإطلاق الرصاص عليه في شارع الرشيد تصرف غلبت الناحية الشخصية باهتمامه بالقميص والدم كما ذكر كل شيء في موسكو كما أخبرني سفيرنا المرحوم عبد الوهاب محمود، ولكن من غير المعروف إلى اليوم ما هو السبب في كل هذه التعقيدات التي لحقت بزيارة ميكويان وكان من نتائجها أن كشفت عن حقائق الوضع وصراع القوى أمام السوفييت بعد

أن كانوا يتصورون أن الصراع في العراق أقرب إلى أن يكون محسوماً لصالح اليسار والقوى التقدمية، أما انطباعي الشخصي فهو أن رد فعل المرحوم قاسم على خطاب ميكويان وكان من أسس الأزمة في تلك الظروف ـ كان بتدبير من وزير الخارجية المرحوم هاشم جواد الذي كان لا يرى من صالح العراق أن يظهر انحيازه للمعسكر السوفييتي بشكل واضح وقد تكون إقامة المعرض في الأساس لم يؤخذ بها رأي وزارة الخارجية.

الجدير ذكره كان اجتهاد المرحوم قاسم متفقاً مع شعارات الحركة الوطنية العراقية ومع المحاور الأخرى لسياسته في الحذر من السياسات الغربية الاستعمارية والمحافظة على مصالح العراق والعراقيين ووجودهم وحياتهم الاقتصادية وقد كان يلخص سياسته ـ وهي هدف قانون رقم ٨٠ سنة ١٩٦١ وقانون تأسيس شركة النفط الوطنية ـ بأن الضغط على شركات النفط الامتيازية إلى حد لا ترى فيه تلك الشركات من مصلحتها إغلاق آبار النفط وقطع مواردها عن الخزانة العراقية، وقد كانت هذه السياسة تدرس جيداً من قبل لجنة الموظفين والمختصين في وزارة النفط والمهتمين من الضباط العسكريين، وكانت السياسة النفطية تدور في تلك الظروف اعتماداً على هذه المبادئ الأساسية.

أما قضية إعدام المرحومين ناظم الطبقجلي، ورفعت الحاج سري وجماعتهما فقد كانت بالنسبة للمرحوم عبد الكريم قاسم مأساة حقيقية، إذ استمر لبضعة أيام حزيناً وبائساً وعصبياً بعد تنفيذ الحكم بإعدامهم ولم يبارىء ـ كما لم يجرأ أحد على مفاتحته بظروف هذا الحادث وعواقبه وأسبابه، وإن كان أكثر الوزراء والمرافقين العسكريين ومن بينهم الفريق نجيب الربيعي رئيس مجلس السيادة بقوا في حينه أياماً أيضاً وهم حزانى يائسين قرفين من الوضع الذي آلت إليه ثورة تموز ١٩٥٨، وذات ليلة بعد أسبوع، صرح قاسم في مجلس الوزراء أن المومى إليهما رفعت وناظم لم يتركا له خياراً في تنفيذ حكم الإعدام بما أن العفو عنهما كان معناه التطويح بثورة تموز ومكتسباتها وشعاراتها، وبذلك فقد ربط عبد الكريم بين تنفيذ الإعدام وبين شعارات الحركة الوطنية وواجبه في الحفاظ عليها

وصيانتها. ومهما كان هذا التشخيص صحيحاً أو خطأ ـ فلسنا في موقع المحاكمة التاريخية للمرحوم قاسم ـ لكن قاسماً هنا أيضاً ربط بين موقف رفعت الحاج سري، وناظم الطبقجلي وشعارات الحركة الوطنية.

لقد سمعت في حينه ـ أن المرحوم عبد الكريم من فرط حزنه وتأثره بعد تنفيذ الإعدام ـ أصابه نوع من الانهيار والخلل العصبي وحتى أنه طلب مرة ثلاثة أواني شاي في وزارة الدفاع وأمر بوضع إناء لرفعت وآخر لناظم وآخر له ليشاركهم في احتساء الشاي ـ بعد إعدام رفعت وناظم، وقد كان قاسم يكرر بعد مضي الأيام السوداء التالية لتنفيذ الحكم ـ إنهما أي رفعت وناظم قد دقا إسفيناً في ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ لا يمكن إلا أن يؤدي إلى إنهاء الثورة وشعاراتها بتقسيم الرأي العام في العراق ووحدته السياسية التي أدت إلى نجاح الثورة، وكان دوماً ـ رحمه الله ـ يكرر أنهما وراء موقف المرحوم عبد الوهاب الشواف من الثورة وقيادته لثورة الموصل التي لم تكن لتندلع لولا تحريضهما وإسنادهما ثم انسحابهما بعد ذلك وتركهما لعبد الوهاب وحده يلاقي مصيره ونهايته في الموصل بعد أن شجعاه على إعلان الثورة وانقسام الرأي العام بين الضباط والمدنيين بناء عليها.

كان هذا التحليل قد وردت عليه شهادات ودلالات في محكمة الثورة أثناء محاكمة المتهمين بتمرد الموصل، كما أنه وراء المعاملة الانسانية لعائلة عبد الوهاب ولأخيه محمد الشواف ودفن جثته وتسليمها للعائلة بعد نقلها من الموصل، وقد سمعت من العميد خليل إبراهيم مساعد مدير الاستخبارات العسكرية آنئذ، والحاج راشد الشواف[1] ابن عمي الذي استلم جثمان أخيه المرحوم عبد الوهاب من وزارة الدفاع ما يؤيد احترام

(١) الحاج راشد الشوّاف: أحد توأمين يحتلان المركز السابع والثامن في تاريخ ولادة أبناء عمي عبد الملك التسعة، إذ لا يصغرهما إلا القاضي المتقاعد ماجد.

ولد الحاج راشد في عام ١٩٢٤ وكسب لقبه (الحاج) بعد ذهابه إلى مكة مع أمه لأداء فريضة الحج. =

= بعد تخرج الحاج راشد من كلية الحقوق في بغداد ـ على يد الأستاذ الكبير منير القاضي ومجموعته ـ بعد أن أكمل الدراسة الرسمية في ثانوية بغداد ـ انضوى إلى الحركة السياسية الوطنية العراقية في الموجة التي تصاعدت فيها تلك الحركة في الخمسينيات منتمياً إلى الحزب الوطني الديمقراطي وكان في الحزب من أنصار وتلاميذ الأستاذ المرحوم كامل الجادرجي رئيس الحزب، كما كان ـ في اعتقادي ـ من مصادر الإيحاء لأخيه المرحوم عبد الوهاب الشواف ومجموعته من الضباط الأحرار بالتقرب من الحزب الوطني الديمقراطي وزعمائه لأنهم الأقدر أخلاقياً وأيديولوجياً على تحقيق أهداف الضباط الأحرار في إقامة حكم اشتراكي عادل لمصلحة المواطنين في العراق جميعاً يؤمن بالاشتراكية والعدالة وإنصاف الناس.

وكان هذا سبب الإشاعة من أن عبد الوهاب كان قريباً إلى الجادرجي والحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي. عمل الحاج راشد ـ بعد تخرجه من كلية الحقوق ـ في وزارة العدلية نائباً للمدعي العام في محاكم بغداد لبضع سنوات، وهي وظيفة ليست بالبعيدة عما كان العراقيون بمختلف مستوياتهم واتجاهاتهم السياسية سيما الوطنيون منهم يلاقونه من عنت السلطة واتهاماتها ولا انسانيتها ومن اتهامات كاذبة ومخالفات للقانون في التحقيق والمحاكمات والسجون والمعتقلات، وكان الحاج راشد يعكس في رواياته وأحاديثه مشاعره الوطنية القريبة من الناس وتطلعاتهم سواء في العهد الملكي أو ما وراء ذلك في عهد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨. وفي عام ١٩٦٠ انتقل إلى وزارة الإصلاح الزراعي حيث تولى إدارة الإصلاح الزراعي في لواء بغداد وهي وظيفة إدارية تمتاز بكثرة نشاطها وتعقيداتها حيث أن أكثر الخاضعين للإصلاح الزراعي في العاصمة هم ليسوا بعيدين عن البورجوازية الصناعية والتجارية والعقارية والحكومية الوظيفية في العراق، وقد عمل الحاج راشد في مديرية الإصلاح الزراعي في بغداد مثالاً للعدالة والحياة العامة المنتجة المنصفة والإنسانية لجميع أبناء العراق بغض النظر عن كونهم فلاحين أو ملاكين أو مشايخ أو إقطاعيين أو منظمات فلاحيه، وكان في أواخر السبعينات قد أخبرني أن وزير العدل قد اختاره (مديراً عاماً للعدل)، ولما وافق على ذلك وباشر مهام وظيفته جوبه بتوجيهات مخالفة لتوجهاته الواسعة والإنسانية لا سيما في موضوع (التبعية) المتعلق بجنسية بعض القضاة وموظفي وزارة العدل، وغير ذلك من الإجراءات المتعلقة بمعاملة المواطنين من الرعية والموظفين والسلطة ـ مما لم يستطع المرحوم الحاج راشد تحمله نفسياً وعصبياً ـ فسقط ميتاً بالسكتة القلبية في مقر الوزارة في الأعظمية وقد أسف لموته أصدقاؤه وعارفوه واعتبروا موته خسارة حقيقية لما يتصف به من صفات العدل والإنصاف والمروءة =

عبد الكريم للمرحوم عبد الوهاب ـ (حيث كنت أثناء آذار سنة ١٩٥٩ في أوروبا في سفرة إلى معرض لايزك).

وإني لأتذكر الآن، أني قد تشاءمت لما أن أجاب المرحوم عبد الوهاب الشواف في المحكمة على سؤال المهداوي له ـ لماذا لم يطلق عبد الوهاب الرصاص ـ في العهد الملكي ـ عندما اندلعت المظاهرات الشعبية في النجف، فأجاب عبد الوهاب أن سوق النجف مثل (خان جغان)[1] وإني لم أستطع إطلاق الرصاص في السوق خوفاً على الأبرياء والناس فيه،

= والشهامة والتذوب في الناس لأصدقائه وأقاربه والأبعدين من الناس.

كان الحاج راشد قريباً من أبناء الكرخ من الشعبيين المليئين حماسة وشهامة وتواضعاً وبساطة مزاج وخلق رضي، وكان من المتبرعين المستعدين لأية خدمة اجتماعية لكل من يربطه بهم رباط مهما صغرت وضعفت وشائجه مما تقتضيه هذه الأخلاق، معيناً لكل الناس ـ لا سيما الضعفاء منهم، في حل مشاكلهم القانونية أو القضائية أو الاجتماعية أو في حل قضاياهم في المحاكم والدوائر الرسمية أو مساعدتهم أو الوقوف لهم أو التطوع لنصرتهم والاهتمام بهم في الأفراح والأتراح وإسداء العون والنصح الذي يستطيع ـ يرحمه الله ـ إبداءه إذا احتاجوه مما يذكره البغداديون من عارفيه إلى الآن.

(١) خان جغان ـ الخان في اللهجة البغدادية المتأثرة باللغات الشرقية الفارسية والتركية والكردية والمغولية وغيرها قد تأتي بمعنى السيد المحترم فهناك حسين قلي خان رئيس لورستان وصديقه خان (على الذكر والمؤنث) وهناك محمد أحمد خان بهادر من الهند جاء إلى العراق قاضياً ومحامياً في الاحتلال البريطاني أيام الحرب العالمية الأولى.

كما قد يراد بالخان النزل (الفندق) على الطريقة الشرقية القديمة حيث يعد الخان لسكنى المسافرين بالقوافل مثل (خان الكابولي) في الكاظمية ويبدو أن هذا المعنى انتقل إلى العربية الفصحى فيقول المرحوم الشاعر الكبير حافظ إبراهيم مخاطباً الإمبراطورة (أوجيني) زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا الذي ترأس مع زوجته حفل افتتاح قناة السويس، وقد زارت مصر مرة أخرى بعد خلع الإمبراطور في أيام بسمارك ١٨٧٠ فقال المرحوم حافظ إبراهيم مرحباً بها بعد أحداث الاستعمار في مصر أيضاً.

كنتِ بالأمس ضيفة عند ملك   فانزلي اليوم ضيفة في خان =

فانتفض المرحوم المهداوي وقال بصوته الجهوري مؤنباً عبد الوهاب: بأن النجف الأشرف مدينة الإمام علي ولا يصح تشبيهها بخان جغان، وقد استغل هذا التشبيه وألح عليه وحمله ما يحتمل من المعاني مع أن عبد الوهاب كان واضحاً في تشبيهه البغدادي بأنه إنما امتنع عن تنفيذ الأوامر العسكرية التي صدرت إليه من قيادة الفرقة في الديوانية، خوفاً على المارّة من أهالي النجف والزوار وحماية للنجف من أن تكون محلاً للقتل وإطلاق الرصاص، وقد أعجب الناس في حينه بموقف عبد الوهاب في حماية النجف الأشرف بامتناعه الشجاع عن إطلاق النار، واحتسب هذا موقفاً وطنياً في حينه أضيف إلى رصيد عبد الوهاب الوطني. وكان يتولى آنئذ قيادة حامية النجف، أما إلحاح المرحوم المهداوي في الرد على عبد الوهاب بقسوة وعنف فكانت كشفاً للعلاقة بينه وبين المرحوم عبد الكريم قاسم وسلطة الحكومة الثورية ونذيراً بتطور العلاقات بينهما إلى الأسوأ وإلى مصادمة دموية كما حدث بعد ذلك، وقد رأيت عبد الوهاب عصر يوم سماع شهادته وحملة المهداوي عليه ـ فوجدته هادئاً وكنت أتوقع بالنظر إلى طبيعته الحادة وصراحته وجرأته أن يكون منفعلاً، لكن هدوءه جعل شكوكي

= واعذرينا على القصور كلانا   غيرته طوارئ الحدثان

قد يراد بالخان بناء ذا فناء واسع يضم على أطرافه أو وسطه عشرات المخازن لتعاطي البيع والشراء لصنوف معينة من البضائع فيه على طريقة العصور الوسطى أيضاً مثل خان دلة وخان الشهبندر وغيرهما من أسواق بغداد.

أما خان جغان فيبدو أقرب للمعنى الثالث إذ هو بناء حول فناء مسقوف يقع في سوق التجار في قلب المنطقة التجارية ببغداد، وقد يكون عائداً لشخص اسمه (جغان) قد يكون من الملاك القدماء فيها، ويبدو أن هذا الخان الذي يضم عشرات المخازن لبيع القماش كان مليئاً ببضائع الأقمشة المتباينة الأنواع والأسعار والذي يؤمه آلاف الناس من بغداد وملحقاتها وقراها لشراء ألبستهم بالفرد أو الجملة على اختلاف طبقاتهم من العلية أو السوقة، الأغنياء والفقراء، النساء والرجال والأطفال، بحيث أصبح مضرب المثل بكثرة الناس الذين يزورون خان جغان واختلاف أصنافهم فيقال (مثل خان جغان) كناية عن ازدحامه بمختلف أنواع الناس.

في تصميمه على الاصطدام بالسلطة تزداد حيث توقعت أن هدوء عبد الوهاب هو هدوء مفتعل يخفي تدبيراً بإيقاف تصرفات السلطة عند حدها وإلا لبدا عبد الوهاب عصبياً هائجاً في سباب المهداوي.

العلاقات العراقية ـ الإيرانية:

أما العلاقات الإيرانية ـ العراقية التي تتميز بالإثارة للمشاعر: ذلك أنها أقدم علاقات بين قطرين وشعبين، تعود إلى الاف السنين قبل الميلاد، وهي كذلك علاقات وصلات في إطار حدود يناهز طولها ١٢٠٠ كم من الحدود التركية في الشمال إلى ضفاف الخليج في الجنوب. وبالرغم من التطورات التي مرت عليها ـ قبل الإسلام في عهد الميديين والساسانيين ودولة المناذرة في الحيرة في الصحراء العربية غربي العراق، ومن النزاع بين رجال القبائل العرب والسلطة الفارسية ومعركة ذي قار، ثم الفتوح الإسلامية والنزاع السياسي والثقافي الشعوبي بعد ذلك أيام الأمويين والعباسيين وما بعدهم ـ.

كانت العلاقات العربية ـ الفارسية تبلورت في عهد الصفويين وأصبحت إيران تمثل النقيض المقابل طائفياً لعرب العراق، وصار النزاع الإيراني ـ العراقي الذي كان من معالمه البارزة فتح بغداد من قبل الفرس والعثمانيين في عهودهم المختلفة مرات عديدة، في عهد الشاه إسماعيل الصفوي ثم ابنه طهماسب الذي انتهى بفتح بغداد من قبل العثمانيين بقيادة السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٤ ميلادية، ثم فتح الشاه عباس الصفوي بغداد واستعادتها من قبل السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٧ ميلادية، ثم حصار نادر شاه لها حوالي سنة ١٧٢٣ أيام الوالي أحمد باشا وسليمان باشا الزعيم الذي جاء من إسطنبول لنجدته، ثم في ١٨٣١م عندما جاء علي رضا باشا والي حلب لاستعادة بغداد من يدي الوالي داود أيام السلطان محمود الثاني وغير ذلك حتى العصر الحديث.

في مشارف الحرب العالمية الأولى واستقلال القطر العراقي تحت الإشراف البريطاني حيث تم في عام ١٩٣٧ حسم خلاف في عهد رضا شاه

بهلوي فيما يتعلق بطموحاته في شط العرب باعتراف العراق في عهد جميل المدفعي رئيس الوزراء، ووزير الخارجية توفيق السويدي بملكية إيران لجزء من نهر شط العرب محاذٍ للمحمرّة ومصفى عبادان، ومن ثم دخلت إيران العراق في عهد صفاء فجاء ميثاق سعد أباد، وميثاق بغداد ساعد عليه تغلب النفوذ الغربي ـ البريطاني على سياسات الشرق الأوسط والخليج.

في ثورة تموز سنة ١٩٥٨ ألغي حلف بغداد وخرج العراق من دائرة المحالفات السياسية الغربية إلى نقيضها وهي دائرة الحياد الإيجابي الموالي للمعسكر الاشتراكي، وفي تموز سنة ١٩٥٩ ولسبب لا أتذكره الآن ـ قام المرحوم قاسم بعد تحرشات واصطدامات حدودية، بإلقاء خطاب هام أثناء وضع حجر الأساس لدور الضباط في اليرموك ـ هاجم فيه إيران والشاه وكل الملوك هجوماً عنيفاً جواباً على ضغط إيراني كانت تحاول الحكومة الإيرانية فرضه كلما شعرت بضعف العراق ومواجهته المشاكل الداخلية لإجباره على الخضوع لضغوطها السياسية الحدودية وغيرها.

ان الجيش العراقي بفعل العقائد العسكرية الموروثة من العهد العثماني والسلوك الإيراني الإمبراطوري. كان يعتبر معاهدة ١٩٣٧ تراجعاً عراقياً عن حقوقه في شط العرب، ولم يكن تحسين العلاقات مع إيران (بصورة مباشرة) من شعارات الحركة الوطنية العراقية وإن كان الكثير من الضباط والرأي العام العراقي يرى أن النزاع مع إيران مدخل لإثارة النعرة الطائفية داخل العراق يصل إلى حد إثارة نزاع أهلي مميت من جهة وإن النزاع مع إيران مدخل أيضاً ـ لتدخل القوى الكبرى الأوروبية المتربصة في مداخل الخليج مما يهدد استقلال العراق واقتصاده واستقراره، وقد نجم عن كل ذلك علاقات سلبية مع إيران في زمن عبد الكريم قاسم رحمه الله، ولولا حنكة وزير خارجيته هاشم جواد وكفاءته وتخوفه وحذره أيضاً مثل الزعيم عبد الكريم من تدخل القوى الكبرى لتدهورت العلاقة بين إيران وعبد الكريم بعد انسحاب العراق من حلف بغداد والفورة الشعبية فيه ضد الغرب وأحلافه ومؤيديه.

لقد سمعت من صديق أثق بخلقه وكفاءته أنه لما نشب الخلاف بين المرحوم الملا مصطفى البرزاني وعبد الكريم قاسم في الستينات وسرعان ما وصل إلى مواجهات عسكرية خطيرة في شمال العراق ـ حاول الشاه استغلال الوضع للحصول على مكاسب سياسية فعرض ـ سراً ـ على عبد الكريم بواسطة الملحق العسكري الإيراني في بغداد ـ التعاون للقضاء على الثورة الكردية فجوبه برفض المرحوم عبد الكريم قاسم وقوله له (بأنه لا يتآمر ضد أبناء شعبه ـ يقصد الملا مصطفى والثورة الكردية) ـ إن الذي روى لي هذه الرواية هو الزعيم عبد الله العمري (صديق عبد الكريم وصديق الحزب الوطني الديمقراطي وعميد كلية الأركان في عهد المرحوم عبد الكريم).

إن سياسة المرحوم عبد الكريم كانت تستهدف ـ عدم توريط العراق في نزاع مسلح مع إيران ذي أبعاد داخلية طائفية عراقية، وأبعاد استعمارية تدخل في مفهوم السياسات الدولية والقوى الكبرى في الخارج، وبذلك فقد بقيت العلاقات العراقية ـ الإيرانية سلبية مؤجلة ـ بتأثير شعارات الحركة الوطنية العراقية وآراء الجيش في تلك الأيام. حيث كانت إيران من أقطاب حلف بغداد والمعسكر الاستعماري الغربي في المنطقة ـ ولم تتم تسوية العلاقات والخلافات الإيرانية ـ العراقية ـ حتى بعد حرب الخليج سنة ١٩٨٠ في عهد عبد الرحمن عارف والتوجه السياسي الغربي وبعد جهود إيرانية عراقية تميزت بالصفاء والحرارة بتأثير من شخصية عبد الرحمن البزاز تحسن العلاقات، ثم في عام ١٩٧٥ بعد مؤتمر الجزائر أيضاً في عهد الشاه.

على أن الموضوع الثاني الأكثر إثارة للمشاعر والعواطف في المنطقة هو العلاقة مع الكويت وذلك لطول أمدها ولأنها انتهت بنزاع مسلح هز النظام العراقي بكامله، وكان يجب أن لا يحدث في أي مكان في هذه المنطقة الحساسة بل بين بلدين عربيين شقيقين بأي ذريعة كانت.

عبد الكريم وقضية الكويت:

إن الكويت كانت قرية تقع على خليج الكويت المتفرع من خليج

البصرة يبعد ويناهز المائة كيلومتر جنوبي البصرة في الصحراء إلى الشرق من وادي الدهناء في الجزيرة العربية، وقد سكنت القرية في القرن الثامن عشر من قبل عشائر عربية من نجد اشتغلت بصيد اللؤلؤ والتجارة مع الهند وباقي بلدان الخليج بقيادة آل الصباح، وكانت أطماع الغربيين في أملاك الدولة العثمانية وتغلغل النفوذ البريطاني في الهند في الخليج في القرن التاسع عشر سبباً في تمسك مشايخ الخليج العرب ومنهم مشايخ الكويت باستقلالهم. وقد توطد النفوذ الاستعماري في موانئ الخليج وإيران والبصرة بعد اكتشاف النفط في مسجد سليمان في إيران وبناء مصفى عبادان، وكلها قريبة من حدود أراضي الكويت ومياهها.

لقد استمر الجيش العراقي ـ منذ العهد العثماني ـ ينظر إلى الكويت وأهميتها الاستراتيجية العسكرية باعتبارها تقع على طريق المنفذ العراقي إلى البحر وهو منفذ كان يتعرض للضغط باستمرار من قبل المطامع الإيرانية في شط العرب ويذكر لنا الرواة والمؤرخون أنه منذ زمن المرحوم مدحت باشا والي العراق العثماني الشهير في سنة ١٨٦٩ تم تجهيز جيش عراقي لفتح الإحساء والقطيف على الخليج وبهذه المناسبة زارت الحملة وأسطولها ميناء الكويت ١٨٨٧ في عهد الشيخ عبد الله الصباح ورفع العلم العثماني في الكويت اعترافاً بالسيادة العثمانية الإسلامية على مشيخة الكويت، ويقال إنها ارتبطت بالسيادة العثمانية على ولاية العراق التي كانت تضم ولايات بغداد والبصرة وشهرزور والموصل آنذاك.

على أن هذه التطورات قوبلت بتحرك وتنامي النفوذ البريطاني وأدت إلى عقد معاهدة ١٨٩٩ التي جعلت من الكويت بلداً مرتبطاً بالحماية البريطانية عملياً، وعند تشكيل الحكومة العراقية على يد السلطة البريطانية في الخليج، لم تر هذه السلطات من مصلحتها إنهاء قضية تعيين حدود كويتية ـ عراقية بصورة نهائية، وظلت مسألة الحدود عائمة غير واضحة طيلة عهد المرحوم الملك فيصل والملك غازي ملكي العراق بالرغم من أن الملك غازي الأول أثار ضجة إعلامية متأثراً بالدعاية التي كانت المانيا وايطاليا واليابان تثيرها بشأن التوسع القومي والالحاق بها، وذلك

باستخدام دار الإذاعة من قصره (قصر الزهور) وتوجيه نداءات كانت تدعو لإلحاق الكويت سيما بعد صدور اتجاه فيها يؤيد هذا الهاجس الاتحادي.

وبعد أن تم في الستينيات صدور قرار ببدء انسحاب الوجود العسكري البريطاني والسياسي، من الخليج، وفتح ملف الكويت ـ على حساسيته ـ نظراً لاكتشاف النفط في الكويت واستثماره من قبل شركة أميركية ـ بريطانية على الطاولة الدولية، وكان من رأي من أعلن رأيه من وزراء قاسم ومساعديه الاعتراف باستقلال الكويت وتزويدها بالماء بإحياء مشروع كان المرحوم نوري السعيد قد بدأ في بحثه قبل ثورة ١٩٥٨ لتزويد الكويت بالماء ثم مد الماء إلى موانئ الخليج الأخرى. وكان المؤمل أن تتطور الموانئ العربية في الخليج بعد تنميتها وإعمارها نتيجة واردات النفط المتزايدة بوتائر سريعة وبصورة هائلة وعجيبة، وربطها اقتصادياً واستثمارياً بالعراق، وقد بدا لنا في سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦٠ أن المرحوم عبد الكريم كان مقتنعاً بهذا الاتجاه جملة وتفصيلاً حتى أنه بحث موضوع الماء في مجلس الوزراء (العودة للاطلاع على مسودة اتفاقية تجهيز الكويت بالماء والمبالغ الرمزية التي حددتها الاتفاقية كمدفوعات للعراق عن الماء (دينار واحد فيما أظن) ـ فشرحت له أن هذا المبلغ ليس مقصوداً إنما هو طريقة حقوقية لمنع أي ادعاء مقبل بالتقادم أو بحقوق ثابتة مستقرة في الأرض والماء تجاه العراق.

وأذكر في هذا المجال أن أحد رجال المرحوم عبد الكريم اقترح تهيئة طيارتين من طراز (فيكونت) وهي أكبر طائرة لدى الخطوط الجوية العراقية آنئذ وعليها ما لا يقل عن المائة من رجال الدولة ورجال الأعمال العراقيين للتهنئة باستقلال الكويت وبالمبادرة إلى بناء علاقات رسمية وشخصية تشجع التبادل التجاري والاستثماري مع جنوب العراق والبصرة على الخصوص وتشجيع السياحة والسكنى لأهل الكويت في المحلات التي يذوبون حباً فيها على شواطئ شط العرب والبصرة. وكانت هذه التوجهات قد بدت في إجواء ملائمة جداً لا سيما بالنسبة إلى موقف قاسم إذ كان المرحوم عبد الكريم قد وافق على إعفاء الشيخ عبد الله المبارك من الرسوم

الجمركية على أثاث استوردها لداره التي بناها جنوب البصرة على شط العرب وهو القانون الوحيد الذي أصدره قاسم بالاعفاء من الرسوم الجمركية حسب علمي ـ والتي تفرض على الاستيرادات من الخارج (وقد كنت وكيلاً للوزير المسؤول عن الجمارك آنذاك) وقد راجعني بهذا الشأن صديقنا المحامي المرحوم سلمان محمد آل إبراهيم وكيل الشيخ عبد الله المبارك. ومما أذكره ـ الآن ـ أن وزير الخارجية الأستاذ المرحوم هاشم جواد قد بعث بأحد الأصدقاء من مؤيدي الثورة العارفين النشطين ورجال الأعمال لدراسة موضوع الموقف العراقي من استقلال الكويت عند تحققه وقد بقي المذكور عدة أسابيع في الكويت واتصل بالعديد من الناس وقدم تقريراً مؤيداً للاتجاهات التي ذكرناها في المبادرة بالاعتراف باستقلال الكويت وإسناده وتطوير علاقات سلمية تطورية بين البلدين.

لقد كانت سياسة المرحوم عبد الكريم قاسم في عدم الاعتراف باستقلال الكويت واعتبارها قضاء ملحقاً بالبصرة تمثل انعطافاً حقيقياً بالنسبة إلى ما كان يدورحولنا عن موقفه من هذه الأحداث، وليس هذا الانعطاف قاصراً عليَّ بل إن الأستاذ محمد حديد والدكتورة نزيهة الدليمي والدكتور محمد الشواف وغيرهم لم يعرفوا شيئاً عن السياسة الجديدة التي كونت عند إعلانها أزمة الكويت التي تفاعلت ضمن سياسات الجامعة العربية ثم هيئة الأمم المتحدة والتي انتهت بمقتل المرحوم قاسم واعتراف حكومة الجمهورية العراقية بدولة الكويت سنة ١٩٦٣.

ولقد روى لي المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي أن السفير البريطاني الشهير (تريفيليان) وكان آنئذ في بغداد قد روى له أنه فوجئ أيضاً بإعلان قاسم عن موقفه من الكويت واعتبارها قائمقامية ملحقة بلواء البصرة وأنه لم يدر ماذا يفعل وقضى الليله ـ بدون نوم ـ في العزف على البيانو إلى الصباح.

عبد الكريم قاسم ومشاريع التنمية:

ولعل في الاهتمام والفرح اللذين كان يبديهما قاسم بأي مشروع

تجاري أو صناعي يحقق استقلال العراق الاقتصادي ويعتمد على المواد الأولية المتوفرة في البلاد ما يعتبر دليلاً حقيقياً ومظهراً من مظاهر تقيد المرحوم عبد الكريم، بشعارات الحركة الوطنية التي كانت منذ القديم تدعو إلى تطور العراق صناعياً وتجارياً واستثمارياً، ولعل في اهتمامه بشركة الصناعات الخفيفة التي تأسست في سنتي ٥٩ ـ ١٩٦٠ ونجحت في تأسيس صناعة المطابخ والراديوات والتلفزيونات وأجرت اتصالات مع المصنعين في سويسرا والمانيا الغربية حول إنشاء صناعة المقاييس الكهربائية ومقاييس الماء والأنابيب الحديدية والعلف الصناعي، ومباركتها حتى ساهم أصدقاؤه من الضباط في حملة قوية للاستثمار فيها غطت الأسهم خلال أيام معدودة مما اضطره إلى تعديل قانون الشركات التجارية لقبول كل طالبي المساهمة بزيادة رأس المال.

لمن الأدلة على الاهتمام بشعارات الحركة الوطنية الصناعية والاقتصادية، وكذلك اهتمامه رحمه الله بالاتصالات الواسعة التي أجريتها في ألمانيا الغربية والاتحاد السوفييتي وأميركا، لإنشاء وتطوير صناعة سيارات «لوريات» تعتمد على الإنفاق العسكري وللوريات مع الاتحاد السوفييتي وللسيارات الصغيرة والكبيرة للركوب.

وأهمية ذلك في تطوير حركة التنقل الذي كان يسعى ويعمل لنموها ليل نهار، علاوة على اهتمامه باستخراج الرخام وكذلك بصناعة السيراميك في خطوطها الثلاث الطابوق الناري والحمامات وأواني الطعام، وقد قامت شركة جيكية في حينه بنقل المادة الأولية لصناعة السيراميك من منطقة صحراء الرطبة حيث صنعت من المادة الأولية العراقية ثلاثة (أطقم قهوة). أهديت للمرحوم عبد الكريم في وزارة الدفاع، وقد حصلت على طاقم واحد منها أخضر اللون ما زلت أعتز به إلى الآن ـ إضافة إلى اهتمامه بموضوع صناعة السمنت وتشغيل معامل السمنت بكامل طاقتها الانتاجية وإلى زيادة تصدير السمنت وفرض معونة من خزينة الدولة للمصدرين مقدارها ديناراً واحداً لكل طن من السمنت المصدر وأسس جهازاً مالياً لهذا الغرض.

وكذلك موضوع الجنائب التي تستطيع السير مشحونة بالمياه الضحلة لتأسيس طريق مواصلات نهري من جنوب العراق إلى وسطه عبر دجلة والفرات، واهتمامه بشركة النقل البحري وبواخرها حتى إن سمى إحدى بواخرها باسم (١٤ تموز) بعد أن اقترحت إدارة الشركة أن تسمي باسمه فرفض ذلك مفضلاً اسم ١٤ تموز على اسمه كما إنه اهتم بالموضوع الذي كنت مهتماً به والذي تقوم بتنفيذه الآن فقط دول مثل الجزائر وقطر وهو تصميم ناقلة لنقل الغاز المستخرج مع النفط بدلاً من حرقه بعد تسييله على ظهر الناقلة إذ طلبنا من شركة (كنودهنس) البحرية الاستشارية الدانمركية أن تدرس هذا الموضوع فقام ممثلها بمقابلة المرحوم عبد الكريم، وبعد أن درست الشركة الموضوع واقتصادياته، صممت باخرة لنقل الغاز تحول دون حرقه وضياع قيمته هدراً، وقد تطور هذا الموضوع في الجزائر في السبعينات وفي الخليج في التسعينيات في عُمان وقطر والبلدان الأخرى التي يتوفر فيها الغاز الطبيعي كهيدروكابون مستقل أو مستخرج مع النفط. هذا عدا اهتمامه بناقلات النفط التقليدية وإنشاء أسطول عراقي قائم بذاته من هذه البواخر وبالدخول في صناعة البتروكيماويات وأيضاً في صناعة تسويق النفط والتوزيع عالمياً في أسواق البلدان الأوربية المختلفة والعالم الثالث. كما أبدى كبير اهتمام بمصفى البصرة لغرض التصدير والاستهلاك المحلي. وقامت شركة ناتو اكسبورت الجيكية التي صممت وبنت مصفى حمص في سوريا بوضع تصميم مصفى البصرة قرب الشعيبة لهذه الأغراض (وقد حدد المرحوم عبد الكريم قاسم بنفسه موقع مصفى البصرة واختار الموقع المناسب عسكرياً مع أخصائيي وزارة النفط ووزارة الدفاع واستلم نموذجاً للمصفى وضعه في مكتبه بوزارة الدفاع من الشركة الجيكية وذلك عبر معركة بين عبد الكريم وأجهزة وزارة النفط التي لم تكن مؤمنة حقيقة أو لأسباب سياسية متعلقة بالتعاون مع تشيكوسلوفاكيا وبالسياسة النفطية عامة بتكوين قطاع نفط وطني مستقل يعتمد على إنتاج وتصفية ونقل وتوزيع النفط والمنتجات النفطية العراقية وعلى دخول السوق الدولية لتجارة النفط

التي كانت تتوسع باطراد مستمر بالجملة وبالتوزيع القطاعي عبر شبكات التوزيع ومحطات التوزيع المنتشرة في أرجاء المعمورة.

أما في الميدان التجاري فلا أستطيع أن أنسى اهتمامه بقطاع التأمين وتشجيعه مع رئيس مجلس السيادة المرحوم الفريق نجيب الربيعي لتأسيس شركة إعادة التأمين العراقية ودفعها للعمل ـ كقطاع مختلط ـ في سوق التأمين الدولية، مع دفع أعمال شركة التأمين الوطنية التي كان يديرها آنئذ أحد الشخصيات الوطنية الأصيلة (عبد الوهاب الدباغ) الذي كان منذ أيام العهد الملكي شخصية إدارية مرموقة ومتصرفا (محافظاً) كفوءاً ومن الشخصيات العراقية الوطنية التقدمية. أما شركة إعادة التأمين فقد أسست أولاً برأسمال مختلط ـ كما ذكرنا ـ ووضع على رأسها الصديق الدكتور مصطفى رجب وكان حديث العهد بشهادة الدكتوراه في القانون من جنيف، وقد بقي يديرها إلى الثمانينات وتوسعت فاستقرت أعمالها بإطراد حتى أصبحت كما قال لي أحد الأصدقاء من رجال التأمين المصريين أحسن شركة تأمين بين باريس وطوكيو ـ كناية عن أنها أحسن شركة تأمين في العالم الثالث. والآن يعمل الدكتور مصطفى رجب كشخصية تأمينية معروفة في أبو ظبي.

وقد تحمس المرحوم عبد الكريم لمشروع صناعة الرخام وصناعة الأنابيب والمعدّات المائية والكهربائية وغيرها من ضروب الصناعات.

عبد الكريم والاهتمام بالتراث:

لم تكن اهتمامات المرحوم عبد الكريم قاسم الواسعة لتتجاهل التاريخ العراقي لا سيما في عهوده الإسلامية الزاهرة حضارياً، فقد عمل بعد سنة ١٩٥٩ على تحديث إحدى المعالم الرئيسية في تاريخ الثقافة الإسلامية (بناية المدرسة المستنصرية) على ضفة دجلة الشرقية قرب جسر الشهداء (الجسر القديم) حيث تشكلت برئاستي ـ كوزير التجارة ـ وعضوية الحاكم العسكري العام المرحوم أحمد صالح العبدي لجنة للقيام بإجراء الكشف على المخازن العديدة المتصلة ببناية المستنصرية والتي كونت

بمجموعها سوقاً كاملاً، وقد قمنا بتحديد هذه المخازن التي هي في الأصل جزء من بناية المستنصرية وموقعها، وكان قسم من بناية المستنصرية قد استحال إلى مخزن للفحم يعود إلى أوقاف عادلة خاتون تحت تولية آل المميز، وقد دفعت التعويضات اللازمة إلى المتصرفين بهذه الأملاك وأعيدت بمواقعها إلى المدرسة المستنصرية وتم إدخالها في بناية المدرسة وإصلاحها على طرازها المعماري الإسلامي المذهل ـ بواسطة التعاون مع مديرية الآثار العامة ومديرها العام المرحوم العالم طه باقر.

لقد افتتحها المرحوم عبد الكريم قاسم في احتفالات تموز ١٩٦٠ بخطاب وجه فيه الشكر لي وللجنة على ما بذلت من الجهد لإعادة إحياء هذا الصرح الإسلامي الثقافي المعماري، وألقى في الافتتاح الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري قصيدة[1] عارض بها قصيدة البحتري التي مطلعها

---

(١) المستنصرية: قصيدة عصماء ألقاها الشاعر في الحفل الذي أقيم في ١٩ تموز عام ١٩٦٠ لافتتاح المدرسة «المستنصرية» بعد ترميم بناياتها، فأصبحت متحفاً ومزاراً. نشرت في جريدة «الرأي العام» العدد ٤٨٥ في ٢٠ تموز ١٩٦٠. ولم يحوها ديوان.

أعدْ مجدَ بغدادٍ ومجدُك أغلبُ ... وجَدِّدْ لها عهداً وعهدكَ أطيبُ
وأطلع على المستنصريةِ كوكباً ... وأطلعتَه حقاً فانك كوكب
كأنَّ على بغداد مما أفضتَه ... من المجد أذيالاً من التيِّه تُسحب
محافلها مَلقًى. وغُرُّ قِبابِها ... نَشاوى. ومَثوَى سَفحِها مُتوثب
أقمتَ بها عزاً عريقاً مكَعبا ... وكان بها ذلٌ عريق مُكعَّب
فَمنْ مُخبرُ المستنصرية أننا ... نعودُ إليها من جديد وندأبْ
حَنانيك إنّ الدهر يَطفو ويرسُب ... وإلمامة الدنيا تجيء وتذهب
وأن نُثاراتِ الحضاراتِ منبعٌ ... يفيض وفي الأرض السبيخةِ ينضب
وفي أمس كان الشرق للنور مطلعاً ... فحوَّله عنه إلى الغرب مَغرِب
وها هي نحو الشرق تَلوي رقابَها ... شُموسٌ عن الغرب التعيس تَنكَّب
أعدْ رونقَ المستنصرية إنه ... لرونق بغدادٍ إطارٌ مُذَهَّب
تقطَّعتِ الأسبابُ إلا وشيجةً ... من الفن للذكرى بها نتسبب.

* * *

=

ويا رُبَّ تموزٍ نزلتَ بليله ... على السَّحَرِ الريانِ ناراً تَلَهَّب
بأسحار بغداد تَغنَّى عوالم ... وذكرك من أسحار بغدادَ أعذب
واسودَ داجٍ كالغرابِ كسوتَه ... غُبار السَّرايا فهو كالنسر أشهب
وَقفتَ به التاريخَ تحصي ثوانياً ... بها رحت تُملي والمقاديرُ تكتُب
عجيب مدى النصر الذي اجتزتَ حدَّه ... وتوقيتُك النصرَ المؤمَّلَ أعجَب
وكان لك الجيشانِ جيشٌ مدرَّبٌ ... وآخرُ أقوى منه قلبٌ مدرَّب
وما السيف إلا آلة خلفها يدٌ ... وخلفهما عزم يُهِمُّ ويضرِب

* * *

أبا كلِّ حر لا أبا الشعب وحدَه ... إذا احتضنَ الأحرارَ في أمةٍ أب
هنيئاً لك العيدُ الذي أنت رمزُه ... بذكرك يستَعلي وباسمك يَطرَب
أعذْ مجدَ بغدادٍ تُعدْ مجدَ أمة ... به الكونُ يزْهَى والحضاراتُ تعجَب
وارجعْ لها في شَمس تموزَ حِقبةً ... إذِ الشمسُ عن أمصارها ليس تغرُب
عمومتُها فينا كُلَيبٌ وائلٌ ... وأخوالها منا إياد وتَغلِب
ورائدُها عبدُ الكريم بنُ قاسم ... يبارِكُ يومَيه الحُسَين ومُصعَب
كأنك أهداكَ المثنَّى وخالدٌ ... حُسامَيهما والأصغريُّ المهلَّب
لها بالفراتِ السَمح حِضنٌ يَلفُّها ... وعند الجبال الشُمَّ خضراءُ منكِب
يمُدُّ الخليجُ الرافدين وبحرُه ... وبرُ الشآم الكوفتين ويثربُ

* * *

أعدْ مجدَ بغدادٍ فبغدادُ روضةٌ ... لدى موسم تَذوي وآخرَ تعْشب
يَضُرُّ بها جدَبُ الرجال فتُجدِبُ ... ويُنعشها خصِبُ النفوس فتُخصب
وها هي من ألفٍ تَضُرُّ منَ تشتكي ... بأن لم يَلُحْ عبدُ الكريم وتعتَبُ
كأن الربيعَ الطلقَ من هذه الربى ... يُجَرُّ على الكون الرّحيب ويُسحَب
هُنا انسابت الدنيا وراحت عُصارة ... من الفكر في كأس من الضاد تُشرب
وأضفَى على شرقٍ وغربٍ صباغَه ... سَنى شَفقٍ في دجلةٍ يتذوَّب
بباريسَ لون أريحيٌ مَهَذبٌ ... وفي الصينِ لونٌ فلسفيٌّ مُسبَّب
هنا استُنَّ إيمان وفاضَ تسامحٌ ... وقرت حَزازاتٌ وأودَى تعصُّب
تعارضَ بالإسجاح رأيٌ وآخرٌ ... وخُولِفَ بالإيثار فكرٌ ومَذْهب[1]
ولم يُحتَجَزْ رهناً لغاوينَ يعَرُبٌ ... أبوكلٌ من حاميَ عن الضادِ يعرُب

* * *

(١) الإسجاح: السماح.

لك الخير إني الشعرَ كالنبع سَلسَلاً ... إذا فاضَ منه جدولٌ يتشعَّب
مشتْ بيَ (ستّونٌ) وماذا وراءَها ... سِوى الموتِ يبغي أجنفَ الخطوِ أشيَب
كأنيَ فيهنَّ ابنُ يوم فلم يكُنْ ... سِوى يوم تمّوز من العُمْر يُحسب
أقول لضِلِّيلٍ يَكُنُّ نهارَه ... غباء. وأما في المَشِيِّ فيحطِب
لكَ الويلُ لا يحلِبْك ضَرعاً مطاوعاً ... خؤونٌ ولم يمدُدْك جسرا مُخرَّب
ولا يرتخِص منك الضميرَ ولا يَلَغْ ... بنفسك نابٌ أجنبي ومِخلَب[1]
لك الويل إني رائدٌ جاء قومَه ... بصدقٍ. وغيري من يَرودُ ويكذب
لك الويل ماذا كنتَ تحلُمُ قبلَها ... بأكثر مما أنتَ فيه وتطلب
أيسعَى عزيز أن يُذَلَّ وأهلُه ... وأن يتغشَّاهم بَعيدٌ مُجنَّب
أهمٌّ رخيٌّ أن يُصوِّحَ مَرتَعٌ ... ووارد رِفْهٍ أنْ يُرنَّق مَشرَب[2]

* * *

أبا كلِّ حرٌ لي إليكَ شَفاعة ... فهل أنا ذيّاك الشفيعُ المقرَّب
أجلْ إن شهماً للقلوب محببا ... يناغيه شعر للقلوب محبب
وأنت الفتى لم تدر من شَعَثٍ به ... يَلُمُّ وأنت الأريحيُّ المهذَّب[3]
هنا لك فيما بين مثوىً وآخرٍ ... شَبابٌ عن الأفراح في العيدِ غُيَّب
بنوكَ اللذِين استرخَصوا مُهَجاتِهم ... وفدَّوكَ منهم بالنفوسِ وذَوَّبوا
وخاطُوا عليك الجَفنَ خوفاً من الأذى ... إليك على أهدابها يتسرَّب
حنانَيك لا تغضَب عليهم بظِنةٍ ... فلَلْموتُ من سُخْط المحبين أطيَب
حنانيك هبْ غطَّى على الحق غَيْهَبٌ ... فهل فَلَقُ الإصباح يمحى ويُشْطَب[4]
أيُلغَى فريق في المباراة أوَّلٌ ... ويحوي فريقاً سَيِّيء الحظ ملعب
أزِلْ سخطةً عنهم فأنتَ لهم أبٌ ... وحسبُك تأديباً ونِعْمَ المؤدِّب

* * *

وقالوا حَجابٌ بين شعبٍ وبينه ... فقلت فهل كونٌ بسترٍ يُحَجَّب
وربُّك أدرَى بالذي ظَنٌّ أحمَقٌ ... سَنَى الشعبَ يخفَى أم سناك يُغيَّب؟
أبا كلِّ حرٍ وابن كل كريمة ... تَمَخَّضُ عن حُرٌ كريم وتُنجب

(١) الناب: بمعنى السن مؤنثة، والشاعر هنا يريد الأجنبي.
(٢) الرفهُ: أن تشرب الإبل الماء متى شاءت. يرفق: يكدر.
(٣) الشعث بفتحتين: السوء والعيب.
(٤) فلق الاصباح: عمود الفجر.

ـ أعارض فيك الشوق والشق أغلب ـ وقد جاء في قصيدة الجواهري العصماء ما يلي من الشعر الرائع:

أعِدْ مجدَ بغداد ومجدك أغلب … وجدِّد بها عهداً وعهدك أطيب
وأسود داج كالغراب كسوته … غبار السرايا فهو كالنسرِ أشهب
بأسحار بغداد تغنى عوالم … وذكرت من أسحار بغداد أطيب

خذِ الشعبَ درعاً وانْتَشحه مهنَّدا … فلَلشعْبُ يابنَ الشعبِ أدنى وأقرَب[1]
حنانيكَ إنّا ساعدٌ حين تضربُ … وغضبتُك الحمراء ايان تغضب
ضلوعك من أضلاعنا، كلُّ شَظْيَةٍ … بها من شظايا أمةٍ تتشعّب
وأرواحُنا سالت وروحُك فالتَقَت … كما انصَبَّ في الأرض الكريمة صيِّب[2]
توقّفُ أدنَى الغايَتَين استجابةٌ … وتذهب أقصى ما تروم وتلهَب
ونصبرُ حتى ينزَحَ اللؤمَ كائدٌ … ونحلُمُ حتى يقرَعَ الكذبَ أكذَب
ويكفي بأن نَطوي عليه تيقنا … بأن خبايا طَيِّه ستجرَّب
وعلماً بأنْ لا بدَّ يخبرُ أيّنا … يجِدُّ وأياً في الملمَّات يلعَب

* * *

أبا الشعب لا أُخفيك بثّاً يهزُّني … وما أنا للخل الصَريح مُروِّب[3]
تَسرُّب همسٌ أن فَقْعاً بقَرقَرٍ … يُعيد شِراكاً للهزبر وينصِب[4]
وإن الذي خلف الحدود يمده … كلصٍّ يجوسُ البيتَ ليلاً ويهربُ
أبا الشعبِ لا يتعبْ خؤون مغامر … فخَلفكَ شعبٌ للخؤونين مُتعِب
سل الشعبَ زحفاً تدر كيف زُحوفهُ … وبذلاً تجد أرواحَه كيف توهَب
ستهوي رؤوسٌ ما اشتكى منك إصبَعٌ … وتُلوَى رقابٌ ما التوىَ منكَ منكِب
وبلِتاتُ نهر من دماءٍ خبيثةٍ … على قطرةٍ في ذمة الله تُسكب
فقل لهمُ يأووا ضِباباً لأجحُرٍ … وربات خدرٍ فالخِباء مُطَنَّب[5]
وعُمِّرت عُمرَ الشعب يَهديكَ ما حَوى … من العمر لو تُحصى السنونَ وتُحسَب

(١) انتشحه: البسه وشاحاً، وللسيف أحمله.
(٢) الصَّيب: المطر.
(٣) مروّب: غاشّ.
(٤) الفقع: الكمأة. وقرقر اسم موضع وفقع بقرقر كناية عن مخلوق ضعيف بعينه.
(٥) الضباب: جمع ضب.

عجيب مدى النصر الذي اجتزت حده … وتوقيتك النصر المؤمل أعجب

وقد كان المفروض أن تكون بناية المستنصرية مركزاً وحجر الزاوية للقلب التجاري لبغداد وان تستملك الأبنية والاسواق القديمة حولها وإلى الجنوب منها حتى جسر الأحرار (جسر مود) بين شارع الرشيد وشاطئ دجلة حيث تبنى هنا الأسواق لبغداد الحديثة مطلة على شاطئ دجلة التي تبقى مفتوحة على داخل بغداد وذلك بمساهمة من مجلس الضمان الاجتماعي وتمويل منه لغرض الاستملاك والبناء وقد تم قبل انقلاب ١٤ رمضان إكمال المعاملات الاستملاكية كانت من هذا المشروع الذي استبدلت طبيعته والغرض منه بعد ذلك وأصبح ساحة تعترض شارع الرشيد وضع فيها تمثال المرحوم عبدالوهاب الغريري الذي قتل أثناء محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم سنة ١٩٦٠ كما سيرد ذلك لاحقاً.

وكان من المفروض أن عناية مشابهة للعناية بالمستنصرية ستبذل في السنة التالية إحياء للبرج المسمى (برج عكركوف) في ظاهرة منطقة بني تميم في الكاظمية في شمال غربي بغداد وما يقع حوله من معالم سياحية وآثار تاريخية إسلامية وغيرها.

عبد الكريم ومشاريع البناء:

ومن مظاهر عناية المرحوم عبد الكريم قاسم الخدمات المتعددة التي حرص على تقديمهاإلى سكنة بغداد وضواحيها ومحلاتها الجديدة المسكونة من ذوي الدخول المحدودة وفقراء الأرياف من الجنوب والشمال (مدن الثورة) و(الشعلة) و(الحرية) حيث وافق المرحوم عبد الكريم على تخصيص وزارة المالية عرصات عديدة لبناء مدارس ومستشفيات في امتداد بغداد طولاً بمحاذاة قناة الجيش فقام مجلس الضمان الاجتماعي بتشييدها على أن تقوم وزارة الصحة والمعارف على استمرارها وفتح المستوصفات والمدارس بها وإدارتها.. علاوة على فتح مستشفى كبير للعمال. والأسلوب عينه في المنطقة التي خصصت لشركة (مدينة الألعاب). هذا وإن مشروع ـ قناة الجيش ـ على ما وجه اليه من نقد ظهر انه مشروع

ضروري لتوسيع بغداد من الشرق وجعلها مدينة رباعية أو مدورة وتخفيف الضغط بذلك على منطقة البساتين ومزاياها الصحية والجمالية والاقتصادية في جنوب بغداد وشمالها والتي كان التوسع يهددها قبل توجهه نحو الشرق بفتح قناة الجيش.

وكان مشروع بناء المدارس والمستشفيات على مشارف قناة الجيش في الرصافة يعني تشييد عشرين بناية من شمالي الأعظمية في الشمال الشرقي إلى ديالي في الجنوب بما يناهز العشرين كيلومتر طولاً بحيث لا تبتعد المدارس العصرية والمستشفيات الصغيرة عن بعضها أكثر من كيلومترين، بالإضافة إلى المستشفى الكبير (مستشفى العمال) ويقوم ببنائها جميعاً مجلس الضمان الاجتماعي الذي كنت ـ رئيسه ـ بصفتي محافظاً للبنك المركزي ولديه مدخرات متراكمة تتجاوز بضعة ملايين الدنانير على أن تديرها كما بينا وزارة الصحة (بالنسبة للمستشفيات) ووزارة المعارف (بالنسبة للمدارس) مقابل أجرة تدفعها الوزارتان إلى صندوق مجلس الضمان الاجتماعي فائدة له عن استثماره وبذلك يقوم المجلس بواجبه الاجتماعي ويساعد الخزانة العامة في استثمار مربع على ما يستثمره من رأس مال. هذا بالإضافة إلى موافقة المرحوم الزعيم عبد الكريم وتبنيه مشروع استملاك المنطقة القديمة بين جسري الشهداء والأحرار (الجسر القديم وجسر مود) في المنطقة بين دجلة وشارع الرشيد ما عدا المعالم الأثرية كالمدرسة المستنصرية وجامع وخان مرجان، وهدم الباقي ليكون منتزهاً عاماً وبناء عمارات عديدة لتخفيف الضغط الذي تمثله الحاجة إلى مواقف للسيارات والمركبات ومخازن البضائع والمقاهي ومجالات التسويق من الطوابق الأولى إلى الطوابق العليا من العمارات وقد باشرنا بذلك وتم بالفعل استملاك منطقة كبيرة مقابل عقد النصاري ولكنها أوقفت واستبدلت بفكرة أخرى بعد ١٤ رمضان ـ حيث وضع تمثال للمرحوم عبد الوهاب الغريري في وسط المنطقة المستملكة ـ كما ذكرنا سالفاً ـ وأوقف المشروع الذي كان يستهدف بناء مركز تسويقي حديث في وسط بغداد وإخراج المناطق القديمة التي تقع الآن شرق شارع الرشيد بين الجسرين إلى شاطئ

دجلة بهدم ما يفصلها عن دجلة من البيوت القديمة. ولذلك ما فيه من المزايا العمرانية والصحية والجمالية بالنسبة إلى قلب بغداد بما يتعدى إلى أطرافها أيضاً وقد توقفت كل هذه المشاريع بعد مقتل عبد الكريم بعد ١٤ رمضان.

لم يكن المرحوم عبد الكريم واسع الخيال بالنسبة إلى كل ما يؤدي إلى ربحه أو حقه المادي، بل كان على العكس، ضيق الخيال محافظاً ولكنه فيما يتعلق بإعمار العراق وسعادته ونموه الزراعي والصناعي وفي مجال الخدمات وفي تقدم أبنائه من فقراء الريف. والعمال والنساء واسع الخيال مقداماً محباً للتغيير الذي يبنى على الخير والرخاء الاقتصادي والاطمئنان إلى المستقبل والمصير بعيداً عن المغامرة والارتجال وإن كان الوضع السياسي الخارجي والداخلي يفرض عليه التعجل والارتجال في حدود ضيقة واستطاع بجهده أن يضيق من هذه الحدود.

ولقد كان المرحوم عبد الكريم قاسم قد ورث عن شعارات الحركة الوطنية العراقية الاهتمام المتوازن بمناطق العراق وجهاته المختلفة وبإنتاجها وحاصلاتها علاوة على اهتمامه بسكان هذه المناطق، بغض النظر عن أعراقها وأديانها وطوائفها، فقد طلب إلي أكثر من مرة أن أزور البصرة وأبحث مع متصرفها اللواء عبد الرزاق عبد الوهاب والخبراء من أهاليها موضوع المياه فيها، وذهبت فعلاً إلى هناك وبحثت موضوع إنشاء نواظم وسدود لأنهار البصرة تحميها في أوقات الفيضان وكثرة المياه مع وضع مكائن ومضخات لضخ الماء من شط العرب إلى النواظم مثل (العشار والخورة والسراجي ومهيجران وحمدان وغيرها) في أوقات الصيهود وقلة المياه في شط العرب ليمكن حماية أراضي البصرة من كثرة المياه ومن قلتها في آن واحد وضمان استمرار زراعتها وتنوع محاصيلها تطبيقاً للمثل الشائع فيها (بأن البصرة وحاصلاتها معرضة إما لغريق حال توفر المياه أو الفيضان أو لحريق في موسم الصيف والخريف وضآلة كمية المياه).

وأذكر أني قابلت هناك مجموعة من المهندسين ومن خبراء البصرة

ضروري لتوسيع بغداد من الشرق وجعلها مدينة رباعية أو مدورة وتخفيف الضغط بذلك على منطقة البساتين ومزاياها الصحية والجمالية والاقتصادية في جنوب بغداد وشمالها والتي كان التوسع يهددها قبل توجهه نحو الشرق بفتح قناة الجيش.

وكان مشروع بناء المدارس والمستشفيات على مشارف قناة الجيش في الرصافة يعني تشييد عشرين بناية من شمالي الأعظمية في الشمال الشرقي إلى ديالي في الجنوب بما يناهز العشرين كيلومتر طولاً بحيث لا تبتعد المدارس العصرية والمستشفيات الصغيرة عن بعضها أكثر من كيلومترين، بالإضافة إلى المستشفى الكبير (مستشفى العمال) ويقوم ببنائها جميعاً مجلس الضمان الاجتماعي الذي كنت ـ رئيسه ـ بصفتي محافظاً للبنك المركزي ولديه مدخرات متراكمة تتجاوز بضعة ملايين الدنانير على أن تديرها كما بينا وزارة الصحة (بالنسبة للمستشفيات) ووزارة المعارف (بالنسبة للمدارس) مقابل أجرة تدفعها الوزارتان إلى صندوق مجلس الضمان الاجتماعي فائدة له عن استثماره وبذلك يقوم المجلس بواجبه الاجتماعي ويساعد الخزانة العامة في استثمار مربع على ما يستثمره من رأس مال. هذا بالإضافة إلى موافقة المرحوم الزعيم عبد الكريم وتبنيه مشروع استملاك المنطقة القديمة بين جسري الشهداء والأحرار (الجسر القديم وجسر مود) في المنطقة بين دجلة وشارع الرشيد ما عدا المعالم الأثرية كالمدرسة المستنصرية وجامع وخان مرجان، وهدم الباقي ليكون متنزهاً عاماً وبناء عمارات عديدة لتخفيف الضغط الذي تمثله الحاجة إلى مواقف للسيارات والمركبات ومخازن البضائع والمقاهي ومجالات التسويق من الطوابق الأولى إلى الطوابق العليا من العمارات وقد باشرنا بذلك وتم بالفعل استملاك منطقة كبيرة مقابل عقد النصاري ولكنها أوقفت واستبدلت بفكرة أخرى بعد ١٤ رمضان ـ حيث وضع تمثال للمرحوم عبد الوهاب الغريري في وسط المنطقة المستملكة ـ كما ذكرنا سالفاً ـ وأوقف المشروع الذي كان يستهدف بناء مركز تسويقي حديث في وسط بغداد وإخراج المناطق القديمة التي تقع الآن شرق شارع الرشيد بين الجسرين إلى شاطئ

دجلة بهدم ما يفصلها عن دجلة من البيوت القديمة. ولذلك ما فيه من المزايا العمرانية والصحية والجمالية بالنسبة إلى قلب بغداد بما يتعدى إلى أطرافها أيضاً وقد توقفت كل هذه المشاريع بعد مقتل عبد الكريم بعد ١٤ رمضان.

لم يكن المرحوم عبد الكريم واسع الخيال بالنسبة إلى كل ما يؤدي إلى ربحه أو حقه المادي، بل كان على العكس، ضيق الخيال محافظاً ولكنه فيما يتعلق بإعمار العراق وسعادته ونموه الزراعي والصناعي وفي مجال الخدمات وفي تقدم أبنائه من فقراء الريف. والعمال والنساء واسع الخيال مقداماً محباً للتغيير الذي يبنى على الخير والرخاء الاقتصادي والاطمئنان إلى المستقبل والمصير بعيداً عن المغامرة والارتجال وإن كان الوضع السياسي الخارجي والداخلي يفرض عليه التعجل والارتجال في حدود ضيقة واستطاع بجهده أن يضيق من هذه الحدود.

ولقد كان المرحوم عبد الكريم قاسم قد ورث عن شعارات الحركة الوطنية العراقية الاهتمام المتوازن بمناطق العراق وجهاته المختلفة وبإنتاجها وحاصلاتها علاوة على اهتمامه بسكان هذه المناطق، بغض النظر عن أعراقها وأديانها وطوائفها، فقد طلب إلي أكثر من مرة أن أزور البصرة وأبحث مع متصرفها اللواء عبد الرزاق عبد الوهاب والخبراء من أهاليها موضوع المياه فيها، وذهبت فعلاً إلى هناك وبحثت موضوع إنشاء نواظم وسدود لأنهار البصرة تحميها في أوقات الفيضان وكثرة المياه مع وضع مكائن ومضخات لضخ الماء من شط العرب إلى النواظم مثل (العشار والخورة والسراجي ومهيجران وحمدان وغيرها) في أوقات الصيهود وقلة المياه في شط العرب ليمكن حماية أراضي البصرة من كثرة المياه ومن قلتها في آن واحد وضمان استمرار زراعتها وتنوع محاصيلها تطبيقاً للمثل الشائع فيها (بأن البصرة وحاصلاتها معرضة إما لغريق حال توفر المياه أو الفيضان أو لحريق في موسم الصيف والخريف وضآلة كمية المياه).

وأذكر أني قابلت هناك مجموعة من المهندسين ومن خبراء البصرة

الملاك الحاج فهد الراشد الذي أيد المشروع بحماسة في دار متصرفية اللواء، كما أنه كان بعد المواجهة الأولى التي تطرقت إليها في بداية هذا الفصل، كثير التشجيع لفكرة زيادة أسعار احتكار تمور البصرة بزيادة تصديرها وفتح الأسواق الجديدة في الدول الاشتراكية والغربية لها، وتنظيم تسويقها الداخلي من قبل الجمعيات التعاونية للتخفيف عن فقراء الريف من استغلال وإسترباح الشركات الأجنبية والمكبسين المحليين.

كما كان من الناحية الثانية كثير العناية بمحصول التبوغ في كردستان وكان راضياً تماماً عن السياسة التبغية التي اتبعها السيد محمد سعيد الخفاف الذي شغل منصب المدير العام للتبوغ في إدارة أسعار التبوغ والعدالة في تصنيفها والتساهل وإنهاء الروتين القاسي تجاه المنتجين والفلاحين الأكراد لا سيما أنه كان يشجعنا لأن نفتح أسواقاً جديدة للشعير العراقي ولتمور المنطقة الوسطى (الزهدي) في الصين والهند والخليج لغرض تحسين نوعيتها وكميات إنتاجتها وأسعارها في نهاية المطاف، هذا فوق فرحه وحبه لفكرة (رخام كردستان) حيث وردته نماذج من مقالع عديدة في جبال كردستان تضاهي خيرة أنواع الرخام الإيطالي الأسود والأخضر، فوق اهتمامه التقليدي باعتباره من عائلة زراعية وأخوه تاجر حبوب، بالحنطة والشعير واهتمامه بأسعارهما وأسواقهما وبمخازنهما (السايلوات) التي كان بنائها قائماً في عهده في مختلف مناطق العراق، (بغداد والحلة، وكركوك والديوانية والموصل والسليمانية وما يليها البصرة)، وقامت ببنائها شركات سويدية وألمانية وسويسرية وسوفييتية أيضاً بموجب اتفاقية القرض السوفييتية ـ العراقية.

وقد فاتني أن أذكر ما لقيناه من التشجيع والرضا عندما وضعنا مشروع بناء مراكز لتنظيف التمور العراقية وكبسها كبساً صحياً في جنوب العراق ووسطه (مناطق إنتاج التمور) حيث قمنا بمبادلة مكائن التنظيف والكبس بتمور تستخدم في أوروبا للعلف الحيواني فاشترينا بهذه الطريقة خمسة أطقم لخمسة مصانع للكبس نصبت منها اثنتان في البصرة، والباقي في الشامية وبغداد وبعقوبة وصدرت منتجاتها من تمور محسنة إلى الأسواق

الأوروبية بالإضافة إلى إعدادها كمراكز ومخازن للتمور المكبوسة أو التموز الخام قبل الكبس وكان العراق ولا يزال في أمس الحاجة إليها لتطوير وتصدير التمور، ولمشروع استخراج السكر من التمر الذي أعجب به المرحوم عبد الكريم ووعد بتنفيذه في إحدى خطبه في السنة الأولى من الثورة. والخلاصة فإن المشاريع الاقتصادية التي احتذى بها المرحوم عبد الكريم قاسم شعارات الحركة الوطنية العراقية في إعمار العراق شملت مختلف المجالات ولا يمكن حصرها وإحصاؤها أو تعدادها.

الفصل العاشر

إعلان الجمهورية العراقية والتحوّلات الكبيرة

لقد كان إعلان الجمهورية العراقية نظاماً للحكم في تموز ١٩٥٨ ـ واحتضانها من قبل المعسكر الاشتراكي عالمياً والرئيس عبد الناصر عربياً ومن قبل قوى المعارضة داخلياً تحولاً وانعطافاً واقعياً حقيقياً وخطيراً وكبيراً في البناء التحتي للعراق وكان من الناحية القانونية ضرورياً لحكومة الجمهورية أن تقوم بالتعديلات الضرورية ليستجيب وضعها القانوني مع وضعها السياسي الجديد، لذلك فقد أعلنت انسحابها من حلف بغداد ومن التزامات الحلف والصداقة البريطانية ـ العراقية، كما أعلنت الخروج من كتلة الإسترليني النقدية، وإلغاء الإتحاد الهاشمي ـ العراقي، وتشريع قوانين هامة ووضعها موضع التطبيق كقانون الإصلاح الزراعي، وقانون ضريبة الدخل وقانون التخطيط وقانون تعديل قانون السلطة التنفيذية وتأسيس الوزارات الجديدة ثم قانون رقم ٨٠ للعلاقات مع شركات النفط، وقانون الجمعيات وقانون تأسيس مصلحة المبايعات والأجهزة الحكومية. وأعدت حكومة المرحوم عبد الكريم لتأسيس مجلس تشريعي وطني بلائحة مسودة لانتخاب النواب، ثم مسودة لدستور دائم، كان المرحوم عبد الكريم يدعو الناس إلى الإنتظار ليتم بناء الجمهورية الديمقراطية حتى إن عبارة.. دستور دائم، مقابلة للدستور الثوري الموقت الذي أعلن سنة ١٩٥٨. كانت من

ابتكار المرحوم قاسم إذ ليس معروفاً في الفقه الدستوري أو القانوني هذا الإسم وهو اسم ليس صحيحاً من الناحية الإصطلاحية وإن كان معناه الدستور المناقض للدستور الثوري الموقت.

أعدت وزارة الداخلية قانون الانتخاب وقد سلم المرحوم قاسم نسخاً منه إلى اللجنة التي وضعت قانون الجمعيات والمفروض أنهم كل من هاشم جواد وزير الخارجية ومصطفى علي وزير العدل وطلعت الشيباني وزير التخطيط ولكن مشروع قانون الانتخاب بقي لدينا بلا مناقشة بناء على إهمال اللجنة ولا يمكن مساءلة المرحوم قاسم عن ذلك وحده، أما الدستور الدائم فقد طلب مني قاسم في أول ١٩٦٣ دراسته ووضع مشروعه ومسودة حوله، ويبدو أنه كان قد طلب من وزارة الداخلية إعداد مشروع مواد أولية للدستور بالاستعانة بصيغ الدساتير الأخرى القريبة إلى النظام القانوني العراقي والمعروفة في العراق آنذاك، وقد وضعت لجنة من وزارة الداخلية نصوص الدستور ـ كل حكم ونص مقترح بورقة مستقلة ـ كما وضعت النصوص المقابلة في دساتير الولايات المتحدة، والدستور العراقي السابق والدساتير الأخرى وغيرها في أوراق مستقلة أخرى وجلدت الجميع في مجلة كبيرة تحتوي كل ورقة منها على نص معين في حكم معين، من إحدى الدساتير، ويبدو أن هذا المشروع ودراستي القاصرة عن السلطة القضائية وربما غيرهما كانت على مكتب المرحوم عبد الكريم عند القبض عليه في وزارة الدفاع ثم قتله في شباط ١٩٦٣.

على كل فقد كان المرحوم عبد الكريم عازماً على إعلان دستور ذي أحكام ثابتة ـ هي ما سماه الدستور الدائم ـ الذي ربما أعاد النظر بمجلس السيادة والصلاحية التشريعية لمجلس الوزراء وغير ذلك من الأسس الرئيسية للدستور العراقي المؤقت. وعلى كل حال فإن المرحوم عبد الكريم عندما كلفنا بوضع قانون الجمعيات (الأحزاب) وعندما كلفني في أول سنة ١٩٦٢ بوضع مسودة للدستور لم يطلب حكماً معيناً ـ أو مركزاً معيناً أو صلاحيات معينة لنفسه أو لجماعته في الجيش أو لأية مؤسسة أخرى، بل بقي كما عبر عن نفسه ـ فوق الميول والاتجاهات ـ تاركاً للقوى المتعددة التي يملكها

أصدقاؤه ومجلس وزرائه وحتى المرافقون صلاحية الاتفاق على قرار أو فرض القرار الذي يراه الأصلح بمواجهتهم جميعاً وبعد مناقشة مستفيضة للمسودة وحين إقرارها بعد تعديلها وتقليب الرأي فيها وربما بعد تردد طويل أيضاً.

وأرى أن الذمة والمروءة تقتضيني هنا، أن لا أحصر اللوم والمسؤولية بالمرحوم عبد الكريم على تأخر تشريع قانون الانتخاب أو الدستور الدائم فإن أعوان عبد الكريم يتحملون جانباً كبيراً من المسؤولية عن ذلك في تلك الأيام المفعمة بالتعجل وبالعنف والخلاف الدموي، وعدم الموضوعية، والتآمر على النظام العراقي داخلياً وخارجياً، الأمر الذي يخفف من المسؤولية عن التأخر والانصراف عنها من قبل السلطة والمرحوم عبد الكريم، ويضع مسؤولية ثقيلة على عاتق وزرائه وأصدقائه ومعينيه ـ لمساعدته في ذلك وتسهيل الأمر عليه، وهو مالم يقوموا به على أية حال بالرغم من أنه منذ ١٩٦٠ قد حاول استشارة بعض من سمع عنهم بأنهم من ذوي الخبرة والرأي في هذا المجال، وقد سمعت أن المرحوم المحامي داود السعدي كان من بين من استشارهم آنئذ بدعوته للاستعانة برأيه في وزارة الدفاع.

الفصل الحادي عشر

عبد الكريم قاسم والدستور الدائم

لقد كان المرحوم الزعيم عبد الكريم قاسم يكرر ـ دوماً ـ في وصفه لما حدث في العراق عقب ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ـ من اضطراب اجتماعي وسياسي شمل قطاعاته الريفية والمدنية ومحاور السلطة والمجتمع ونجم عن انهيار العهد الملكي وتبدل قيمه السياسية ورموزه واختلاف الناس في مصير كثير من المبادئ والركائز الثابتة في المجتمع ـ إن الشعب العراقي يشبه الطيور الصداحة التي كانت محبوسة في قفص حديدي ضل مدى أعوام طوال يفصلها عن العالم الواسع ويمنع عنها نسيم الحرية

ويقيدها بسلسلة من قيود الاستعمار والتخلف والتبعية، ولكن هذه القيود انهارت وزالت فجأة في يوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وانهار القفص الحديدي الذي كان يحجب عن العراقيين العالم الخارجي بما ينطوي عليه من المستجدات والعجائب والتناقضات فانطلق العراقيون من قفصهم فرحين بنشوة الحرية غير مقيدين بقيود القفص ـ ولا قيودهم الاجتماعية أو النفسية، مما أدى إلى تفاقم ما نرى من اضطراب وخلاف وأحزاب ـ ولكنهم أي العراقيون لا بد ـ بعد أن يسأموا انطلاقهم في الأجواء الحرة الواسعة الجديدة من أن يعودوا إلى أقفاصهم الاجتماعية ـ إلى المجتمع المدني وقيمه ومنطلقاته ما داموا بشراً يريدون العيش على أرض العراق وبنائه، وما على سلطة تموز سوى أن تساعدهم على العودة إلى حالتهم الطبيعية وإلى العيش في مجتمع مدني له قواعده وقيمه وأعرافه وأصوله مما يمكنهم من التطور والتقدم والبناء الاجتماعي.

وكان المرحوم عبد الكريم قاسم كثيراً ما يبرر الاضطراب والاقتتال والسحل ومجافاة الأعراف الأخلاقية من اختلاف وتمزق بأنه انطلاق الشعب ومفاجأته بالحرية التي أحس بها فجأة صبيحة الثورة، وكان كثيراً ما يدعي معرفة قيادة الثورة بما يستحدث من المآسي وعدم مفاجأتها بها وذلك في محاولة منه لإعطاء الجماهير القلقة شعوراً بالاطمئنان وبأن الوضع مسيطر عليه وسواء كان الادعاء صحيحاً أم لا، وسواء تحقق هذا الانطباع أم حدث ضده نتيجة تعقيدات الوضع في العراق ـ فإن المرحوم عبد الكريم يبدو أنه قد أحس أنه مدعو لاتخاذ ما يلزم في سنة ١٩٦٣ لإنهاء هذا الوضع أو على الأقل للتقليل من عواقبه وآثاره المدمرة على المجتمع العراقي واقتصادياته وقد شعر بحاجة المجتمع العراقي إلى العودة إلى القفص المدني الخاضع لسيادة القانون والمؤسسات السلطوية وقد عبر عن شعوره بطريقته الخاصة رحمه الله في تبني مفاهيم وشعارات ومقاصد غامضة. كأن كأسه يمتلئ، ويفيض على جوانبه، ويمثل الفائض ما يريد رحمه الله البوح به بعد امتلاء الكأس، إذ إنه لا يصرح بوضوح مقاصده بل تنم مقاصده عن ما في الكأس بدلالة بعض تصرفاته وعباراته.

وكانت هناك من الدلالات ما يفصح أن عبد الكريم كان ينوي أن يقوم بما ينهي الفترة الانتقالية في سنة ١٩٦٣، ولكن ما حدث في شهر رمضان في ١٤ منه ـ قد فاجأ قاسماً وحال دون تنفيذ خططه وتوقعاته وحال دون أن يقوم بما يساعد على إنهاء انتشار الطيور العراقية في الأجواء المتباينة، وعلى عودتها إلى القفص الطبيعي في مجتمع مدني منسجم، وقد أكد لي السيد أحمد محمد يحيى ـ الزعيم المتقاعد ـ وزير الداخلية وصديق المرحوم عبد الكريم قاسم وموضع سره، إن عبد الكريم قد عبر له عن رغبته ونيته في إجراء تغيير واسع يوم الاربعاء المصادف ١٢ رمضان أي قبل وقوع انقلاب ١٤ رمضان بيومين اثنين، كما أنه ـ بعد أن كلفني وكلف لجنة في وزارة الداخلية واستشار آخرين بوضع مسودة دستور للجمهورية العراقية منهم على ما سمعت المرحوم المحامي داود السعدي وغيره، قد طلب مني عدم السفر في بعثة مع المرحوم الأستاذ نائل سمحيري المحامي ممثلاً للجنة العراقية للتضامن الآسيوي ـ الإفريقي للاحتفال باستقلال إحدى الدول الإفريقية مدّعياً أنّه قد يحتاجني خلال تلك الأيام التي كان همّه فيها وضع قانون انتخاب النواب ووضع مبادئ الدستور ووضع السياسة النفطية بعد إكمال تشريع قانون شركة النفط الوطنية.

لقد ساعد المرحوم عبد الكريم قاسم خلال المدة من تموز سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٦٣ ـ القوى السياسية العراقية على ممارسة الحرية السياسية بالانتظام في منظمات وطنية تتمتع بحريتها في انتخاب قياداتها في انتخابات شعبية فتكوّن اتحاد الطلبة بقيادة الأخ مهدي الحافظ[1] واتحاد

---

(١) مهدي الحافظ ـ هو أبو خيام سياسي عراقي وشخصية معروفة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والثقافي كتقدمي رصين وذلك اعتباراً من أواخر الخمسينيات بعد ثورة تموز سنة ١٩٥٨ حين كان طالباً في دار المعلمين العليا ببغداد وتخرج منها عام ١٩٦١ حيث كان قد اختير رئيساً لاتحاد الطلبة العراقيين إذ كان آخر رئيس لهذا الاتحاد بالانتخاب، ثم سافر إلى براغ في جيكسلوفاكيا ودرس دراسة حزبية علاوة على الاقتصاد في (الكلية الاقتصادية العليا) هناك وحاز على درجة الدكتوراه، وقد عاد إلى بغداد سراً أيام عارف في سنة ١٩٦٨ وكان أحد =

= المسؤولين عن العلاقات الوطنية من الشيوعيين، وقد حضرت اجتماعاً له مع زكي خيري والمرحوم صديق شنشل للبحث في موضوع الجبهة الوطنية وضرورة تشكيلها درأً للأخطار المحيطة بالعراق من المستعمرين. لقد عمل الدكتور مهدي سكرتيراً عاماً لاتحاد الطلبة العالمي في براغ ثم عاد إلى العراق وإلى عمله في العلاقات الوطنية عام ١٩٧٣ وكان كادراً مبرزاً وقريباً إلى القيادة الشيوعية أيام قيام الجبهة الوطنية إلى أن ترك العراق عام ١٩٧٨ إثر انهيار الجبهة وهجرة الشيوعيين عامة من العراق آنذاك.

سكن الحاج أحمد الحافظ (والد الدكتور مهدي) الشامية وعمل مختاراً فيها وكان من وجهائها، ولكنه في الأصل ينتسب إلى النجف الأشرف ويعود إلى (آل جريو) من فرع دعيبل، علماً أن آل جريو قبيلة عربية من الفرات الأوسط من أبرز شخصياتها المرحوم سعد صالح وزير الداخلية الأسبق وهو الشخصية الوطنية التي أجازت الأحزاب عام ١٩٤٦.

يتمتع الدكتور مهدي الحافظ بخصائص نادرة تجعله يحتسب أقرب إلى النمط الأوروبي من السياسيين، وليس من النمط الشرقي العراقي الذين يتسمون بالانفعال السريع، ويدورون حول العوامل والمؤثرات الشخصية في حكمهم على الأمور والأعمال والشخصيات كما يتسمون ببرود الأفعال السريعة دون تقدير لظروف الآخرين من موالين ومعارضين ـ ودون احتساب لقدر من التسامح والفهم لظروفهم. ولكن الأخ أبا خيام ـ على العكس من ذلك ـ ومن أوصافه القدرة على الفهم، والتواضع والتفكير والمروءة ومن أوصافه أن يفسح المجال لمحاوره من القوى والأيديولوجيات الأخرى أن يلون نفسه ـ بعمق وإخلاص وليس من باب رفقة الطريق فحسب بألوان متعددة وليس باللونين الأبيض والأسود فحسب واعتباراً للظروف والأحوال وما تقتضيه من الفهم والتواضع والمروءة.

يعيش الأخ أبو خيام الآن في فيينا ـ بعد براغ وجنيف ـ وهو اليوم موظف في منظمة التنمية الصناعية التابعة للأمم المتحدة ويسكن في النمسا مع عائلته المكونة من ولديه خيام وأحمد وابنته أيسر وزوجته ساجدة أخت الدكتور الفاضل الصديق طارق شفيق ـ ومن بين ما يقوم به من المهام الآن ـ علاوة على أعمال الأمم المتحدة ـ رئاسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان (فرع النمسا) التي يرأسها الأخ الاستاذ أديب الجادر وأمينها العام الوزير المصري السابق عبد فائق، والتي يمنحها الأخ مهدي من وقته وجهده وروحه الشيء الكثير كما يعمل الآن في اللجنة الاستشارية العراقية التي تقوم بدراسات تقنية لمشاكل العراق السياسية والاجتماعية واقتراح السياسات الوطنية للعراق، بعد أن كان الدكتور مهدي قد كون عند بدء =

الشبيبة الديمقراطي بقيادة نوري عبد الرزاق ورابطة المرأة العراقية بقيادة الدكتورة نزيهة الدليمي، واتحاد الفلاحين، واتحاد نقابات العمال واتحاد الأدباء ونقابات المحامين والأطباء والمهندسين وغرفة التجارة، وغيرها من المنظمات المهنية والسياسية الذي ساعدها المرحوم قاسم على أن تنظم نفسها وبعدها تخوض معارك التقدم وذلك باختيار قياداتها اختياراً حراً غير مقيد بأفضليات واختيارات السلطة، وكان ذلك هو معنى الدعوة القاسمية إلى أنه فوق الميول والاتجاهات وإلى أن الناس هي التي تختار قيادات تنظيماتها مهما كانت بعيدة عن السلطة التي تبقى بعيدة عن التحزب الديني والأيديولوجي والطائفي والعرقي.

أما ما كان يشاع عن المرحوم عبد الكريم قاسم من أنه شيوعي فهو أمر لم يكن حقيقياً وأن سلوك قاسم في إدارة السلطة لا يأتي بدليل على ذلك وهو أمر يعرفه ويشهد عليه أعوانه ووزراؤه مثل الأساتذة محمد حديد وإبراهيم كبّة وأحمد محمد يحيى وغيرهم، بل إنه لما أراد الحزب الشيوعي وبعض الشيوعيين أن يستغلوا صلتهم بقاسم استغلالاً سلطوياً ـ قام قاسم

= اختلافه مع الشيوعيين جماعة صحيفة (المنبر).

ويمتاز الدكتور مهدي على الصعيد الشخصي بالكرم المحض وحسن الضيافة، والتواضع، والسماحة، وصدق المشاعر، وسعة الارتباطات، وتشابك العلاقات الانسانية والتذوب في الناس والحلول السليمة التي ينتظرها الناس وتنطوي على الحق والحقيقة وعلى أقل ما يمكن من الضرر على طبقات الشعب ولا سيما الفقراء والمحرومين.

وقد كنت أكرر دائماً عندما أسمع عن تصرفات الأخ أبي خيام (إن العراق لو كان بلداً محظوظاً لجعل مهدي الحافظ مسؤولاً إعلامياً دائماً فيه) ـ لأنه أقدر الناس على تفهم مشاكله وعلى عرضها، كما أنه أقدرهم على تلقي آراء الآخرين وفهم دوافعها وعرضها المنطقي الرصين مما يجعله كاسباً القضية (أو نسبة كبيرة منها) قبل اشتداد حرارة المناقشة والحوار. إن الكسب الناشئ عن الاقناع والمحاججة هو أساس ما يمكن للسياسي الناجح أن يكسبه من الصدقية والثقة الشخصية.

بوضع الحدود أمام ما سماه بالمد الشيوعي مستنداً إلى المبادئ الديمقراطية ورأى أغلبية المواطنين فسمح للقوى القومية بالاستيلاء على نقابات المحامين والمهندسين والأطباء، وعلى اتحادات المزارعين والعمال وهي قوى لا تنتمي إلى الشيوعية بل معادية لها وحد من نشاط المنظمات الشيوعية أصلاً كاتحاد الطلبة والشبيبة الديمقراطية بحكم موقع العناصر الشيوعية في تأسيس هذه المنظمات وفي شبكة علاقاتها الدولية.

لقد كانت أسماء كل من كمال عارف قفطان وعبد الرزاق شبيب وحسين جميل وعراك الزكم وإبراهيم الحاج جواد من أقطاب وقادة المنظمات المهنية من الأسماء غير الشيوعية، أما مهدي الحافظ ونوري عبد الرزاق وعلي شكر وآرا خاجادور من قادة المنظمات الجماهيرية الأخرى فكانوا شيوعيين آنئذ تكريساً لمبدأ الانتخابات الديمقراطية في فسح المجال أمام التعدديات الميدانية للتغلغل وقيادة المنظمات الجماهيرية والاستجابة لرأي الناس، وليس لأن المرحوم قاسم كان شيوعياً أو ميالاً لاستئثار الحزب الشيوعي بالحكم، وقد لا يكون هذا الموقف ـ حكيماً ـ من ناحية المصلحة السياسية والاستئثار بالسلطة ولكنه هو المبدأ العادل من حيث التطبيق الديمقراطي وحكم الأكثرية، لا بل حتى تعامل المرحوم عبد الكريم قاسم مع وزرائه وأعوانه، كان يتبدل عندما يتأكد أنهم ليسوا شيوعيين منتمين إلى الحزب الشيوعي. وقد حدث ذلك لي شخصياً ـ بعد استيزاري ـ إذ كان في المرحلة الأولى نتيجة صداقتي لبعض أصدقائه من الشيوعيين وشكوكه في انتمائي للحزب الشيوعي ـ يعاملني بصورة رسمية متحفظة تبدلت إلى معاملة سمحاء ودودة بعد تأكده من استقلالي عن الأحزاب.

الفصل الثاني عشر

عبد الكريم قاسم والعلاقات الدولية

وهنا نصل إلى موضوع كان له موقع مركزي في الوضع الداخلي والعلاقات السياسية بين القوى الفاعلة في داخل القطر العراقي وبين

الأقطار العربية المختلفة وتشابك هذين الوضعين مع السياسات الدولية المؤثرة على مصير المنطقة والتي أثرت بالتالي على مصير حكومة المرحوم عبد الكريم وفعاليتها وعلى المرحوم عبد الكريم نفسه، وهو السياسة العربية.

وبالمفهوم الجغرافي للوطن العربي من المحيط إلى الخليج يعتبر المرحوم قاسم قد نجح في تنفيذ ما كان مصمماً عليه من علاقات أخوية مع الدول العربية الأخرى، فالمغرب ـ بعد زيارة الملك محمد الخامس. واستقباله في بغداد حيث رحب به قاسم وأطلق عليه اسم (الملك الشعبي) تزكية له في أيام كانت صفة الشعبية أحسن وسام ممكن تقديمه لسلالة عائلة ملكية قديمة، ثم أهدى للجيش المغربي سرباً من الطائرات العراقية، أما الجزائر فكانت الحكومة الموقتة برئاسة فرحات عباس وقد زار العراق واستقبل رسمياً وشعبياً استقبالاً منقطع النظير ثم قرر مجلس الوزراء باقتراح المرحوم قاسم وإسناده تقديم تبرع قدره مليونا دينار لثورة الجزائر في أواخر أيام الحكومة الموقتة ـ وقد قمت ـ عندما كنت وكيلا لوزير المالية عام ١٩٦٠ ولأول مرة بتوقيع صكين ـ كل صك بمليون دينار لمصلحة الحكومة الجزائرية المؤقتة، كما جاء بعد ذلك كل من بن بلة وزملائه الأربعة بلقاسم وبو ضياف، ومحمد خيضر وآيت أحمد واستقبلوا في بغداد استقبالاً منقطع النظير أيضاً وكان منظرهم كأعضاء وفد أمبراطوري مخيباً لآمال العراقيين المولعين بالبساطة والتواضع.

أما تونس ـ فقد توطدت العلاقات بينها وبين العراق بزيارة وزير الداخلية أحمد محمد يحيى لتونس العاصمة زيارة رسمية لمباحثات سياسية لتوطيد الصداقة بينهما عام ١٩٦٠، كما أوفد المرحوم حسين عبد العال المدير العام لمصلحة المبايعات إلى تونس لحضور افتتاح الجناح العراقي في المعرض الدولي بتونس: وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا ولسوريا بعد الانفصال وعودة الحديث إلى الوحدة العراقية السورية عندما كان الرئيس هاشم الأتاسي في الحكم وكان ما حدث في اجتماع بلودان لمجلس

وعلى أي حال فقد استطاع الأستاذ هاشم جواد بعون من الأساتذة محمد حديد وزير المالية ووزير الشؤون الاجتماعية عبد الوهاب الأمين والوزراء عامة من تخفيف بعض الاختناقات الدبلوماسية والاختناقات التجارية مع الجمهورية العربية المتحدة. وما زلت اعتقد أنه لو تم بذل الجهد من قبل القوى السياسية ومن السياسيين القريبين من المرحوم قاسم بشكل مخطط ومدروس على الصعيد الشخصي أولاً بين الزعيمين وعلى الصعيد الرسمي بعد ذلك لأمكن تحسين العلاقات العراقية المصرية وتبديل مساحة التطورات اللاحقة التي أتت على السياسات التقدمية في القطرين العراق ومصر.

الفصل الثالث عشر

عبد الكريم قاسم وحركة الشواف

وهنا نصل إلى كلام عن واقعة مثيرة أدت مع عواقبها وملابساتها إلى أن تكون ظاهرة بل مرحلة، وليست واقعة منفردة فقط، مثيرة للعواطف بالنسبة للرأي العام العراقي والعربي ولتطور توجه ثورة ١٤ تموز وأهدافها، وللمرحوم عبد الكريم قاسم نفسه والعوامل الداخلية النفسية التي كانت تدفعه وتشكل القاعدة الايديولوجية لقراراته وللضباط الأحرار من رفاقه ولنا نحن كآل الشواف أيضاً وهي الحوادث التي حدثت أولاً في الموصل ليلة ١٩٥٩/٣/٩ وصلتها بالعلاقة بين عبد الكريم قاسم وعبد الوهاب الشواف، وحقيقة هذه العلاقة وتطوراتها التي انتهت بمساعي التطهير الايديولوجي في الجيش والسلطة التموزيتين وبتأثير بالغ على الأمن والاطمئنان عند الناس ثم اللجوء إلى العنف المسلح ضد المرحوم عبد الكريم، والتي بقيت الى الآن تعوزها الدراسة الجادة، وأنا لا أدعي هنا أني سأقدم تحليلاً كاملاً لهذه الواقعة الظاهرة بل كل الذي أدّعيه أني سأقدم بين يدي القارئ ذكريات شخصية قد تكون فجة وناقصة عن هذه المسألة لعل في ذلك بعض العون أو الإفادة لدراسات مقبلة يقوم بها من هو أكثر حياداً وتخصصاً وقرباً من الأحداث مني.

فالذكرى الأولى هي إن عبد الوهاب الشواف ابن عمي عبد الملك الشواف وابن خالتي جميلة محمد أمين فجدّاي لأبي وأمي هما جداه، وكنت قد تربيت في بيت عبد الوهاب وكان أبوه عبد الملك مسؤولاً عن العناية بي لأن والدي علي الشواف قد توفي في صغري سنة ١٩٣٠ وأصبح عمي عبد الملك بديلاً عنه في النظر والاهتمام بشؤوني وتثقيفي وتربيتي، لذلك فقد كنت قريباً جداً إلى التطور الروحي الداخلي لعبد الوهاب، حيث إنه الابن الخامس لعمي وقد ولد في سنة ١٩١٢ وأكمل دراسته الثانوية في الوطنية الأهلية في عاليه بلبنان، لأنه كان في صغره مهملاً لواجباته الدراسية ومتذوباً في أصدقائه من الشعبيين في الكرخ وصريحاً جريئاً صادقاً حاسماً في تعامله مع زملائه وأساتذته وأقاربه، ولما أن عاد من لبنان دخل الكلية العسكرية وكان محبوباً من أبيه وأمه متأثراً بتوجهاتهما التي كانت مبنية على الاعتزاز الشخصي بنفسيهما وعائلتهما وقيم الشرف والاهتمام بالناس إلى حد يصل إلى الكبرياء الشخصي والفخر من جهة، وإلى تحمل مسؤولية العائلة ـ على الطريقة العربية التقليدية والتواضع ـ من جهة أخرى.

لقد كان عبد الوهاب بعد أن تخرج ضابطاً يرى نفسه، وهو ابن عبد الملك الشواف العالم الديني والنحوي اللغوي الكبير والمحترم جداً من كل رجال الدولة والرأي العام العراقيين والعرب الذين يزورونه في داره سائلين عنه بلفظ (الأفندي) الذي يعتبر في الأوساط العراقية القديمة أرفع من ألقاب البكوية والباشوية، حيث كان يستقبل الناس في دارة مستقلة في جميع الأوقات، وهو ابن هذا الرجل بهذه الصفات التي كان يثيرها فيه أبواه بسلكوهما بصفة غير مباشرة، وبالقول والإثارة والوصية بصورة مباشرة أيضاً ـ يحس بشعور المسؤولية عن الآخرين من الناس من العراقيين الذين تربطه بهم روابط الحياة، وقد أدى به هذا الشعور إلى أنه رفض تنفيذ أوامر إطلاق الرصاص في النجف الأشرف على المتظاهرين تأييداً لعبد الناصر سنة ١٩٥٦ مع أنه ضابط (آمر حامية النجف) والتقاعس عن تنفيذ أمر قائد الفرقة في الديوانية يدخل في باب الجرائم العسكرية، ولأنه كان متأثراً بشعارات الحركة الوطنية وبالحركة الناصرية والشيوعيين.

فقد عقد صلات حيوية مع بعض هذه العناصر وقد انظوى في العمل السياسي الثوري مع الضباط الأحرار وكان رئيساً لمجموعة منهم وكان مبرزاً بينهم حتى ليقال أن انقلاباً كان مخططاً له في مايس (مايو) ١٩٥٨، يوم عيد جلوس الملك على العرش كان بقيادته وأنه لم يتم لأن الضابط المسؤول عن أمن بغداد عند تحركه من الغرب قد خالف الخطة ودخل في معسكر الحبانيه عند عودته من الغرب ولم يصل إلى بغداد مما أدى إلى تأجيل الانقلاب الذي كان سيحتل عبد الوهاب مركز مفوض الحربية به ريثما يتم الالتحاق بدولة الوحدة العربية المتحدة، وغير ذلك من الروايات التي ذكرها الصديق الشهم السيد خليل ابراهيم في موسوعته عن هذا الموضوع والمعنون باسم عبد الوهاب نفسه.

أما الذكرى الثانية عن المرحوم عبد الوهاب فهو أنه في حين رأى نفسه في مركز قضية الاستيلاء على السلطة تشبهاً بعبد الناصر، اتصل بالسياسيين وصادق بعضهم وكان الشيوعيون آنذاك يحملون راية إسقاط السلطة ولذلك اتصل بهم عبد الوهاب وكان صديقاً لبعضهم ومنهم الصديق الشهم عامر عبدالله وبعض جماعة الحزب الوطني الديمقراطي عن طريق أخيه المرحوم الحاج راشد الشواف وعن طريق الشيوعيين أيضاً، وبذلك فقد نضجت بالتدريج ميوله الانقلابية وطموحه بأن يرى حكومة تتبنى شعارات الحركة الوطنية وتعامل الناس سواسية بالحسنى والعدل وتقلع عن تصنيفهم بما يؤدي إلى نفي الظلم والحرمان، وقد أدى هذا الإيمان المتضخم بهذه المبادئ والأهداف إلى تلك الاتصالات والمغامرة.

أما الذكرى الثالثة فهي أن بعض اجتماعات قيادة الضباط الأحرار، عبد الكريم وعبد السلام وناجي طالب ورجب عبد المجيد كانت تعقد في دار عبد الوهاب التي بناها أهله في منطقة القصر الجمهوري في كرادة مريم بعد أن تركوا دارهم القديمة في محلة الشيخ صندل بالكرخ، وأنه قد تخاصم يوماً مع عبد الكريم لأنه جاء بعبد السلام وأدخله ضمن مجموعتهم بلا استئذان.

أما الذكرى الرابعة فهي إنه سألني ذات يوم بعد تموز ١٩٥٨ (من أين يعرف عبد الكريم الناس ويرشحهم للمناصب؟ وبعد أن لمته كضابط على القبول بالخطب والتصريحات المتناقضة لعبد الكريم وعبد السلام سألني بغضب: (هل أذهب وأقتل الاثنين بمسدسي فقد عجزت عن إقناعهما بترك هذه الخطب والتصرفات). وأذكر أني نصحت أخوته (أولاد عمي) بأن يخفف عبد الوهاب من تحركه لأنه كلما عاد من الموصل لزيارة بغداد تقام له في النادي العسكري الحفلات يحضرها المئات من الضباط معه لأن ذلك سيبعث ويثير النقمة ضده في نفوس المتنازعين والحساد من الضباط في تلك الظروف الملتهبة بالنزاع حول السلطة، حتى إن الإشاعات حول أقواله وتصريحاته في تلك الدعوات قد تكررت وكانت مبعث خطر عليه على أية حال.

قد ذكرت سابقاً أن المهداوي قد حمل عليه في شهادته على موقفه في سنة ١٩٥٦ من ضرب النجف الأشرف عندما قال عبد الوهاب في الحال: (إن سوق النجف مثل خان جغان) فأجابه المهداوي بأنه لا يصح تشبيه النجف (بخان جغان) فهي بلد الإمام علي الثائر الأول، ولما رأيت عبد الوهاب عقب إدلائه بالشهادة في بيته. كنت أتوقع منه الغضب، والثورة العارمة على المهداوي لكنني رأيته محتفظاً بهدوئه ورابط الجأش مما حملني على الاعتقاد بأنه يبيت أمراً خطيراً لأن ليس من عادة عبد الوهاب السكوت عما يعتبره إهانة من المهداوي أو غيره إلا إذا كان ذلك جزء من خطة لإخفاء عواطفه الحقيقية.

وأذكر كذلك أني رأيت المرحوم احمد العجيل الياور (شيخ شمر) في فندق (ريجنت بالاس) مع الأخ المرحوم محمد عبد الله الفالح السعدون، وبعد أن عرفني قال (إني أعتب عليكم لأن عبد الوهاب أمر حامية الموصل، وهو يعرف علاقاتنا القديمة منذ أيام جدي صفوك وابنه فرحان، حيث يسكنان في الكرخ ونحن جيران وقد أوصى الله الرسول بالجار السابع فأما عبد الوهاب فهو يصر على فتح صندوق سيارتي وتفتيشها) وطلب مني إخبار عبد الوهاب بهذا فلما أخبرته مساءً رفض طلب المرحوم أحمد

العجيل بعدم تفتيشه وأصر على تفتيش أحمد باعتبار أن لا فرق بينه وبين الآخرين في هذه الظروف التي تكثر فيها الشائعات، مما يدل على أن العلاقة بين قبيلة شمر وبين عبد الوهاب حدثت بعد ذلك وليست مخططة بعيدة الجذور ويقال ـ ولست متأكداً من الرواية ـ أن عبد الوهاب عندما استأذن عبد الكريم بالعودة إلى الموصل طلب منه إعفاءه أولاً والإذن له بعدم العودة لأنه لا يستطيع نفسياً تحمل إهانة أنصار السلام واستفزازهم لأهل الموصل وهو المسؤول عن حمايتهم وحفظ كرامتهم ولكن المرحوم عبد الكريم ألح عليه في السفر مهوناً وقع الأمر عليه.

وعلى أي حال فقد كنت في برلين ـ المانيا الديمقراطية ـ حين وقع العصيان المسلح في الموصل وقاد عبد الوهاب الحركة المناهضة لحكومة عبد الكريم وعند عودتي إلى بغداد بعد زيارة بولونيا وجيكوسلوفاكيا والنمسا في نيسان سنة ١٩٥٩ ـ كان المرحوم المهداوي يكرر حملاته على عبد الوهاب من المحكمة حيث تذاع محاكماته على الهواء، الأمر الذي أضعفني جداً في إبداء آرائي وفي علاقاتي الاجتماعية وكنت آنئذ مسؤولاً عن لجنة الحبوب وجمعية التمور، كما رأيت أن أولاد عمي راشد وجميل قد أضعفتهما الحركة وهجمات المهداوي كما أضعفت ابن عمي وزير الصحة المرحوم محمد الشواف الذي كان في موسكو أثناء اندلاع الثورة في الموصل أيضاً، ولم يسترجع أعضاء العائلة ثقتهم بحياد السلطة أو اسنادها لهم إلا في ١٩٥٩/٧/١٤ حينما أعلن نبأ اختياري وزيراً للتجارة على أني قد سمعت من أفراد العائلة ومن ابن عمي راشد الذي استلم جثة المرحوم عبد الوهاب بعد وصولها من الموصل، ومن الأخ خليل ابراهيم الحسين وكان معاوناً لمدير الاستخبارات العسكرية إنه لم يجر ضدهم أي اعتقال وأنهم عوملوا معاملة كريمة وقد حماهم المرحوم قاسم بإرسال الشرطة لحمايتهم.

على أن من باب الذكريات ذات الدلالة على نفسية المرحوم عبد الكريم قاسم وتواضعه وبساطته وأصالته من جهة واعتزازه بكرامته الشخصية

من جهة أخرى، وابتعاده عن الأهداف والحوافز الشخصية في سياساته عامة من جهة أخرى.

الفصل الرابع عشر

ذكريات مع عبد الكريم قاسم

ثلاث ذكريات تحضرني الآن، وبعد فوات مناسبة الكلام عنها إلى جانب ما يشبهها فيما سبق: وأولى هذه الذكريات ما كان يقال عن (تناول الغداء مع الزعيم في السفرطاس) والسفرطاس باللَّهجة البغدادية ـ ولعلها كلمة تركية ـ اصطلحت على عدد من الصحون المعدنية، أربعة أو ثلاثة صحون مربوطة ببعضها بصورة عمودية، يوضع بكل منها نوع من أنواع الطعام وترسلها عادة العائلات من بيوتها إلى ذويها وأبنائها في مقرات عملهم لتناول طعام الغداء ـ وكان حامد قاسم يرسل إلى المرحوم عبد الكريم سفرطاساً، في الصحن الأول شواءً (كباب) بغدادي وهو لحم مفروم ومشوي على الطريقة البغدادية الجافة القريبة من الشواء الأفغاني، وفي الثاني رزّاً (تمّن) مطبوخاً، وفي الثالث حساء مطبوخاً بالخضار واللحم (مرقة)، وكان عبد الكريم يتناول غداءه بعد ظهر كل يوم وبعد أن يقوم بتصريف بعض الشؤون في نفس الغرفة التي يعقد فيها اجتماعات مجلس الوزراء مقابل مكتبه في وزارة الدفاع، ولما كانت المائدة زجاجية وكبيرة فقد كان يضع على ركن من أركانها جرائد قديمة ـ حفظاً لها من أن تتسخ بدهون الطعام، ويضع فوق الجرائد الصحون المعدنية (صحون السفرطاس) بالاضافة إلى ما يرد من مطعم الجنود في وزارة الدفاع التي تتكون وجباتها من الرز والخضار في غالب الأحيان.

لم يكن المرحوم عبد الكريم كبير الاهتمام بالمواعيد وكثيراً ما يُلزم على الغداء معه بعض معاونيه أو زائريه من الضباط أو السفراء أو زائريه من أصدقائه، وقد تناولت معه الغداء في السفرطاس أكثر من مرة وكان معنا المرحوم أحمد صالح العبدي واسماعيل العارف، كما أني كثيراً

ما كنت أسمع أن السفير الهندي «جوبرا» وكان ممن يحبهم عبد الكريم من السفراء قد «تغدّى» بالسفرطاس، وذات مرة رأى المرحوم رشيد مطلق مدير السياحة العامة وضع المائدة والجرائد عليها ـ فاعترض على ذلك واشترى للمرحوم قاسم أغطية قطنية للمائدة وفوط قطنية للطعام، لأنه لا يصح الاعتماد على الجرائد في تغطية مائدة الزعيم رئيس الوزراء، وقد كنت أتصور أن السفرطاس، المرسل من دار المرحوم حامد قاسم البكر ـ كان يرسل مجاناً على الطريقة البغدادية ولكني سمعت أخيراً أن عبد الكريم كان يدفع مبلغ قدره مائة دينار شهرياً عن السفرطاس إلى حامد ثمناً للطعام المرسل من قبله إلى عبد الكريم في وزارة الدفاع.

وكنت قد رأيت المرحوم طالب مشتاق سفير الجمهورية العراقية في أنقرة يزور المرحوم عبد الكريم قاسم ويتناول الطعام معه في السفرطاس من ضمن من رأيتهم يتناولون غداءهم مع الزعيم.

أما الذكرى الثانية التي جلبت انتباهي ـ في حينها ـ فهي أهمية المرافقين[1] وأعضاء مكتب المرحوم عبد الكريم في كثير من القرارات

---

(١) المرافقون وكان مكتب سكرتير وزير الدفاع والمرافقين وغيرهم من الضباط تحت أي إسم كان، يعج بالنشاط والحركة وعشرات الضيوف والمراجعين الذين يمثلون العصب الحساس الذي يصل بين البيئة الخارجية السياسية والاجتماعية وبين مركز السلطة عند رئيس الوزراء ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة المرحوم عبد الكريم قاسم ويهيئ مجموعة الاختيارات التي يختار منها المرحوم قاسم قراراته، واتجاهاته ويبلغها للصحافة والرأي العام والقوى السياسية بواسطة هذا العصب أيضاً، لذلك فإني أعتقد أن لمجموعة المرافقين تأثير كبير في السلطة يفوق كثيراً المناصب والراتب والمراكز التي يتبوءها كل عضو من هؤلاء المرافقين، وإن كانوا في البدء يفتقرون إلى مظاهر الوضع الشخصي المتناسب مع هذا التأثير، وإني لأذكر أن قسماً من المرافقين ـ استأجروا دوراً من أوقاف العلوية ببغداد ـ وكانت سقوفها تنضح ماء في مواسم المطر، فلما أجرى الكشف عليها وجد الخبراء أن إصلاحها يتكلف كثيراً ورفض الأستاذ محمد حديد أن يصرف على إصلاحها ما يتجاوز أجرها السنوي بكثير وأيده المرحوم عبد الكريم فبقيت بلا =

والسياسات التي تعلن عن مجلس الوزراء او عبد الكريم بالذات، وأذكر مرة بعد استقالتي من وزارة التجارة سنة ١٩٦٠ أن ذهبت إلى وزارة الدفاع وأخبرتهم بأني سأمتنع عن حضور اجتماع الوفد العراقي في مفاوضات النفط ورجوت المرافقين إخبار الزعيم عبد الكريم ليتخذ ما يشاء من إجراءات لإدخال بديل عني في عضوية الوفد العراقي، وكنت أكلم في هذا الموضوع مجموعة المرافقين فأعترض الأخ المقدم جاسم العزاوي على فكرة تركي وفد المفاوضة بصورة شديدة وفي اليوم الثاني جاءني أمر بقرار من مجلس الوزراء باستمراري في عضوية وفد المفاوضة مع الشركات مع فذلكة ـ كان المرحوم قاسم يجيد استعمالها في قراراته ـ بأنني قد عينت في وفد المفاوضة ـ ليس كوزير للتجارة لذلك بات خروجي منها لا يغير من صفتي في عضوية الوفد لا سيما وقد أصبحت محافظاً للبنك المركزي العراقي، وكان المرحوم عبد الكريم إذا أراد إذاعة شيء أو اتجاه في الصحافة، أو مهاجمة أحد أو سياسة ما، يكلم في ذلك أحد المرافقين أو جميعهم وهم في غرفتهم حيث يقوم المرافقون في إذاعة اتجاه المرحوم قاسم ـ بشكل يبدو أنه ليس مقصوداً من قبله، ولكن الرأي العام والوزراء

= إصلاح مع أنها كانت مسكونة من قبل مرافقي الزعيم!

لقد كان المرحوم العقيد وصفي طاهر سكرتيراً لوزير الدفاع وكان المرافقون كل من المقدم جاسم العزّاوي وقاسم الجنابي وحافظ علوان وعبد الغنى ستار وآخرين منهم الشاب ابن المرحوم العقيد كامل شبيب العزاوي مرافقين يشغلون ثلاث غرف إلى جوار غرفة وزير الدفاع وصالون الاجتماعات عدا الغرف المخصصة مؤخراً إلى ممثل ضابط لأمور الصحافة والمعلومات وكان للخلاف الأيديولوجي بين هؤلاء الضباط المتعددين واختلاف اتجاهاتهم في مسألة السلطة والسياسة أثر كبير في اظهار المرحوم قاسم بمظهر المتردد والموزع الولاء. مع أنه كان يريد من تجميعهم اظهار نفسه فوق الميول وفوق الاتجاهات ـ كما يقول ـ محايداً ونصيراً لجميع أبناء الشعب وطبقات الأمة وكل تعددياتها القومية والدينية والطائفية والطبقية والجهوية، وأني لأستطيع أن أذكر حوادث ووقائع وتوجهات كثيرة وفي أعلى مستويات الحكم والقرارات في الدولة كان اتجاه المرافق الذي يتولاها مؤثراً على نتيجتها قطعاً.

أنفسهم كانوا يعرفون أن الباعث الرئيسي وراء الإشاعة أو التوجه الصحفي هو المرحوم عبد الكريم نفسه.

أما الذكرى الثالثة فتتعلق بدور الإشاعة الكاذبة ولا سيما إن كانت سلبية بحق السلطة ورئيسها المرحوم عبد الكريم وسرعة تصديق الناس لها، فبالرغم من أن عبد الكريم كان طاهر الذيل عفيفاً من الناحية الجنسية ولم يشرب الخمرة بعد ثورة تموز ١٩٥٨، فقد جاء في أوخر ١٩٦٢ من أخبرني بأنه قد حدثت أول أمس ليلة حمراء أحياها عبد الكريم وندماءه مع راقصات الملاهي في دعوة أقامها (رشيد مطلق ـ صديقه ومدير السياحة) في داره إلى الصباح، وكانت الحفلة في حقيقتها دعوة محترمة استشارني المرحوم رشيد مطلق في إقامتها لعبد الكريم لأنها أول حفلة له بعد الثورة ووجهت فيها الدعوة إلى هاشم جواد ومحمد حديد وطلعت الشيباني والمهداوي ووصفي طاهر ومحمد الشواف، حتى إن المرحوم عبد الكريم قد منع بحضوره الآخرين من المشروب وقضى الوقت كله بالحديث عن التخطيط الاقتصادي ومشاكل الاقتصاد ولم تكن له راقصة ولا أية امرأة لتحضر الدعوة، حتى إن المرحوم رشيد مطلق هيأ إحدى الغرف الأخرى لمن يريد أن يروح عن نفسه بكأس من المشروب وليس في القاعة الرئيسية التي كان فيها المرحوم عبد الكريم جالساً ومتحدثاً. وهناك من باب الذكريات الهامة التي احتفظ بها عن المرحوم عبد الكريم قاسم ـ ما حدث في مقابلتي الأخيرتين له في ١٩٦٣ عندما تركت البنك المركزي مستقيلاً ومنصرفاً عن العمل الحكومي لا سيما أحداث الليلتين الأخيرتين في ٦/٢/١٩٦٣ و٧/٢/١٩٦٣ وهي آخر ليلة في حياة المرحوم عبد الكريم قبل أحداث ٨/٢/٦٣ المصادف ١٤ رمضان التي انتهت فيها سلطة المرحوم عبد الكريم قاسم وحياته أيضاً.

الفصل الخامس عشر

الزيارتان الأخيرتان قبل الرحيل

لقد رأيته في مقره بوزارة الدفاع في آخر ليلتين قبل ٨ شباط ١٩٦٣،

حيث كنت في ليلة ٦/٢/٦٣ مدعواً مع الأستاذ محمد حديد في موعد مع الزعيم عبد الكريم قاسم مساء ذلك اليوم (الساعة السادسة فيما أظنها).. لما أن تأخر عبد الكريم في الحضور إلى وزارة الدفاع على الموعد بسبب زيارة تفقديه له في مدينة الثورة على عادته ـ تذمر الأستاذ محمد حديد وأراد الاعتذار وإلغاء الزيارة منددأ بعدم اهتمام عبد الكريم بمواعيده حتى بعد تحرره من الوزارة، وأزمع على ترك وزارة الدفاع، ولكنني رجوته الانتظار فترة أخرى لنرى ما لدى سيادة الزعيم ليرتب هذا الموعد المشترك، ولما أن وصل المرحوم عبد الكريم إلى وزارة الدفاع استصحبنا من جناح مكتبه إلى جناح آخر يقع في الجهة الجنوبية من غرف وزارة الدفاع كان المرحوم قاسم قد أعده مركزاً لضابط الاستعلامات الرئيس (سعيد الجنابي) وقد رأينا هناك ملفات تتعلق بالقضايا السياسية وببعض السياسيين الذين التقوا مع عبد الكريم وغيرهم في مسعى لتنظيم أمور الإدارة السياسية استجابة لإلحاح وضغط كثير من أعوان الحكومة ومن الأصدقاء الشخصيين داخل العراق وخارجه على المرحوم عبد الكريم بأن يرتب مكتبه وأموره الروتينية وأن يقلع عن المستوى القديم مستوى آمر فوج إلى مستوى رئيس دولة مسؤول عن شؤونها كافة.

لقد أخبرنا المرحوم قاسم آنئذ أنه سيناقش في ذلك المساء الأربعاء ـ على ما أذكر في مجلس الوزراء قضية ارتباط شركة النفط الوطنية بوزارة النفط أو برئيس الوزراء ـ وهي قضية كثر الخلاف حولها آنذاك، وقد عرضنا رأينا وملخصه أن ينص قانون شركة النفط الوطنية على ارتباطها برئيس الوزراء لا بوزير النفط، لأن معركة النفط، والشركة من بين قطاعاتها الأساسية ـ وقد كانت مهمتها إنشاء قطاع نفط وطني مستقل عن قطاع الشركات النفطية المالكة (شركة نفط العراق وأخواتها) هي مسألة سياسية أساسية تنفذ مقابلة ومعارضة للشركات التي تتمتع بشكل كلي بإسناد حكوماتها ـ بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وهولنده وحصّة كولبنكيان المقيم في البرتغال، ولذلك يجدر أن تكون أعمال هذه الشركة تحت إشراف الجهة السياسية العليا في العراق.

ولما أن طال النقاش في الموضوع اقترحت آنذاك أن يستهدى في الحكم على قانون شركة النفط الوطنية العراقي ـ وكنت أنا الذي وضعت مسودة القانون وقامت وسائل الاعلام بنشره مع حواشي على نصوصه وفق أسلوب الشرح على المتون ـ بقانون بنك الرافدين الذي أسس بصورة مستقلة ـ لكن وزارة المالية إنما جعلت مشرفة عليه لتنفيذ السياسة المصرفية العامة للدولة، وقد طلب المرحوم عبد الكريم إليّ أن أجلب له في اليوم الثاني نسخة من قانون بنك الرافدين، ولما أن زرته في مساء اليوم التالي ٧/٢/٦٢ حوالي الثامنة مساءً في الجناح الجديد الذي صممه المرحوم المهندس قحطان عبد الله عوني مقابل سلم الباب الرئيسي لوزارة الدفاع في المركز الوسط بين جناحي وزارة الدفاع ملحقاً بالجانب المشرف على دجلة، وقد جاء إلى هناك بناء على موعد سابق المرحوم الأستاذ مصطفى علي وزير العدل السابق ـ وكان قد استقال من وزارة العدل ـ وكان من بين موقعي عريضة (السلم في كردستان) التي نظمها الأكراد والشيوعيون كجزء من الحملة ضد الحرب التي بدأت ضد الأكراد، وقد قام المرحوم عبد الكريم باطلاعنا على ملف لحلف بغداد والقواعد العسكرية التي كان الحلف ينوي بناءها شمال العراق ضد الاتحاد السوفييتي.

لقد كان المرحوم قاسم طلب من المرحوم مصطفى علي على ضرورة الالتفاف حوله لإنهاء التمرّد الكردي وكان يؤشر على خارطة تشير إلى مناطق الحركات العسكرية وهنا مازلت أذكر ـ ان عيناه بدأت تدمع وأنه يبكي لفرط تأثره وحزنه وعمق حماسه في الحديث عن القضية الكردية وكان منظره دليلاً على ما انتابه من الأسى والأسف للحكومة وله شخصياً ـ قد فشلوا في الاستجابة لإحدى النقاط الجوهرية من شعارات الحركة الوطنية العراقية ـ حول القضية الكردية ـ هي المسألة التي حاول عبد الكريم بذرائع شتّى تنطوي على محاكاة لقضية أو على تبريرات تاريخية أو شخصية لتفسير موقفه منها والتي لم يقر فيها أكثر وزرائه وكان يشجعه عليه العسكريون من حوله، وبعد أن أكد سيطرته وسيطرة الجيش العراقي على مناطق كردستان الأساسية ذاكراً أسماء الأقضية والمواقع الكردية المتعددة دربندي

خان، وقلعة دزه، وسيد صادق وغيرها، طلب إلى المرحوم مصطفى علي ضرورة الالتفاف حوله لإنهاء التمرّد الكردي، وكان يؤشر على خارطة تشير إلى مناطق الحركات العسكرية وهنا ـ لا زلت أذكر ـ أن عيناه بدأت تدمع وأنّه بكى لفرط تأثره وحزنه وعميق حماسه في الحديث عن القضية الكردية، وكان بكاؤه دليلاً على ما انتابه من الأسى والأسف لأن حكومته وهو شخصياً ـ قد فشلا في الاستجابة لإحدى النقاط الجوهرية من شعارات الحركة الوطنية العراقية ـ حول القضية الكردية ـ وهي المسألة التي حاول عبد الكريم بذرائع شتّى تنطوي على مماحكات لفظية أو على تبريرات تاريخية أو شخصية لتفسير موقفه منها والتي لم يؤيده فيها أكثر وزرائه وكان يشجعه عليه العسكريون من الموجودين حوله..

ومن ثم أمر بإيصال المرحوم مصطفى علي إلى بيته في بغداد الجديدة بعد أن طمنه وأوصاه بضرورة معاودة الاتصال به للبحث في الشؤون العامة والخاصة ضارباً له المثل بموقفي منه وكيف اتصل به لبحث مختلف المشاكل بالرغم من استقالتي وتركي الوزارة والبنك المركزي وأي عمل رسمي في الحكومة. وبعد أن بحثت معه نقطة تابعية شركة النفط الوطنية وعرضت عليه طبيعة قانون بنك الرافدين. كررت بوضوح رأيي في وجوب أن ترتبط شركة النفط الوطنية برئيس الوزراء، أو مجلس الوزراء، وكررت عرض هذا الرأي أمام مجموعة الضباط من المرافقين وغيرهم عندما أخبرهم أن ولادة الشركة الوطنية للنفط وما سينجم منها من خير مالي للبلاد قد انتهت وسيعلن عنها.

وقد سمعت أنه بعد ٨ شباط ومقتل المرحوم الزعيم عبد الكريم وجدت لائحة قانون شركة النفط الوطنية على مكتبه في وزارة الدفاع، وترددت هذه الاشاعة كثيراً من قبل مؤيدي عبد الكريم ومعارضيه الذين استولوا على السلطة في ١٤ رمضان الموافق ٨ شباط.

أما ما قبل هاتين الليلتين في ٦ و٧ من شباط سنة ١٩٦٣ واللتين انتهتا صبيحة ٨ شباط سنة ١٩٦٣ بانقلاب ١٤ رمضان.

تجدر الإشارة أني قابلت الزعيم عبد الكريم في أوائل شباط للاستئذان بالسفر إلى اجتماع لجنة التضامن الآسيوي ـ الافريقي مع صديقي نائل سمحيري إلى افريقيا، وقد كان المرحوم عبد الكريم تعباً وساهياً حينما أخبرته بذلك فقال: (الله يكتب لك السلامة) ثم انتبه ورفض بشدة فكرة سفري بعيداً بأن (عنده أشغال قريبة وهو يريدني إلى جانبه، وهو سيدبر لي سفرة جيدة تعوضني عن هذه السفرة) وقد استجبت لرجائه في عدم السفر، على أني سمعت من مصادر عدة بعد ذلك وأيدها الصديق الزعيم أحمد محمد يحيى وزير الداخلية آنذاك، أن عبد الكريم كان قد أخبره آنذاك أنه يزمع إجراء تغييرات أساسية ـ بعد أن اكتشفت المؤامرة على حكمه ـ يوم الأحد في ١٠/٢/٦٣، ولكن الانقلاب المسلّح اندلع في ٨/٢/١٩٦٣ ولقد سافر الأخ المرحوم نائل سمحيري ممثلاً للجنة العراقية للتضامن مع الشعوب الآسيو ـ افريقية ومقرها القاهرة إلى مؤتمر المنظمة وهناك حدث انقلاب ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ وكان ممثل حزب البعث في المؤتمر المرحوم الأستاذ ميشال عفلق وصلاح البيطار وحدثت مواجهة بينهما وبين الأستاذ نائل وبقي نائل في أوروبا لمدة أشهر قبل العودة إلى بغداد.

كما حضرت مع المرحوم عبد الكريم حفل افتتاح معمل شركة الصناعات الخفيفة في الرستمية لصنع الصوبات «الدفّايات» والطباخات النفطية ومعملها في المسبح لتجميع الراديوات والتلفزيونات ووضع حجر الأساس في الرستمية لمعملها للعلف الحيواني الذي أحيل بعهدة شركة (بوهلر) السويدية الشهيرة للمطاحن وسايلوات الحبوب (وقد ترك هذا المشروع بعد ٨ شباط بعد أن هدم حجر الأساس له وسرقت ورقة العشرة دنانير التي وضعت فيه).

أما المرة الأخرى التي قابلت فيها المرحوم عبد الكريم قاسم في سنة ١٩٦٣ فكانت في أوائل السنة عندما ذهبت إلى وزارة الدفاع لإخباره بسفري للبصرة يومين للاستجمام في بيت على شط العرب لأحد الأصدقاء فكلفني آنذاك ـ وهو تكليف ذو دلالة بالتفكير جدياً في دستور دائم مبني

على أساس انتخابي لمجلس أمة ديمقراطي وبوضع مسودة لهذا الدستور أثناء تفرغي في المنتجع على ضفاف شط العرب في البصرة، وقد قمت بتحرير القسم المتعلق بالسلطة القضائية في الدستور وتم تمزيقه بعد ذلك في شباط خوفاً من تحري السلطة آنئذ.

وأذكر أنه في إحدى مناسبات زياراتي له في وزارة الدفاع أنه اصطحبني معه لاحتفال في كرادة مريم في (قاعة الخلد) يقيمه اتحاد العمال والفلاحين سوية لمناسبة لا أذكرها ولكني ذهبت معه وخطب آنذاك خطاباً هدد فيه المتآمرين والمتقاعسين مرتين بعد توارد الأنباء عن مؤامرة لقتله كانت مدبرة له آنذاك، وقد عدت معه في سيارته العسكرية الروسية الصنع إلى وزارة الدفاع. وسألني ونحن في الشوارع البغدادية في الكرخ عما إذا كنت (قد رأيت مدينة الشعلة في ظاهر قضاء الكاظمية في الكرخ وما أعد فيها من دور سكن للناس، حيث أنه ـ أي عبد الكريم قاسم ـ قد آلى على نفسه أن يوفر دار سكن لكل عراقي من الشمال ألى الجنوب ـ وانتقد معارضيه الذين يتهمون أخاه حامداً ظلماً بأنه قد اشترى داراً لسكناه على شاطئ كرادة مريم في بغداد مقدراً بأن دار سكناهم هو وأبوه وأخوه كان على جانب دجلة في الصويرة أيضاً)، على أن المرحوم عبد الكريم قاسم قتل في العاشر من شباط سنة ١٩٦٣ في دار الإذاعة العراقية ببغداد، وبعد أن دُفن في المقبرة وفي اليوم التالي لمقتله جاء إليه فقراء الناس من مناصريه ـ من فلاحي جنوبي العراق للاحتفال بمقتله وتقديسه على الطريقة العراقية في الاحتفال بالمقابر إذا ما فاتتهم أو خرجت عن قدرتهم حماية القديسين من الموتى، وذلك من فرط حبهم لمن يعتقدون فيهم القدسية، فما أن رأت السلطة ذلك نبشت القبر وأخرجت جثة عبد الكريم قاسم منه، وأثقلت الجثة بحجر، وأودعتها في أعماق دجلة رامية إياها من سطح النهر ـ كما روى لنا الرواة في حينه وبهذه الطريقة المتوحشة والبعيدة عن الحضارة والوفاء والمروءة والخلق الانساني انتهت حياة الزعيم عبد الكريم بن قاسم البكر وانتهى وجوده على هذه الأرض.

الفصل السادس عشر

عبد الكريم قاسم عراقياً أصيلاً وبغدادياً حقاً

رحم الله قاسماً فقد ولد وعاش وقتل ثم أغرقت جثته في دجله ـ بغدادياً حقاً مما تنطوي عليه هذه المدينة ـ بغداد ـ من احتضان لأعراق عديدة وثقافات وقيم وتقاليد عديدة في أنحاء شمالي العراق وجنوبه وشرقيه وغربيه. ولم يكن المرحوم قاسم منغلقاً على عرق معين من واحد او أكثر من هذه الأعراق أو ما يتلائم معه من دين أو تمايز طائفي أو جهوي أو موروث فولكلوري يؤثر على مزاجه الاجتماعي والروحي والثقافي.

لم ينجح عبد الكريم قاسم في تكوين وإدامة دولة مستقرة وإن كان قد نجح في تقويض نظام قريب من مشورة الغرب وفكره وتأثيراته الثقافية تاركاً الأمر في العراق لكي يتأسس نظام حكم فردي شرقي يمكن أن يكون ظالماً أو أبوياً تبعاً للعناصر المحلية وتحكمها في المجتمع المدني. ولكنه كان رحيماً رؤوفاً بعيداً عن سلطة الظلم الذي يمكن أن تنبع من فوهات البنادق التي تملكها وتستعملها السلطة ومن الهيبة والنفوذ للحكم الشرقي، كما أنه كان لا يفهم معنى الديمقراطية وصلتها بحكم المؤسسات صلة ضرورة ووجود ولكنه إنما يفهم الديمقراطية باعتبارها الحكم العادل النزيه لمصلحة الفقراء والمحتاجين من أبناء الأمة، وأنه كان متواضعاً زاهداً طاهراً شهماً مستقيماً محباً للناس، ولكنه لم يكن فاهماً السياسة وحوافز السلطة وألاعيبها وإغراءاتها وكيفية الحفاظ عليها والتلويح بإغراءاتها بالشكل الذي يسود مجتمعات الغرب الصناعية أو مجتمعات الشرق الزراعية واكتفى بمحاولة تنفيذ شعارات الحركة الوطنية العراقية التقليدية أو تظاهر إلى الأخير بالتمسك بها بصدق وتواضع بعيداً عن أوزار السياسة وآلاعيبها وادعاءاتها ومناوراتها وآلياتها.

لقد حاول عبد الكريم قاسم أن يقيم الموازنة الصعبة بين محاكمة العهد الملكي وتصرفاته الممالئة للأجانب المستعمرين وبين المنقضين على

الثورة المعادين لها، وبين متطلبات الاستقلال الوطني وصيانة استقلال القضاء وحقوق الانسان وسيادة القانون وحماية المواطنين بالتساوي مما هو من أسس أي نظام مدني ووقع في سبيل ذلك تحت ضغوط اجتماعية وسياسية شديدة انتهت بالفشل الاعلامي بتأثير خصومه الكثيرين ـ في هذا المجال ـ ومعارضي سياسته الخارجية والمالية والاقتصادية من أصحاب المصالح المحلية والإقليمية والدولية، وأصحاب المبادئ أيضاً ثم لم يمهلوه في وقت كانت تعوزه المساعدة الحقيقية من الأنصار المجربين المضحين المبدئيين.

ان ثورة ١٩٥٨ التي نجحت في البدء ـ بصورة أذهلت الجميع من القوى الأجنبية الاستعمارية والقوى السياسية الدولية والعربية والعراقية والتي كانت تعوزها التجربة التاريخية ويعوز قياداتها الخبرة والذكاء والمرونة فانصرفت الى صراع مظهري حول شعارات الايديولوجيات كانت تخفي كوامن التعلق بالسلطة والصراع عليها وعلى مظاهرها وشواهدها تاركة المبادئ الحقيقية الاستراتيجية المرتبطة بإمكانيات التحقيق والتغيير الحقيقي.

إن القوى السياسية التي كانت في الساحة من شيوعيين وقوميين وديمقراطيين كانوا يتصارعون صراعاً دموياً شرساً على شعارات مجردة فقدت آليات تحقيقها ولا يمكن ولا تسمح الظروف والقوى الداخلية والدولية وطبيعة تطور الأوضاع الداخلية بتحقيقها مما أتعب قواها وأفرغها من محتواها الحقيقي وبالتالي أنهى دورها في بناء الدولة وفي تحقيق التنمية، وفي تحقيق الود او التضامن العربي والأممي وأحرج عبد الكريم قاسم وأظهره بمظهر المتردد البعيد عن الاستراتيجيات الثابتة والمتأثر بأعوان متباينين حسب اختلاف الظروف والأحوال، أي إن الجهة السياسية التي تكونت في إطار الثورة سنة ١٩٥٨ ـ لم تكن على المستوى السياسي والشخصي الذي يمكن أن تكون دعماً لعبد الكريم بل حملاً وعبئاً ثقيلين عليه في تلك الظروف.

والخلاصة فإن ثورة سنة ١٩٥٨ كانت قفزة في المجهول أكبر وأشق من أن يتحملها الوضع السياسي الثائر في العراق أو إنها كما يقول البغداديون الأصلاء (كلاو) ـ أي لباس رأس ـ لا يتناسب حجمه مع الرأس العراقية بحيث عمدت على حجب الرؤية عن عين عبد الكريم والسياسة العراقية الوطنية معاً وأعمت منهم العيون وأغلقت البصائر، وكان المرحوم عبد الكريم كثيراً ما يعبر عن إحساس داخلي بهذا المعنى وأسى يفصح عنه ويعكسه حبه للوحدة والاعتزال والزهد، وادعائه السيطرة على الوضع السياسي والأمني سيطرة لم تكن حقيقية لأنه كان قد فقد السيطرة حتى على وزرائه وعلى مكتبه ومرافقيه.

إن أية دراسة تاريخية تتميز بالتحليل والنقد العلمي والتاريخي للقوى العاملة في الساحة العراقية في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ سواء كانت خارجية أو داخلية وتزيد عن مجرد الانطباعات والخواطر الشخصية ـ مما هو موضوع حكاياتنا الحالية ـ كانت تشير إلى تعقد الوضع وصعوبة مهام الثورة وآليات تسييرها بشكل واضح وجلي، فعلى الرغم من الخلافات التقليدية على الهيمنة والنفوذ بين الشركات الرأسمالية الإنكليزية القديمة وبين الرأسماليين الأميركان الجدد التي انفجرت بعد عام ١٩٥٦، مما كان له أثره في تعقيد الوضع السياسي في المنطقة فإن التحول الذي كان يشهده الاقتصاد الدولي واستحواذ الاقتصاد النفطي تدريجياً على المكانة الأولى في العلاقات التجارية الدولية واكتشاف استحواذ منطقة الشرق الأوسط والخليج على المكانة الأولى في إنتاج النفط في العالم كان له أثره الحاسم على أوضاع العراق الداخلية آنئذ إذ تفاقم الانقسام الذي حدث بفعل هذه العوامل بين طبقة التجار والكومبرادور المرتبطين بالأسواق الغربية، وطبقة رجال العشائر ورؤسائها، ورجال الدين، وطبقة الموظفين وغيرهم من القوى القريبة إلى الحكم السابق أو شركات النفط أو التوجه الغربي كانت معارضة لثورة ١٤ اتموز ١٩٥٨ وهي تملك المال والقوة العسكرية والأمل أيضاً ـ يقابلها القوى القومية العربية في العراق والمنطقة (الناصرية وأعوانها) والقوى اليسارية، وعلى رأسها الشيوعيين والديمقراطيين، الذين كان من المفروض

إن يستمروا في توجههم بالالتفاف حول ثورة ١٤ تموز بإسناد جبهة الاتحاد الوطني التي عملت بتكوينها على تهيئة الإطار السياسي للتبدل الذي توخته الثورة المذكورة، ولكن انهيار جبهة الاتحاد الوطني والنزاع الدموي الذي انعكس في شعارات سياسية متطرفة أجهضت قوى الثورة أمام القوى المعادية، لا بل عملت على اصطفاف بعض قوى الثورة إلى جانب القوى المعادية لها، وأضعفت القوى التي بقيت على موالاتها وصرفتها عن العمل الأساسي في تدعيم الثورة ومسيرتها إلى حيث انصرفت بكل قواها في مناورات للحفاظ على نفسها وحرف السلطة إلى مسيرتها بحيث أنه في السنة الثالثة للثورة صار النظام الذي ابتدعته ثورة تموز معلقاً أمام خيار واحد هو خيار عبد الكريم قاسم الذي لم يكن ليؤمن ـ هو نفسه ـ بتنظيم حزبي أو سياسي، بل كان يؤمن فقط بالعمل الكارزمي الأبوي في سبيل تحقيق شعارات الحركة الوطنية، الأمر الذي جعل القوة الشخصية لفرد واحد لا تستطيع أن تقف أمام القوى الاجتماعية ـ الجيش ـ القوى السياسية ـ التوجه العربي ـ التنظيمات الديمقراطية والدينية والقومية والقوى الاقتصادية الوطنية والاستعمارية الأجنبية ـ مما أدى إلى انهياره أمام هذه القوى لا سيما وأنه كان محافظاً تقليدياً في أسلوبه في إدارة الصراع والحكم، مما أدى إلى خيبة أمل حقيقية في النظام الثوري وفي تبريراته وشرعيته بعد السنة الثالثة من الثورة، حيث كان الوضع الدولي يتميز بالصراع والتناقض على جهات عديدة ـ المعسكر الاشتراكي والمعسكر الغربي، والمعسكر السوفيتي والمعسكر الصيني حيث لم يلحظ أي استقرار أو تتضح خطوطه واصطفافاته العامة.

لقد أدى النزاع السياسي الذي أعقب الثورة إلى عواقب على قيادة عبد الكريم قاسم وأدت إلى التضحية بالدراسة والتخطيط العقلاني الضروريين لمصلحة التغييرات المطلوبة ولصالح وضرورات توقيتها وسرعة تنفيذها، كما أثارت الشكوك بها وشجعت التطرف في الشعارات المعبرة عن هذه الخطط والتغييرات، بل إنها أدت إلى اعتياد المرحوم عبد الكريم قاسم على القراءة المستعجلة (قراءة نشرة الانصات التي اعتاد عليها

المرحوم عبد الكريم قاسم من تعقب الاذاعات المتعددة التي كانت تذيع ضده بالطريق الغوغائي الإعلامي غير المستند إلى الحقائق والتي لم يكن ينظر إليها إلا باعتبار أخبارها وتحليلاتها إشعارات لا تستحق أكثر من التنبه إليها تنبهاً سلبياً.

في هذا الوقت كانت فيه الأوضاع الاقتصادية المستندة إلى القطاع الزراعي تعاني من التخبط وانهيار القدرة نتيجة تأخر الحوافز الإنتاجية وعجزها عن التغلب على الفترة التي اقتضاها الإصلاح الزراعي بالنسبة لقطاع الإنتاج في الزراعة ومنتجاتها، ومفاوضات النفط بالنسبة للموارد الحكومية والميزانية العامة ولم يساعد عبد الكريم أمام هذه المعوقات السلبية إلا هدوء أعصابه ولم يعوضه ذلك عن قدرته على الاستشارة واهتمامه بالإعمار وتفاؤله وحبه للخير للناس كافة بكل طبقاتهم الإجتماعية. كما لم تساعده طبيعته المتسامحة ودعوته إلى أن الرحمة فوق العدل إلا بأن تزيد من جرأة أعدائه وثقتهم بأنفسهم وقدرتهم على أن يدبروا ضده عملية إسقاطه بقسوة لما اعتبروه من أخطائه.

الفصل السابع عشر

بعض الانطباعات والذكريات عن عبد الكريم قاسم

وفي نهاية هذا الفصل الذي يتضمن بعض انطباعاتي وذكرياتي عن المرحوم عبد الكريم قاسم، وسياسته وأحداث عهده، مما كان حجر الزاوية وأساساً للعهود والأحداث التي يمر بها العراق اليوم والتي ينوء تحتها الوطن والمواطنين ـ لأرى من الضروري الإشارة إلى ملاحظتين تتعلقان بالشكل لا بالموضوع ـ الأولى أن هذا الفصل في حقيقته ـ وكما أوضحت ذلك مراراً لا يتعدى انطباعات وذكريات لا تصل إلى حد التحليل التاريخي العميق للفترة التي أعقبت ثورة تموز ١٩٥٨ وأحداثها وعواقبها بعواملها وأسبابها وظروفها والعوامل التي ساعدت على فشلها عن تحقيق أغراضها.. وهو لذلك لم يتطرق إلى مسألة هامة ما زال البحث فيها

قاصراً على التحليل التاريخي وهي مسألة الخلاف الصيني ـ السوفييتي، نشوؤه، كفاحه إلى أن يصبح عاملاً من عوامل الوضع العراقي، فليس لدي من باب الانطباعات والذكريات ـ ما يمكن أن يثبت هنا مما يلقي الضوء على هذه المسألة ـ صحيح أني زرت الاتحاد السوفييتي ثم الصين في حزيران سنة ١٩٦٠ واجتمعت بالزعيم البارز والساحر شوان لاي في الصين أكثر من مرة، ولكن طبيعة الزيارة هي اقتصادية ـ تجارية وطبيعة الأوضاع العامة في البلدين وفي العراق جعلتني أخرج نتيجة المحادثات التي أجريتها معه حول مسائل غير النفط وبيع التمر أن هناك خلافات عامة ـ قد تحدث بين الدول في النظرة إلى السياسة العالمية وطبيعة الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية.

ولكني لم أكن لأتوقع أن يتداعى الخلاف ويتفاقم إلى أن ينهار معه الحلف الصيني ـ السوفييتي وينهار التضامن الأممي الاشتراكي وتنهار معه الآمال الكبيرة في القضاء على النظام الاستعماري والرأسمالي في العالم، حيث عبر الرئيس (شوان لاي) بوضوح عن وجوب الوقوف أمام التكتل الاستعماري ـ لأن التراجع أمام الحلف الرأسمالي الغربي والبحث عن تسويات معه سوف لا يزيل الاحتقان في العلاقات الدولية وسوف لا يقربنا من التسويات السلمية للمشاكل الدولية بل إن ذلك سوف يفتح شهية الدول الرأسمالية نحو مكاسب أخرى وسوف يؤدي إلى حرب نتيجة تزايد اشتعال الحروب الباردة في العالم، وإن الذي يقف بالعالم أمام الحرب وبعدها هو الحزم والقوة والوحدة أمام مطامع الاستعمار ومناوراته إذ إن ذلك هو الذي يوقف الدول الرأسمالية عند حدها. ولكن أية آيات ودلائل على انعكاس هذا الرأي على العراق في زمن المرحوم عبد الكريم قاسم بصورة تدخل ضمن حديث عن انطباعات أو ذكريات لم تكن موجودة، وربما كان هذا الموضوع جديراً بدراسات أكاديمية نتجت عن مصادر لها في وزارات الخارجية السوفييتية أو الصينية أو العراقية لإلقاء الضوء على هذا الموضوع وآثاره وعواقبه على السياسات العراقية.

أما النقطة الثانية فهي أني قد استشرت الأستاذ محمد حديد (السياسي

والاقتصادي البارز ووزير مالية ثورة ١٤ تموز) والدكتورة نزيهة الدليمي ممثلة الحزب الشيوعي في الوزارة منذ ١٤ تموز ١٩٥٩ فسألتهما الرأي عن بعض ما أشكل علي من هذه الانطباعات في تلك الأيام، وذلك باعتبار أن كلا منهما كان قريباً من المرحوم عبد الكريم وكان يمثل ـ بذلك ـ قوى اجتماعية مؤثرة ومهيئة للصراع في زمنه وليسا بقاصرين على تمثيل نفسيهما فقط ـ كما كنا آنئذ، صحيح أن لكل منهما أسلوبه في العمل والتأثير على الأوضاع، كما أن للمرحوم عبد الكريم تجاه كل منهما أسلوبه المستقل والمتميز عما له تجاه الآخر. لكني وجهت إليهما أسئلة موحدة في مسائل حدثت في تلك الأيام تلقي الأضواء على الاتجاه الحكومي السائد والقرارات الصادرة وعلى الجدل الذي تم بشأنها في حينها وعواقبها وأحببت أن أعرف رأي كل منهما في هذه الأسئلة لأنهما يمثلان جهتين متناقضتين في الموقف السياسي والفكري والأيديولوجي وقد أجابا مشكوران على أسئلتي وسأنشر الجواب في الفقرات الأخيرة من الحواشي والتعليقات التابعة لهذا الفصل[1].

(١) لم تدرج هذه الأسئلة ولا الأجوبة في مسودّات المخطوطة. الناشر.



القسم الثاني

سالم عيسى الوجيه

سالم عيسى الوجيه

الفصل الأول

حينما وصلت البصرة عام ١٩٤٧ قاضياً في محكمة الصلح فيها ـ كان المرحوم الأستاذ (سالم عيسى الوجيه) محامياً مسجلاً فيها، وكان من أوائل من تعرفت عليهم وانعقدت بيني وبينه صداقة وثيقة كما كان معروفاً في الأوساط التي كنت قريباً منها في بغداد وهي أوساط يسار الحزب الوطني الديمقراطي ـ وقد كان يقودها آنذاك كل من المرحومين زكي عبد الوهاب[١] والدكتور طلعت الشيباني[٢] المحاميين اللذين دخلا معركة شهيرة

---

(١) زكي عبد الوهاب: هو أحد المحامين في الحزب الوطني الديمقراطي وأحد الشباب من رموز الحركة الوطنية في أيام الخمسينات والستينيات، يرجع نسبه إلى الكرويه من قيس من بغداد واستطيع ـ ذمة ـ أن أؤكد إنه أفضل وأعف من رأيت لساناً ويداً وفكراً وأكثرهم وطنية وحياداً وإخلاصاً وسأكتب فصلاً عنه في هذه السلسلة باعتباره إحدى الشخصيات النافذة.

(٢) طلعت الشيباني: كان يعتبر في الخمسينيات صديقاً لزكي عبد الوهاب وقريناً له لا يذكر إسماهما الا قرينين في أوساط الحركة الوطنية اليسارية. تخرج طلعت من كلية الحقوق سنة ١٩٤١ في دورة السنة التي حدثت فيها ثورة الجيش والكيلاني ضد الإنجليز وسافر الى مصر حيث حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة في العلوم القانونية ـ الاقتصادية وعاد وعمل قبل ثورة تموز في اتحاد الصناعات ثم استوزر للتخطيط في شباط ١٩٥٩عند التعديل الوزاري وخروج الوزراء القوميين من وزارة المرحوم قاسم، واستمر في وزارة قاسم إلى مقتله بعد ٨ شباط ١٩٦٣ وهو الذي أعد الخطة الاقتصادية الأولى وكان في المراحل الأولى في حكومة المرحوم قاسم موضع ثقته ويعتمد عليه كثيراً. توفي المرحوم طلعت في سنة ١٩٩١ وهو من =

الموضوع وحول تصرفات سالم حين السكر وبعده والتي لم يكن ليغطيها أو يخفف تفاعلاتها لدى الموظفين، والمحامين، وأصحاب المصالح، أيّةُ علاقات أُسَرية أو ثروة أو أملاك عقارية، أو بساتين نخيل أو قصور على شط العرب (والأنهر المتفرعة عنه) أو جلسات ليلية يعمرها القمار والنساء أو غير ذلك من السلوكيات المرفوضة اعتيادياً من قبل المرحوم سالم وأقرانه والمرحوم بعيد أيضاً عن متطلباتها جميعاً.

كان سالم الوجيه يستند في جرأته ومواقفه المبدأية القوية وفي مجابهاته للإدارة ولرئاسة المحكمة إلى محض كفاءته القانونية والعلمية كقاض، وإلى نزاهته ونقاوة شخصيته وإلى ابتعاده عمّا يسيء لسمعته كقاضي من التأثر بمالٍ أو هدايا أو نساء ـ وقد كان ذا علاقات طيبة، وصدق ونزاهة يد وضمير ـ ولكن لم تكن كلها بكافية ـ في تلك الحقبة من الزمان، لتغطية ما كان ينسب إلى المرحوم سالم الوجيه في سكره مما قد يصل إلى حد المجابهة في المواقف السياسية وغيرها مع كبار المسؤولين في اللواء ومع مراكز الإدارات في العاصمة، كالمتصرف ورئيس المحكمة والوزراء والنواب ورؤساء الدوائر وما يدور حول تلك المواقف من المبالغات والتعليقات في اليوم التالي لحدوثها، مما تساهم في تكوين جو سلبي حول اسمه ومكانته وسمعته في القضاء والمجتمع.

وكنت عندما تعرفت على المرحوم سالم ـ تعرفت أيضاً على صديق مناظر له (وصاحب من أصحابه) تربطني به صلة رحم وقرابة بعيدة عن طريق المرحوم الأستاذ عارف قفطان[1] الشخصية العراقية الفذّة المشهورة ومن أخوال والدي في قضاء عانه ـ وكان الصديق هو الأستاذ عبد اللطيف عبد الوهاب جعاطه[2] الذي كان قد تخرج من كلية الحقوق ببغداد في دورة

---

(١) عارف قفطان: من وجهاء عانه والشخصيات العراقية المعروفة بالشهامة والوفاء والرجولة وحب الناس كل الناس، بغض النظر من عوائلهم ومذاهبهم وانتماءاتهم العرقية أو الدينية أو السياسية، سأكتب عنه فصلاً مستقلاً (باعتباره شخصية نافذة).

(٢) عبد اللطيف عبد الوهاب جعاطه: محامي من أقارب آل الحصّان في بغداد =

المرحوم سالم في سنة ١٩٤١، وأجبر أيضاً على ترك وظيفته بعد أن تعين ـ مدير ناحية ـ في وزارة الداخلية وأشغل نواحي هامة كاليوسفيه في بغداد وإحدى نواحي لواء العمارة القريبة إلى مراكز اللواء وكان السبب في إجبار عبد اللطيف جعاطه على الاستقالة ما شاع عن سكره الدائم والشديد أيضاً وانصرافه إلى الأنس والطرب والغناء مع الباغيات والفتيات وكان المرحومان سالم الوجيه وعبد اللطيف عبد الوهاب صديقين يربطهما الشراب وليس شبه علاقة جدية ما عدا الشراب تربط بينهما، بل كانت

= وأصلهم من عانه وقد سكنوا البصرة في أواخر العهد العثماني وكانوا يعملون لأقاربهم في تصدير الخيول العربية إلى الهند، ونمت علاقتهم التجارية تدريجياً ببلاد الهند ـ في كراجي ـ حتى أصبحت الحاجّة جعاطه عمّة عبد اللطيف مستوردة كبيرة للأقمشة من الهند في العهد العثماني الأخير وكان ذلك مصدر ثروة العائلة من دور ونخيل في البصرة مؤخراً في القرن العشرين حيث توفيت (الحاجة جعاطه) ووارثها الوحيد أخوها الحاج عبد الوهاب والد المحامي عبد اللطيف الذي تخرج في دفعة ١٩٤١ مع زملائه سالم الوجيه وزكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني وإبراهيم كبّه وغيرهم وقد عين أول تخرجه مديراً لناحية اليوسفيه جنوبي غرب بغداد ـ وهي ناحية هامة لقربها من العاصمة ولوقوع أملاك ومزارع كثيرة لرجال الحكم أو أقربائهم فيها ثم نقل إلى ناحية أخرى في العمارة وهناك وفي سنة ١٩٤٦ اصطدم بوزير الداخلية (سعد صالح) الذي زار الناحية مما أدى إلى أن يقدم عبد اللطيف استقالته ويعود إلى البصرة محامياً فيها ويعيش في بيت والده عبد الوهاب. وكان عبد اللطيف إنساناً طيباً وودوداً كريماً لولا عيبه الأساسي الناجم عن كونه مدمناً على الشراب في كل أوقاته ليل نهار، وقد تزوج في السبعينات من ابنة المرحوم عبد الحافظ الطه الحاكم الشهير في البصرة والمستشار القانوني لشركة نفط البصرة وقد ولدت له بنتاً تزوجت ابن أمين بركات لا أعلم شيئاً عن أمره الآن. كان عبد اللطيف وأبوه مرتبطاً بنا بصلة قرابة ورحم بواسطة آل الحصان في بغداد وقد تعمقت علاقتي به لهذا السبب ولأن كان عضواً في حزب الاستقلال في اللجنة المحلية برئاسة عبد القادر السياب ومع نجم عبد الله الفالح السعدون والحاج أمين الرحماني وعزيز بركات، وقد تعين عبد اللطيف حاكماً في محكمة استئناف البصرة في الخمسينات ثم انتقل في الستينيات إلى القرنه حتى أصبح رئيس تسوية ايام ثورة تموز سنة ١٩٥٨ ولكن سكره وما كان ينجم عن سكره من عربدة وسلوك اجتماعي غير مقبول كان من أسباب تخلفه في الميدان الوظيفي أيضاً.

أحاديث الهزل والسخرية والفكاهة والابتعاد عن كل اهتمام جدي، وما يتخلل ذلك من العبث والمبالغة والاستهتار والتحلل هي العلاقات الوحيدة والتي تربط بين هذين الصديقين وتجمع بينهما في الصباح والمساء، حيث يعقدان مجالس الشراب والسكر والعربدة ومعاملة الناس معاملة السكارى غير الجادين!

الفصل الثاني

ولد المرحوم سالم عيسى الوجيه عند نهاية الحرب العالمية الأولى في العشرينيات من هذا القرن (القرن العشرين) في إحدى قرى الجانب الشرقي لشط العرب وأظن أن ولادته كانت في العجيراويه أو ما جاورها إذ كانت القبائل العربية وأبناؤها يقطنون القرى في تلك المناطق وينازعون الساكنين من الغرباء والأعراب في زراعتها والتملك فيها، والهيمنة عليها، ومن العشائر العربية المعروفة والساكنه هناك بنو تميم وفرعهم آل جنعان (كنعان)[1] والشيخ مصبح العرفج من بني مالك، وبنو مسكين، وبنو سد وآل فتله والمحيسن، وكعب ممّن عبروا الجانب الشرقي من شط العرب من

(١) آل كنعان من بني تميم: سكنوا في الضفة الشرقية من شط العرب جنوب شرقي البصرة منذ عهد قديم ـ ربما يعود إلى عهد الفتح الإسلامي ـ في مواجهة السكان الفرس قرب المحمرة وفي أراضي العراق الجنوبي وعربستان، وقد كان رؤساؤهم في النصف الأول من هذا القرن (القرن العشرين) يمتازون بطول القامة وهيبة الأجسام وجمالها، وبالشجاعة والإقدام في التعامل مع السلطات العراقية والإيرانية والإنجليزية المشرفة على الكويت وبقية أرجاء شمالي الخليج، وقد سمعت بعد ثورة تموز أنهم دخلوا في مشاكل مع السلطات وأودعوا السجن في بعض الأحيان، ومن الجدير بالذكر أن المنطقة التي تقع حوالي المحمرة وإلى شمالها وشرقها مسكونة بالقبائل العربية المستوطنة بعد هجرتها من الجزيرة مثل قبائل كعب وبني مالك والفتله وغيرها وعلى رأسها المحيسن وهي قبيلة العائلة الحاكمة قديماً التي كان في شخصياتها الأخيرة مزعل وخزعل أميرها الأخير.

قبالة العشار في البصرة إلى المحمرة وجنوبها وإلى جنوب عربستان أيضاً وإلى الأهواز في الشمال الشرقي.

كان الكثيرون من شباب البصرة وعائلاتها يعودون في الأصل الى تلك المناطق [illegible]

[illegible]

المرحوم سالم فأصبح المرحوم سالم وأخوه يوسف ابني خالة أولاد الحاج ابريسم والحاج عبد الجبار جعفر على أني في وقته لم أسمع عن سالم ـ لوجه الله ـ ولم أشعر عنده بأي تعصب عرقي أو طائفي من أي نوع كان وبأي درجة يمكن أن يشعر بها الآخرون، بل إن المرحوم سالماً لم يخبرني بأن له قريب في البصرة ما عدا أخيه الشقيق المحامي المرحوم يوسف عيسى الوجيه[1] وهو أصغر منه سناً وتخرج من كلية الحقوق محامياً بعده وقد تزوج من ابنة خالته وخلفا عائلة من الأبناء والبنات اهتم بتربيتهم ومنهم بنت طبيبه تخرجت في التسعينيات في كلية الطب بجامعة القاهرة وعادت إلى البصرة تزاول مهنة الطب وكان المرحوم سالم يرعى عائلة أخيه جميعاً على طريقة القرى الزراعية.

لقد أكمل المرحوم سالم دراسته الابتدائية والثانوية بالبصرة والعشار على عادة ساكني البصرة آنئذ ثم التحق بكلية الحقوق عام ١٩٣٧ ببغداد وتخرج منها سنة ١٩٤١ (وهي السنة التي أعلنت فيها ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز) من ضمن دفعة كان من الخريجين فيها إبراهيم كبّه[2] وزكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني ومحمد أمين الرحماني[3] وخالد

---

(١) يوسف عيسى الوجيه: هو شقيق المرحوم سالم الأصغر تخرج من الحقوق العراقية أيضاً وعمل محامياً في البصرة وتزوج من ابنة خالته بنت الحاج إبريسم وأصبحت له عائلة من أولاد وبنات ـ توفي في أواخر الثمانينات وكان محباً لأصدقائه ومحبيه من مجموعة عبد الله السعدون وخليل الشيخ علي.

(٢) إبراهيم كبه: راجع الحاشية المكتوبة عنه في كتاب (شخصيات نافذة).

(٣) محمد أمين الرحماني: ـ آل الرحماني من عشيرة الجنابيين من سكنة بغداد، وقد سكن محمد أمين وأخوه سلمان وعمه الحاج إبراهيم في البصرة وعملوا فيها تجاراً ومقاولين واختلطوا بأهلها وأصبحوا من البصرين وهو أصغر أخوته الثلاثة سلمان وشوكت وآخر وكانوا معروفين مع أبنائهم بالفضل والرجولة وحب الناس والوفاء والشهامة أما عن الحاج إبراهيم فهو والد الأستاذ عبد الحفيظ الذي كان مديراً عاماً في وزارة الشؤون الاجتماعية لخبرته بشؤون العمل والعمال. تخرج محمد أمين من كلية الحقوق سنة ١٩٤١ وانخرط في الحركة الوطنية المعارضة فكان من =

الدرة[1] وغيرهم من الشباب الذين انصرفوا إلى العمل السياسي والمسائل العامة في تلك الأيام الملتهبة.

ولما أن تخرج المرحوم سالم من كلية الحقوق وآنس في نفسه الولع بالمسائل القانونية من حقوقية وجزائية تعين في وزارة العدلية حاكماً (أي قاضياً) في قضاء هام آنئذ هو (قلعة صالح) في لواء العمارة ثم نقل إلى (أبي الخصيب) جنوب البصرة الذي تقع فيه ملكيات النخيل الهامة لعوائل البصرة وبيوتاتها الشهيرة وترتوي فيه القرى المتناثرة على جانبي الماء بروافد شط العرب وفروعه الصغيرة والذي ينتهي بالبحر جنوبي ناحية الفاو. وفي دورة من دورات سكره في نادي الموظفين في العشار تخاصم المرحوم سالم مع متصرف اللواء (المحافظ) المرحوم أمين خالص[2] والد كل من الأخوين خالص وشاكر وشقيق المرحوم القاضي الشهير محمود خالص[2]

= أقطاب فرع البصرة لحزب الاستقلال ثم تعين مديراً في المديرية العامة للموانئ، وبعد أن تقاعد خضع لرجاء من صديقه محمد أحمد الغانم وانتقل مع عائلته إلى بغداد وصار مديراً لشركة إنتاج (السينالكو) حيث يقع معملها في الرستميه ببغداد وحيث يملك غالب سهامها أبو مرزوك محمد الغانم ولا يزال الحاج أمين يعمل في المعمل المذكور - حسبما أعلم - إلى الآن. والحاج محمد أمين الرحماني (أبو عمر) يعتبر مثالاً في الأمانة والطيبه وعزة النفس وعفة اليد واللسان والقلب والوطنية وحب الناس والإخلاص كما أن إخوته يمتازون عامة بعين الصفات في مجتمع البصرة وبغداد.

(١) خالد الدره: آل الدرة عائلة كريمة في الكرخ ودورهم في سوق الجديد والشيخ صندل، وهي عائلة تعود بالأصل إلى بلدة حديثه في أعالي الفرات وخالد هو ابن الحاج إبراهيم الوجيه الكرخي البغدادي تخرج من كلية الحقوق العراقية سنة ١٩٤١، وقد حج إلى مكة عند إعادة فتح طريق النجف البرّي للحج عام ١٩٣٥ وقد أصدر الأستاذ خالد في الأربعينيات مجله الوادي التي أصبحت من معالم الأدب النقدي في العراق في الأربعينيات وكان الأستاذ خالد الدرة على رأس محرريها معروفاً باللفظ الجريء القوي وبالصراحة والإخلاص وهو يعيش الآن ببغداد ويختلط بأصدقاء معدودين فقط.

(٢) أمين خالص ومحمود خالص: راجع كتابنا (شخصيات نافذة) في الهوامش.

وقد كتب عنه المرحوم أمين إلى وزارة العدل مما أجبره على الاستقالة من المحاكم في عام ١٩٤٥ أو ١٩٤٦ على ما أظن، وأصبح محامياً يزاول مهنة المحاماه في محاكم البصرة بعد ذلك (وقد تعرفنا عليه آنذاك وكان معه صديقه عبد اللطيف عبد الوهاب والذي كان قد استقال من وظيفته كمدير ناحية في لواء العمارة أيضاً بعد خصام أثر واقعة سكر مع وزير الداخلية المرحوم سعد صالح سنة ١٩٤٦).

لقد كان سالم الوجيه وعبد اللطيف كما قلنا ـ آنفاً ـ أيضاً صديقين يجمعهما حب السكر وتعليقات السكارى وأغاني المخمورين والأحاديث التي تشغل الناس حول قضايا السياسة والمجتمع وكان بينهما بعض المقابلات والمواجهات السياسية، لأنه بمقابلة يسارية المرحوم سالم واقترانه بالحزب الوطني الديمقراطي وبالشيوعيين ـ كان الأستاذ عبد اللطيف عضواً للجنة التنفيذية لحزب الاستقلال في البصرة وهو تجمع قومي مناهض للشيوعية في تلك الأيام.

وكما هو معتاد في هذه الشؤون فقد بولغ كثيراً بالسكر. وفائق تأثيراته وعواقبه على المرحوم سالم وفبركت كثير من الخطابات والأقاويل بدوافع مغرضة، بل بدون دافع في بعض الأحوال حتى إن المرحوم سالم قد أُضيرَ وتأثرت سمعته كثيراً بهذه المبالغات فكان يكرر دوماً أنه يخاف من الإشاعة إذا دارت في الرأي العام وأخذ بها حيث أنها تقرر مصير الإنسان اجتماعياً بغض النظر عن اتساقها مع الحقيقة أو مجافاتها إياها.

لقد كان المرحوم سالم يحب العيش المريح في الفنادق الشهيرة الفاخرة، ولعل ذلك يعود لافتقاره إلى دار وعائلة يأوى إليها وتهتم به وتوليه عنايتها وكان معجباً بمظاهر الأرستقراطية وحياتها وكان يذهب لقضاء أوقات راحته في بارات الفنادق الشهيرة ومنها (فندق شط العرب في مطار البصرة) في المعقل ـ إذ كان فندق شط العرب في مستوى عالمي يتقابل فيه أقطاب السياسة العالمية من الإنجليز والهولنديين والهنود وغيرهم أثناء انتقالهم بعد الحرب العالمية الثانية ـ بين المستعمرات في الهند وأندونيسيا

وفيتنام والصين وبين البلدان الأوروبية المستعمِرة في إنجلترا وفرنسا وهولنده حينما كانت تدور معارك تحرير الشرق الأقصى في أواخر الأربعينيات والخمسينيات في هذا القرن (القرن العشرين)، وكنت ـ شخصياً ـ قد رأيت في هذا الفندق الباندِيت نهرو رئيس حزب المؤتمر الهندي ـ قبل استقلال الهند ـ والمحامي العمالي البريطاني والوزير ستافورد كريبس الذي كان له دور بارز في مفاوضات استقلال الهند وغيرهما من الشخصيات عدا الشخصيات العراقية والعربية التي كانت ترتاده إما لوقوعه على طريق الطيران الرئيسية بين أوروبا وآسيا أو كانت ترتاده ترويحاً عن النفس أثناء الربيع. وكان المرحوم سالم ـ على عادة السكارى من العراقيين كثيراً ما يستعملون الأغاني الشعبية الشهيرة مسقطاً إياها على الأحداث السياسية لا سيما الشخصية التي كان يهتم بها فكان يتلذذ لسماع صوته هو يردد ما يعتبر تعليقاً سياسياً على تلك الأحداث إذ ترى المرحوم سالم يردد أغنيته:

عيني جميل شبدلك؟ روحي جميل شبدلك؟

وتجدر الإشارة هنا عندما يستوزر المرحوم الأستاذ جميل عبد الوهاب، وكان يردد أغنية:

ربيتك زغيرون حسن ليش انكرتني!
وعيونك الواسعات حسن موزر صبتني

وأيضاً عندما يستوزر الأستاذ حسن عبد الرحمن، يردد الأغنيتين بناء على موقف سياسي. وكثيراً ما كان يتصل سالم رحمه الله ـ بعد منتصف الليل تليفونياً ـ في حين كان الاتصال التليفوني مسألة معقدة آنذاك ـ بالأستاذ المرحوم كامل الجادرجي في بغداد أو بالمرحوم الأستاذ برهان الدين باش أعيان[1] أو بالأستاذ حسن عبد الرحمن أو عبد الرحمن

(1) برهان الدين باش اعيان وهو أبو أحمد السياسي والمحامي والشخصية البصرية المعروفة في أواخر العهد الملكي وكان يتولى وزارة الخارجية أثناء المواجهة مع عبد الناصر وأزمة حلف بغداد، وقد هاجمه عبد الناصر شخصياً وبالإسم في خطبة =

كان لها أثر في تعبئة الرأي العام ضده وضد آل باش أعيان مع أنه كان من رجال العراق النزيهين المثقفين المتطلعين إلى المصلحة الوطنية في سلوكه الشخصي وعمله السياسي كوزير، وقد حكم عليه في محكمة الشعب بالإعدام بسبب الرأي العام المعبأ ضده ولكن المرحوم عبد الكريم عفا عنه وأطلق سراحه بمناسبة أعياد تموز سنة ١٩٦٠ وهو ممن كلّمت المرحوم قاسم للرأفة به بعد أن أخبرني عمه الشيخ عبد القادر باش أعيان ـ وكبير عائلتهم ـ في زيارة مقصودة لي في وزارة التجارة بأن برهان في خطر على حياته لأن حكم الإعدام سينفذ به وقد وضع قناع الإعدام على وجهه تخويفاً له، مما كلمت المرحوم عبد الكريم في المساء عنه وأكدت له عدم استحقاق برهان الدين عقوبة الموت قياساً على مسؤولية الوصي والمرحوم نوري السعيد اللذين أزهقت روحهما كعقاب يناسب مسؤوليتهما لأن لا قياس بين مسؤولية برهان الدين ومسؤولية الوصي ونوري السعيد في تصميم وتنفيذ سياسات العهد الملكي. وقد استفسر المرحوم عبد الكريم عن شخصية برهان من صديق لي في البصرة فأكد له أنه من أحسن العائلات وأحسن السياسيين في عدله ونزاهته وثقافته وفهمه لواجباته كرجل دولة ومدافع عن المصالح العامة وقد وعدني المرحوم قاسم بمساعدته والنظر إلى قضيته بعين العطف وإبلاغ ذويه بالاطمئنان عليه وقد عفى عنه بعد ذلك.

وزارني في بيتي عندما كنت أسكن في كرادة مريم وسافر إلى لبنان فالسعودية مع زوجته السيدة أم أحمد أخت الدكتور عبد اللطيف باش أعيان (صديقنا الأخ الذي ترك وظيفته مع زوجته الألمانية كأطباء في ميناء البصرة وهاجر في سنة ١٩٥٩ إلى ألمانيا حيث قام بتربية أولاده الأربعة هناك في ماينز على نهر الراين. ثم انتقل إلى آخن على الحدود مع فرنسا وهي مدينة أعرف أن الدكتور عبد اللطيف يسكن فيها في ألمانيا ثم انقطعت صلتي به بعد أن رأيته في لندن في أواخر السبعينات في القنصلية الكويتية ـ أما برهان الدين فقد هاجر إلى السعودية واشتغل هناك مستشاراً لإحدى الإدارات ثم توفي إلى رحمة الله ولا أظن أنه عند وفاته كان قد جاوز الستين من العمر.

كان المرحوم برهان الدين ابن الشيخ أحمد باش أعيان في الخمسينيات محامياً في البصرة وأستاذاً فاضلاً مؤدباً ومترفعاً عالي الجناب وكان من رواد نادي المحامين ليلياً مع الأخوان عبد الرحمن العمر ومحمد أمين الرحماني وقاسم الزهير وغيرهم ومن المتناقشين بالحوار المفتوح الحر حول شعارات الحركة الوطنية حينئذ وإذا كان المرحوم برهان الدين ـ قد عارض تلك الشعارات فهو قد عارضها وأيد شعارات نوري السعيد وحلف بغداد عن قناعة راسخة بأن في ذلك =

العمر[1] وغيرهم من رجال السياسة مناقشاً إياهم في مواقفهم ومواقف غيرهم السياسية من معارضة أو موالاة بأسلوب ينطوي على المجابهة والتهكم واستفزاز مشاعرهم الوطنية والأخلاقية مما يعتبره أكثرهم من باب عدوانية السكارى ومما يثير لدى المخاطبين مشاعر الأستياء والتذمر من مثل هذه التصرفات اللجوجة للأستاذ سالم وتعليقاته اللاذعة، وكنت كثيراً ما أتحمل بعض عواقب هذه المشاعر إذ كانت علاقة المرحوم سالم بي وتكرار أسمى أثناء أحاديثه ـ تثير لدى الآخرين انطباعاً وشعوراً بأني وراء بعض هذه التصرفات أو أني راض عنها ـ على أقل تقدير ـ مع أني في الحق ـ كنت ألوم الأخ سالم وأعتب عليه على ذلك وأحاول كسر جماحه عنها في مثل هذه الحالات.

الفصل الثالث

عمل المرحوم سالم في السياسة معارضاً ـ لحكومات ورجال العهد الملكي على مبادئ الحزب الوطني الديمقراطي ومبادئ أصدقائه زكي وطلعت فيه، وقد رشح نفسه لانتخابات مجلس النواب وكان الانتخاب على درجتين[2] قبل عام ١٩٥٣ وكاد أن يفوز بالنيابة إذ كانت عملية فرز

= مصلحة وطنية وليس رغبة في السلطة والتحكم واستعباد المواطنين وظلم الفقراء واستعمار الوطن العربي.

(١) عبد الرحمن العمر: راجع الحاشية المكتوبة عن الأستاذ عبد الرحمن العمر في كتابنا (شخصيات نافذة).

(٢) الانتخاب على درجتين ـ كان انتخاب النواب قبل انتفاضة سنة ١٩٥٢ يجري ويتم بانتخاب على درجتين ينتخب، فيه أولاً (منتخب ثانوي) من بين من لهم حق الانتخاب من الناخبين ثم يقوم هؤلاء، المنتخبون الثانويون بانتخاب النواب ممن رشحوا أنفسهم لهذا الغرض وقد اتهمت هذه الطريقة بدعاية واسعة بأنها تسهل عملية التأثير على الانتخابات وتهيئ للحكومة اختيار من تشاء للنيابة وعضوية مجلس الأمة تزويراً فلما حدثت المظاهرات الدموية ببغداد عام ١٩٥٢ في زمن وزارة المرحوم مصطفى العمري كانت تحت شعار المطالبة بالانتخابات المباشرة =

أصوات المنتخبين الثانويين تبين أن سالماً يفتقر إلى صوتين أو ثلاثة ليفوز بنيابة البصرة، علماً بأن المرحوم سالماً كان يتمتع بسمعة طيبه وبحب واحترام مناطق الفقراء وممثليهم التي تضم عدداً كبيراً من المنتخبين الثانويين كمناطق الرباط الكبير والرباط الصغير وصبخة العرب ـ وذلك لوضعه وبساطته وشجاعته وشهامته في ملاحقة مصالح ذويه من أصحاب الدعاوي والحقوق والحاجة في ذلك وعدم اهتمامه بالمادة أو بالمال أو بالمكانة الاجتماعية أو أي حافز غير مقبول اجتماعياً لديهم ـ أما المشروب الكحولي فقد كان المرحوم سالم يجاهر في تعاطيه ولا يماري أو ينافق أو يخادع أو يجامل أحداً كما أن المرحوم سالم وقد رشح نفسه مرة ثانية للانتخابات أيام الانتخابات المباشرة عام ١٩٥٣[1] فلم يوفق، لأن القوى التي كانت تؤثر على الانتخاب آنئذ وتجلب الأصوات لصاحبها هي إما مالية أو عائليّة أو استعمارية نفطية أو طائفيّة ولم يكن سالم ليمتلك شيئاً من هذه القوى، كما أنه لم يكن ليستعملها لو تملكها لتناقضها مع مزاجه وتكوينه النفسي والفيزيولوجي أيضاً.

لقد عمل المرحوم سالم مستشاراً قانونياً لعمال شركة نفط البصرة (I.P.C.) عند نشوب الخلاف بينهم وبين الشركة المذكورة ووزارة

= وقد حدث عام ١٩٥٢ نتيجة تلك المظاهرات التي سميت (مظاهرات الانتفاضة) تغيير الحكومة بحكم عسكري تولى فيه الجيش بقيادة العميد (نورالدين محمود) رئيس أركان الجيش الذي شكل الوزارة وحكم البلاد حكماً عسكرياً وأصدر مرسوماً بإجراء الانتخاب المباشر على درجة واحدة واستمر هذا النظام (الانتخابات المباشرة حتى عام ١٩٥٨ حيث عطلت الحياة البرلمانية وألغى قانون الانتخاب وكان المرحوم عبد الكريم قاسم يزمع سن قانون جديد لانتخاب النواب وقد هيأت لجنة في وزارة الداخلية مشروعاً لقانون انتخاب النواب وأعطاني نسخة منه ولكنه لم يشرع لاندلاع ثورة رمضان سنة ١٩٦٣).

(١) لقد كانت انتفاضة تشرين ١٩٥٢ والعنف الذي دار فيها والشعارات المتطرفة ضد العهد الملكي نذيراً بثورة تموز سنة ١٩٥٨، وقد أخذ كثير من بعيدي النظر من رجال العهد الملكي وحذرهم من الوضع الداخلي في العراق من انتفاضة تشرين سنة ١٩٥٢.

الشؤون الاجتماعية في عام ١٩٥٤ (في عهد وزارة الدكتور الجمالي وكان وزير الشؤون الاجتماعية المحامي حسن عبد الرحمن عند نشوب الخلاف لكنه استقال بعد ذلك). وقد أعلن عمال شركة نفط البصرة الإضراب وكان قريب العهد بالاضطرابات التي حدثت في عهد الدكتور مصدق[1] في إيران مما أثار قلقاً لدى دوائر شركة نفط البصرة ودوائر السلطة الحكومية في البصرة آنذاك وأدى إلى تفاقم الأمر وأعلنت الأحكام العرفية وكان دور الحزب الشيوعي في إعلان الإضراب وإدارته ملحوظاً، وقد أحيل المرحوم سالم مع من أحيل من رؤساء الإضراب ومن عملوا فيه أو بالدفاع عنه إلى المجلس العرفي

(١) الدكتور محمد مصدق: رئيس لجنة النفط في البرلمان الإيراني أثناء الحوادث العاصفة التي استهدفت تعديل امتيازات النفط الإيرانية المعقودة في أيام الشاه رضا بهلوي في الثلاثينات التي جاءت بديلاً لامتياز دارسي في أوائل هذا القرن (القرن العشرين). تبنى الدكتور مصدق فكرة تأميم النفط في البرلمان والرأي العام الإيرانيين وتولي رئاسة الوزراء الإيرانية وأعلن قانون التأميم سنة ١٩٥٣ لامتيازات النفط الإيرانية ولكن تعقيد الوضع السياسي الدولي والداخلي الاقتصادي والسياسي حمل الشاه محمد بهلوي على الهرب من إيران ثم إلى انقلاب زاهدي الذي أعاد الشاه إلى الحكم وتقديم الدكتور مصدق إلى محكمة عسكرية حكمت عليه بالسجن وثم توفي بعد ذلك في الستينيات وانتهت بموته شخصية شرقية أصيلة إن إيران تتمتع في تاريخها بوافر من الشخصيات الشبيهة بمحمد مصدق في رومانسيته ولعل الشخصيات الإيرانية الثلاثة في التاريخ الحديث، جمال الدين الأفغاني (وهو من إيران جهة بحر قزوين أصلاً) ثم (محمد مصدق) ثم الخميني.

تمثل الشخصيات الثلاثة المحركة للأحداث والتي هزت الشرق بقواها الذاتية المحضة. وقد كانت قضية النفط الإيراني أواخر مصيرها أو مصير الدكتور محمد مصدق قرائن واضحة على الاتجاه التي تسير إليه اقتصاديات النفط ومصير الاستعمار واهمية امريكا في العلاقات الدولية الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية وتراجع القوى الاستعمارية التقليدية في إنجلترا وفرنسا ثم تراجع الخط السوفييتي أمام الضغوط الغربية والاختلافات الأيديولوجية في الدول التابعة وتأثيرها على مصير الحركة التحررية مما كان يمكن أن تكون دراسته دليلاً وهادياً للحركات في البلاد المشابهة كالعراق.

العسكري في البصرة، وقد بذل جميع أصدقاء المرحوم سالم - وأنا منهم - جهداً كبيراً مع آمر الحامية العسكرية في البصرة - وهو الزعيم أحمد محمد يحيى[1] الذي صار وزيراً للداخلية في عهد المرحوم قاسم، ومع السيد بشير الجراح[2] الضابط المتقاعد ومدير البنك العربي في البصرة آنذاك وهو صديق لجماعة الضباط العاملين في الأحكام العرفية بالبصرة والمسؤولين عن النظام آنذاك، كما أننا حاولنا تكوين وتعبئة رأي عام لمصلحة المرحوم سالم الذي كان يمكن

(١) أحمد محمد يحيى: أحد ضباط الجيش العراقي الأكفاء اللذين نشأوا وتعلموا في العهد الملكي بعد الجيش العثماني الأول ومنهم عبد الرزاق السبتي وعبد الله العمري وأحمد مرعي ومحسن وكاظم محمد علي ومحيي الدين عبد الحميد وقد درسوا العلوم العسكرية في إنجلترا وفي الهند والأردن ومصر وبعد إخراج عبد السلام عارف من وزارة الداخلية وإرساله سفيراً إلى بون تولى أحمد محمد يحيى (وهو برتبة زعيم (عميد) من الموصل) وزارة الداخلية ثم ضمت إليها وزارة الإصلاح الزراعي بعد استقالة إبراهيم كبه في سنة ١٩٦٠ وذلك لصداقته للمرحوم عبد الكريم وقاسم من جهة ولما يتمتع به من سمعة طيبة ومحايدة كضابط مستقل وجيد التكوين ونزيه ومؤدب و حتى ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ حيث اعتقل ثم أفرج عنه وكان مرضه بالفالج سبباً في إرساله إلى لندن للعلاج حيث تحسنت حالته الصحية ولا يزال يعيش في داره بالمنصور حيث يزوره الناس من محبيه ومن عمل معه في تاريخه الوظيفي الطويل من مختلف الطوائف والأعراف وقد كنت رأيته لأول مرّة في سنة ١٩٥٤ في البصرة حيث عين في العهد الملكي قائداً للقوات العسكرية عند إعلان الأحكام العرفية آنئذ بصفته آمراً للحامية فيها. يحب الزعيم أحمد يحيى القراءة والثقافة وهو من متذوقي الشعر العربي والغناء العراقي القديم (المقام) حسب الإيقاع الموصلي ولديه مجموعة قيمة للمغني الموصلي (سيد أحمد) ومن أصدقائه السيد هاشم الرجب مغنّي المقام المعروف من الأعظمية وقد انقطعت أخباره عني منذ ١٩٩٠، ولا أعلم عنه شيئاً.

(٢) بشير الجراح: ضابط طيار من الضباط الذين تقاعدوا بعد حرب الكيلاني مع الإنجليز وكان شاباً قومياً متحمساً انخرط في جماعة البنك العربي (عبد الحميد شومان وأبناؤه) وأصبح مديراً لفروع البنك العربي في البصرة ثم عمل في لندن في إدارة استثمارات آل الحساوي وقد توفي في الثمانينيات في لندن وهو من الناس الطيبين ذوي الأخلاق والسمعة الحسنة وحب الخير والتذوب في الناس.

أن يلتزم بنصائحي ـ لعدم توافر المشروب تحت يده آنئذ. وقبل صدور الأحكام ـ وبعد إكمال المحاكمة ـ علت هتافات المتهمين الباقين وأغلبهم من العمال الشيوعيين بأن (تسقط محكمة تيسو)[1] أمام المحكمة، وتيسو هو المدير العام لشركة نفط البصرة. فرنسي الأصل والجنسية ـ مما فت في عضدنا فأخذنا ندفع بأن سالماً لم يكن من الهاتفين وأن الأصوات الموحدة التي هزت المحكمة لم تضم صوته، ثم صدر الحكم بحبس سالم لمدة سنة ـ مع إيقاف التنفيذ ـ لصعوبة تفريق صوته عن أصوات الهاتفين الآخرين في قفص المحكمة وعددهم يزيد على العشرين وقد أدى هذا الحكم إلى انسحاب المرحوم سالم من القضايا السياسية وخشى أن تطول عقوبة الحبس إذا ما حكم عليه بارتكاب أية جريمة خلال مدة معينة حسب الحكم القانوني (لإيقاف التنفيذ) إذ إن أي حكم جنائي جديد يجعل العقوبة المؤجلة عقوبة واجبة التنفيذ على أن ذلك لم يمنع المرحوم سالماً أو يحرّمه من رهطه من فقراء العمّال والفلّاحين الذين كان يقضي معهم جلّ أوقاته مدعواً أو داعياً إيّاهم على موائد الشراب اناء اللّيل وأطراف النهار، يتحدّث عن مشاكلهم وهمومهم التي تسبق مشاكله وهمومه، وحيث إنّ المرحوم سالماً كان قد قضى حياته وهو يشكو ضآلة موارده، بل فقره بالرغم من براعته في معرفة القانون وفي ألاعيب ومناورات المحاماة وتمسّكه الشديد بمصالح موكّليه والدفاع عنهم. كان يعلّل ضيق موارده

(١) تيسو وكان مديراً لشركة نفط البصرة أثناء إعلان الأحكام العرفية بعد اضرابات عمال الشركة في سنة ١٩٥٤ وهو فرنسي الأصل ويمثل النصيب الفرنسي في شركة نفط العراق وقدره ٥.٢٣ ٪ من جميع سهامها حسب صيغة شركة نفط العراق التي أنهت الصراع حول نفط العراق الذي بدأ به الحلفاء المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى. ولقد كان لتيسو حضور متميز شديد في الإدارة مما حدا بالمتهمين وكان جلّهم من الشيوعيين أن يتهموا المحكمة العرفية العسكرية التي كانت تحاكمهم بالخضوع لتعليماته فهتفوا عند انتهاء المحاكمة (تسقط محكمة تيسو) فراح هتافهم مثلاً لعلاقة شركات النفط بالسلطات العراقية العسكرية والمدنية المختلفة.

ـ بالحظ والصدف وبكلمة الصدق التي كان يدّعي التمسّك بها، ممّا كان يكلّفه كثيراً في خلافاته مع رجال الأعمال والسلطة

الفصل الرابع

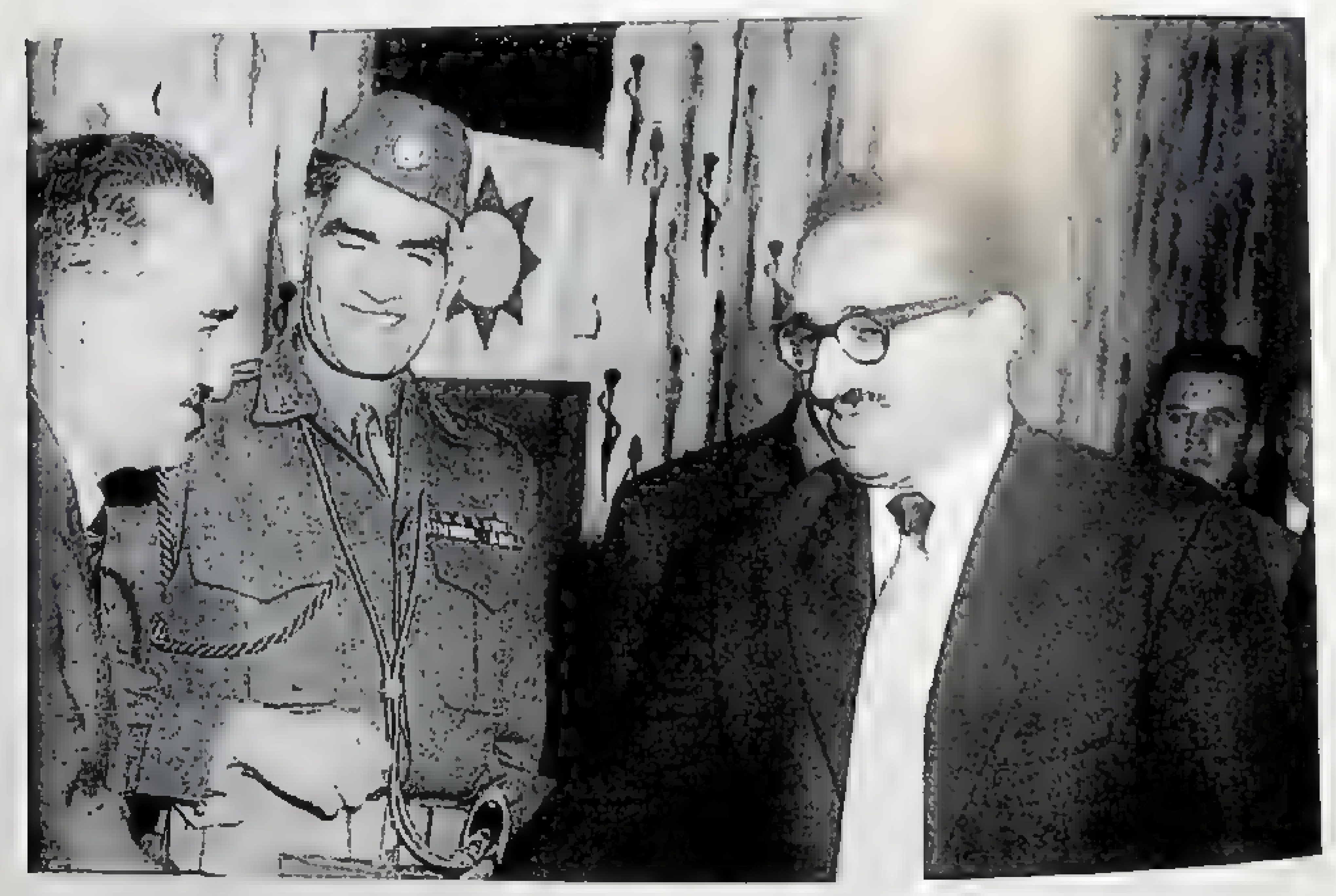
كان المرحوم سالم الوجيه في غاية البساطة في مأكله وملبسه وفي بيته القديم الذي يسكن فيه منفرداً في محلات البصرة القديمة. ولا أدري كيف كان يوفق بين هذه البساطة التي قضى عمره في غمارها وبين ما سبق إن ـ بيناه ـ عن حبه للمعيشة الأرستقراطية في الفنادق الكبرى، وأغلب ظني إن ولعه بالعيش الأنيق ذي النفقات الباهظة لم يكن خلقاً أصيلاً عنده إنما كان تعويضاً له عما كان يشعر به من الضيق والإحباط نتيجة أوضاعه المادية ـ مقارناً نفسه بالآخرين ـ إذ كان قد يمر عليه الشهر أو الشهران بلا مورد مادي في الوقت الذي تتدفق فيه أجور الدعاوي والموارد الأخرى على من هم أقل كفاءة وأقل أهلية وأمانة منه وأقل اهتماماً بالقانون ومصالح موكليهم مما كان يجدر أن ينعكس على مواردهم وحالهم المادي ويجعلهم أقل من المرحوم الأستاذ سالم أناقة عيش وإنفاقاً على مأكله وملبسه ومسكنه.

وكان المرحوم سالم ـ تعويضاً عن ترك وظيفته المرموقة في المحكمة يكره كبار الموظفين والقضاة ويتربص لعيوبهم وأخطائهم ويسكر لتأنيبهم وفضح أعمالهم وعيوبهم كما كان يصرح دوماً ـ لا سيما إذا كان في تصرفهم مع الناس وفي الشؤون العامة ما ينم عن احتقار أو كبرياء أو محاولة للتكسب والاسترباح مما تجعلهم الظروف رهن إرادته وأقاويله وسخريته عندما يسكر نتيجة توليهم السلطة أو المراكز العامة، وفي مرات متعددة كنت أجد المرحوم سالم يحاور نفسه وبإصرار أن يدبر معركة مع أمثال هؤلاء الناس ليغيظهم ويفضح تصرفاتهم، إذ كان رحمه الله كارهاً للمداهنة والرياء محباً للقول الصريح الصادق مهما أوذي في سبيل ذلك. كان المرحوم سالم الوجيه ـ بالرغم من ولعه الظاهري بالعيش الفخم

والنفقات الكبيرة وشرب البيرة في إحدى غرف فندق شط العرب العالمي أو حتى في حوض السباحة فيه، أما في غير ذلك فهو يعيش ببساطة وطبيعية وعفوية وتواضع وبشعبية حقيقية مع الناس البسطاء من أبناء محلاته القديمة في البصرة أو فلاحي الأرياف وعمالها ويقف إلى جانب قضاياهم في السراء والضراء سواء كانت قضايا خاصة أو عامة ـ على الرغم من ابتعاده واستنكاره بل وبغضه إلى حد قد يفسر بأن في تصرفه لؤم مع الناس ـ مع كل المتكلفين أو الموسورين في مجالسهم وفي معيشتهم وفي أعمالهم اليومية وفي تصرفاتهم مع الناس باعتبارهم من المنافقين اجتماعياً بشكل يزيد عن المألوف والمعروف بين بني البشر من أبناء المجتمع لا سيما مع المحظوظين اللذين جاءت عليهم الصدف والحظوظ بما لم تهيؤه لهم كفاءتهم أو عقلهم، وهذا المزاج مما أتعب المرحوم سالم وأورثه العنت في حياته اليومية وفي أوقات صحوه وسكره وجعل من حياته معارك متصلة مع كثير من الناس وفي كثير من المواقع والأحيان.

وبمقابلة هذا التشدد والمواجهة العلانية المستمرة والملتهبة للمرحوم سالم تجاه ما يعتبره سبيلاً أخلاقياً ـ من السياسة والممارسات ومع من يقوم بتلك الأخلاقيات السلبية من الناس لا سيما الناس المعروفين في الحياة الاجتماعية والسياسية، كان المرحوم سالم يبحث دوماً عن نقيض هذه العينة من الناس والبشر ممن يعتقد أنهم بعيدون عن ممارستها وعواقب هذه الممارسات وكان في كل مرحلة من مراحل حياته يحاول أن يجد نماذج من الناس يعتقد أن سلوكها بعيداً عن أمثال هذه السياسات والممارسات ويمنحها صداقته وحبه ويعتبرها الأمثلة الحية الإنسانية على ما يدعو إليه من صدق وإنسانية وابتعاد عن الدوافع الشخصية وعن الإثرة والأنانية وقد يبالغ في هذا الولاء فيقع بين النقيضين ـ التشدد في الكره للأولين والتشدد في الحب للآخرين وإني لأذكر حبه وبغضه للناس في البصرة تبعاً لهذه المقاييس (فكان زكي عبد الوهاب وطلعت في بغداد مثالاً لمن يواليهم من الناس) أما في البصرة فكان يحب الناس أحياناً


عبدالكريم قاسم و عبداللطيف الشوّاف

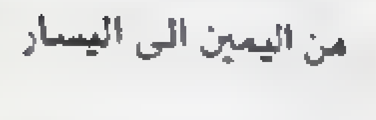

عبدالكريم قاسم و عبداللطيف الشوّاف وموكيان نائب رئيس مجلس السوفيات الأعلى



احمد محمد يحيى وزير الداخلية وعبداللطيف الشواف

من اليمين الى اليسار: عبدالله اسماعيل ـ عبداللطيف الشوّاف ـ طلعت الشيباني ـ محمد حديد ـ عبدالكريم قاسم مع الوفد الانكليزي المفاوض لشركات النفط.



من اليمين الى اليسار  ميل - عبداللطيف الشوّاف - محمد حديد - طلعت الشيباني - عبدالكريم قاسم مع الوفد الانكليزي.



من اليمين الى اليسار: نزيهة الديلمي - عبداللطيف الشواف - فاضل عباس المهداوي



في أحد الاحتفالات: عبدالكريم قاسم يتحدث ويظهر في الصف الأمامي
من اليمين أحمد صالح العبدي، عبداللطيف الشواف، عزيز علي غالب، مصطفى علي وزير العدل.



في أحد الاحتفالات، من اليمين: عبدالكريم قاسم ـ عبداللطيف الشواف ـ طلعت الشيباني وزير التخطيط ـ فيصل السامر.



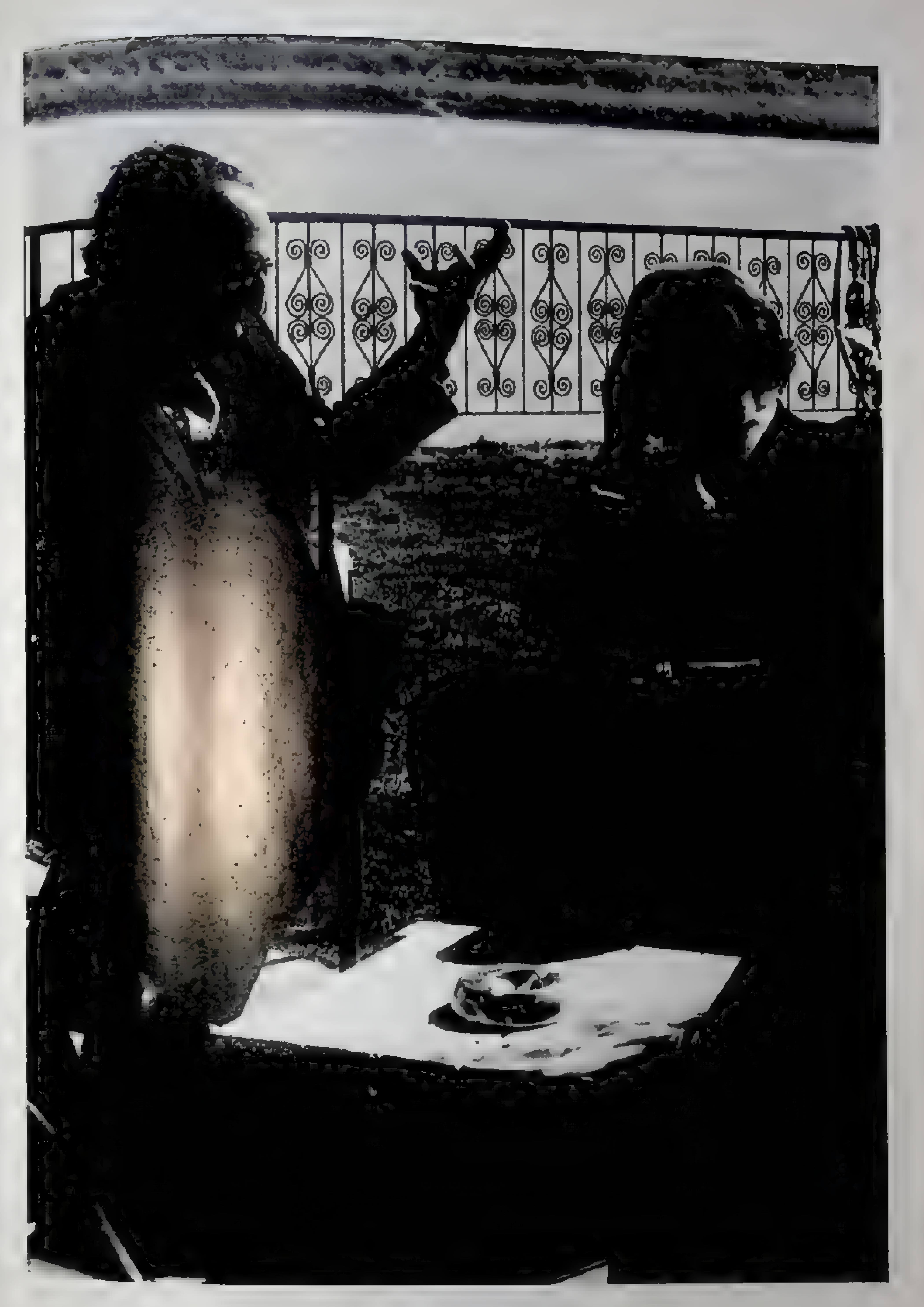
في أحد الاحتفالات. يظهر في الصورة: في الصف الأول من اليمين هاشم جواد وزير الخارجية ـ عوني يوسف ـ فؤاد عارف ـ مصطفى علي وزير العدلية ـ احمد محمد يحيى وزير الداخلية ـ نزيهة الدليمي وزيرة البلديات ـ فيصل السامر وزير الارشاد ـ طلعت الشيباني
وفي الصف الثاني عبداللطيف الشواف ـ الدكتور محمد الشواف ـ حسن الطالباني ـ عبدالحق فاضل وكيل وزير الخارجية
ويبدو في الصف الثالث السفير اليوغسلافي نيازي

ولاسيما المرحوم عبد السلام باش أعيان[1] كما يحب قاسم الزهير[2] ومحمد امين الرحماني والسيد جمال النقيب وزكي الخضيري[3] وعبد الأمير

(١) عبد السلام باش أعيان ابن الشيخ صالح باش أعيان: أحد عمداء العائلة المشهورين والشيخ عبد السلام عاش إلى الثمانينيات في هذا القرن (القرن العشرين) في البصرة محاطاً من بسطاء الناس بحبهم وكان في أول العهد الملكي نائباً عن مدينة البصرة وعضواً في مجلس النواب العراقي كما كان الشيخ عبد القادر أكبر العائلة سناً وسيدها في الخمسينيات والستينيات وكان عضواً في مجلس الأعيان في العهد الملكي، وعائلة باش أعيان من أقدم العوائل البصرية وتتصل بالمتصوف الشهير (عبد السلام) المدفون في جامع باش أعيان على الطريق الموصل بين شارع الثورة في العشار بين الساحة الموصلة بطريق بغداد وطريق الزبير في باب الزبير، وكانت العائلة منذ عهد العباسيين تسكن البصرة وتتولى أمر العناية بجامع عبد السلام وإعماره والإنفاق عليه لذلك يعتبر آل باش أعيان من العباسيين ويرتبطون بآل الشاوي في بغداد بمصاهرة معروفة إذ إن سعدون الشاوي ابن مجيد بك الشاوي، هو خال برهان الدين وأن زوجة الشيخ عبد السلام باش أعيان هي بنت مجيد الشاوي الثانية، وكان من بين المآثر البغدادية لنوري السعيد صداقته للعوائل العراقية القديمة والتزامه ونصرته لها ومنهم آل باش أعيان في البصرة. لقد كان المرحوم عبد السلام متواضعاً شعبياً لم يعرف في عمره الانعزال عن عامة الناس في أبراجه العاجيّة بل كان رحمه الله إلى أن مات يجلس عصراً في مقهى (مهدي البدر) على كورنيش شط العرب ويلاعب الناس في مجالس الطاولي والتردد على المقهى وقد دعينا ـ أكثر من مرة ـ من لدنه في قصرهم في الصالحية وكان آية في الكرم والسماحة والخلق البصري الأصيل.

(٢) قاسم الزهير: أنظر الحواشي والتعليقات على الفصل المكتوب عن عبد الله الفالح السعدون من كتابنا (شخصيات نافذة).

(٣) زكي الخضيري: هو ابن جميل قاسم باشا الخضيري. كان جده وأبوه من سكنة العمارة وتجارها وكان أبوه ـ لفترة في أوائل العهد الملكي ـ رئيساً لبلدية العمارة، وقد اشتغل الأستاذ زكي مديراً لناحية الزبير بعد الحرب العالمية الثانية ثم استقال وانصرف للتجارة في البصرة وانخرط في الحركة التقدمية حتى ثورة تموز سنة ١٩٥٨ حيث عمل موظفاً في مديرية الميناء العامة ثم مديراً عاماً لوزارة الأشغال وبعد ١٤ رمضان ١٩٦٣عاد إلى الأعمال التجارية الحرّة وساهم في انشاء مطعم فوانيس في محلة البتاوين في بغداد وبتشغيله وما زال إلى الآن يعمل في الأعمال =



محمد حديد . عبداللطيف الشوّاف.

العرادي[١] والسيد طاهر السيد ضاهر دلال العقارات في محكمة الصلح في

= الحرة في بغداد ويعيش في منطقة القضاة والمحامين في الداوودي.

(١) عبد الأمير العرادي: كان عضواً في اللجنة المحلية للحزب الوطني الديمقراطي ونشيطاً في الحركة السياسية وكان مكتبه في العشار في الزقاق القريب من دائرة البريد المركزي محل تجمّع للمحامين وغيرهم من ذوي المراكز الاجتماعية من اليساريين كافة. كان العرادي من عائلة موسرة تملك قطعة نخيل تسمى (الواقية) من ناحية شط العرب في مناطقها الشمالية، وكانوا يدعون دعوة غداء سنوية يقدم فيها الشواء من لحم الخروف والمشروبات الروحية لكل من يريد من كادر المحكمة علاوة على كادر الحركة التقدمية. ويعتقد ان العرادي أصله في اليمن إذ أن العرادية هناك جماعة قوية معروفه وإن كان هذا الاسم معروفاً في ليبيا أيضاً وكان هذا الموضوع مدار تندر بين عبد الأمير وأحد أصدقائه في كثير من الأحيان. وعمل عبد الأمير مديراً لصندوق التقاعد لسنين في الدوائر شبه الرسمية والمؤسسات بعد تموز سنة ١٩٥٨ وبعد رمضان عين مدير عاماً لمعمل الاحذية الشعبية في الكوفه، ثم اعلن فصله ودخل السجن ثم أطلق سراحه واشتغل بالمحاماة في بغداد ولا أعلم أين حل الآن. وكانت له أخت هي الأستاذة ربيعة من فضليات المربيات وأستاذة الأدب العربي في ثانوية البتاوين وقد تزوجت وزير الاقتصاد سابقاً (الدكتور عزيز الحافظ) ثم توفيت حسبما علمت في السبعينيات. كما كان لبساطته وسلامة نيته يدخل في مماحكات جدية هزلية مع أصدقائه في كثير من الأحيان، على ان ذلك لم يقلل من مكانته واحترامه في الحركة الوطنية في البصرة او لدى القادة في بغداد.

(٢) السيد طاهر السيد ضاهر: رجل كان في السبعين من عمره حينما التقيت به في محكمة صلح البصرة إذ كان دلّال، أملاك ومقدّراً لما يقام فيها من دعاوى إزالة الشيوع وهو رجل تكريتي الأصل بغدادي العائلة وكان منذ صغره كما كانت عائلته قريبين إلى آل الشواف في الكرخ ببغداد لذلك فقد توطدت الصلة بيني وبينه عندما كنت حاكماً للصلح بالبصرة وكانت أعماله تتصل بهذه المحكمة إذ كان تجار العشار من أهل الزبير وغيرهم يثقون بأمانته وذمته وقد جمعت له من أجوره وعمولته في المحكمة مبلغاً من المال اشترى به لعائلته عرصة بنى عليها داراً في العشار (محلة البريهة) كان السيد طاهر من آل (باباخان) أقدم العوائل التكريتية التي جاءت إلى بغداد من تكريت وللسيد طاهر ذكريات عن رجب باشا المشير العثماني في بغداد في منتصف القرن الماضي، كما وكان السيد طاهر أحسن وأقدم من عرفت في معلوماتهم عن النساء والعلوم والحياة البغدادية القديمة ولو كان المسجل =

البصرة[١] وآل الذكير[٢] ومباشر محكمة الصلح (كريم)[٣] لبساطة ما يمتازون به من خلق رضي ومن صدق في المشاعر وفي المعاملة ومن تذوب في

= معروفاً في أيامه لكانت ذكرياته عن بغداد وراقصاتها ونسائها ومأكولاتها ومشروباتها القديمة تستحق التسجيل كوثائق تاريخية. أنظر الفصل عن عبد الله الفالح السعدون في كتابنا (شخصيات نافذة) حيث فيه بعض المعلومات عن آل السعدون من السيد طاهر). توفي السيد طاهر من سرطان البروستات وكان في التسعين من عمره شخصاً أنيقاً قصير القامة حسن الهندام والملابس حسب الطريقة القديمة يرتدي طربوشاً جديداً نظيفاً ويروي روايات الحياة البغدادية في القرن التاسع عشر في ذكريات شخصية مرت عليه وكان يحب ألوان الطعام البغدادي القديم أيضاً ويتعلق بها مثل (الاسكنجبيل) ـ وهو شراب من دبس التمر والخل كان مشهوراً في أيام العباسيين ـ و(الهريسة) وهي طعام من حب الحنطة المطبوخة مع هريس لحم الضان أو لحم الدجاج يضاف إليه السكر والقرفة (الدارسين) لمنحه رائحة وطعماً شهياً، والكباب الشرقي من شواء اللحم وغير ذلك من القليل المتبقي من زمان العباسيين إلى الآن.

كان السيد طاهر قريباً من عائلة البوناصر وهي نفس من ينتسب إليها الرئيس أحمد حسن البكر وقد سمعت أنه قد ساعد عائلة السيد طاهر الذين بقوا بعده وهم بنات ثلاث من العجائز الذين رفض تزويج أي منهن في البصرة لاهتمامه بأنساب وأصول من يختارهم وكفاءتهم لتزويج بناته على الطريقة البغدادية القديمة.

(١) آل الذكير: يراجع الفصل المكتوب في كتابنا (شخصيات نافذة) عن الحاج حمد المحمد الذكير.

(٢) كريم محمد مباشر محكمة الصلح: ـ كان في محكمة صلح البصرة مباشراً منذ بداية الاربعينيات وهو موضع صداقة قضاتها المتعددين لذكائه وسعة أفقه وسرعة بديهته وفهمه للأمور وللعلاقات بين الناس وقد توفي في التسعينيات بالسرطان على ما يبدو ـ لأنه انهار صحياً بصورة مفاجئة إذ كان قبل ذلك في غاية الصحة والنشاط وسلامة الحال وقد خلف ابنا اشتغل مباشراً أيضاً لدى كاتب عدل محكمة البصرة وكنت أراه في محكمة البصرة في الستينيات والسبعينيات كما كان يزورني عند زيارته لبغداد وقد رجاني مرة إن أتوسط لأخته (ابنة كريم) لتشتغل كاتبه في شركة النفط الوطنية في البصرة بعد أن تخرجت من ثانوية البصرة ولا أدري ماذا حل بعائلة كريم المباشر الآن.

لقد قمت في حينه بمساعده كريم في تدبير دار سكن له فطلبت من الأخ نوري =

الناس وحب لهم فكان يقبل دعوة من يحبه من الناس ويرحب بها وما زلت أتذكر دعوة المرحوم الشيخ عبد السلام باش أعيان في بستانهم في الصالحية لي ولسالم معي ولمباشر المحكمة بعد أن طمّنت الشيخ عبد السلام بأنه لن يقع أي احتكاك ضده أو ضد أحد المدعوين عنده من جانب المرحوم سالم.

جاء إلينا أثناء الدعوة أحد القضاة من المدعوين الذين يكرههم المرحوم سالم وألحّ في الشراب والتنكيت مما لم يستطع المرحوم سالم الصبر على هذا القاضي فاستأذن بأن يقول نكتة وهي ان مستحماً كان يجيء صباح كل يوم ويخلع الفوطه التي تعطى لتغطية عورة المستحمين في الحمامات العامة القديمة وهي فوطة معروفة من الحرير لها اسم معروف في حمامات العراق هي (بشطمال) فلما كان ذلك المستحم يدخل الحمام يخلع الفوطة ويبلّها بالماء وكان يقوم يقف متربصاً خلف الستارة التي تفصل الحمام عن الخارج منتظراً دخول زبائن جدد إلى داخل الحمام حيث يقوم بضربهم بشدة بهذه الفوطة المبتلة بالماء والتي قد تكون مؤذية وقاسية على جلود الزبائن الجلد العراة الأمر الذي جعل صاحب الحمام يتذمر من المستحم المعتدي أمام أصدقائه الذين أبدى أحدهم استعداده لإنقاذ صاحب الحمام بأن جاء الصديق المنقذ في اليوم التالي قبل مجيء الزبون المعتدي حيث كان الصديق المنقذ بانتظاره حاملاً فوطة بعد أن بلّها جيداً بالماء فلما جاء الزبون المعتدي منطلقاً إلى داخل الحمام وسيطرته عليه فاجأه الصديق المنتصر بضربة قوية من فوطته وتبعها بأخرى وثالثة ثم انهال عليه ضرباً جعله يهرب إلى خارج الحمام فيقول لصاحب الحمام إن (مجنون في

= [illegible]

حمامكم) وكانت هذه النكتة إشارة للقاضي الزائر بأن المرحوم سالم هو الأولى بأن يحتك بالآخرين وأن ما أطلق عليه الزبون الهارب صفة (مجنون) هو نفس ما كان يفعله الزبون نفسه بمرتادي الحمام كل يوم (أكو مخبل بالحمام)!

الفصل الخامس

رحم الله سالماً فقد كان منصرفاً إلى هواياته في محاسبة الناس على أخطائهم وسلبياتهم وتصرفاتهم غير المقبولة وكان يدخل من أجل ذلك المعارك الحامية مع القضاة وكبار الموظفين ورجال الشرطة والأمن ومع سواهم من المتنفذين والأغنياء وأبناء العائلات ولم أره منصرفاً عن هواياته هذه إلى أية هوايات أخرى من قمار أو نساء بالرغم من توفر القمار والنساء في البصرة آنئذ في المنتديات والمراقص والملاهي والبارات بل إني رأيته مرة في فندق سميراميس على الشارع العام في (البريهه) يدخل في مشاجرة مع ضابط المخابرات البريطاني الشهير (كرملي)[1] بسبب مغنية لبنانية شابة

---

(١) كرملي وبركلي وميد ولويد وغيرهم: هم أفراد من قائمة طويلة من الموظفين البريطانيين كانوا يعملون في السلك السياسي والقضائي والتجاري البريطاني منذ القرن التاسع عشر وكانوا متصلين بجهاز المخابرات الذي نشط في مشارف الحرب العالمية الأولى وفيما بين الحربين وبعد الحرب الثانية لترتيب أمور الموظفين سيما بعد ثورة الاقتصاد الدولي النفطي وتخلخل ميزان القوى الغربية في المنطقة ودخول الأميركان كقوة أساسية تجارية في الاقتصاد النفطي الدولي وما حدث فيها من تغيرات عاصفة أدت إلى تراجع المصالح البريطانية أمام المصالح الأميركية الأقدر على التحكم بالمنطقة بمقدراتها وسياستها.

كان كرملي شعبياً يرتاد البارات والمنتديات الليلية ويشرب المشروب الروحي العراقي (عرق البلح) ويعاشر فتيات المراقص في البصرة ويغني مع الآخرين الأغنيات الشعبية العراقية التي يغنيها الفلاحون والكسبه في جنوب العراق كالأغنية التي كان تغني باسم رعاة الغنم في العمارة يا حبيبي حي أغنامهم.

وبـنـي آل يـصـبـح خـاوى   ويـن الأكـلام الـــواوي

يـا طـلـى الأكـشـر يـا هـلـى =

اسمها (ريتا) لا حبا في وصالها أو رغبة بهذا الوصال بل فضحا للانجليزي (كرملي) واستعماله لنفوذه في قضية نسائية شخصية ومحاولته الهيمنة على الشرطة ورجال الأمن وذلك بإسراع المرحوم سالم بالاتصال بريتا المغنية اللبنانية في الفندق وإنبائها بما يقوم به (كرملي) من تصرفات فجة غير مقبولة مع الرواد ومع موظفي الفندق والشرطة الرسمية للحصول على بغيته.

الفصل السادس

لقد تطورت علاقتي بالمرحوم سالم الوجيه من مواجهة عدائية لولوعه بمعرفة ماذا أعمل مع الأخ المرحوم محمد زينل[1] ـ وقد كان في البصرة

= وقد سمعت كرملي يغني هذه الأغنية مع آخرين في فندق سميراميس على شارع البصرة ـ عشار الجنوبي القديم في البريهه وقد كان المرحوم سالم الوجيه يعتبر المشاكل مع كرملي وأمثاله بسبب العلاقة مع راقصة ومغنية لبنانية ومزاحمة كرملي على العلاقة معها لإظهاره بمظهر من يستعمل نفوذه الإنجليزي في هذا وليس بسبب رغبة حقيقية من المرحوم سالم في صداقته إياها وإنما لإظهار التحكم البريطاني حتى في هذه الشؤون. كذلك ما كان يثيره المرحوم سالم من الضجيج والأقاويل في بار فندق شط العرب (المطار) الذي يحضره كثير من المسافرين الانجليز إلى الشرق الأقصى وغيره.

كان بعض الضباط والموظفين البريطانيين من العاملين في القنصليات أو المؤسسات السياسية في البصرة والخليج أو من موظفي البنوك البريطانية قد اعتنق بعضهم الإسلام وقضوا الحياة في الشرق واعتزلوا وظائفهم وقد سمعت أن أحد الضباط أيام الحرب العالمية الأولى. تقاعد في كوت الحجاج شمالي محلة السبخة في البصرة القديمة وتزوج امرأة بصرية وأصبح أولاده عراقيين قرويين ثم عاد في الحرب العالمية الثانية إلى الخدمة في الجيش البريطاني وعاد ثانية بعد انتهائها إلى قريته واسمه الأخير (عبد الله السعدان) وإن تاريخ الحاج عبد الله فيلبي في الحجاز معروف في الحرب الأولى وبين الحربين حينما أسلم وأصبح حاجاً ووكيلاً للشركات السيارات الأمريكية وصاحب نفوذ كبير في السعودية هو تاريخ معروف.

(١) محمد زيني ـ انظر كتابه الشخصيات اللامعة.

قاضياً إذ تعينا معاً بأمر وزاري واحد ـ عندما كنا نذهب مع الأخ محمد عبد الله الفالح السعدون ـ رئيس الحزب الوطني الديمقراطي (فرع البصرة) منفردين إلى مقهى قديمه بشارع السينما الوطني (شارع الثورة) لسماع المغني البغدادي اليهودي قبل إسقاط الجنسية العراقية عنه (يوسف حوريش)[1] إذ كان يغني المقام البغدادي غناء تقليدياً في المقهى مساء

---

(١) يوسف حوريش: ـ مغني بغدادي كان أحسن المغنين البغداديين في قراءة المقام وقد أسقطت عنه الجنسية العراقية ـ لأنه يهودي ـ بموجب قانون إسقاط الجنسية الصادر سنة ١٩٥١ وغادر إلى إسرائيل وكان يقرأ المقام البغدادي في إذاعة إسرائيل حتى أصبح لتلك الإذاعة شعبية لإجادتها للمقام وكثير من البغداديين يتابعونها إلى الآن، حيث شجعت العازفين وكونت جوقاً خاصاً بالمقام منهم يسمى (جالغي بغداد) ويوسف حوريش الذي يجيد ويغني المقام حسب الطريقة التقليدية البغدادية المحافظة يحبه المنصتون للمقام البغدادي حينما كان في العراق ببغداد والبصرة كما يحبون سماعه من إذاعة إسرائيل حين يقرأ بها أنواع المقامات البغدادية وإني لأذكر قد سمعته ذات مرة يغني مقام الحجاز ديوان ما يلي من أبيات الشعر العربي القديم الذي يرتله المغنون حسب المقام المذكور ومنهم المغني المرحوم محمد القبنجي.

بات ساهي الطرف والشوق يلحُّ   والدجى أن يمضي جنح يأت جنح
لست أنسى حال جفني والكرى   لم يكن بيني وبين النوم صلح
يا نداماي وأيام الصبا   هل لها رجع وهل للعمر فسح
لا تسل عن حال أرباب الهوى   يا ابن ودي ما لهذا الحال شرح
كم أداري القلب قلَّت حيلتي   كلما داويت جرحاً سال جرح

وذلك علاوة على أبيات رائعة كان تغنى بمقام السيكاه ومن أحسن من غناها المرحوم أحمد زيدان المغني البغدادي المشهور (وحفيده الآن في بغداد يجيد المقام أيضاً ويشتغل سائق سيارة أجرة تاكسي).

قام بجلوها وفي الأجفان غمض   والندامى نـدم بعض وبعض
والصبا يرعى به فجر الدجى   ولليل الصبح في الظلمة ركض
وكان الليل نجم مقلع   لمعان الكاس في جنبيه ومضى
في رياض نسجت فيها الصبا   ولها في زهوها بسط وقبض
وكان النرجس الغض بها   أعين العين وما فيهن غمض
وكان البان قد مائس   كل غصن فوق عرق فيه نبض =

وكان الأخ محمد زينل يحب سماع قراءة يوسف حوريش ولكن بما أن المحل متواضع ويرتاده العامة من الناس بحيث لا يصح لقضاة في المحكمة وهم معروفون أن يرتادوا المقهى المذكورة وأن يجلسوا فيها فقد كنا نستعين بأخينا المرحوم محمد عبد الله الفالح السعدون[1] ـ وهو شخصية معروفة هناك ليطلب من صاحب المقهى أن يهيئ لنا غرفة منفردة في الجهة الخلفية من المقهى لجلوسنا وسماع المقام من هناك، وقد حاول المرحوم سالم ـ وكان يكره هذه الأساليب في التخفي ويعتبرها من باب الخداع غير المحمودة حاول ـ ذات يوم ـ في حالة السكر أن يصل إلى غرفتنا في المقهى مسترشداً علينا بسيارة الأخ محمد السعدون في باب المقهى فلما رآنا فاجأ الأخ محمد زينل بالقول وهو غاضب يبدو عليه الانزعاج (إن عبد اللطيف الشواف أصبح تابعاً إلى محمد السعدون في الحضور بمثل هذا المقهى فهل تجيء معي أم تصبح لحيقاً بهما) فأجاب الأخ محمد زينل ـ رحمه الله ـ (لا أريد أن أكون لحيقاً) ومن ذلك غضب المرحوم سالم وابتدأت بيني وبينه مواجهة غير ودية ولكن بمرور الزمن انتهت المواجهة تدريجياً إلى ود حقيقي وإعجاب تصل مظاهره بيني وبين سالم إلى مظاهر غرام حقيقي إذ يقضي المرحوم سالم حوالي الربع ساعة يحدق في النظر إلي وهو صامت مبتسم بلا سبب ولا حراك بحيث أني قلت له ذات يوم مازحاً (هذا هو العشق الصوفي الإلهي الذي عرفه الصوفيون المسلمون الأولون).

كان المرحوم سالم يوالي من والاني في البصرة وفي المحكمة من أبنائها وموظفيها ويعادي من عاداني أو من يسمع أن الود بيني وبينه مفقود وكثيراً ـ ما اتصل بعد السكر في منتصف الليل برئيس المحكمة الأستاذ عارف علي أصغر مستفسراً ومعترضاً على نقلي من محكمة البداءة إلى محكمة الصلح أو بسبب عدم نقلي لها باعتباره محامياً ومن مسؤولياته

= حملت جسمي أعباء الهوى   فهو لا جانبه بالثوب نهض

(1) محمد السعدون ـ أنظر الفصل الأول من كتابنا (شخصيات نافذة) عن عبد الله الفالح السعدون.

انتظام المحاكم ورد القضاة كما أن من حقه معرفة أسباب ما يجري للحكام الأمر الذي يعتبره رئيس المحكمة ـ وهو لا يعرف سالماً ـ من باب التدخل في شؤون المحكمة ينطوي على سوء الأدب ـ كما إن المرحوم سالم كثيراً ما كان يودع لدي ما يحصل عليه من المال ويستلمه تدريجياً لإنفاقه خلال مدة طويلة بدلاً من إنفاقه بسرعة لا سيما وهي على الأغلب مبالغ قليلة فكان يطلب مني الدينار أو الدينارين عندما يترك المحكمة قبلي إلى العشار أو المعقل بإشارة خاصة يسمى فيها الدينار (مسألة) والدينارين (مسألتين) طالباً إياها مصروفاً لغدائه ظهراً وكنت في الحقيقة أجد رهقاً في هذه التصرفات وهذا الحب، ذلك إن سالماً الوجيه محام وأنا قاضي عندي جانب من أعمال سالم ودعاويه ومصدر أمواله ولكني في الحقيقة لم أستطع رفض مشاعره التي كان يبديها لي بل كنت أعتبرها اهتماماً وتكريماً لاسيما وأن العواطف إنما يبديها شخص في مثل نزاهة سالم وكفاءته وشعبيته.

الفصل السابع

لقد توفي المرحوم سالم أثناء عودته بعد منتصف الليل ـ حيث قضى وقته في العشار في البارات ـ إلى داره في محلة السيمر بالبصرة ماشياً على قدميه وبينما هو في طريق العشار الشمالي قرب دار الشيخ سليمان الإبراهيم[1] والقريب إلى الإدارة المحلية على الطريق الشمالي المذكور ومقابل محل موت صديقه المرحوم جمال النقيب[2] الذي مات بحادثة سيارة

(1) الشيخ سليمان الإبراهيم: من عائلة الإبراهيم الزبيرية الشهيرة وكان منها مشايخ الزبير (أمراؤها) في العهد العثماني والشيخ إبراهيم اشتغل في الحرب العالمية الثانية بالأدوات الاحتياطية للسيارات والإطارات التي كانت تجهزها قاعدة الشعيبة البريطانية وقد فتح محلاً للتعاطي بهذه الأدوات استمر إلى الستينات ويقال إنه يعرف الطرق السرية للسفر إلى الكويت ونجد ويستعمل المهربون طريقاً يسمى طريق الشيخ سليمان على اسمه.

(2) جمال النقيب: كان في الأربعينات وأول الخمسينيات وقبل مصرعه ـ يعتبر من أبرز =

هناك حيث جلس المرحوم سالم القرفصاء هناك يبكي لذكرى صديقه جمال

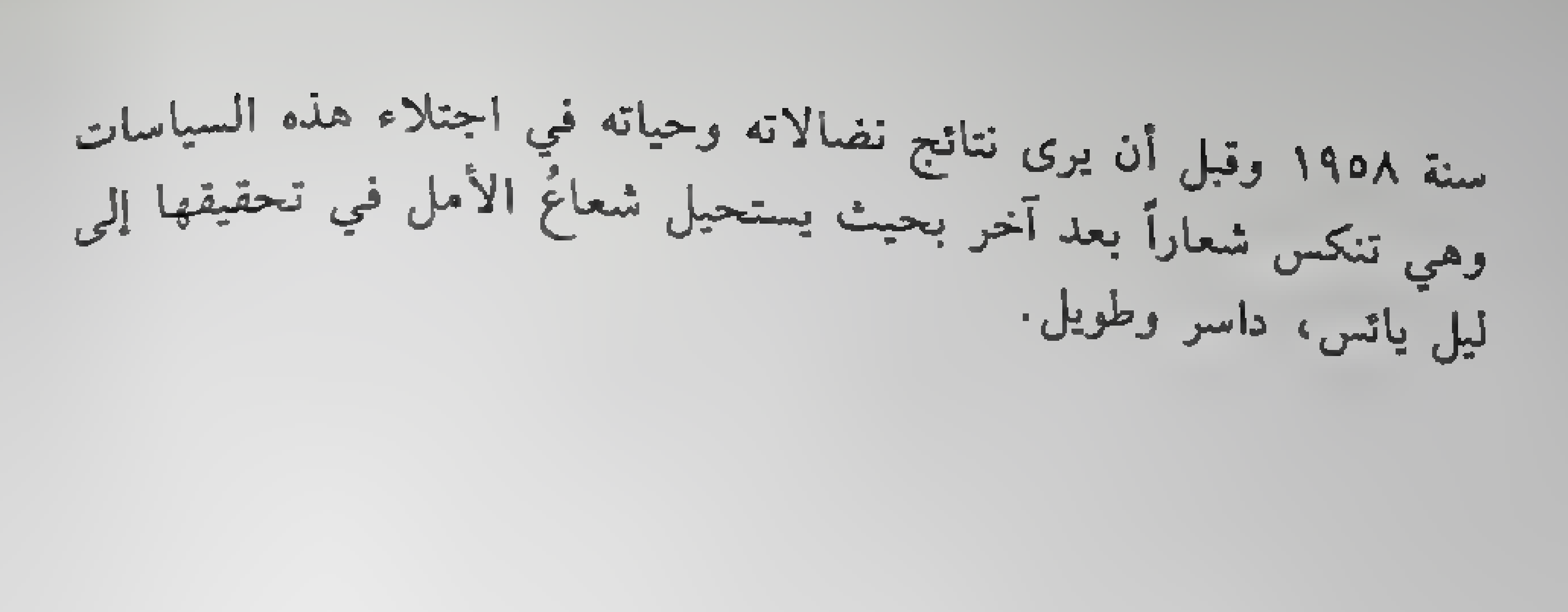
الشباب من أسرة نقيب البصرة وكان الكثيرون من أصدقاء الأسرة الرفاعية ذات المكانة المرموقة في العراق عموماً ـ يعتبرونه مع أولاد السيد حامد السيد رجب النقيب وهم محمد سعيد وحامد ومحمود مهيئين كشخصيات أساسية في البصرة تحل محل عمهم الآخر السيد طالب باشا الذي كان ـ كما يقول عنه كثير من عارفيه ومنهم المرحوم السيد فلبيس (المستشرق والرحالة والسياسي البريطاني الشهير) أقوى شخصية في بلاد العرب أيام الحرب العالمية الأولى وما عندها.

كان المرحوم جمال نشطاً ذكياً لماحاً ذا عزيمة قوية وكان ملتزماً بالأخلاق القويمة وارثاً لمجد عائلي قديم معتزاً بذلك مصمماً على الاحتفاظ به وعلى تقاليد الأسرة النقيبيّة وموروثاتها وكان سياسياً ـ قومياً قريباً من حزب الاستقلال ومن الاستقلاليين عامة ـ عبد القادر السيّاب والحاج محمد أمين الرحماني ونجم عبد الله الفالح السعدون وعبد السلام المناصير وغيرهم من أبناء عوائل البصرة المعروفين وقد كانت صفاته هذه وأخلاقه وشهامته القنوعة البعيدة عن الاصطياد في المياه العكرة والتكسب قد اكسبته ثقة المحامين والناس في البصرة وجعلته صديقاً قريباً للمرحوم سالم عيسى الوجيه والذي كان يحب أمثاله من الناس ويحب أخلاقهم المترفعة عن المقالب والمطامع وصغائر الأمور.

في ذات يوم بعد افتتاح شارع (بصرة ـ عشار) الشمالي والبناء فيه وفي منطقة ام البروم التي كانت مخصصة لمجلس أدارة اللواء حيث كان البناء قد بدأ فيها وقد كدست أكوام الطابوق المجلوب من مصانع الطابوق في العمارة في الطريق العام. كانت سيارة المرحوم جمال النقيب ـ وكانت من السيارات الصغيرة التي يقودها بنفسه قد ذوت قوة بطاريتها وخفت ضوء البطارية وفي ليلة دامسة تزيدها خضرة النخيل ضلمة، جاء المرحوم جمال النقيب مسرعاً بسيارته لكي يشحن البطارية واصطدم بأكوام الطابوق في الطريق وتوفي في الحال وقد كان لموته وقع مأساوي من الحزن والأسى عليه وعلى شبابه لدى من في البصرة من المحامين والموظفين ومن بينهم المرحوم سالم الوجيه ـ الذي كان يبكي عليه ـ عند عودته في آخر الليل إلى داره في البصرة، حيث يجلس في المحل الذي اصطدم وتوفي فيه المرحوم جمال النقيب وحيث جاءت سيارة بصوت خافت وأردته قتيلاً أيضاً حال كونه يبكي على صديقه المرحوم جمال النقيب ومن الجدير بالذكر أن المرحوم جمال هو خال وائل وأخوته أبناء جاسم محمد الصكر في الكويت ومنهم محمد صاحب جريدة القبس الكويتية.

النقيب الذي تربطه به عواطف الحب والاحترام والذي مات في الطريق باصطدام سيارته التي كان يرغب في شحن بطاريتها الضعيفة بكدس من الطابوق موضوع هناك لبناء جديد وفي ليلة مظلمة وكان السيد جمال النقيب يسير بسرعة فائقة لغرض شحن بطاريته الأمر الذي جعل المرحوم سالم يجلس ـ في محل وفاة صديقه جمال ـ يبكي ويكثر في البكاء عليه. ويبدو أنه في ليلة ظلماء ـ أيضاً وكان سالم جالساً يبكي صديقه جمال إذ جاء سائق صديقنا زكي الخضيري وهو ضعيف النظر والعينين في ظلمة الليل ودهس المرحوم سالم وأرداه قتيلاً وقد أخبرني الأخ المحامي يوسف الوجيه ـ (أخ سالم) عندما طرق بابي صبيحة مقتله فسألته حالاً عن سالم وكنت أتوقع موته في إحدى الليالي ـ بأن سالماً قد مات وهو الآن في مستشفى شرطه الميناء فذهبنا إلى هناك حيث شرح الجثمان ونقل في قطار المساء إلى النجف الأشرف.

وهكذا ـ وبهذه الطريقة المأساوية الدرامية ـ انتهت الحياة العاصفة للمرحوم سالم عيسى الوجيه المحامي ـ وسنّه لما يتجاوز الأربعين عاماً بعد أن أخاف البصرة ومحاميها ونوّابها وأشرافها بقوة شخصيته واندفاعه ونشاطه في الدفاع عن قناعاته ومعتقداته والحاحه عليها والدفاع عن القناعات والشعارات الوطنية قبل ثورة تموز ـ بدون أن يكون مستنداً إلى مركز أو وسيلة أو قوة حزب أو عشيرة سوى ما تمنحه الكحول لشاربها من قوة الحضور والمواجهة بالرغم من السلبيات العديدة للكحول والسلبيات التي يمكن أن تخلعها على مصداقية الشخص الذي يتعاطاها وقناعه الرأي العام والناس به في بلد قديم وصغير مثل البصرة اعتبر الكحول فيها منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة من الكبائر المحرمة ديناً وخلقاً ورجساً من عمل الشيطان بعد أن حاول الأستاذ سالم رسم حدود وقيود لتصرفات الناس وأعمالهم، ولا سيما السلوك السياسي والمهني ـ وإقامة قيم جديدة مبنية على حب الضعفاء والفقراء والفلاحين والعمال والنساء والدفاع عنهم ومنحهم حقوقهم. ولقد مات المرحوم سالم قبل أن يتحقق له الشعار الوطني السياسي بما جاء به التغيير في ثورة ١٤ تموز



سنة ١٩٥٨ وقبل أن يرى نتائج نضالاته وحياته في اجتلاء هذه السياسات وهي تنكس شعاراً بعد آخر بحيث يستحيل شعاعُ الأمل في تحقيقها إلى ليل يائس، داسر وطويل.

القسم الثالث

نجيب المانع

نجيب المانع

الفصل الأول

نجيب عبد الرحمن المانع عراقي آخر من هذا الجيل الذي أكتب عنه تحت عنوان (شخصيات نافذة) والذي كان يمكن أن يكون مثل (عبد الجليل برتو) إلهاً إغريقياً يضع بصماته على تاريخ الثقافة أو الفكر في العراق الحديث لو كانت الحياة الروحية في عراقنا بالقرن العشرين تتمتع بسمات الحياة الروحية في بلاد الإغريق قبل القرن الخامس الميلادي أو تشابهها في خصائصها أو واقعها، وتطلعاتها.

إن نجيباً بالنسبة للعصر الإغريقي ـ كان يمكن أن يتربع على عرش ألوهية التعمق الذهني والثقافة الأدبية الموسوعية بموضوعاتها المختلفة وأصولها الموروثة من العهود العربية الإسلامية الأولى أو فروعها المستمدة من الروافد المعاصرة المتمثلة في الفكر الأوروبي الحديث ومذاهبه المختلفة وذكرياته المستمدة من الواقع الحياتي والمأمول. فقد كان الأخ نجيب المانع ـ رحمه الله ـ واسع الاطلاع بشكل معجزٍ وملفت للنظر ومتقناً لكل فقرات الجادة الإسلامية المعروفة في تفاصيل ثقافتنا الإسلامية والتي كان يتداولها متعلمونا ومثقفونا من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ وأدبٍ وبيان وبديع وتاريخ ومقولات، وآثارٍ وأشعارٍ تخلفت إلينا ورثناها عن السلف الصالح في عصر الحضارة الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

كما إنه كان واسع المعرفة والاطلاع على أدبيات عصور التنوير

والإحياء الأوروبي التي تعاقبت على أوروبا والحضارة الإنسانية معاً منذ القرن الخامس عشر الى القرن العشرين للميلاد من موسيقى، ومسرح، وتصوير، ونقد، وعمارة وغناء، وقصص ورواية وشعر، إلى غير ذلك من فنون الغرب وآدابه وثقافاته، وهو إلى ذلك واسع الاطلاع عميق ومحب وناقدٌ ـ متذوقٌ لكل التوجهات الحديثة في الأدب العالمي الأوروبي والأمريكي ونظرياتها وهمومها ومشاكلها وموضوعاتها بشقيها الكلاسيكي والصحفي، فيما يسمى (بأدب العلم) أو (القصص العلمي)، وعلاقة الأدب بالحرية الفردية، والحريات الاجتماعية، وحقوق الإنسان، والحياة المادية، وغير ذلك من قضايا تشغل الإنسان المعاصر وتثير تساؤلاته واهتماماته ـ الأمر الذي حمله ـ بالأخير ـ على الاغتراب والهجرة إلى لندن العاصمة الثقافية الغربية المعاصرة ليكون قريباً وفي القلب من مركز الهموم الثقافية الغربية التي تؤرق المثقف المعاصر وتملأ عليه حياته. فقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته بعيداً عن مواطنيه وعن عائلته ومكتبته وحياته وداره التي بناها ليعيش فيها لنفسه ببغداد في محلة الداودي في قطع عرصات المحامين والقضاة، تاركاً كل ذلك منصرفاً إلى الأدب والهموم الثقافية الفكرية الحرة.

وكان نجيب المانع ـ شأن آلهة الإغريق أيضاً ـ منصرفاً إلى موضوعه الذي سُمّي لألوهيته من مواضيع الثقافة الأدبية والتذوق الأدبي متقناً له متعمقاً فيه ولكنه ـ مثل البشر الآخرين ـ في القضايا الأخرى ولا سيما قضايا الكسب والحصول على المال وتدبيره وإنفاقه ـ بسيطاً ـ عفوي المزاج منقُوص المهارة والتخطيط الجيد، والموازنة المحسوبة بين الواردات والنفقات ولا سيما ـ إذا تعلق الأمر بحيازة ما يفتقر إليه قلبه من إنفاق على الكتب والموسوعات والتسجيلات الموسيقية التي كان يتابع تطورها وتسجيلاتها الجديدة باستمرار بتكنولوجيتها وطبعاتها المختلفة ـ وإذ تعلق الأمر بالعناية بأصدقائه ومحبيه إذ قد يكون الإنفاق على هذه الأمور وتكاليفها من أسباب حمله على إنفاق مبالغ والاستدانة بمبالغ لا يستهان بها بالنسبة إلى فرد مثله محدود الموارد مما كان سبباً في مشاكله المالية المستمرة التي انتهت به نفسياً إلى الفاقة المستمرة وإلى اليأس فالموت،

بعدما عاناه من مشاكل في بغداد وبيروت ولندن مما أرهقته عواقبها المالية والنفسية وما خلفته بذمته من ديون والتزامات كان ـ رحمه الله عليه ـ عاجزاً عن سدادها وتغطيتها مادياً من جهة، كما أنه كان عاجزاً عن تجاهلها وتجاهل عواقبها نظراً لما يملك من نفس حيّة محقه وشعور بالواجب وإحساس بما تفرضه عليه الكلمة التي أخذ على نفسه عهداً بها، هذا فوق كرمه التقليدي الأصيل وحبه للإنفاق على ضيوفه من نفقات السكن والمأكل والملبس ومستوى لائق على أصدقائه وضيوفه وعلى نفسه أيضاً.

ولا أستطيع الآن إلا أن أتذكر بكل تشوق وأسىً تعدد زياراتي له ـ عندما أكون في لندن قريباً منه ـ واستصحابه إياي إلى إحدى البارات الجميلة التي تعج بها الأرياف الانجليزية القريبة من لندن على شاطئ التيمز أو أي محل آخر حيث نقضي معاً سويعات هادئة نستعيد بها ذكريات صداقتنا المتينة والمحبة والتي استمرت منذ عام ١٩٤٧ في البصرة حيث تخرج نجيب من كلية الحقوق ببغداد وجاء إلى البصرة ـ محامياً حينما كنت قاضياً للصلح فيها ـ وكان تشجيع نجيب ومساعدته في العمل والكسب والتمتع بصحبته والاستفادة والاستزادة من علمه وثقافته واطلاعاته من همومي ومهامي الأولى هناك.

الفصل الثاني

نجيب عبد الرحمن المانع أحد أفراد أسرة المانع العربية في نجد وقد اتخذ بعض أفرادها ـ والده عبد الرحمن وعمه عبد العزيز ـ من الزبير مقراً لهما فيها على عادة المهاجرين من نجد إلى العراق من العوائل العربية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها، وبعدها، والزبير هي البلدة التي دفن بها الزبير بن العوام الصحابي المعروف وابن عمة الرسول، بعد حرب الجمل أيام خلافة الإمام علي بن أبي طالب، حيث قتل الزبير وطلحة اللذين قادا الجيش الخارج على الإمام علي مع أم المؤمنين عائشة. لقد انتقل كل من عبد الرحمن المانع وعبد العزيز إلى البصرة والعشار ثم انتقلت عوائلهم إلى

بغداد بعد أن استقرت أحوالهم المادية في العراق في وقت كان أهل نجد المهاجرين إلى العراق قبل تنامي الاقتصاد النفطي والتوسع الاقتصادي في البلاد العربية ـ يستوطنون عند نزوحهم إلى العراق واستيطانهم إلى سواده (ذي الخير) نسبياً ـ في الزبير أو سوق الشيوخ أيام الإمارة السعدونيه (وقد سميت بسوق الشيوخ نسبة إلى الشيوخ من آل السعدون بعد أن بنيت لغرض التسوق والتبضع وخدمة شيوخ المنتفك).

كما أن قسماً من أهل نجد عاشوا في الجانب الغربي من دجلة في الكرخ حيث اشتغلوا بالنقل على الإبل وقوافل الجمال بين البلدان العربية المختلفة في الشام ونجد والخليج وسواد العراق والجزيرة، وكان جانب الكرخ في بغداد يسمى (صوب عگيل) تصغيراً للعقال وهو لباس الرأس للأعراب القادمين من نجد وقد سكن بعض التجار النجديين في العمارة والكوت والحي (واسط) ليمارسوا مهنة التجارة أو النقل منها ويذكر لنا كبار السن أن العمارة كانت تضم جالية نجدية من أقطابها الحاج صالح السويل[1] والحاج حمد الذكير[2] وغيرهما حيث سكنوا هناك وتملكوا بعض العقار فيها علاوة على امتهانهم العمل التجاري.

لقد كان المرحوم عبد العزيز المانع عم نجيب ووالد زوجته من التجار ورجال الأعمال النجديين الموصوفين بالدأب على العمل والمثابرة والخبرة والصلاح وقد تملك نخيلاً ومسقفات في البصرة والعشار إذ يقع مسكنه في شارع الثورة المسمى (شارع سينما الوطني) على أن غالب أملاكه العقارية تقع في منطقة ـ گرمة علي ـ قرب مركز الناحية (الهارثة) في

(١) صالح السويل: من كبار التجار والوجهاء النجديين أصلاً، والذين سكنوا في العمارة (بجنوب العراق) واشتغلوا بالتجارة فيها إلى الخمسينيات ولصالح ابن اسمه (رجاء) وهو ابن أخت كل من عبد العزيز وعبد الله وأحمد أولاد إبراهيم البسّام وكان الحاج صالح صديقاً لعبد الحميد الشيخ علي عندما كان قاضياً في العمارة وللحاج عبد العزيز الشواف عندما كان قاضياً هناك أيضاً، ولا أعلم شيئاً عن رجاء الحاج صالح السويل الآن.

(٢) حمد المحمد الذكير: ـ أنظر الفصل المكتوب عنه في كتابنا (شخصيات نافذة).

بستان نخيل يطل على المسطح المائي الكبير الواقع بين المطار القديم وجزيرة أم الفحم (قبالة فندق شط العرب والمطار القديم) وأملاك المانع في ناحية الكرمة مقابل (جسر هول) وتقع إلى يمين الطريق الممتد بين الجسر القديم على الكرمة إلى القرنة وهو طريق بغداد المعروفة منذ القديم.

أما والد نجيب فهو المرحوم عبد الرحمن المانع وكان موظفاً في گمارك البصرة وكان رجلاً مشهوراً يرضي النفس معروفا بالنزاهة وحُسن الخلق وقد ارتبطت أسرة المانع بروابط المصاهرة مع أسرة العنيزي النجدية المهاجرة إلى الزبير أيضاً، أما والدة نجيب فكانت ابنة أحد الأتقياء الصالحين من ذوي الأصول الكردية الذي كان موظفاً سابقاً في لواء البصرة واسمه (الحاج مراد) وقد كنت أراه في أواخر الأربعينات في مجلس المرحومين الحاج سليمان وحمد الذكير في البصرة مثالاً للطيبه والاحترام والانعزال عن الناس والزهد كما أن حسين الشيخ خزعل ـ صغير الشيخ خزعل أمير المحمرة المشهور ورئيس قبائل المحيسن وهو والد كل من (حنظل وعساف) كان ابن خالة نجيب المانع ومما يجدر ذكره في هذا الشأن أن حسين الشيخ خزعل قد أعد في تاريخ الخليج كتاباً موسوعياً مستنداً إلى وثائق جده الشيخ خزعل اسمه (تاريخ الكويت السياسي) وقد طبع الكتاب ببيروت بمطبعة الكشاف ويعتبر من أحسن الكتب في موضوعه وأدق ما تم تأليفه في هذا الموضوع. كما ارتبطت بآل المانع من كرام الناس في البصرة بالمصاهرة عوائل شتى منها أسرة محمود ابن الحاج عبد الواحد الفرحان[1] الذي تزوج بنت الحاج عبد العزيز المانع ـ وأصبح

(١) عبد الواحد الفرحان: هو الحاج عبد الواحد بن فرحان بن باصي التاجر والمقاول وصاحب شركة الفرحان للمقاولات والبناء والتبليط منذ العشرينيات من القرن العشرين إلى أوائل السبعينيات وقد هاجر الحاج عبد الواحد في صباه إلى البصرة من عانه وعمل أولاً في دائرة التلغراف في البصرة في أيام العثمانيين وهو ابن عم السيد عارف قفطان الشخصية العراقية المعروفة في النصف الأول من القرن العشرين والذي شغل مناصب المتصرفية ومدير السجون العام بعد أن كان ضابطاً في الجيش العثماني. وعندما جاء الحاج عبد الواحد إلى البصرة واشتغل في =

عديلاً لنجيب المانع وهو يعمل الآن تاجراً ومهندساً في إمارة الشارقة (بالإمارات العربية المتحدة) مع أخوانه.

الفصل الثالث

ولد نجيب سنة ١٩٢٧ ودرس المرحلة الأولى من دراسته (الابتدائية) في الزبير حيث قضى طفولته في البلدة التي كانت تعتني بالدعوة السلفية الإسلامية الى جانب اهتمامها بأدبيات اللغة العربية والتراث وكانت (خلفاً ثقافياً) للبصرة القديمة التي كان موقعها إلى جانب الزبير في الصحراء، بعيدة عن مياه الأنهار أو البحار التي كان يخافها العرب ويخافون من وقوفها حاجزاً بين الجزيرة العربية وبينهم منذ أيام الفتح الأولى وتحرير الأمصار أيام الخليفة الإمام عمر بن الخطاب، ولذلك فإن موقع المربد (السوق الأدبي الشهير من أسواق العرب في صدر الإسلام) يقع قرب بلدة الزبير ولا يفصله عن الجزيرة ونجد فاصل مائي حيث كان محلاً مأموناً لعقد الصفقات التجارية وندوات الشعر والأدب.

= المقاولات كان شريكاً للمرحوم الحاج إبراهيم البجّاري الذي كان ممولاً للشركة، وقد تم تبليط كثير من الشوارع الهامة مثل طريق ـ العشار ـ أبو الخصيب وفي الأخير بلط شارع فلسطين في محلة الغرسي وقد تعثرت أعماله وواجه صعوبات مالية بعد ثورة تموز ١٩٥٨ لا سيما بعد أن قام بتبليط شارع معسكر الحبّانية ومدينة الشعلة قرب الكاظمية ببغداد فهاجر إلى بيروت ثم عاد إلى بغداد مريضاً بالسرطان حيث توفي فيها تاركاً أولاده الخمسة الإخوان صائب وصلاح وصفاء ومحمود وحامد اشتغلوا جميعاً بعد وفاة والدهم فى المقاولات بالبصرة وقد أخبروني أنهم سددوا كل التزامات والدهم وديونه وكانوا فرحين بذلك. والآن يسكن أكثرهم في إمارة الشارقة من الإمارات العربية المتحدة في الخليج.

كان المرحوم الحاج عبد الواحد مثال القروي العراقي الصادق المحق النشط الأمين المحبوب وكان مسكنه في البصرة في الكزاره في العشار مقابل الدار التي كنت أسكنها وكان رحمه الله نعم الجار الكريم العطوف على جاره المتفقد لشؤونه المشفق عليه.

إن للتاريخ الفكري للزبير ـ لا سيما بعد انتعاش الحركة الدينية فيها أثر في الهجرة إليها من نجد عقب الدعوة الوهابية التي كانت في حقيقتها ـ حركة إحياء ديني للإسلام ـ لأصوله وحياته الفكرية وتقاليده الاجتماعية ـ وكان ذلك وراء اهتمام نجيب منذ صغره ـ بعلوم الجادة الإسلامية من فقهية وأدبية ولغوية ووراء تضلعه بهذه العلوم التي تأسست للتضلع بها وبتقاليدها الاجتماعية جمعيات عديدة مثل (جمعية الإصلاح الاجتماعي) و (جمعية النجاة) وقد عملت هذه الجمعيات بما بُذل من جهد في تأسيس مدارس ثقافية عديدة ومجلات ومنابر وعظ وإرشاد بحيث إن الزبير على صغر رقعتها ـ كانت مهداً لبعض المصلحين في العالم الإسلامي في أواخر العهد العثماني كالشيخ حبيب والشيخ الشنقيطي[١] والشيخ المجموعي[٢] كما قد زارها في أوائل هذا القرن المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب المنار في مصر. لقد أكمل المرحوم نجيب دراسته الثانوية في ثانوية العشار بالبصرة في دورة كل من الأساتذة الشعراء بدر السياب[٣] (خالد

---

(١) الشيخ الشنقيطي: هو الشيخ محمد الشنقيطي من كبار علماء الدين المصلحين في الزبير وجنوبي العراق وشمالي الجزيرة العربية والكويت قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى وأصله من شنقيط ـ في بلاد موريتانيا بالمغرب الأقصى وقد كان يتمتع بمكانة كبيرة في الأوساط الدينية والعلمية في الزبير والبصرة والكويت وهو والد الصديق يوسف الشنقيطي.

(٢) المجموعي: من علماء الدين الكبار في الزبير بعد أن هاجر إليها من البصرة وكانت له مكانة دينية كبيرة وهو إنسان محترم في الزبير، أما أحفاده فأحدهم محام في البصرة والثاني كان قاضياً في البصرة وفي بغداد إلى السبعينيات. أما الشيخ حبيب فرجل دين كبير في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن التاسع عشر ولكن لم أعثر على وقائع حياته الآن.

(٣) بدر السيّاب ـ ترعرع بدر بن شاكر السيّاب (الشاعر الكبير) في قرية (جيكور) من أعمال أبي الخصيب جنوبي البصرة حيث يعتبر ساكنو تلك القرى أقدم المزارعين وفلاحي النخيل من العراقيين ومنتجي التمور منذ عهد العباسيين ومنهم الأصول التي تحدد الماهية البصرية الحقيقية وتنمّ عن قيم البصريين وأخلاقهم وكرمهم وسماحتهم الفلاحية وتحضرهم وحبهم للحياة الرضية أكثر مما يحدد ذلك =

المهاجرون الآخرون من سكنة البصرة من ذوي الأصول البدوية في شمالي البصرة والقرنة والمنتفك والأعراب من خوزستان، أو من سكنة الزبير من التجار الساكنين في البصرة والمتصفين بالخلق والشناشن والقيم النجدية القبلية العربية.

لقد تبلورت المكونات الشعرية لبدر السياب في أوائل الأربعينيات في ثانوية البصرة في العشار مع كل من أصدقائه خالد عبد العزيز الشواف والشاعر محمد علي إسماعيل ولما أن أكمل الدراسة الثانوية سافر إلى بغداد وانتهى إلى دار المعلمين العالية لدراسة الأدب فيها، وانضم من هناك إلى الحركة الوطنية اليسارية حيث كان الجو السياسي ملتهباً والحركة الوطنية في نمو وتصاعد مستمرين وأصبح في أواخر الأربعينات شاعر الحركة الوطنية ينازعه في ذلك بعض الشعراء الشبان الصاعدين ومن أبرزهم في صفوف حركة اليسار الوطني عبد الوهاب البياتي الذي كان لموقف الحركة الوطنية اليسارية من احتضانه لاحقاً - أثر كبير في تطور السيرة الأيديولوجية لبدر وفي تطور بدر واصطفافه وسلوكه السياسي وفي اختياره القطب المناهض للشيوعية في الحركة الوطنية قبل أيام ثورة تموز سنة ١٩٥٨.

وفي عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ أثناء ما كنت معارا إلى مديرية الأموال المستوردة أيام المرحوم ناظم الزهاوي تعين بدر السيّاب كاتباً فيها وكان يعمل معي مسؤولاً عن استلام إطارات التراكتورات الزراعية التي كانت تستوردها مديرية المكائن والآلات الزراعية لبيعها الى مالكي التراكتورات والآلات الزراعية وقد رأيته ذات مرة - يكتب أرقام الإطارات المطاطية على علبة سكايره فنبهته إلى أن ذلك قد يعرض الأرقام إلى الضياع بعد نفاذ السكائر من العلبة وأن الأصح هو أن ينظم محضراً رسمياً يحتوي على الإطار وأوصافه ورقمه لضمان سلامة الاستلام والتسليم.

بعد ذلك وفي تشرين ١٩٥٢ بعد الانتفاضة التي انتهت باستقالة حكومة مصطفى العمري وتنصيب نور الدين محمود رئيس أركان الجيش رئيساً للوزارة - انقطع بدر السيّاب عن الدوام في وظيفته بالاستيراد وقيل أنه اشترك مع المتظاهرين في حرق مركز شرطة باب الشيخ ثم هرب إلى إيران حيث كانت أيام الدكتور محمد مصدق وحزب تودة هناك - ومن إيران عاد متخفياً في زورق بخاري إلى الكويت حيث عاد إلى العراق بعد مكوثه مدة هدأت فيها أوضاع العراق، وقد جاء أكثر من مرة في تلك الأثناء إلى البصرة حيث كنت قاضياً للبداءة بها - وقد أقيمت على بدر السيّاب دعوى بمبلغ الكفالة التي قدمها أثناء دخوله دار المعلمين العالية متعهداً بالخدمة في الحكومة كمعلم وإلا بدفع مبلغ الكفالة، وكان الذي أقام الدعوى عليه المحامي دانيال عشو (وكيل وزارة المعارف) فغضب بدر عليه - وكان من أصدقائنا الطيبين - ونظم فيه أبياتاً هجائية أتذكر مطلعها القائل: «دانيال يا من أبوه عشو بين =

= المحامين أنت جحش» ولما لمس بدر الطيبة والعدالة في المحامي دانيال عدّل البيت بآخر هو: «دانيال يا من أبوه عشو لك بين المحامين عرش» وقد توكل عن بدر المحامي السيد صالح فاضل وتبرع معه آخرون فكان بدر يتفكه ويسمي دعواه (حقل تجارب الإخوان المحامين التقدميين) وفي تلك الأيام أو بعدها بدأ الخلاف ينشب بين بدر السيّاب وبين الشيوعيين الذين فضّلوا عليه الأستاذ عبد الوهاب البياتي فثار بدر وأدى ذلك إلى قطع الصلة بين الطرفين.

في تلك الأعوام جاء بدر إلى البصرة ناوياً الزواج من قريبته إقبال وكان المسؤول في عائلتهم عن أمور الزواج كبيرهم المرحوم الحاج عامر عبد الرحمن الكامل الملاك الوجيه ونائب البصرة المعروف والمشهور بالطيبة والرضى والتواضع، وقد ذهبت إليه بتكليف من الأخ بدر وفاتحته بالموضوع وكان عليه التبرع ببعض نفقات العرس وتم العقد بموافقته ومباركته فذهب المرحوم بدر إلى صديقنا جعفر البدر في مخزن الحبوب بالدوكيار مستأذناً بالسفر وشاكراً المرحوم جعفر). (بأني أشكرك لعدم تدخلك) لأن المشهور أن المرحوم جعفر كان غير موفق في مهمته كخاطب أو وسيط زواج.

لما أن أعلنت ثورة الرابع من تموز ١٩٥٨ ثم اختلف أطراف جبهه الاتحاد الوطني التي ساندت الثورة في الأيام الأولى، كان الخلاف بين الشيوعيين وبدر السيّاب وكانت الحملات الشخصية قد استفلحت بين الطرفين حتى إني - بعد عودتي من أوروبا في أوائل آب ١٩٥٩ التقيت صدفة ببدر السيّاب في شارع الرشيد (مقابل حسو إخوان) وكان جالساً بحزن وأسى على الرصيف فلما أن حييته وعتبت عليه لانقطاعه عني - أجاب بأسلوب ولجهة حادة بأنه قد فقد الأمل بنا جميعاً لأن طلبه في الإعتراض على فصله من العمل بالمستوردة قد رفض وأنه وحتى الآن في الطريق بلا عمل ولا مورد فأخذته إلى وزارة التجارة واستكتبته اعتراضاً على رفض إعادته إلى مديرية الأموال المستوردة معنوناً إلى رئيس الوزراء ورجوت في المساء - عندما اجتمعت بالزعيم عبد الكريم - بأن بدر السيّاب شاعر كبير وأن لا موجب لإعادة مأساة الرصافي ونحن في عهد الثورة فاستلم المرحوم عبد الكريم مني اعتراض بدر وأشر بقبوله وإعادته إلى عمله فأصرت اللجنة التي كان يمثل وزارة الإقتصاد بها المرحوم حسين عبد العال وكيل مدير الأموال المستوردة على أن يعاد بدر إلى دائرة أخرى غير الاستيراد في الوزارة فكتب بدر طلباً ثانياً مصراً على عودته إلى دائرته حيث أشر المرحوم قاسم على الطلب بالقبول أيضاً.

وعاد المرحوم بدر إلى عمله في مديرية الأموال المستوردة إلى أن جاء طالباً =

عبد العزيز الشواف[1] المحامي والموظف والأديب الشاعر ومحمد علي

= ساعدته للانتقال إلى وزارة المواصلات (مديرية الموانئ العامة) وقد تم له ذلك أيضاً بمساعدة الأستاذ حسن الطالباني وزير المواصلات والمرحوم اللواء مزهر الشاوي مدير الموانئ العامة وبذلك انتقل بدر إلى البصرة في المعقل موظف في مديرية الموانئ العامة ومنح دارا في الحي الصيني وأذكر أني زرت البصرة آنذاك ولما أن زرته قال آسفاً (لو كان عندي في البيت غرفه طعام لأولمتك - أي لأقام لي وليمة ولكن البيت صغير) وقد سمعت بعد ذلك أنه قد منح داراً واسعة تبلغ مساحة حديقتها ألوف الأمتار وهي دار السيد موريس الإنكليزي مدير مصلحة الكهرباء في الميناء وهي من أحسن دور الضباط في الميناء وقد بقي فيها إلى أن حدث إنقلاب ١٤ رمضان ١٩٦٣ وظهرت أعراض المرض بوضوح على بدر حيث أخلى الدار بناء على الحاح دائرة الموانئ وذهب إلى الكويت بمساعدة من رئيس جمعية الأدباء هناك الأستاذ علي السبتي حيث أدخل المستشفى لقضاء أيامه الأخيرة فيها.

وقد حدث خلال تلك المدة حادثان يعتبران من المعالم البارزة في تاريخ علاقتي بالأخ بدر الأول أنه بوساطة من بعض أدباء لبنان قد دعى إلى اجتماع جمعية في روما مناهضة للشيوعية وكان حصوله على موافقة الحاكم العسكري ضرورياً لحصوله على جواز وإذن السفر، فتوسطت له بذلك وقد أخبرني في حينه أنه مريض وسينتهز فرصة السفر لمباشرة العلاج في الخارج وبعد سفره دخل المستشفى في بيروت وأجرى عملية كتب لي عن نفقاتها فطلبت من المرحوم عبد الكريم فأرسل له ثلاثمائة دينار بواسطة الملحق العسكري في بيروت ولما أن عاد وفي السنة الثانية ذهب إلى إنكلترا وكتب لي من هناك طالباً أن يساعده الزعيم عبد الكريم بما يمكنه من إجراء عملية جراحية وقد أعطيت الرسالة إلى المرحوم عبد الكريم في يوم ١٩٦٣/١/١٠ فأرسل له ثلثمائة دينار بواسطة مدير الاستخبارات العسكرية السيد محسن الرفيعي التي استلمها بعد حوادث ١٤ رمضان المصادف ٨ شباط وبعد أن نشر المرحوم بدر قصيدة في هجاء عبد الكريم عنوانها (الزعيم) بعد مقتل المرحوم عبد الكريم.

لقد بقي المرحوم بدر السيّاب في المستشفى في الكويت بضعة أشهر - حسبما أتذكر - وقد ساعده في تدبير أمر وظيفته ثم تقاعده بعد ذلك صديقه وابن عمي خالد عبد العزيز الشواف إلى أن توفاه الله في بحر سنة ١٩٦٣.

[1] خالد عبد العزيز الشواف هو ابن عمتي المرحومة السيدة سنية بنت الحاج طه =

الشواف وأما والده فهو عبد العزيز الشواف بن الحاج أحمد الشواف عم أبي علي بن طه الشواف والحاج طه والحاج أحمد إخوان. ولد خالد الشواف سنة ١٩٢٥ وكان والده أديباً ومحامياً وقاضياً فقيهاً تولى القضاء الشرعي والمدني في بغداد والموصل والبصرة كما كان في رئاسة مجلس التمييز الشرعي وكان من أنقى الناس يداً ووجهاً ولساناً وتصرفاً وتعاملاً مع الناس وقد اقتبس الاخ خالد الكثير من خلق أبيه في رضى الناس والقناعة والتواضع والنقاء وبعد أن أكمل دراسته في ثانوية البصرة وغيرها من المدن التي كان والده يعمل فيها دخل كلية الحقوق وتخرج منها حيث عمل في مديرية الإعاشة عامين وفي المحاماة إلى سنة ١٩٦٣ حيث أصبح مديراً عاماً في وزارة الإعلام العراقية ثم مفتشاً للأدب العربي في وزارة التعليم العراقية ثم أحال نفسه على التقاعد في الثمانينات.

أولع خالد الشواف بالأدب العربي منذ طفولته وأخذ عن والده وأخواله حب اللغة العربية نحوها وصرفها وبيانها وبديعها وكان توجهه منذ البدء دينياً - محافظاً متأثراً بالأجواء العائلية التي كانت تحيطه، لذلك فقد كان مبتعداً عن الانخراط في الحركة الوطنية اليسارية القريبة للشيوعيين في أواخر الأربعينات بل كانت اهتماماته وهمومه دينية وأقرب إلى الجانب القومي منها إلى جانب اليسار الذي كان مسيطراً على الساحة السياسية آنذاك ولذلك فلم يكن للولاء السياسي اليساري أو اليميني أثر في الدعوة له أو في إظهاره كفقرة هامة في الشارع السياسي العراقي مع عدد من معاصريه من الشعراء بالرغم من تمكنه من اللغة والنحو والأدب العربي. وغير ذلك من المكونات الادبية والشعرية تمكناً يجعله في الصدارة والمرتبة الاولى من شعرائنا التراثيين والمحامين في وقت واحد.

بدأ خالد ينظم الشعر وهو طالب في ثانوية البصرة مع بدر السياب ومحمد علي إسماعيل وغيرهما وكتب في الشعر الغنائي وشعر المناسبات ثم ألف بعض المسرحيات الشعرية التي اقتفى فيها أثر كبار الشعراء في مصر في نظمهم لبعض المسرحيات الشعرية كالمرحوم أحمد شوقي على أن خالداً قد قصر همومه في مسرحياته على مسائل تتعلق بالعقائد الدينية كالوحي وتباشير النبوة على أن مسرحياته في جانبها الفني الشكلي الشعري تعتبر من الأعمال المميزة المتصفة بالكمال الحقيقي والصدق ومن أعماله في هذا المجال (كوميديا) شعرية باسم (قرة العين) نشرها في بغداد سنة ١٩٩١ مع مسرحية شعرية باسم (ورقاء) نشرتها مجلة الأقلام في آب سنة ١٩٦٢.

إن ديباجة خالد الشعرية وتعبيراته وآلته الشعرية تعتبر اليوم على رأس الشعر العربي الذي أصبح يمارس تحت شعار التجديد بعيداً عن المكونات التقليدية =

[illegible]

[illegible]

= الكلاسيكية. [illegible] هذا الشعر [illegible]
[illegible] الأساسية التي تبلورت [illegible]
[illegible] لذلك فنحن بانتظار طبع ديوان [illegible]
[illegible] الكلاسيكية لشعر خالد الشواف [illegible]
[illegible] خالد عن تواضعه ووافق على طبع الديوان.

(١) محمد علي إسماعيل: شاعر من أهالي ابي الخصيب ومن دفعة [illegible]
الشواف في دار المعلمين العالية واستمر في التعليم في أبي الخصيب في [illegible] قومي
ديني، وكان لا يزال إلى الثمانينات يعمل ولا أدري مصيره الآن.

(٢) محمود الحفيد: شخصية دينية وسياسية واجتماعية في الحركة الكردية في [illegible]
الحرب العالمية الأولى وفي بداية تشكيل الحكم الوطني في العراق [illegible]
١٩١٥ في حملة التطوع لنصرة الجيش العثماني المسلم في معركة الشعيبة كعنصر
كردي بارز ثم ساهم في التحركات السياسية التي كانت تستهدف تأسيس دولة
كردية مستقلة في كردستان العراق ويقال إنه أسس حكومة برئاسته من شخصيات
كردية ثم حاربته الحكومة العراقية برئاسة المرحوم الملك فيصل الأول وقضت على
نزوعه الاستقلالي وحكومته وأدخلته مع عائلته في خدمة الحكومة العراقية الفيصلية
وأصبح ابنه بابا علي الشيخ محمود وزيراً في حكومات متعاقبة في الأربعينات =

الحبوبي[١] والشبيبي بلاء حسناً انتهى بمقتل قائد الجيش العثماني
(عسكري بك) وانهزام المسلمين وتم على أثر ذلك احتلال جنوبي
العراق من قبل الانجليز. وقد بقيت قاعدة الشعيبة قرينة لقاعدة الحبانية
قرب بغداد، وفايد في مصر، وأصبحت في الحرب العالمية الثانية مطاراً
وقاعدة إمداد لتأمين طرق المواصلات بين جيوش الحلفاء في الغرب
وجيوشهم في الشرق الأقصى وروسيا السوفيتيه، حيث دارت المعارك

= والخمسينات وما زال بابا علي يعيش في لندن مثالاً للوطنية والتعقل وطهارة
الصحبة ثم ناصر ثورة تموز سنة ١٩٥٨ وأصبح وزيراً فيها في السنة الأولى ثم
خرج في شباط ١٩٥٩ مع الوزراء القوميين وبعد الخلاف العراقي الكردي.

(١) الحبّوبي: أسرة معروفة تنسب إلى السادة الهاشميين من أهل المدينة في الحجاز
وقد جاؤوا مهاجرين إلى النجف الأشرف تاركين جانباً من الأسرة في المدينة إلى
الآن، ومن المعلوم أن أهالي النجف إما أن يكونوا من صنف السادة القائمين على
خدمة الحضرة العلوية والقيام بالمراسيم المطلوبة لتنفيذ الخدمة المذكورة، كالنقيب
والرفيعي والكلدار أو أن يكونوا من طالبي العلم والمشايخ الذين اختاروا السكنى
في المركز الفقهي الشيعي والعمل في مجموعة مدارس الفقه فيها، ومن سكنة
النجف من هؤلاء آل كاشف الغطاء وبحر العلوم والجواهري، أو من الرجال
المتعاملين مع المزارعين القريبين إلى النجف في مزارع الفرات وبساتين النخيل
فيها والمتعاملين بتسويق حاصلاتها الزراعية مثل آل شمسة وآل السماوي وآل زيني
أو من الأعراب الكسبة من أهل العراق الذين يكونون عامة أهل النجف وهم
الجماهير ممن يسمّون الزكرت والشمرت.

ومن أفراد عائلة الحبّوبي المعروفين جيداً شعبياً في العراق السيد محمد سعيد
الحبّوبي الشاعر الكبير والفقيه المجاهد الذي رأس المتطوعين في الشعيبة أيام
الحرب العالمية الأولى للدفاع عن العراق ضد الإنكليز مع القائد العثماني التركي
عسكري بك ومع عبد الله الفالح السعدون وعجمي السعدون والشيخ محمود
الحفيد وغيرهم من رجالات العراق في أواخر العهد العثماني.

وتروى عن المرحوم السيد محمد سعيد الحبّوبي طرائف كثيرة منها أنه لم
يرتكب معصية ولم يشرب خمراً أو قرب نساءً بالرغم من أنه نظم أروع قصائد
الخمريات والغزل من شعر عمودي تقليدي أو من شعر (الموشحات) الذي اشتهر
به المرحوم الحبّوبي في هذا القرن.

الرهيبة في الحرب العالمية الثانية في جنوبي روسيا وانتهت بسقوط النازية وهتلر واحتلال برلين.

ويروي المرحوم نجيب نفسه وقد سجل ذلك في بعض كتاباته أنه تعلم الإنجليزية ـ عن طريق قراءته الكتب القديمة التي كان يبتاعها في سوق الكتب في الزبير والتي كان يعرضها الضباط والجنود الإنجليز بعد أن كانوا ينتهون من قراءتها في معسكراتهم في قاعدة الشعيبة، وقد كان في تلك الكتب كثير من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي التي كان قد سمع بها نجيب في دراسته بثانوية البصرة كمسرحيات شكسبير وغيرها.

لقد التقيت بنجيب بعد عودته للبصرة ـ عندما تخرج محامياً وأزمع العمل في محاكم البصرة بعد انهائه الدراسة في كلية الحقوق أثناء ما كان عميدها المرحوم الأستاذ السيد منير القاضي وكان تخرجه عام ١٩٤٧. وعند مجيئه إلى البصرة وتوطد علاقاته بجماعة نادي المحامين آنذاك حيث تكامل العنصر الثالث من عناصر تكوينه النفسي والايديولوجي الثقافي، فالعنصر الأول هو ثقافته العربية وتولعه بعلوم القرآن وأدبيات العرب والشعر العربي، والعنصر الثاني هو الثقافة الغربية متمثلة في إجادته اللغة الإنجليزية والفرنسية واهتمامه بكلاسيكيات الغرب من شعر وموسيقى وغناء ورسم ونحت ورقص ومسرح، أما العنصر الثالث فيه فهو الإيمان والعمل على تحقيق شعارات الحركة الوطنية في الحرية والمساواة والديمقراطية والتحرر من نفوذ الاستعمار والانتصار لقضايا الفقراء والعمال والنساء والجنود والفلاحين وهي الشعارات التي ارتفعت في ربوع الرافدين واحتضنتها جماهير الطبقة الوسطى العراقية منذ المشروطية العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ بل قبل ذلك منذ اتصال العراق بالسوق الاقتصادية العالمية في أيام مدحت باشا ١٨٦٩ والتي انفتحت وتجددت معالمها باستمرار النضال ضد سيطرة الاستعمار في ثورة العشرين وما أعقبها من الصراع الوطني ـ الديمقراطي طيلة تاريخ العراق بعد الحرب العالمية الأولى في مشارف ثورة تموز ١٩٥٨، وعندها صار نجيب

أيديولوجياً ـ قريباً من الحزبين الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي وأثر ذلك كثيراً في تكوينه وتوجهه السياسي والفكري.

الفصل الرابع

لقد عمل نجيب أولاً موظفاً في شركة نفط الرافدين ـ المتفرعة من شركة نفط خانقين البريطانية والتي كانت تعمل في توزيع المنتجات النفطية التي تقوم بتصفيتها شركة نفط خانقين نفسها على المستهلكين من سكنة المدن في العراق ومن المزارعين اللذين يستعملون المنتجات النفطية في تشغيل مكائن ضخ مياه الأنهار لأغراض الإرواء حيث كانت شركة نفط الرافدين تشتغل بالتسويق والتوزيع بعد التصفية التي كانت تتولاها شركة نفط خانقين، وكان المرحوم عبد العزيز المانع (عم نجيب) أحد موزعي المنتجات النفطية في المراكب النهرية على مزارعي جنوبي العراق وقد كانت إجادة نجيب الكلام والقراءة بالإنجليزية هي السبب في سهولة حصوله على العمل في شركة نفط الرافدين حيث بقي فيها إلى حين انتهاء عملها بعد ثورة تموز ١٩٥٨ وتصفيتها حيث انتقلت مهامها إلى المؤسسة الوطنية للنفط (مديرية توزيع المنتجات النفطية) حيث تعين نجيب مديراً عاماً لهذه المؤسسة الوطنية وجرى تعريق إدارات توزيع المنتجات النفطية، هذا إلى أنَّ عمل نجيب المانع في مديرة الاستيراد العامة بإدارة المرحوم ناظم الزهاوي[1] في العهد الملكي ـ كانت من أسباب ترشيحه في سنة ١٩٦٠

(١) ناظم الزهاوي وهو المرحوم ناظم بن عبد الجليل بن محمد فيضي أفندي الزهاوي رأس الأسرة الزهاوية ومفتي بغداد في العهد العثماني وينتمي بنسبه إلى قرية زهاو ـ إحدى قرى كردستان الإيرانية على حدود العراق الشرقية ولناظم عدد من الأعمام أولاد محمد فيضي الزهاوي لأنه رحمه الله كان منجباً وأكبر أولاده المفتي الثاني بعد أبيه ـ السيد محمد سعيد ـ وهو والد أمجد أفندي الذي كان فقيهاً متمكناً في بغداد (وأستاذ) لمادة المجلة في كلية الحقوق العراقية ثم عمل رئيساً لمجلس التمييز الشرعي السني إلى أن توفاه الله وهو من أبرز زعماء الدين المسلمين. ومن أولاد محمد فيضي أفندي مدحت الزهاوي أبو رشيد الزهاوي قاضي بداءة بغداد =

وعبد اللطيف الزهاوي الذي رثاه جميل صدقي الزهاوي بالقصيدة الشهيرة المنشورة في ديوانه ومطلعها:

أخـي قـضـى أخـي هـلـك   أخـي إلـى الـمـوت سـلـك

وكان الشاعر جميل صدقي الزهاوي من شخصيات العراق في أواخر الدولة العثمانية وأوائل الحكم الوطني في العراق حكيماً وشاعراً وكان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨. أما عبد اللطيف والد المرحوم ناظم فقد كان وجيهاً مزارعاً وملاكاً في بغداد وأملاكه الزراعية تقع في منطقة ديالى غربي بغداد المشهورة ببساتين البرتقال والنخيل. لقد انخرط المرحوم ناظم في الحركة الوطنية العراقية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن وكان من بارزي الحزب اليساري قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها وأحد مؤسسي حزب الاتحاد الوطني الذي أجيز من قبل وزارة المرحوم توفيق السويدي سنة ١٩٤٦ مع الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم والسيد ناصر الكيلاني وعبد الله مسعود القريني وشريف الشيخ وغيرهم من الساسة الكتاب والشبان المتحمسين والخريجين وذلك عندما منحت الأحزاب السياسية إجازتها فكان اليسار أحزاب ثلاثة هي الحزب الوطني الديمقراطي بقيادة كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل وحزب الشعب بقيادة عزيز شريف وحزب الاتحاد الوطني بقيادة عبد الفتاح إبراهيم.

لقد اتفق المرحوم علي ممتاز الدفتري وزير المالية الأسبق والمرحوم ناظم الزهاوي بتعيينه مديراً عاماً لمديرية الأموال المستوردة في سنة ١٩٤٨ بعد الوثبة الوطنية التي اندلعت في كانون الثاني من تلك السنة وقد نجح المرحوم ناظم بكسب ثقة الجميع بإدارة هذه المديرية الحساسة حينذاك كونه من الكوادر التقدمي الوطني الشهير في تلك الآونة وجمع فيها بعض أصدقائه من حركات اليسار الديمقراطي والوطني إلى أن اندلعت انتفاضة تشرين الثاني سنة ١٩٥٢ حيث قامت الحكومة التي شكلها المرحوم نور الدين محمود بإلغاء مديرية الأموال المستوردة وإحالتها إلى المديرية المالية العامة حيث عين الأستاذ ناظم الزهاوي في لندن عضواً في مجلس إدارة شركة نفط العراق وأخواتها وحيث عمل ممثلاً للمصالح العراقية بموجب اتفاقية الحكومة مع شركة نفط العراق. وبعد ثورة تموز سنة ١٩٥٨ عاد إلى بغداد حيث عين عضواً في مجلس إدارة البنك المركزي ثم محافظاً للبنك المركزي بعد خروج المرحوم الدكتور عبد الإله حافظ ثم اختير وزيراً للتجارة سنة ١٩٦٠ بعد خروجي منها وكان عندما أطيح بالمرحوم عبد الكريم قاسم في رمضان سنة ١٩٦٣ في زيارة رسمية الى بريطانيا فلم يعد إلى العراق وإنما التحق بابنه حازم الذي كان يعمل في السعودية حيث توفي المرحوم ناظم هناك.

لمهام تجارية في الاقتصاد الحكومي شبيهة بأعمال الاستيراد العامة من الناحية النظرية عندما كانت دائرة مديرية الأموال المستوردة خلية نحل تعج بالتجار من المستوردين الباحثين وراء إجازات الاستيراد المحدودة الكمية والمركبة من جهة، وموظفيها من الشباب التقدميين من جهة أخرى وأكثرهم جاء في السنوات ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢ متعاونين مع الأستاذ ناظم الزهاوي يقومون بواجباتهم صباح ومساء بالهمة والنشاط والنزاهة والإخلاص مما عرفت به مديرية الأموال المستوردة العامة وأصبحت من خصائصها وخصائص موظفيها في تلك الأيام.

لقد كان نجيب موظفاً في مديرية الأموال المستوردة مع كل من الأساتذة عامر عبد الله وجاسم الرجب وإبراهيم العنيزي وعبد الواحد القيسي وعبد الرزاق القيسي وعبد الوهاب الحسك وفاضل الخطيب وعبد الرزاق الشيخ علي وأكرم الوتري وحسين عبد العال وحسن عبد العال وفاضل مهدي وإسماعيل الشيخ علي وعبد الله عياش وعبد الجبار وهبي وهادي علي وبدر السياب وعبد الحميد صالح وأسعد الفريح وأكرم توفيق وإحسان جاسم شوقي وجميل أسود ولطفي الديلمي ونجيب المانع وطلعت الشيباني وشكري صالح زكي وزكي عبد الوهاب ويحي الوادي وكاتب هذه السطور عبد اللطيف الشواف وغيرهم من شباب العراق وفنّانيه ومثقفيه وشعرائه الوطنيين والتقدميين والقوميين باختلاف توجهاتهم وتجمعاتهم السياسية مما كان لنشاطهم الفكري والسياسي أثر في التطورات اللاحقة في العراق قبل وبعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨.

لقد كان المرحوم ناظم من الناس الطيبين الوطنيين ومن المثقفين الماركسيين صبور على العمل ولكنه في سلوكه السياسي والشخصي كان من الإيجابيين المؤمنين بالتسويات السياسية والباحثين عنها في أوساط الجهات المتعاونة مع العهد الملكي والسلطات البريطانية مختلفاً بذلك عن الفئات المتشددة المتأثرة بمواقف الحزب الشيوعي آنذاك ولعل في اشتغال المرحوم ناظم في إنجلترا مع رجال شركة نفط العراق أثر على نظرته إلى العمل السياسي ومستقبله وعلى مزاجه الوطني.

الفصل الخامس

وقد استمر المرحوم نجيب مديراً لمصلحة توزيع المنتجات النفطية حوالي السنة نقل بعدها إلى وزارة الخارجية العراقية بعد أن التقى بوزيرها المرحوم الأستاذ هاشم جواد[1] ـ الذي أعجب بمزايا نجيب وكفاءته

---

(1) هاشم جواد: هو السيد هاشم بن السيد جواد الأوقاتي وزير الخارجية في العراق من ٥٩ إلى ١٩٦٣ ويعود بنسبه إلى السادة العلوية من أهالي عانه أصلاً وهو بن عم كل من أولاد السيد جعفر الأوقاتي ـ جلال وأحمد ومحمد (وكان أبوه موظفاً من أعضاء الخدمة المدنية العثمانية في أواخر عهدها وعين مديراً للطابو (التسجيل العقاري) وقائم مقاماً لقضاء الهندية في الحلّة وغير ذلك. كان المرحوم (أبو سمير) هاشم جواد شاباً تقدمياً في مقتبل عمره معروف أنه من جماعة مجلة (المجلة) التقدمية وزميلاً لكل من عبد الحق فاضل وحسين الرحال وذي النون أيوب وقد عمل في هيئة الأمم المتحدة (منظمة العمل الدولية) في سويسرا واتصل بالحركة العمالية والحركات الاشتراكية وكان يعتبر خبيراً عراقياً في التوجهات السياسية الاشتراكية الدولية وتروى عن نباهته ومواقفه في هيئة الأمم ووزارة الخارجية العراقية الروايات والمبالغات.

ولما أن اندلعت ثورة ١٩٥٨ وسقط النظام الملكي ونشب الخلاف بين الجانب القومي والجانب اليساري في عهد تموز كان الناس يرشحونه وزيراً للخارجية بديلاً عن الدكتور عبد الجبار الجومرد (وزير خارجية ثورة ١٤ تموز) عند إعلانها وتروى عن اختلافه مع الدكتور الجمالي وغيره من مصممي ومنفذي الدبلوماسية العراقية الروايات التي تشعل أمر ترشيحه ليتولى وزارة الخارجية فلما أن استقال الدكتور الجومرد فعلاً من وزارة الخارجية بعد تفاقم الخلاف بين اليمين واليسار في بدء ثورة تموز تولّى المرحوم هاشم في عام ١٩٥٩ وزارة الخارجية العراقية وبقي في الوزارة حتى رمضان سنة ١٩٦٣ حيث أوقف في الأحداث المذكورة ثم التحق بالأمم المتحدة ممثلاً لها في أندونيسيا ثم في بيروت وقد قتل هناك بسبب خلاف شخصي كما يقال ـ مع سائق سيارته الفلسطيني الجنسية.

كان المرحوم هاشم من الشخصيات النادرة في ذكائه وثقافته وجرأته وسعة اطلاعه على التيارات الفكرية ولا سيما ما تعلق منها بالسياسة والتوازن الدولي. وكان الأسلوب العنيف في عرض أفكاره وتنفيذها أثر في إثارة خصوم متعددين من أقصى اليسار وأقصى اليمين ضده إذ كانت نظريته في عدم الوقوع في تبعية الاتحاد =

الخلقية والثقافية وإجادته الإنجليزية والفرنسية وبقي يشغل إحدى مديريات وزارة الخارجية وأظنها (الدائرة القنصلية) مدة تناهز السنة ثم بعدها فصله المرحوم عبد الكريم قاسم أثناء سفر المرحوم هاشم جواد لحضور اجتماعات هيئة الأمم المتحدة في صيف ١٩٦١ وكان عبد الكريم وكيلاً لوزير الخارجية آنذاك وكان سبب الفصل فيما سمعناه في حينه أن نجيباً كان قد كتب مقالاً في جريدة الأهالي (جريدة الحزب الوطني الديمقراطي ـ وكان نجيب عضواً فيه) يصف فيه إعدام ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سرّي (بأنه اغتيال وليس عقاباً عن جريمة لأن لم تكن هناك محاكمات قانونية) ـ مما أغاظ عبد الكريم فأصدر الأمر بفصل نجيب من وزارة الخارجية وبقي نجيب عاطلاً طيلة أيام عبد الكريم قاسم.

= السوفييتي والدول الاشتراكية لا نظرياً ولا عملياً حيث لا يمكننا المحافظة على خط الثورة وهو خط تموز ـ إلا بالحياد الإيجابي الذي بدونه يتعرض خط تموز إلى أخطار قاتلة من الغرب المبني والقادر على إثارة المشكلات لجمهورية تموز وخطها الاستقلالي وكان الالتزام بهذه النظرية كافياً لإثارة الرأي العام ضده في الجو الملتهب الذي تميزت به أعوام ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣ لاختلافه مع القوى اليسارية التي كانت مسيطرة وغالبة في تلك الأيام.

لقد كان هاشم جواد شخصية قوية نافذة وكان عندما اتفقت آراءه وتوجهاته مع المرحوم عبد الكريم قاسم متنفذاً في رسم تصميم اتجاهات السياسة العراقية وتنفيذها كما كان لتمرسه في قواعد اللعبة مع السلطة وذويها دوره في تصريف كثير من الشؤون أيام المرحوم عبد الكريم. ولكن بالرغم من ذلك فإن الكثير من الشؤون العراقية أيام عبد الكريم قاسم لم يكشف النقاب عنه لا سيما وأن التحليل المنطقي لسياسة العراق بشأنها ظلّت محل اختلاف القوى السياسية نظراً لتعقيدات الوضع السياسي الدولي والداخلي ولما كان يحيط بها من التكتم والأسرار فالموقف من الغرب ومن العالم الاشتراكي والقومية العربية الناصرية وعبد الناصر ومن مشكلة الكويت والاستعمار البريطاني في الخليج لم تزل أدوار المرحوم هاشم مجهولة فيها ولكنه في الحق كان مؤثراً وايجابياً يعمل لكي تسير سياسة العراق في جو يميل إلى الهدوء والسلامة والطمأنينة. وكان يعمل على ترميم العلاقات مع دول الجوار إيران وتركيا والأردن والبلدان العربية الأخرى.

ولما أن حدثت أحداث ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ وتأسست الشركة العربية لإعادة التأمين كشركة مشتركة بين الشركات العربية لإعادة التأمين ومنها الشركة العراقية لإعادة التأمين، وكان مديرها صديقنا هو الدكتور مصطفى رجب الذي عين نجيب في شركته ثم رشحه للعمل بالشركة العربية لإعادة التأمين في مركزها ببيروت حيث سافر نجيب وأقام هناك مع عائلته مختلطاً بالأجواء الأدبية والثقافية التي كانت تعج بها بيروت في الستينات وأول السبعينيات سواء الأجواء الثقافية الشرقية العربية حيث كانت تصدر هناك مجموعة مجلات كالأديب والآداب والعلوم وغيرها، كما كانت بيروت تعج بمظاهر الثقافة الغربية حيث ابتدأت المسارح تعرض المسرحيات الأوروبية واللبنانية والقطع الموسيقية والأغنيات الكلاسيكية وحيث كانت محلات بيع الأسطوانات تتنافس في عرض أحدث تكنولوجيات التسجيلات الفاخرة وتكنولوجيا تسجيل الآلات المتنوعة وقد زرته في بيروت فوجدته يسكن في شقة في محلة (الحمراء) ذات غرف ثلاثة مليئة بالأسطوانات الكلاسيك بما يفوق عددها على الألوف وبالكتب العربية والشرقية باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية مما أدى إلى دخول نجيب في مشاكل مالية مع الدائنين بأثمان الاسطوانات وغيرهم من الكفلاء والضامنين مما كانت سبباً في إنهاء علاقة نجيب بشركة التأمين العربية وقيام خصومة بينه وبين الشركة المذكورة ومديريها أدت إلى عودته إلى بغداد في السبعينيات وإلى قيام علاقات غير ودية مع كثير من الأوساط الثقافية والفكرية الأدبية أدت إلى التأثير على مكانته الأدبية والفكرية في هذه الأوساط وغيرها من أوساط الثقافة العربية هناك بعد أن كانت إقامة نجيب في بيروت سبباً في معرفته بالأوساط الثقافية العربية وسهلت عليه العمل في الترجمة عند عودته إلى بغداد.

قام نجيب بترجمة كتب عديدة من كتب الأدب والفكر الغربي وانتخب رئيساً لجمعية المترجمين عند تكوينها في بغداد حيث كلف رسمياً ببعض الترجمات السياسية منها إحدى كتب مستشار الأمن القومي الأمريكي برجنسكي وغيرها من المؤلفات الأدبية والفكرية الغربية ولكنه كان ملاحقاً

من الدائنين والكفلاء بما ترتب لهم بذمة المرحوم نجيب عما تجمع من هذه النفقات المتراكمة عن ثمن الكتب والاسطوانات التي تركها في بيروت لدى أحد أصدقائه الذي خزنها في مخزن في محل منخفض من داره مما أدى إلى انغمارها بمياه الأمطار مما أعطب الكثير من الكتب والأسطوانات أدى إلى إتلافها هذا علاوة على ما أنفق على أدباء بيروت في نفقات الولائم التي أقامها احتفاء بهم وبأصدقائه من بغداد عند زيارتهم ديوان إعادة التأمين (العربية) وقد أدّت المطالبات بهذه الديون والقلق الذي ترتّب على نجيب نتيجة عدم تمكنه من السداد وإعادة الجدولة ـ إلى اضطراره إلى ترك بغداد والهجرة مع ابنه البكر لبيد ـ إلى خارج العراق حيث انتهى به المطاف بعد السعودية في المنطقة الشرقية ومن ثم إلى جدة ومنها إلى لندن وحيث كانت أخته السيدة سميرة المانع تقيم وتعمل مع زوجها الأستاذ صلاح نيازي حيث يصدر مع زوجته السيدة سميرة مجلة (الاغتراب الأدبي) من سكنهما في (كنكستن) وتمتاز (مجلة الاغتراب الأدبي) بالأصالة والعمق، وتنشر نتاج الأدباء العرب من مغتربي الوطن العربي في أوروبا وبلاد الغرب وإن كانت من الناحية التجارية ـ تلاقي مشاكل مالية حقيقية في تغطية نفقات الطبع والتحرير والتوزيع.

الفصل السادس

لقد عمل نجيب في لندن محرراً في جريدة الشرق الأوسط الصادرة بالعربية فيها واشترى في البدء داراً، وكانت أقساط الدار ونفقات (لندن) سبباً آخر في دخول نجيب في أزمة مالية أخرى حملته على البيع وترك الدار التي اشتراها واستئجار دار أخرى مؤقتة وقريبة من مركز لندن ثم بحثه اللحوح والمتعب عن عمل يدر عليه مردوداً يسد بدل الإيجار ومصاريف البيت مما أدى إلى وفاته أثناء ذلك متأثراً ـ كما أعتقد ـ صحياً وعصبياً ونفسياً نتيجة حاجته الماسة إلى الإيراد وما كانت تشكله الديون المستحقة عليه من الضغوط في الغربة إذ أدت حاجته الماسة إلى المورد المالي الذي يغطي احتياجاته التي كان يعجز عن معالجتها وتدبيرها إلى وفاته المفاجئة

علماً بأنه قد فارق الحياة وهو جالس على كرسيه منتظراً خبراً مطمئنا عن طريق الفاكس عن عمل جديد في الترجمة يضمن له مورداً مقبولاً بعد أن اتفق مع جريدة الشرق الأوسط بأن يعمل ـ غير متفرغ ـ وبالقطعة في الجريدة المذكورة لكي يستطيع أن يوفر لنفسه ولحسابه موارد إضافية يعالج بها التزاماته.

وقد سمعت منه في أواخر أيامه ثناء وامتناناً للأستاذ كنعان مكية (الكاتب العراقي المعروف) لأنه قد قدم نجيباً إلى دار نشر بريطانية اتفق معها نجيب على إعداد وطبع ونشر قصة إنجليزية يقوم نجيب بكتابتها للقراء البريطانيين وكان نجيب يأمل من وراء ذلك عائداً مالياً بالمستوى الغربي الإنجليزي ولا أدري شيئاً عن مصير هذه القصة الآن، كما كان نجيب دائب الشكر في أحاديثه يلهج بالثناء والعرفان على الأستاذ العمير (رئيس تحرير الشرق الأوسط) لمعاملته الحسنة والإنسانية في عمله في الجريدة، حيث كانت طريقة تعامله مع رؤساء العمل في مختلف الأعمال قد كونت له عقدة نفسية منذ أيام عمله في الحكومة بمصلحة المنتجات النفطية ووزارة الخارجية وشركتي التأمين العراقية والعربية والتي كان رؤساؤه فيها سبباً في متاعبه وهمومه وبعض تصرفاته الحادة التي استمرت في عمله بجريدة الشرق الأوسط أيضاً. لقد كان نجيب فناناً، وقد يصعب تطويع الفنان ليكون موظفاً روتينياً.

الفصل السابع

لقد كان لإحياء طريق التجارة بين أوروبا والغرب وبين الهند والشرق الأقصى عبر بلاد العرب في أوائل القرن التاسع عشر، بعد توطد الثورة الصناعية في أوروبا وأثر الاحتلال الفرنسي لمصر وفتح قنال السويس تأثير كبير على ما يسمى (بالنهضة العربية الحديثة) وحركة الإحياء التي انتشرت في المنطقة العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وإذا كان مريدو الإصلاح والإحياء الأوائل في العراق وهم الرصافي والزهاوي والشبيبي

وفهمي المدرسُ وعبد اللطيف ثنيان وعبد المجيد وعبد الحميد الشاوي ورجال الدين من أمثال الشيخ الشيرازي والشيخ الألوسي في الدور الأول لحركة الإحياء فإن الدور الثاني الذي ابتدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كان يمكن لنجيب أن يكون من الشخصيات الأساسية فيه مبشراً بالعصر الحضاري الجديد وقواه الفكرية، داعياً لها، ولسيطرتها على الحياة الروحية والاجتماعية والثقافية في عالمنا العربي المعاصر، نذيراً ورافضاً لأي مظهر من مظاهر إهمالها أو الافتئات أو القفز عليها إلى ما لا يحتمله الضمير العربي أو التطور العربي في عصره الحالي من استلهام منطلقاتها في الحياة إلى جانب ما كان يتمتع به نجيب من ذكاء وكمال وثقافة موسوعية وتوجه علمي وحضاري وانفتاح على الغرب ومبادئه وحضارته، وذلك لولا الوضع المأساوي المعقد الذي تحدرت إليه شؤون الحياة في العراق بعد انتكاس ثورة سنة ١٩٥٨ في جانبها السياسي والاجتماعي وما تميزت به من خلافات دموية حادة لا يمكن أن تتعدى الشعارات والخلافات في الأخير. ولولا مزاج الفنان الذي كان يعتمل في أعماق المرحوم نجيب ويضع همومه وتصرفاته ونفسيته ومجمل أهدافه وقيمه بعيداً، عن مزاج المصلح الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي الذي لو كان توفر في نجيب لأمكن أن يعوضه وأن يخفف من أعبائه المادية بإخراج لائق وبالديكور المناسب له ولما يقتضيه ذلك من النفقات المادية التي أدت بالمرحوم نجيب إلى متاعب صحية قضت على حياته في آخر الأمر، أي أنه لو عمل كمصلح لا كفنان لعوض ذلك عن كثير مما تعرض له من هموم مادية.

الفصل الثامن

لقد مضى على لقائي الأول بنجيب عندما بدأت معرفتنا ببعضنا إلى حين وفاته ـ ما يزيد على الأربعين سنة توطدت خلالها بيننا منذ اللقاء الأول صداقة وطيدة بل تفاهما وحبا متبادلا في النواحي الفكرية والروحية والثقافية والسياسية ظلت قائمة وصلدة ومتطورة خلال أيام حياتنا بإفراحها وأتراحها إلى آخر يوم من أيام المرحوم نجيب حيث بقيت أنتظر وأنا في بيت الصديق

خالد عيسى طه في لندن ـ تليفوناً من نجيب، لأنه عودني على ذلك وأن يتصل بي من داره التي استأجرها مجدداً في لندن عدة مرات في اليوم ولما أن يأست من اتصاله صبيحة ومساء اليوم الذي توفي فيه شككت بعد طول انتظار في الأمر وانتابتني غمامة الخوف على نجيب من الموت حيث كنت أعلم أنه مريض في قلبه وأن سرعة اتصاله بالمستشفى من النوبة القلبية الأخيرة التي داهمته قبل بضعة شهور وسرعة إرسال سيارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى هي التي أنقذته من موت محتم في تلك النوبة فقمت بالاتصال ببيت أخته السيدة سميرة المانع سائلاً عنه وعن سبب انشغال تليفونه دوما خلال ساعات وقد أجابتني أخته بأنها لا تعلم من الأمر شيئا ثم اتصلت بدائرة البوليس حيث فتحوا باب داره عنوة ليجدوه ممداً على كرسيه قرب التليفون المفتوح على جهاز الفاكس وهو ينتظر أخباراً عن الأعمال.

لقد ظل نجيب إلى آخر يوم من أيام حياته يجد في الحديث معي متنفساً له عن كربته وهو في وحدته وتكالب ضغوط الحياة المادية والمعنوية عليه ـ وقد جاوز الستين من عمره وكان يكرر بأسى أنه لم يحقق من عمره الذي انقضى شيئاً في باب التأليف والإنتاج الثقافي والإبداع وكان نجيب يكشف في الاتصال بي عن مكنوناته وأحواله ـ التي ربما لم يجد عند غيري الكثير من المعرفة بها والتقدير لها وتأثيرها على نفسيته وأعماقه وأحواله المادية والصحية وقرفه من الحياة وتفاهتها واستبشاره بمفارقتها وكان يشكو في أخريات أيامه من بعض أصدقائه ولاسيما الأصدقاء المشتركين وتعاملهم المادي معه مما يتناقض مع ما يدعون به من رفض الماديات ولا ينسجم مع نفسيته (كفنان) لا تستوقفه ولا تستهويه الحياة المادية ومظاهرها وما كان يعيش به هؤلاء من الوفرة ورغد العيش والاطمئنان الذي يتمتعون به.

الفصل التاسع

إن نجيب المانع في خلقه الرضي وتذوبه النفسي في الخير والصدق

وحبه للناس وفي شغفه بالحرية وحقوق الإنسان للجميع وفي ترفع عن كل ما يشين المرء من طمع وملق وشراهة وفي مزاجه التي يمثل الفنان الأصيل في الصدق والتواضع والإخلاص والترفع عن أي تمسك بالقيم والعلاقات المادية أو الكاذبة أو غير المخلصة، وفي ثقافته الموسوعية عربياً وأوربياً وهي الثقافة التي تمكنت في الأخير وأحاطت بكل التوجهات في الثقافات القديمة والحديثة من موسيقى ومسرح وأدب وشعر وأحداث تاريخية ونفسية وفي بعده عن الأنانية الضيقة (النفاجة) والادعاء، وفي فكره اللامع الأصيل المبدع سواء في الدراسات المعمقة أو الترجمات لروائع الأدب من قديم وحديث أو التعليقات الذكية الصائبة الخفيفة الظل ـ يمثل في الحقيقة والجوهر المثقف الفاهم لقضايا أمته وشعبه، والمناضل في سبيل معالجتها والاهتمام بها والمحارب من أجلها مقيداً فقط بالحرية، وحقوق الإنسان، والتقدم للفرد والجماعة معاً. كما أنه بالنسبة لأصدقائه ومعارفه كلهم وللناس أجمعين مثال في الوفاء والتذوب في الناس وعمق الثقافة وسعة الاطلاع والصدق والأخلاق حتى إنه ليعتبر بحق ـ شخصية نافذة من شخصيات مجتمعنا الفذة ـ شخصية كان يمكن أن تقف على مستوى شخصيات المنطقة الثقافية الأولى أو تضاهيها في عصرنا الحديث مع تركيز على اهتماماته الفنية والفكرية والأدبية في حياته العامة والخاصة، حتى إني من باب المزاح ـ كنت أرشح نجيب لمهمة الإشراف على الثقافة والإعلام والدعاية في أية حكومة وطنية ديمقراطية تضع بلادنا على طريق التقدم الذي يصبو إليه الجميع في هذا المجال.

الفصل العاشر

لقد كتب لي المرحوم نجيب في أوائل الخمسينيات رسالة مطولة عن انطباعاته الموسيقية في الموسيقى الكلاسيكية يمكن أن تعتبر حتى الآن ـ دليلاً مشجعاً على سماع وتفهم وتذوق الموسيقى الكلاسيكية الغربية وكان لذلك أثر كبير على تولعي بهذه الموسيقى ثم بالمقام العراقي التراثي استطراداً وبالقيم الروحية الموسيقية والفنية التي تعرف عليها الكثير من أبناء

جيلنا. وقد كان لآرائه ونصائحه وتوجيهاته أثر أساسي في شرائنا لقطع أساسية من قطع الموسيقى الكلاسيكية مسجلة من شركة بعينها لامتيازها بالعزف والإخراج وأساليب التسجيل التكنولوجية التي تستعملها مفضلاً تسجيلاتها على التسجيلات الأخرى بفضل نصائح الأخ نجيب ومعارفه الموسيقية المشفوعة بملاحظاته القيمة والمفصلة عن مزايا كل تسجيل. وكان نجيب في الخمسينيات والستينيات شأن الكثير من شباب العراق ومتعلميه ـ مدفوعاً الى الإعجاب بالإنجاز الذي حققه الجيش السوفييتي ـ مقارناً بجيوش الدول المستعمرة إنجلترا وفرنسا في هزيمة الجيش الألماني الهتلري وإنهاء الحرب ومعبئاً بمنافع المبادئ الماركسية والاشتراكية كما طبقها الاتحاد السوفييتي، ومؤمناً بالتأميم الشامل للقوى الانتاجية الاقتصادية ودكتاتورية الطبقة العاملة ومبادئ اللينينية ـ الستالينية في الحرب والحكم والسياسة.

ولكن انفتاح نجيب على الأدب والفكر الغربي والحياة الغربية الإنجليزية ـ والفرنسية قبل غيره جعل عيونه تتفتح على مدى الخطر الذي ينجم عن هذه الايديولوجيات على الحريات الفردية وحقوق الإنسان وعلى العملية الديمقراطية والطريق إلى الحياة الغربية المعاصرة بجميع أعماقها ومظاهرها. ولعل في اختياره وتفضيله العيش في لندن ما يشير إلى هذا التبدل وتفضيل الأنظمة الديمقراطية الليبرالية الغربية في الوقت الذي كان فيه الكثير من كادر الحركة الوطنية في العراق يفضلون العيش في أوروبا الشرقية كلاجئين أو مجرد مهاجرين وذلك كوسيلة تعبر عن عدم إعجابهم بالغرب الرأسمالي وطريقة العيش في رحابه. وكثيراً ما كان لأسلوب نجيب الحاد والصريح والرافض والتهكم الذي يعكس فيه نجيب موقفه من شمولية النظام الاشتراكي ومن انتهاك الحرية وكرامة الإنسان، أثر في بعث خلافات بيني وبينه في تشخيص كثير من الأدوار السياسية والإنسانية الدولية والداخلية في عالمنا المعاصر مثلما حدث أثناء ثورة إمري ناجي في المجر سنة ١٩٥٦ أو ربيع براغ عام ١٩٦٨ إذ كان نجيب يعتبر الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية كلاً موحدا ينطوى على أخطاء فكرية وتطبيقية تتعلق

بالجوهر الفكري لهذا المذهب وموقفه من الإنسان والحرية بينما كنت أنا أركز على التطبيق الستاليني الحزبي السوفيتيي الضيق وما فيه من العنت الذي يخفض من بناء اقتصاد الاتحاد السوفييتي ومجتمعه الجديد كما يخفف ذلك من مسؤولية الماركسية اللينينية الفكرية والنظرية ومسؤولية آباء الشيوعية وأميل إلى تنزيهها من أن تكون أسباباً لأمثال هذه الحوادث والنتائج بشكل مقصود وذلك على الطريقة التقليدية التي كنا نحن أبناء العالم الثالث نقتنع بها عند النظر إلى أحوال المعسكر الاشتراكي ومقارنته بحيوية العالم الرأسمالي ومتأثرين بالسياسات الاجتماعية غير الإنسانية للرأسمالية والتطبيق الرأسمالي ولا سيما عندما كنا نتطلع إلى الممارسات الستالينية والوضع في المانيا الديمقراطية، وبولونيا، ودكتاتورية (شاوشسكو) في رومانيا التي كان نجيب يرفضها مهما قدم لها من أعذار وكان يضرب بها المثل في الحكم الجاهل، والإرهاب، والدكتاتورية، وإغفال حقوق الشعب والإنسان رافضاً بشدة وعنف تسترها بحجة الخطأ في التطبيق فقط!

الفصل الحادي عشر

رحم الله نجيب المانع فقد كان جبينه ينطوي على طاقة ذهنية وفكرية خارقة في سعتها وقوّتها وإحاطتها بلا تردد وتكلف واستعصاء.

لقد كان يكتب في نقد المواضيع في الأدب والموسيقى والمسرح والفنون كافة وفي تحليل النفس البشرية والغوص في خفاياها ومفاصلها وعقدها وكان يبعث بما يتمكن من إبداعه أو بطريق الترجمة إلى المطبعة رأساً سواء كان تأليفاً أو ترجمة لأحد أصدقائه محرراً إنتاجه من أعباء الإعادة والتبييض، وقد خلف لنا ثروة من الترجمات المطبوعة في لبنان وبغداد أو المنشورة كمقالات في الصحف منذ الستينات مع كمية فقيرة العدد من مسودات الرسائل ومشروعات المقالات وحبذا لو تسنى لأحد من آله أو أصدقائه أن يجمعوا لنا آثاره في مجموعة كاملة يمكن أن يستفيد منها

الجميع من جهة كما تعتبر تحية لنجيب في قبره بعد رحيله، ثم هي تكفير جزئي واعتذار لنجيب عمّا لحق به إلى أخريات أيامه حيث رحل حزيناً يأساً يعتقد أنه رحل عن هذه الدنيا ولم يحقق شيئاً الا التزامات معيشية أثقلت كاهله وقضت على أنفاسه بدلاً من آمال حقيقية كانت تراوده في أيامه الماضيات، وقد تكون جريدة الشرق الأوسط قادرة على أن تساعد في أن تحقق لنا هذه الأمنية.



القسم الرابع

علي السليمان البسّام

علي السليمان البسّام[1]

الفصل الأول

نشأت بلدة الزبير إلى الجنوب الغربي من البصرة القديمة التي بنيت في عهد الخليفة الثاني الإمام عمر بن الخطاب بما يناهز الخمسة عشر كيلومتراً بعداً إلى الغرب من شط العرب وهو نهر واسع العرض والعمق يتكون من التقاء نهري الفرات ودجلة في القرنة. ويسير إلى الجنوب مستهدفاً الوصول إلى الفاو مصب شط العرب في الخليج.

وكانت البصرة القديمة (سلف بلدة الزبير الحالية) من مراكز الثقافة واللغة والسياسة في المجتمع الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعهد العباسي الأول قد تكونت تدريجياً قرينةً ومناظرة لبلدة

---

(١) كنت قد كتبت عن المرحوم الحاج علي السليمان البسام مقالاً أدرجت فيه بعض المعلومات والمواد عن عائلة البسام ودورها في التاريخ العربي الحديث وشخصياتها المعروفة، وقد ساعدني في بعض المعلومات التي أوردتها في المقال ابن عمه (الدكتور أحمد إبراهيم البسام) أستاذ القانون التجاري في كلية الحقوق العراقية ببغداد سابقاً والمشاور القانوني للمؤسسة العامة للنفط في الكويت بعد ذلك، ولكن مسودة المقال فقدت مني أثناء إعادة طبعتها في بغداد، لذلك ولعدم وجود مصادر بديلة عن هذا الموضوع تحت يدي الآن، عن آل البسام، ودورهم في التاريخ الحديث في بلاد العرب في المشرق (الجزيرة والعراق والشام) ـ فإني أعتذر للأخ الدكتور أحمد إبراهيم البسام ـ لأن هذا الفصل بعد تحريره مجدداً قد اقتصر على الذاكرة فقط معتمداً الملاحظات القيمة للأخ أحمد البسام.

الكوفة التي أنشأها المسلمون في وسط العراق عاصمة لسواد العراق وقبائله وآدابه وعلومه، إلى جانب الحيرة. وواسط، وبغداد في العراق والفسطاط والقيروان في المغرب الإسلامي.

إن البصرة والكوفة قد كونتا بعد نموهما مدرستين ثقافيتين ولغويتين وفقهيتين متناضرتين ومتنافرتين للعلوم الإسلامية وعلوم الأدب العربي. ويسجل اختلافهما في اللغة والنحو والصرف والحديث والتصوّف والاتجاه الفقهي والديني ـ السياسي معالم بارزة في الفكر العربي كانت تزهر بأخبارها وخصائصها الحياة العربية في عصور الإسلام الأولى، وكان موقع الزبير قد تم اختياره في موقع استشهاد الإمام الزبير بن العوام ـ ابن عمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ـ في (حرب الجمل) التي اندلعت بقيادة الزبير وطلحة وعائشة زوجة الرسول وبنت أبي بكر الصديق ـ ضد الإمام علي بعد أن تولى السلطة في الدولة الإسلامية بعد مقتل الإمام عثمان بن عفان الخليفة الثالث في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة وبالتدريج أصبح ضريح الإمام الزبير جامعاً كبيراً ومركزاً لبلدة جديدة ومركزاً تجارياً وثقافياً ومحطة للقادمين من نجد عن طريق الكويت، وصحراء الدهناء إلى سواد العراق أو إيران، وما زالت أطلال سور جامع الإمام علي[1] في البصرة القديمة قائمة إلى الآن، بعيداً عن مساكن الزبير الحالية وعن بلدة الزبير (الجديدة) ببضع كيلومترات من جهة الشرق على طريق البصرة الحالية[2]،

(1) إلى يسار الطريق الذاهب إلى الزبير من البصرة وقرب مدينة الزبير الحديثة بما لا يزيد على الكيلومترين تقوم أنقاض بناء كبير على شكل أسطوانة مبنية بالآجر ـ يقال إنها بقايا منارة جامع الإمام علي في البصرة القديمة (الزبير). والأصح أنها بقايا ركن من أركان الجامع القديم أو أركان سور البصرة كما كان مبنياً في القديم، والمنطقة كما يبدو من الكم الهائل من بقايا الطابوق ومواد البناء القديمة فيها ـ منطقة أثرية غنية، ولا أدري إن كانت قد خضعت لعملية إعادة حفرها وتقييمها أثرياً الآن، على أن هناك كثيراً من الأقاويل والشائعات عن حفائر وقبور وجدت فيها لبعض الصحابة والتابعين من أيام الفتوح الإسلامية الأولى.

(2) البصرة الحالية يقع طرفها الغربي فيما يسمى (بباب الزبير) على بعد بضعة =

أما المربد[1] ومعالم البصرة الأخرى فأصبحت خارج الزبير الحالية وإلى الشمال الغربي منها لبضعة كيلومترات أيضاً.

لقد تطورت بلدة الزبير ـ كخلف للبصرة ـ لوقوعها في منعطف كمركز للمواصلات للذاهبين من الجزيرة العربية إلى شمالي العراق أو سواده، أو العابرين مستهدفين اختراق شط العرب إلى جنوب إيران، أو المسافرين من إيران والعراق إلى الجزيرة العربية والحجاز، فقد تطورت ـ اجتماعياً ـ منذ الفتح الإسلامي حيث تم تخطيطها وفقاً لتعليمات الإمام عمر وفق القبائل العربية التي سكنت فيها. وكان ازدياد الصراعات التاريخية حول منطقة الشرق الأوسط يزيد من أهمية هذا المركز لطرق المواصلات ولا سيما خلال القرن التاسع عشر حيث اشتد التنافس التجاري بين الدول الصناعية الاستعمارية على الهيمنة على مناطق الخليج والجزيرة العربية وطريق الهند وما أحدث ذلك من ردود أفعال تمثلت في حركات محمد علي الكبير وداود باشا في العراق، وفي الحركة الوهابية والاتجاه السلفي الذي مثلته

= كيلومترات من بلدة الزبير الحالية وقد كان «باب الزبير» يبدأ إلى الشرق في محلة القبلة وهو رأس البصرة القديمة من جهة الغرب، وقد تمت توسعة المنطقة وأضيفت إليها منطقة صناعية وأصبح رأس البلدة في الصحراء في عقدة المواصلات التي توصل بين طريق الزبير والطريق إلى بغداد.

(1) المربد: منطقة صحراوية تقع قرب بلدة الزبير الحالية الآن، وقد كانت سوقاً عامة تقام سنوياً على طريقة الأسواق القديمة قرب البصرة لتبادل المنتجات والأفكار والآداب والبيع والشراء وكان يحضره ـ لذلك الشعراء ورجال الأعمال والأدباء والنحويون ورواة الأخبار لعرض نتاجهم المادي والأدبي أيضاً كما كان يحدث أيام الجاهلية في مكة (قرب الكعبة) بسوق عكاظ، ويقع المربد الآن على الطريق غربي الزبير إلى مناطق حقول النفط في الصحراء والبرجسية، ويقام الآن في البصرة سنوياً تجمع شعري تدعو إليه وزارة الثقافة العراقية الشعراء في البلدان العربية المختلفة وتطلب اليهم أن يعرضوا نتاجهم وقصائدهم أحياء لذكرى وتقاليد المربد والبصرة، ولكي يقضي فيها الضيوف العرب أوقاتاً يحيون فيها ذكرى البصرة الإسلامية وبساتينها على ضفاف شط العرب ونخيله وبساتينه ومياهه ويقضون هناك أوقاتاً جميلة.

آراء محمد بن عبد الوهاب في الإصلاح الإسلامي ثم قادته العائلة السعودية، والتي حاربت منذ القرن الماضي (القرن التاسع عشر) في العراق بمهاجمتها القرى والمدن العراقية المشرفة على بادية الشام فنتحت بعضها كالنجف الأشرف وكربلاء ورجعت عن حصار الزبير والكبيسة (في لواء الدليم)[1].

يروي لنا المؤرخون أن الزبيريين دافعوا عن وطنهم الزبير ضد سلطة السلطنة العثمانية وولاية البصرة على الخصوص، كما كان لشيخ الزبير العربي البدوي دوره في تلك الأيام بما كان يتم من صراع في جنوب العراق وجنوب إيران في خوزستان حول الهيمنة والنفوذ عليها بين العثمانيين والفرس والعناصر العربية المحلية من عشائر المحيسن وتميم وغيرهما. وعلى كل حال فقد كانت الزبير في منتصف القرن التاسع عشر بلداً أساسياً على الحدود بين العراق ونجد على طريق الخليج وهو بلد إسلامي محافظ على تقاليده الإسلامية، تابع سياسياً لولاية البصرة العثمانية، وكانت الزبير تعتبر بلداً محافظاً ومن المناطق الرافضة للتجديد الديني والاجتماعي متمسكة باستقلال داخلي فعلي بقيادة شيوخها المحليين (شيوخ الزبير) وتبعيتها للسلطة الإسلامية العثمانية في ولاية البصرة ـ حتى

(1) الكبيسة: قرية قديمة إلى الغرب من بلدة هيت بحوالي العشرة كيلومترات، وهي قرية كانت تقع على طريق العراق إلى الشام وهو طريق صحراوي كان يتزود بالماء من عيون الماء على الطريق ويبدو أن أول عين في الطريق من العراق هو عين (المعني) الواقعة في الكبيسة والتي يتزود منها الكبيسيون وبساتينهم بالماء.

تسكن الكبيسة قبائل عربية مختلفة وينقسم أهلها حسب أنسابهم إلى عشائر متعددة وقد أخذ أهلها منذ الحرب العالمية الأولى يشتغلون بتجارة الأقمشة وأخيراً بصناعة النسيج اقتداء بأهل دمشق وحلب الذين يرتبطون بأهالي كبيسة بعلاقات وطيدة من المصلحة التجارية والمصاهرة.

يروي الكبيسيون أنهم قاوموا الحملة السعودية الأولى وأنقذوا بلدهم الكبيسة منها في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل التاسع عشر، والواقعة التي دارت بينهم وبين الجيش الوهابي محل فخرهم إلى الآن.

إن مشايخ الزبير المتأخرين من آل الإبراهيم وآل الزهير[1] وغيرهم ـ كثيراً ما أثروا في الأحداث الدائرة في المنطقة أو التي كانت تندرج تحت عنوان النزاع على الهيمنة القبلية بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية القاجارية والقوى الجديدة البريطانية والفرنساوية والهولندية (الأوروبية) وآل سعود أمراء الرياض وآل رشيد أمراء حائل من قبائل شمر، وأمراء الأحساء والبحرين والمحيسن وكعب في المحمرة بقيادة الشيخين مزعل وخزعل وآل الصباح في الكويت في الوقت الذي كان الاقتصاد النفطي تظهر تباشير استخدامه في الأسطول وفي طرق المواصلات التي تربط الغرب بالشرق آنذاك. وكثيراً ما عرج الشعراء البغداديون على شيوخ الزبير مادحين ـ على الطريقة الشرقية ويدلنا على ذلك ديوان عبد الغفار الأخرس[2] (الشاعر البغدادي الكبير في القرن التاسع عشر) والذي أرخ شعره لكثير من أحداث تلك الأيام.

ومنذ الحرب العالمية الأولى أصبحت الزبير مقراً لكثير من العائلات العربية النشيطة التي هاجرت من نجد والخليج بغية الاسترباح والمتاجرة مع العراق وأسواق الخليج والهند ممن كان يملك رأس المال المطلوب للاستيراد والتصدير إلى الأسواق العالمية في أوروبا والشرق الأقصى والتي كان استهلاكها يتوسع باستمرار في مناطق العراق والجزيرة العربية، كما تمتلك الخبرة المطلوبة لذلك، وذلك حتى الحرب العالمية الثانية حيث صارت منطقة الصحراء (غربي البصرة ـ أي منطقة الزبير) مثل المركز

(1) آل الزهير وآل الإبراهيم: من عوائل العرب القديمة تعود أصولهم الأولى إلى نجد وقد سكنوا البصرة وجنوب العراق وكان لهم دور ملحوظ في تاريخ الأحداث في القرنين الثامن والتاسع عشر وقد استشيخوا في الزبير وحكموها في تلك الأيام وما زال أبناؤهم في البصرة والكويت والمملكة العربية السعودية.

(2) عبد الغفار الأخرس: من أبرز شعراء العراق في القرن التاسع عشر كان يعيش في بغداد ويزور البصرة مادحاً وجهاءها ومؤرخاً لأحداثها ووقائعها ومفاخرها ومباذلها.

الخلفي الأساسي لتموين الجيش الروسي والجيوش الحليفة في الجبهة الروسية ـ من جهات الشرق الأقصى وبورما، باعتبارها قاعدة إمداد وتسويق كبيرة تحتوي على عشرات الألوف من الجنود والضباط الإنكليز والأميركان والهنود يعملون على إمداد الاتحاد السوفييتي والشرق الأقصى بالمعدات والمساعدات الغربية العسكرية عن طريق عبور شط العرب إلى الضفة الثانية حيث تمّ إنشاء (جسر هول)[1] العسكري على شط العرب لهذا الغرض ليربط عن طريق السكك الحديدية قاعدة الشعيبة[2] (قرب الزبير) بسكك حديد إيران الموصلة ـ إلى الاتحاد السوفييتي غربي وشرقي بحر قزوين والقفقاس وإلى بلوجستان فالهند من جهة الجنوب.

---

(١) جسر هول: جسر خشبي على شط العرب قريب للفندق الشهير ـ فيما بين الحربين العالميتين ـ المسمى بفندق شط العرب ومقابل مطار البصرة القديم في المعقل، لقد دقت الركائز الخشبية لجسر (هول) في بداية الحرب العالمية الثانية ـ ماعدا جزء صغير منه كان معداً لمرور السفن الصغيرة المتجهة بواسطة شط العرب من البصرة إلى بغداد في الشمال، حيث تمر تلك السفن في ساعات معينة بعد أن يرفع الجزء الذي يقابلها من الجسر وتمر البواخر خلاله آنئذ.

إن جسر هول ـ على ذلك يتكون من قسمين الأول مقابل فندق شط العرب شمالي المعقل يصل بين البر الغربي والفندق وبين جزيرة جانبية في شط العرب تسمى (أم الفحم) تقع في وسط شط العرب مقابل موقع المطار القديم (ويبدو أنها كانت في العهد العثماني مستودعاً للفحم) أما القسم الثاني فيربط بين جزيرة أم الفحم والجانب الشرقي من شط العرب.

إن جسر (هول) وهو مبني على اسم مهندسه البريطاني (هول) كان قد أعِد لنقل الجنود والأسلحة والذخائر من الإمدادات العسكرية الغربية للاتحاد السوفييتي ـ عبر إيران بعد عبور الحاجز المائي (شط العرب) أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب مع الجيوش الألمانية في أراضي الاتحاد السوفييتي في الشمال، عندما كانت جيوش الحلفاء تتدفق لمساعدته عبر طرق عديدة أحدها طريق جنوب العراق وجسر هول الذي كان يمر فوقه قطار يربط جنوب العراق بإيران.

(٢) الشعيبة: عقدة مواصلات في بادية العراق شمالي نجد غربي البصرة، كانت في الحرب العالمية الأولى نقطة تجمع الجيش العثماني والمجاهدين المسلمين من العرب والأكراد حيث انكسر الجيش العثماني، وانتحر قائده (عسكري بك)، =

لقد كان لتحشيد ألوف الجنود القادمين من أوروبا وأميركا في منطقة الشعيبة «قرب الزبير» وإعادة نشرهم في مناطق الحرب في أوروبا وآسيا وما يقتضيه ذلك من ضرورة تهيئة الخدمات التموينية والتعبوية لهم ـ الأثر الكبير في إحداث انعطاف اجتماعي واقتصادي في المنطقة كلها. وكنتيجة لاستمرار هذا الوضع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وثم الخلافات التي تفاقمت في بدء الحرب الباردة بين الحلفاء أنفسهم بعد انتهاء الحرب النازية عام ١٩٤٥، مما كان له أكبر الأثر في اهتزاز القيم الاجتماعية والاقتصادية العشائرية القديمة ـ قيم القرون الوسطى الإسلامية ـ وسيطرة القيم الجديدة المادية المتسقة مع الأوضاع والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة للوضع الدولي الذي عبرت عنه «قاعدة الشعيبة» وطريقة الحياة فيها، حيث نقلت مجتمع الزبير إلى مجتمع مادي عصري وما رافق ذلك من شيوع أوضاع وتصرفات وخلق ومبادئ تتناقض بالكلية وبسرعة، مع ما هو معروف ومتبع في نفس المنطقة من القيم البدوية المستقرة مدى قرون سابقة في مجتمع مثل مجتمع الزبير، مما مثّل ـ في الحقيقة ـ اختلالاً خطيراً في الأوضاع والبيئة الاجتماعية التاريخية التقليدية وفي سيرورتها وتقاليدها وقيمها المعروفة.

وفي مثل هذه الأوضاع والبيئة الاجتماعية ـ التاريخية المتسمة بالقبول بالتغييرات السريعة نشأ المرحوم علي سليمان البسام في بلدة الزبير وعاش

= وتقدم الجيش الإنكليزي لاحتلال العراق كما توطد احتلال البصرة. وبعد الحرب أقيمت قاعدة جوية ومعسكر هام بريطاني فيها، وفي الحرب العالمية الثانية أصبحت عقدة مواصلات وتموين هامة للجيش المحارب في روسيا والشرق الأقصى.

وقد أخذت القوات البريطانية قاعدة الشعيبة بموجب اتفاق مع العراق وسلمتها إلى الحكومة العراقية حيث أصبحت قاعدة جوية عسكرية تابعة للجيش العراقي، وتعتبر من أكبر القواعد العسكرية في شمال الخليج والعراق الجنوبي.

كانت الشعيبة من المواقع المعروفة شعبياً والهامة في الفولكلور الشعبي الإسلامي في أواخر الدولة العثمانية والعربية العراقية بعد ذلك.

فيها حياته كلها متقيداً بقيمها وتقليدها وأخلاقها وعاداتها وهمومها سواء كانت سلبية أو إيجابية. مما أدى إلى ضغوط نفسية وعصبية واجتماعية حاصرت الحاج علي سليمان البسام بنشأته المحافظة والبدوية التقليدية وأخلاقه فلم يستطع مجاراتها ولا مجابهتها وتجاوزها ومعالجة آثارها وعواقبها أو التغلب عليها، بل كان لها تأثيرها السلبي على ظروفه النفسية والصحية العصبية وعلى نوعية ردود فعله عليها.

آل البسام عائلة تجارية عريقة وواسعة الانتشار تنتشر الآن في نجد والحجاز ومصر ولبنان والعراق والبحرين والهند أيضاً، وهي عائلة منجبة لكثرة شبابها، تعود إلى عشائر بني تميم القديمة، وتميم من أقدم الاتحادات العشائرية العربية، وإن اسم تميم ودورها في الشؤون العامة من سياسية واقتصادية في الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد الشام والعراق معروف قبل الإسلام ومنذ عهد المناذرة والغساسنة، فمن المشهور ان الحاجب بن زرارة شيخ آل تميم قد قدم قوسه رهناً مقابل دخول الرعاة من بني تميم مع مواشيهم إلى سواد العراق ـ ضماناً للحفاظ على السواد وزروعه وحاصلاته وحيواناته وخيراته من أن يعبث فيها رعاة بني تميم، وإن كسرى أنوشروان قد قبل هذا الضمان على ضآلة قيمته احتراماً منه لصاحبه الحاجب بن زرارة وعشيرته بني تميم، وكانت تميم تفتخر بهذه الواقعة التي تدل على ما توليه إحدى القوى الدولية الكبرى (فارس وشاهها كسرى أنوشروان) لبني تميم وشيخها والعهد التميمي بغض النظر عن قيمته المادية كضمان على تنفيذ تعهد تميم وقد عبر الشاعر العربي الكبير أبو تمام في قصيدته الرائعة التي يمدح فيها أبا دلف العجلي وهي من غرر الشعر العربي في الفخر والتي مطلعها:

على مثلِها من أربعٍ وملاعبِ   أذيلت مصوناتِ الدموعِ السواكبِ[1]

---

(١) قصيدة الشاعر الكبير «أبي تمام» البائية في مدح أبي دلف العجلي، الشخصية العراقية المعروفة في زمانه:

على مثلِها من أربعٍ وملاعبِ   أذيلتْ مصُونات الدموع السواكبِ =

أقولُ لقرحانٍ مِنَ البين لم يضفْ   رسيسَ الهوى بينَ الحشا والترائبِ
اعنّيَ افرقْ شملَ دمعي فإنني   أرى الشملَ منهمْ ليسَ بالمتقاربِ
فما صارَ في ذا اليومِ عذلكَ كلهُ   عدوّيَ حتى صارَ جهلُك صاحبي
وما بكَ اركابي مِنَ الرشدِ مركباً   ألا إنَّما حاولتُ رشدَ الركائبِ
فَكِلْني إلى شوقي وسرْ يسر الهوى   إلى حَرَقاتي بالدموعِ السواربِ
أميدانَ لهوي مَنْ أتاحَ لكَ البلى   فأصبحتَ ميدانَ الصبا والجنائبِ
أصابتكَ أبكارُ الخطوبِ فشتتْ   هوايَ بأبكارِ الظباءِ الكواعبِ
وركبٌ يساقونَ الركابَ زجاجةً   من السيرِ لم تقصدْ لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغواربَ بالثرى   وصارتْ لها أشباحهُم كالغواربِ
يصرّفُ مسراها جزيلَ مشارقٍ   إذا آبهُ همٌّ عذيقُ مغاربِ
يُري بالكَعَابِ الرَوْدِ طلعةَ ثائرٍ   وبالعِرْمِسِ الوجناءِ غرةَ آيبِ
كأنَّ بهِ ضغناً على كلِّ جانبٍ   منَ الأرضِ أو شوقاً إلى كلِّ جانبِ
إذا العيسُ لاقتْ بي أبا دُلفٍ فقدْ   تقطَّعَ ما بيني وبينَ النوائبِ
هنالكَ تلقى المجدَ حيثُ تقطَّعتْ   تمائمُهُ والجودَ مرخى الذوائبِ
تكادُ عطاياهُ يجنُّ جنونُها   إذا لم يعوّذْها بنغمةِ طالبِ
إذا حرّكتْهُ هزَّةُ المجدِ غيَّرتْ   عطاياهُ أسماءَ الأماني الكواذبِ
تكادُ مغانيهِ تهشُّ عراصُها   فتركبُ من شوقٍ إلى كلِّ راكبِ
إذا ما غدا أغدى كريمةَ مالِهِ   هديا ولو زُفَّت لألأمِ خاطبِ
يرى أقبحَ الأشياءِ أوبةَ آملٍ   كستهُ يدُ المأمولِ حلّةَ خائبِ
وأحسنَ من نورٍ تفتحهُ الصبا   بياضُ العطايا في سوادِ المطالبِ
إذا أُلجمتْ يوماً لجيمٌ وحولَها   بنو الحصنِ نجلُ المحصناتِ النجائبِ
فإنَّ المنايا والصوارمَ والقنا   أقاربُهم في الروعِ دونَ الأقاربِ
جحافلُ لا يتركنَ ذا جَبريَّةٍ   سليماً ولا يحربنَ من لم يحاربِ
يمدّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ
إذا الخيلُ جابتْ قسطلَ الحرب صدَّعوا   صدور العوالي في صدور الكتائبِ
إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسِها   وزادتْ على ما وطّدتْ من مناقبِ
فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفكمْ   عروشَ الذينَ استرهنوا قوسَ حاجبِ
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها   محاسنَ أقوامٍ تكن كالمعائبِ
معالٍ تمادتْ في العلوّ كأنَّما   تحاولُ ثاراً عندَ بعضِ الكواكبِ
وقد علم الافشينُ وهو الذي بهِ   يصانُ رداءُ الملكِ عن كل جاذبِ
بأنكَ لما استخذل النصرُ واكتسى   أهابي تسفي في وجوهِ التجاربِ =

حيث يقول مخاطباً أبا دلفاء:

إذا افتخرت يوماً تميمٌ بقوسها   وزادت على ما وطّدت من مناقب
فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفُكمْ   عروش الذين استرهنوا قوسَ حاجب

كناية عن انتصار بني شيبان على الفرس في واقعة ذي قار التي حدثت في أوائل أيام البعثة النبوية والتي قال الرسول فيها (اليوم انتصفت العرب من العجم وبي نُصروا).

أما في التاريخ الحديث فإن لعناصر التجمع الكبير من بني تميم ـ دور ملحوظ في النزاعات القبلية الطويلة المدى بين آل سعود وآل الرشيد الشمريين من حائل. وفيما يتعلق بالعائلة الحاكمة في أبي ظبي يقال أن عائلة الشيخ زايد ـ تميمية الأصل أيضاً، ولبني تميم فرع في خوزستان أيضاً يرأسهم آل كنعان (جنعان) في جنوب شط العرب قرب المحمرة. وفي الكاظمية قرب هور عكركوف قريباً من حوض دجلة حيث يقيم الفرع الرئيسي من بني تميم إلى الآن من اتحاد عشائري برئاسة آل سهيل أبناء حسن وحسين وباقر الذين كان لهم قبل ثورة ١٩٥٨ مكانة ودوراً متميزاً في

= تجلـلـتهُ بـالـرأيِ حتَّـى أريتَـهُ   بهِ ملئَ عينيهِ مكانَ العواقبِ
بأرشقَ إذ سالت عليهم غمامةٌ   جرت بالعوالي والعِتاق الشوازبِ
سللتَ لهم سيفين رأياً ومنصلاً   وكلٌّ كنجمٍ في الدُجُنَّةِ ثاقبِ
وكنت متى تهززُ لخطبٍ تغشهُ   ضرائبَ أمضى من رقاق المضاربِ
فذكرُكَ في قلبِ الخليفةِ بعدها   خليفتك المقفى بأعلى المراتبِ
فإن تنسَ يذكرْ أو يقلْ فيكَ حاسدٌ   يغلْ قولُهُ أو تنأ دارٌ يصاقبِ
فأنتَ لديهِ حاضرٌ غير حاضرٍ   بذكرٍ وعنهُ غائبٌ غير غائبِ
إليكَ أرحنا عازبَ الشعرِ بعدما   تمهَّلَ في روضِ المعاني العجائبِ
غرائبُ لاقتْ في فنائِكَ أنسَها   من المجدِ فَهْيَ الآنَ غير غرائبِ
ولو كانَ يفنى الشعرُ أفناهُ ما قرتْ   حياضُكَ منهُ في العصورِ الذواهبِ
ولكنَّهُ صوبُ العقولِ إذا انجلتْ   سحائبُ منهُ أعقِبتْ بسحائبِ
أقولُ لأصحابي هو القاسمُ الذي   بهِ شرحَ الجودُ التباسَ المذاهبِ
وإنّي لأرجو عاجلاً أنْ تردَّني   مواهِبُهُ بحراً ترجّى مواهبي

قضاء الكاظمية وأراضيه الزراعية آنذاك، وكذلك فرعهم القديم في ديالى شرق بغداد ومن أبناء مشائخهم هناك المحاسب القانوني (هادي التميمي) صديقنا العزيز أستاذ علم المحاسبة في جامعة عمان (الأردن).

ويذكر المهتمون بشؤون الاستشراق في القرن الماضي والمكتشفون للصحاري والفيافي العربية ولا سيما الربع الخالي في جنوب الجزيرة أن المستشرق والرحالة والمؤلف البريطاني المعروف Doughty كان أول من تهيأ له ارتياد الصحارى العربية من الرحّالة والمكتشفين المستشرقين وكان ذلك بمساعدة من أحد مشايخ البسام التميمي وقد ذكر ذلك في كتابيه الموسوعيين الأول بعنوان: Notes of a visit to Inner Arabia- والثاني بعنوان Travels in Arabia Deserts الذين يعتبران من أهم المؤلفات الأساسية في علم الاستشراق في هذا الموضوع. وقد كان لعبد الرحمن البسام ابن المرحوم عبد الحميد البسام دور ومكانة معروفة كوجيه بغدادي قبل ثورة تموز سنة ١٩٥٨ حيث ورث عن والده وعن أمه وهي (فهيمة الزيبق) ـ وهي من خير النساء الكرخيات خلقاً وكرماً واحتراماً من كل الناس، وقد تمتع عبد الرحمن البسام بما كانت تتمتع به أمه وأبوه من الاحترام[١]، وقد سمعت أن الشيخ زايد آل نهيان شيخ أبو ظبي والإمارات العربية المتحدة، أو أحد أمرائها تعرّف على عبد الرحمن ومنحه الامتيازات في الإمارات العربية المتحدة وسجل باسمه بعض الأملاك في أبي ظبي من عرصات أو

---

(١) فهيمة الزيبق: من عائلة الزيبق الغنية والثرية في الكرخ كان لهم زقاق كامل يسمى (زقاق الزيبق) قرب محلة الشيخ بشار والشيخ صندل في الكرخ وقد توفي زوجها عبد الحميد البسام مستشهداً وهو منخرط في الجيش العثماني قبل الحرب العالمية الأولى في جهات شمالي العراق والأناضول، وولد لها عبد الرحمن البسام بعد ذلك، وهي خالة كل من خالد وعيسى وماجد وإبراهيم وعبد الملك ويوسف أولاد سليم الزيبق الساكنين في الرصافة في محلة رأس الساقية قرب جسر مود في دارهم التي اشتراها صبري طعيمه بعد ذلك، وقد كانت المرحومة فهيمة الزيبق مثالاً في الطهارة والكرم والمروءة والاحترام بين نساء الكرخ وتوفيت في أواخر الثلاثينات.

عمارات. وقد توفي الأخ عبد الرحمن البسام في آخر الثمانينات. وكان جاراً قديماً وصديقاً لي، كما كانت المرحومة أمه ترتبط بأمي برباط من صداقة وود متبادل، وكان ذلك سبباً في عطف المرحومة والدته فهيمة الزبيق علينا جميعاً، وكان للمرحوم عبد الرحمن البسام حصة في مقاطعتي الرضوانية وجرف الصخر على الفرات قرب مطار بغداد الدولي وقد استملكت أخيراً وتم بناء منتجع ريفي لرئيس الجمهورية العراقية فيها يمكن رؤيته من الطائرة القادمة من الغرب وكان الشريك فيها آل الباچچي قبل بناء قصر الرئاسة فيها.

أن علاقة الحاج محمد البسام، بالحركة الوطنية في دمشق بقيادة المرحوم شكري القوتلي وصحبه معروفة لدى الوسط السياسي السوري، كما أن علاقة الحاج محمد البسام بياسين الهاشمي معروفة أيضاً، ويقال أن المرحوم محمد البسام كان يسكن دمشق ويتصرف كقدماء المشايخ الأعراب مدفوعاً بالدوافع الوطنية والقومية الإسلامية في تبني الحركة الوطنية السورية ومساعدتها كما كان لآل البسام دور في التجارة والعلاقات الاجتماعية والإحسان ومساعدة الفقراء لا سيما النجديين الساكنين في مناطق الكرخ. أما في البصرة فقد كانوا إلى ما بعد الخمسينيات يقيمون بأعداد كبيرة في الزبير ويعملون بالتجارة ويسيطرون على السوق والنشاط التجاري استيراداً وتصديراً للحبوب والتمور (وكانت تجارة الفصم وهو نوى التمر ويستعمل كعلف حيواني في أسواق الخليج وأفريقيا يسيطر عليها الحاج عبد الله البسام) أما استيراد السكر والشاي والأقمشة وبقية البضائع فكان أبرز بيتين تجاريين يعملان فيها هما (شركة عبد العزيز البسام وأولاده ـ عبد الرحمن وعبد الله وخالد البسام) حيث مكتبهم بارز في بداية سوق التجار مع أبيهم الحاج عبد العزيز البسام، وكان لهذا البيت فرع في الهند في بومباي يعمل فيه كل من عبد الله وعبد الرحمن ويتعاونان مع صهرهما التاجر المعروف (القاضي) في الهند.

أما البيت التجاري الثاني من آل البسام فهو بيت صالح البسام والد الأخوين عبد الله وعبد العزيز اللذين كانا يديران محلاً تجارياً في البصرة

وفي بومباي أيضاً باسم (عبد العزيز العلي البسام) وأظن أنهما قد فتحا محلات في البحرين أيضاً، وكان عبد العزيز الصالح البسام يدير مكتب البصرة بالاشتراك مع المرحوم عبد المحسن الربعة وهو معروف بحبه للحياة العصرية وأناقته وشهامته كما هو معروف بسيارته الفارهة المستوردة خصيصاً وهو من أجمل وأكمل العرب شكلاً وخلقاً، وكانت تربطني به صداقة وطيدة وقد انقطعت علاقتي به ولم أره منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ولا أدري أين يقيم الآن وإن كنت سمعت عنه إنه يقطن لندن.

كانت لعبد العزيز الصالح البسام دار على نهر العشار في البصرة كنا كثيراً ما نتناول في فنائها الأرضي الداخلي غداءنا لبعدها عن الشمس الحارة القائظة في صيف البصرة، وهناك نتناول المرطبات وكان جليسنا هناك الشاعر الشعبي الزبيري (سويلم)[1] المشهور بالشعر والنكتة وكان من

---

(١) سويلم: شاعر شعبي ومحدث ومنكت وشخصية اجتماعية خفيفة الظل في أجواء البصرة والزبير والكويت قبل الستينيات من هذا القرن (القرن العشرين)، كان يعمل بتربية طيور الصيد (الصقور) وبيعها لشيوخ البحرين في الإمارات المتصالحة آنئذ وقطر والبحرين بعد تدريبها على الصيد وتكبيرها. وكان لذكائه وخفة روحه ينظم شعراً شعبياً نبطياً باللهجة الزبيرية في الغزل والسياسة والفكاهة والإخوانيات ويخلط شعره بروايات واقعية محببة ولا سيما في مروياته عن مسائل الجنس بالنسبة للشبيبة والمتزمتين ومن قصائده في السياسة الاقتصادية قصيدة مشهورة بعد الفقر الذي أحاق بجنوب العراق عقب التضخم والغنى أيام الحرب ومطلعها:

وين فضتنا وذهبنا

وقصيدته التي نظمها يشجب بامرأة من سواد العراق أحبها وأصبح شيعياً ـ على مذهبها ـ ثم خاصمته فرجع عن مذهبه الشيعي وقال:

على عنادك صِرتِ سِنيّ   زوري أنتِ الحَسَنْ عني

وقصيدته التي يهجو فيها ويلوم مجيدَ الشيخ خزعل لأنه لم يسدد له ثمن (صقر) صياد باعه إليه ومطلعها:

أبو نادر ولد خزعل مجيد

وغير ذلك من القصائد المشهورة.

لقد كان الوصي على عرش العراق عبد الإله بن علي الهاشمي ممن يصغي إلى =

المعجبين بخفة روحه وبشعره ونكاته المرحوم الوصي على عرش العراق عبد الإله بن علي[1]، والمرحوم سعد عمر العلوان[2] وزير المعارف السابق آنذاك.

الفصل الثاني

لقد ولد المرحوم علي سليمان البسام في أوائل القرن العشرين ـ إذ لا أعرف تاريخ ولادته بدقة، وكان لأبيه ولعمه المرحوم إبراهيم مكانة ونفوذ كبيران في الزبير والبصرة، ولكنهما ـ لم يكونا ـ سياسياً على وئام مع آل سعود لعلاقتهما الجيدة مع آل رشيد مشايخ حائل فلما تغلب آل سعود على حائل وآل رشيد فيها ـ أدى ذلك إلى تعرض نشاط البسام في البصرة لمصاعب جمة ويقال أن قوافلهم في الجزيرة تعرضت للمصادرة مما أدى إلى سكن الحاج إبراهيم في محلة القبلة في البصرة منصرفاً إلى إدخال

= سويلم الشاعر ويحب أن يسمع أشعاره ونكاته، كما أن سعد عمر العلوان وزير المعارف الأسبق كان يحبه ويستمع إليه، وإلى نكاته الجنسية المطبوعة بالسذاجة وروح البداوة، وله علاوة على ذلك قصائد سياسية واجتماعية وأقاويل مشهورة وكنت كثيراً ما أجتمع به في بيت عبد العزيز صالح البسام في البصرة على نهر العشار.

(١) عبد الإله: هو ابن الملك علي (الابن البكر) للحسين الهاشمي تربى مع أبيه وجاء الى العراق مع الملك فيصل وأصبح بعد وفاة غازي وصيّاً على عرش العراق أي على ابن أخته فيصل الثاني، وقد قتل معه في قصر الرحاب في ١٤ تموز ١٩٥٨.

(٢) سعد بن عمر العلوان: من وجهاء كربلاء في وسط العراق وقبائلها المعروفين. تخرج من كلية الحقوق سنة ١٩٤١ وفي الخمسينيات صار وزيراً للمعارف أكثر من مرة ثم توفي إلى رحمة الله، وكان شخصية مثقفة معروفة بالتماسك وقد صار في أواخر أيامه في الخمسينيات ـ قبل ثورة تموز ـ في جانب الأحزاب والحركة الوطنية وقريباً من جماعة الجبهة الشعبية كما كان معروفاً بأنه شخصية اجتماعية متذوبة بالناس وبالمجتمع العراقي وتقاليده فوق اتجاهاته الوطنية باعتباره من الشباب السياسيين في تلك الأيام.

أولاده عبد العزيز وعبد الله وعبد الرحمن وأحمد في مدارسها لأجل إكمال دراستهم وإلى ترك مهنة النقل على الجمال حيث كان آل البسام يحتلون مركز الناقلين الكبار الأوائل على قوافل الإبل بين بلدان الشرق الأوسط، الحجاز ونجد والشام ومصر والعراق.

لقد درس أولاد المرحوم إبراهيم في المدارس الحكومية وتخرجوا من مدارس العراق والجامعات المصرية والغربية، أما سليمان فقد توجه ولده علي إلى دراسة علوم المادة الإسلامية في مدارس الزبير الدينية ودرس بعد حفظ القرآن ـ النحو والصرف والبيان والبديع وشواهد اللغة والفقه وأسباب النزول والتفسير والقراءات والتاريخ الإسلامي وتاريخ العرب ووقائعهم ومآثرهم وأنسابهم، وتاريخ النبط واللَّهجة النبطية وهي العربية العامية في شمالي الجزيرة والغزوات ووقائع العشائر العربية، ومآثر العرب وسلوكهم ومفاخرهم وعاداتهم وأهاجيهم وموروثهم الفولكلوري، علاوة على الحديث النبوي الشريف وعلوم القرآن وكل ما يتعلق بالتقاليد والقيم الإسلامية وبالآداب والشعر والأخبار الزبيرية، كما اهتم المرحوم علي بالشعر العربي التقليدي واستظهر لغالب الشعراء العرب من قدماء ومحدثين اعتباراً من أوائلهم في عهد المهلهل وأصحاب المعلقات إلى ما حفظ عن الشاعر كاظم الدجيلي ومحمد بهجت الأثري إلى الزهاوي والرصافي والشعراء المصريين، وكان رحمه الله معجباً بالمرحوم معروف الرصافي وديباجة شعره العربية الناصعة ورجولته البغدادية وفخره وتغنيه بالعزة البغدادية والكرامة والخلق الرفيع والإباء والترفع واحتقار سفلة الناس من ذوي الخصال الذليلة في كثير من شعره الذي استمر مسموعاً ومجلجلاً في الوسط العراقي طيلة نصف قرن تقريباً بين ١٩٠٠ إلى ١٩٤٦، وقد تعرف المرحوم علي البسام على الرصافي في مقهى الأعظمية التي كانا يجلسان سوية فيها، والحقيقة أن هناك العديد من قصائد المرحوم الرصافي وموضوعاته التي نظم فيها ملاحمه ـ إنما فتح عيني عليها المرحوم علي البسام لكثرة ما رددها واستشهد وتغنى بها ليل نهار وفي شتى المناسبات ومن ذلك قوله:

لـمّـا تَـكَـرَّهـنـي الأراذل سـرنـي | إنـي إلـيـهـم ـ يـا أميـم بـغـيـض
كـم مُـدّعٍ دعـواي فـي وطـنـيـة | أنـا كـنـت أبـنـيـهـا وكـان يـقـوض
من كـل عـبـد فـي السـيـاسة باعـه | وشـراه هـذا الـدرهـم الـمـقـبـوض

أو قوله في إحدى قصائده:

وتـكـره نـفـسـي كـل عـبـد مـذلـل | وقد كرهت حتى الطريق المعبدا

أو قوله في إحدى قصائده أيضاً:

إلـيـك إلـيـكِ يـا بـغـداد عـنـي | فـإنـي لـسـت مـنـك ولـسـتِ مـنـي
ولـكـنـي وإن كـثـر الـتـجـنـي | يـعـز عـلـي يـا بـغـداد إنـي
أراكِ عـلـى شـفـا هـولٍ شـديـد

تـتـابعت الـخـطـوب عـلـيك تـتـرى | وبُـدّل مـنـك حـلـو الـعـيـش مـرّا
فـهـلا تـنـجـبـيـن فـتـى أغـرا | أراك عـقـمـت لا تـلـديـن حـرا
وكـنـت لـمـثـلـه أزكـى ولـود[1]

أو قوله في رثاء شكري الألوسي (أستاذه والعالم البغدادي الكبير) وهي من الشعر البغدادي في ديباجته ومعناه:

أي نـعـم حـقـاً نـعـم جـزمـاً نـعـمْ | إن مـحـمـود بـن شـكـري شـهـمـهـم

وغير ذلك من شعره الجزل في صديقه عبد المحسن الفهد السعدون أو مجيد بك الشاوي أو غيرهما من وجهاء بغداد في عهده.

---

(١) عبد الله مرجان الريحاني: محامي من البصرة أبوه الحاج مرجان الريحاني كان مختاراً لمحلة القبلة ويبدو أنه كان له علاقة بآل النقيب وهو أفريقي الأصول أسمر اللون وكان من الناس السمحين الطيبين، وكان المرحوم الحاج علي البسام يمازحه كثيراً ويستشهد به كمثال لمن يسميهم (بالعبيد) أو خضير، وكان عبد الله ممن يقبل مزاح الحاج علي البسام الذي قد يبلغ حد التقريع الشديد فيه وفي محام آخر هو محمد أحمد السواحة من الزبير قال المرحوم أبو سليمان علي البسام ممازحاً:

مـا بـيـن مـرجـن والـسـواحـة | لـم يـبـق لـلـحـكـام راحـة

الفصل الثالث

في مشارف التوسع الاقتصادي في الزبير نتيجة الحرب العالمية الثانية ونتيجة حشد الجيوش الحليفة التي تجمعت في معسكر الشعيبة والتعزيزات العسكرية المعدة لمساعدة الاتحاد السوفييتي في الشمال والشمال الغربي والجيوش البريطانية في بورما والهند والمشرق الأقصى، ثم نتيجة تنامي الاستهلاك النفطي في العالم الصناعي بوتائر عالية ومستمرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين وأثر ذلك على إنتاج النفط في البصرة والجزيرة العربية وإيران والكويت.

وأثر هذه التوسعات الاقتصادية ومواردها النقدية على المجتمع الزبيري المحافظ والرجعي والضيق ـ مما لم يستطع الشيخ المرحوم علي سليمان البسام ـ نفسياً ـ وهو الإنسان الحساس المرهف الذكي ـ أن يتحمل الآثار الشخصية والاجتماعية لهذه التطورات غصباً، وأخذ يفسر هذه الآثار بشكل عاطفي غير منطقي، ويحلل أسبابها باللجوء إلى موروثاته ومعتقداته البدوية الإسلامية المتحدرة عن بيئته النجدية والحياة فيها ـ تلك الموروثات التي تتلخص بأن البشر يتحدرون ـ عرقياً ـ من أصلين متميزين كما هم متمايزين اقتصادياً في الأصل، العرق الأول هم (شيوخ الأصل) والثاني هم (عرق الخضير)[1] من الخضرة أي الزراعة، ويبدو أن شيوخ

---

(١) خضير: إسم للطبقة الاجتماعية الثانية في مجتمع طبقي بدوي هو المجتمع العربي القبلي حيث يحتل (شيوخ الأصل) وهم أفراد العشائر الأولين من [illegible] والمعارك الحربية المرتبة الأولى في المجتمع ويكونون الأرستقراطية فيه ثم يجيء بعدهم (خضير) المشتغلون بالأعمال اليدوية كالزراعة والخضرة و[illegible] أصول هؤلاء من الرقيق والأسرى من غير العرب كالإفريقيين و[illegible] يسميهم العرب بـ (العبيد) أو (الحمر) كناية عن ألوانهم التي يغلب عليها [illegible] الحمرة في الغالب.

إن لمعاملة (خضير) تقاليد وأعراف ملزمة بشدة في البادية وهي مما لا [illegible] عنه من قبل المجتمع هناك وكثيراً ما استهل المجتمع البدوي [illegible]

الأصل هم الوجهاء في المجتمع البدوي المشغول بالنزاعات والغزو العشائري وبالسلب والنهب المشروعين ـ عرفاً ـ في ذلك المجتمع ووفقاً لعاداته وعرفه العشائري، ويبدو أن شيوخ الأصل هم سُلالة من كان يشتغل بالنزاعات القبلية والغزو والحروب من أبناء ومواطني العشيرة. أما العمل بالزراعة والصناعة فكانت من المهن التي تركها أبناء العشيرة يمتهنها الخدم والأسرى والمماليك من (العبيد الأرقاء) في المجتمع العشائري القبلي البدوي، وما زال ـ وإلى عهد قريب ـ يعتبر في أرياف العراق عيباً امتهان الزراعة أو الصناعة لا يجوز لأبناء العشائر وشيوخهم ومحترميهم أن يقوموا به.

ويروى أن الوالي مدحت باشا ـ حوالي سنة ١٨٧٠ في بغداد، وقد كان والياً مصلحاً كان ينفذ مشروعاً لتوطين العشائر الرحل وتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة ـ قد عرض على المرحوم الشيخ فرحان باشا (شيخ شمر) وهو شيخ متعلم في الإستانة وقارئ للقرآن وعارف بالسنة النبوية ـ وليس إعرابياً بدوياً متعصباً أن تخصص الحكومة لقبائل شمر العمل في زراعة المقاطعة المسماة (الفرحانيّة)[١]، على أن يسكنوا فيها فرفض الشيخ فرحان ذلك مجيباً بقوله المشهور للوالي مدحت (آل شمر يرفضون أن يكونوا بقالين) (بجاجيل)، وإن كان هذا الاتجاه قد خفت حدته نتيجة التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي في الحقب الأخيرة[٢] وقد استعاد المرحوم الحاج علي البسام في النصف الثاني من القرن العشرين في المجتمع القريب من معسكر الشعيبة، وشركات النفط، ومطار البصرة ـ هذه النظرة

= مقابل أي إخلال أو تحوير بهذه القواعد.

(١) الفرحانية: مقاطعة زراعية قرب بغداد أقطعها بالطريق القانوني الوالي مدحت باشا إلى الشيخ فرحان الجربة شيخ شمر باعتبارها أرضاً أميرية وكان يضرب بها المثل في الأرض الغنية في بغداد في العهد العثماني.

(٢) لم تزل في بعض الأوساط العراقية هذه التقاليد معروفة من الناحية النظرية وإن كانت عملياً ـ وبفعل التطور الاقتصادي وغلبة المادية وارتفاع أسعار المزروعات والمصنوعات قد تلاشت من معيار القيم المعروف الآن.

الموروثة عن القرون الوسيطة وعن السلف من بدو الجزيرة والأعراب ومن الفيافي والصحاري العربية وظروف الحياة الصعبة فيها.

فأخذ يعتقد بوجود هذا الفاصل العرقي العدائي بين (شيوخ الأصل) وبين (خضير)، وهو فاصل لا يستطيع أن يجمع، بل يديم ويشجع تناقضاً عدائياً بين الفئتين يوجب على «شيوخ الأصل» ـ وهم الأقلية المحسودة دوماً ـ أن يتنبهوا إليه وأن يستعدوا للمجابهة بتكوين عصبة متحدة ومتفرغة حفاظاً على أنفسهم ومصالحهم وشرّفهم تكون درعاً لهم عما تنطوي عليه دسائس «خضير» من المؤامرات والعدوان الدائم. أما النظر إلى هذا التناقض نظراً حيادياً موضوعياً متمسكاً بموقف الدين الإسلامي، عندما لم يفضل عربياً على أعجمياً إلا بالتقوى وساوى بين الناس وحرم التمايز بينهم، فهو من باب التآمر الذي تقوم به (خضير) لكي ينام الشيوخ على التواكل والكسل ولكي تنطلي عليهم مؤامرات خضير وألاعيبها، وكان المرحوم علي ـ كثيراً ـ ما يناقش موقف الدين الإسلامي وقول الرسول بأن لا فضل إلا بالتقوى ـ بأن هذا هو الموقف في الدار الآخرة ويوم القيامة. أما في هذه الدنيا فإن الإسلام فضل الناس بعضهم على بعض في الرزق والمكانة والفضل، ومايز بينهم على أساسات عدة بأن جعلهم شعوباً وقبائل عديدة.

ولوجود المحكمة التي كانت تفصل في كثير من النزاعات التي يعتبرها المرحوم علي من مظاهر النزاع بين الشيوخ وبين خضير ـ فقد كانت المحكمة دوماً قريبة من المرحوم علي وهو المحل الذي كان يجد فيه المرحوم علي قضاة وحكّاماً يلجأون إلى تطبيق القانون والمحاججة القانونية والمنطق والشرعية، وكان الكثير من قضاتها ومحاميها أصدقاء للمرحوم علي ومن مستمعيه الجيدين ومناقشي آرائه، وقد اعتقد تدريجياً بالسوابق والتجربة إنّ المؤامرات إنّما تحاك على الناس في المحاكم بمعونة من شهود الزور ومن المحامين الذين يشاركون (خضير) في مؤامراتهم في حظر سلاح الشيوخ في المحكمة (دار العدل).

ومن الجدير بالذكر فقد كان المرحوم علي يوجّه في رسائله التي يعنونها إلى أصدقائه، مذكّراً إيّاهم ومطالباً ملحّاً في طلبه بأن يكونوا متنبهين يقظين ليسوا بالكسالى أو حسني النية ممّن يمكن خداعهم بألاعيب (خضير) وكثيراً ما وجّه التحذيرات منبّهاً أصدقاءه من القضاة والمحامين ـ علاوة على أقاربه من الشيوخ وأهالي الزبير الذين كان يشتدّ عليهم بالتقريع واللوم، وأذكر دوماً ملازمته مكاتب المحامين الأخوة عبد الله يوسف الإسماعيل[١] وحسن عبد الرحمن[٢] وعبد الرحمن العمر[٣] وكتابة الرسائل إليهم بوجوب الحذر واتخاذ الحيطة مستشهداً بمقتطفات من آيات القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الحكماء والشعراء والأمثال العربية، وأذكر أنّه جاء مرة إلى مكتبي بالمحكمة عجلاً، وعصبياً وقال: (لقد رأيت ـ تحت ـ في فناء المحكمة جمعاً من المحامين محيطين وملتفّين حول عبد الله الريحاني وهو يحاول خداعهم فقلت لهم: اسمعوا أيها المحامون:

كأن الأسود اللابي فيكم   غراب حوله رخم وبوم

وبذلك أهنتهم جميعاً بما يستحقون لقبولهم أن يخدعهم عبد الله

---

(١) عبد الله يوسف الإسماعيل: هو المحامي والوجيه البصري المعروف من عائلة من أهالي قرى النخيل في جنوبي البصرة في أبي الخصيب يرتبط برباط المصاهرة مع آل السنوي من الأسر البغدادية. تخرج من كلية الحقوق ببغداد في أواخر الأربعينيات وكان يعمل إلى الخمسينيات في مكتب واحد مع المرحوم الأستاذ عبد الرزاق الحمود في المحاماة ثم استقل بمكتب وحده عندما سافر المرحوم عبد الرزاق إلى السعودية، وكان ممثلاً لآل الصباح وكثير من أهل الكويت في إدارة أملاكهم في البصرة، وهو رجل مشهور بالرضى والسمعة الطيبة والأمانة والصدق.

(٢) المحامي حسن عبد الرحمن: محام وسياسي وشخصية اجتماعية محترمة في الخمسينيات، استوزر للشؤون الاجتماعية في عام ١٩٥٤ بوزارة الدكتور محمد فاضل الجمالي. أنظر الحواشي في كتابنا (شخصيات نافذة).

(٣) عبد الرحمن العمر المحامي: من أهل أبي الخصيب وشريك الأستاذ حسن عبد الرحمن في مكتبه، ملاك نخيل وعقار في البصرة وأبي الخصيب. أنظر الحواشي في كتابنا (شخصيات نافذة).

الريحاني) (والمحامي عبد الله الريحاني من أصدقائنا الطيبين كان أسمر اللون وممن لا يحبهم الحاج علي).

وكان الكثيرون من المحامين والقضاة يتقبلون بأسى تقريع المرحوم علي البسام وذلك احتراماً له ولعائلته من آل البسام ولكرمه وأدبه وسعة اطلاعه على أدبيات العرب في عصره وفي العصور العربية الأولى، وكان على هذا الحال ينزل من الزبير إلى المحكمة في البصرة كل صباح في غاية الخفة والنشاط والهمة رافعاً مصحفاً صغيراً في يمناه محذراً ونذيراً لجماعة أصدقائه وأنصاره وأقاربه من محامين وقضاة ووجهاء ومقرّعاً الآخرين من العبيد وخضير وغيرهم.

الفصل الرابع

لقد توطدت الصداقة بيني وبين المرحوم علي السليمان البسام حتى كان يقضي يومه في مكتبي في المحكمة ـ محكمة بداءة البصرة ـ ويضع عباءته أو حاجاته الأخرى عندي إذا اضطر للذهاب إلى محل آخر أو صديق آخر، وفي كل جمعة كان يزورني صباحاً في داري بالعشار ـ إذ تكون المحاكم مغلقة آنذاك. وكان يرسل لي الرسائل بصفة مستمرة ويسلمها لدي، وحتى بعد انتقالي إلى بغداد وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كان مستمراً على الرسائل المحذرة لي ولأقاربه وأصدقائه من شيوخ الأصل من دسائس «خضير» وألاعيبها. وكنت قد طلبت إليه ـ أكثر من مرة ـ أن يجيء لزيارة بغداد فكان يعتذر بأنه إنما لا يستطيع مغادرة البصرة وتركها ـ إذا اتفق (شيوخ الأصل) وقدموا ما يدل على تنبههم للمؤامرات التي تحاك ضدهم وقاموا (بقتل الحية ودفنها مع ذيلها) ـ كناية عن بيت الشعر العربي الشهير:

(لا تقطعن ذَنَب الأفعى وتتركها   إن كنت شهماً فالحق رأسها الذنبا)

وتحريضاً على ضرب خصومه من «بني خضير» ضرباً نهائياً وكبتهم والانتصار عليهم.

وكنت أثناء زيارة البصرة بعد أن انتقلت إلى بغداد أقوم بزيارة الحاج علي في داره في الزبير حيث يعيش في دارة رجالية (ديوانية) منعزلة عن حرم الدار، وكنت أشرب معه الشاي الذي يسميه (الشاهي) ويعدّه على الحطب في داره ويشربه مع الحليب الذي يتركه على النار يغلي إلى أن يتبخر معظمه، فيقدمه مع البسكويت والبرتقال ويجلس القرفصاء أمام نار الحطب لتقديم هذه الوجبة اللذيذة.

وأذكر مرة أنه قال لي في الصباح عند مجيئه من الزبير أنّه جاء مع أحد وجهاء الزبير الذي قال له يا أبا سليمان ما هي القصيدة التي يقول فيها الحطيئة مادحاً جماعة من ممدوحيه العرب:

حشد على الحق عيافو الخفا أنَفٌ إذا ألمت بهم مكروهة صبروا[1]

وكان الزبيري الوجيه يريد الإشارة إلى أنه وجماعته يستحقون هذا المديح، وقال المرحوم علي الذي كان لا يستسيغ هذا الموقف المتعجرف؛ بأني أجبته بأن هناك رواية أخرى للبيت يا حاج:

وهي:

حشد على الزك رواد الخنا خنثٌ إذا ألمّت بهم مكروهة ضرطوا

فماذا تفضّل؟! فسكت الزبيري الكبير ولم يستطع له جواباً[2].

كان الحاج علي سليمان البسام ـ أول ما التقيت به في أواخر الأربعينيات رجلاً كهلاً أسمر البشرة ممشوقاً كالسيف ـ لا يزيد وزنه على الأربعين كيلوغراماً ـ نظيف البشرة حليقاً نظيف الثياب يرتدي اللباس

(١) البيت من مقطوعة رائعة للشاعر الحطيئة.

(٢) لقد صدّر المرحوم علي البسام الشطر من بيت الشعر الذي يقول مادحاً «حشد على الحق» بشطر يقول فيه المرحوم علي مستهزئاً (حشد على الزك) (رواد الخنا جِيَفٌ) والزك هو الخراء في اللهجة البصرية (وإن ألمت بهم مكروهة ضرطوا أو سلحوا) بدلاً من (إن ألمت بهم مكروهة صبروا) كما جاءت للحطيئة في الأصل.

العربي التقليدي (دشداشة أو جلابية بيضاء من الحرير، وعباءة خفيفة ثمينة من صنع العراق يدوية الصنع مع عقال وكوفيه بيضاء من الحرير أيضاً)، وكان يكثر الحديث عن طعامه الخفيف ومشروباته القليلة مقارناً بين نشاط الأعراب والبدو الزاهدين في الطعام وبين كسل الفلاحين المتحضرين المتأنقين في مأكولاتهم من اللحم المشوي والبيض المقلي والأجبان المنوعة والمربيات والزبد متعجباً لهؤلاء المتأخرين كيف يستطيعون الحراك أو حتى التأمل والتفكير والعمل بعد أن يملأوا بطونهم في فطور الصباح بهذه الأنواع الثقيلة من المأكولات وكان رحمه الله يكرر دوماً البيت العربي الشهير:

أضحي فلا أبدي إلى الماء حاجةً واصبر عنه مثلما تصبر الرُبُدُ

والربد بمعنى الأفاعي في هذا البيت.

الفصل الخامس

لقد كان المرحوم الحاج علي البسام يقضي أمسياته ـ بعد عودته من محكمة البصرة ـ في مجتمعات الزبير ومجالسها (دواوينها)، حيث كانت العوائل الزبيرية تجلس لاستقبال الزوار بعد صلاة العصر كل يوم ـ على العادة العربية وكان المرحوم الحاج علي يجد سروره في زيارة جمعية الإصلاح الاجتماعي حيث يقع مقرها في قلب الزبير وفي مدخل السوق الرئيسي فيها، لكي يلتقي بأصدقائه رئيس الجمعية وأعضاء إدارتها، وكان رئيسها الحاج عبد الرحمن العودة وأعضاء مجلسها جميعاً من أصدقائه يذكرهم دوماً بالمحبة والمديح والخير، وكان يمدح ـ على الخصوص ـ الحاج عبد الرحمن العودة لأنه كان يدعو إلى المساواة بين عموم المسلمين (الشيوخ وخضير) ويساهم في كل ما يبعد الناس عن الاختلاف والمجابهة وكثيراً ما كان يقضي أوقاته بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء في بيوت الوجهاء الزبيريين مثل بيت العقيل والصوالح والقضيب وغيرهم، أما الصباح ـ فقد كان المرحوم علي البسام يقضيه مع أصدقائه من الحكام

(القضاة) لا سيما المرحوم مصطفى علي[1] نائب رئيس محكمة استئناف

---

(١) مصطفى علي: هو الأستاذ الأديب والقاضي والشخصية الاجتماعية المعروفة في الأوساط البغدادية منذ أواسط العشرينيات إلى أوائل الستينيات من القرن العشرين، وشارح ديوان المرحوم معروف الرصافي في عقد السبعينيات عندما قامت وزارة الإعلام بطبع ديوان الرصافي. وقد توفي المرحوم الأستاذ مصطفى علي في أواخر الثمانينيات في داره (شارع الكندي بالحارثية) في منطقة المحامين والقضاة.

كان المرحوم مصطفى علي تقدمياً حقيقياً، دخل باندفاع كل المعارك الاجتماعية والفكرية والسياسية بين الرجعية والتقدمية منذ تشكيل الحكومة العراقية الملكية حتى إعلان الجمهورية سنة ١٩٥٨ فكان مع الشعب في معركته ضد الاستعمار البريطاني وأعوانه منذ ثورة العشرين وبعدها مع السفوريين في معركة السفور والحجاب في الثلاثينيات وفيه يقول الشاعر الكرخي وقد كان حجابياً:

وين البشر مصطفى الماي بالجرة صفى
عم السفور، الشرطفى بشراك صارت واقعة

كما كان مع الأحزاب التقدمية المدافعة عن مصالح العمال والفلاحين والفقراء في المعركة الاجتماعية بين الأغنياء والكادحين، ثم مع العهد الجمهوري وثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأصبح وزير العدل فيها اعتباراً من صبيحة إعلانها، ثم مع قوى الثورة التقدمية عندما حصل الخلاف بين الأطراف الوطنية ومع الأكراد والسلم في كردستان لما قام الخلاف مع المرحوم عبد الكريم قاسم ونشبت الثورة في كردستان.

لقد كان المرحوم الأستاذ مصطفى علي قريباً إلى عبد الكريم قاسم وتوجهاته التقدمية ثم أصبح معارضاً - تدريجياً - تبعاً لنجاح الضغوط الموجهة إلى قاسم. حتى أصبح معارضاً في مجلس الوزراء ثم استقال ووقع مع شخصيات وطنية أخرى على مطلب (السلم في كردستان). وقد رأيت المرحوم عبد الكريم يستقبله بحفاوة واحترام كبيرين ليلة الثامن من شباط ١٩٦٣ (أي في آخر ليلة للمرحوم عبد الكريم في السلطة) وقد وجه إليه المرحوم عبد الكريم عتاباً لانقطاعه عن زيارته وعتب عليه أن وقع على نداء السلم في كردستان ثم أمر بإعادته إلى داره في سيارة وزارة الدفاع. وقد اعتقل المرحوم مصطفى علي في الصباح التالي في ٨/٢/١٩٦٣.

لقد انتقل مصطفى علي من داره في بغداد الجديدة إلى داره في الحارثية في قطع المحامين والقضاة وكان يستقبل أصدقاءه المقربين في داره من حكام ومحامين =

البصرة (ووزير العدل الأسبق). وكان يزوره دوماً ومعه صديقه الحاج محمد العسافي، وكذلك محمود عزة عبد السلام الشواف[1] نائب الرئيس أيضاً

وقد انصرف في أخريات أيامه مولعاً بتحضير الأرواح. لقد كانت هموم المرحوم = مصطفى علي منصبة على ما هو مولع به من الشؤون الأدبية وشؤون العلاقات القائمة بين القوى السياسية في البلاد وشؤون الحكم، وقد بقيت المسائل القانونية الأساسية في تنظيم السلطة ودستورها وتنظيم الدولة خارج همومه واهتماماته مما كان من الأسباب العديدة التي أدت إلى عدم الاهتمام وإهمال الضبط القانوني منذ ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨.

(١) محمود عزة عبد السلام: هو حفيد الفقيد والعالم الديني الإسلامي والمتصوف الشهير ببغداد في أواخر القرن التاسع عشر المرحوم عبد السلام الشواف مدرس المدرسة الكيلانية المتوفى في أوائل القرن العشرين (حوالي ١٩٠٤ ميلادية)، أما الحفيد محمود عزة عبد السلام فقد التحق بكلية الحقوق العراقية في العشرينيات ثم تعين في وزارة العدلية حتى أصبح في الخمسينيات حاكماً بمحكمة تمييز العراق بعد أن أشغل مناصب قضائية عديدة آخرها نائب رئيس محكمة استئناف البصرة ثم رئيسها لمدة طويلة بعد أن كان قاضياً في محاكم العراق الأخرى وقاضياً شرعياً في المحكمة الشرعية ببغداد وقد تزوج المرحوم الحاج محمود عزة عبد السلام من قريبته أخت المرحوم عبد العزيز الشواف الكبرى وهي والدة أبنائه فوزي وزهير وسلام. وبعد وفاتها تزوج الصغرى التي توفيت - هي الأخرى - أيضاً في السبعينيات. وفي أوائل التسعينيات وبعد مدة تقاعدية مطولة توفي الحاج محمود في داره بالأعظمية.

كان المرحوم محمود عزة من أعف الناس ضميراً وقد احتل في البصرة مكانة مرموقة بين أصدقائه العديدين مثل الدكتور جمال الفحام وعبد السلام المناصير وياسين العبد الواحد ومحمد سعيد العبد الواحد والسيد طاهر السيد ظاهر وآل الذكير والحاج عبد الواحد الفرحان وغيرهم وقد أحاطه كرام البصريين وأحاطوا أولاده بما هم أهل له من مظاهر الحب والاحترام والإجلال وقد قتل ابنه المحامي وهبي محمود عزة عن عمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين ربيعاً الذي يمتاز بالتقوى ومحبة وثناء الناس وكان فقدانه خسارة صعبة على والديه ومعارفه وأصدقائه وأقربائه وعلينا جميعاً.

لقد كان المرحوم محمود عزة عبد السلام قاضياً قديراً من حيث المعرفة بالفقه والقانون والممارسات القضائية، أما من حيث إدارة المحكمة فقد كان حريصاً على =

ورئيس الاستئناف بعد ذلك، والحاكم حسين محي الدين[1] (نائب الرئيس بعد ذلك) وكثيراً ما يزور أصدقائي الحاكم مهدي العمار[2] والحاكم حاتم

= أن يوصل العدل إلى ذويه بأسرع ما يمكن وبأقل كلفة. وكان موقعه بالبصرة - حيث تتمتع المحكمة بمكان محوري لتحقيق العدل والموازنة بين الناس - بمثابة ضمان لسيادة العدل والإنصاف وتطبيق حكم القانون بين الناس على اختلاف اتجاهاتهم وطبقاتهم وعلاقاتهم، ولم أسمع أية ملاحظة تشكك في ذمته أو ضميره من أحد من الناس.

(١) حسين محي الدين: من كبار القضاة، ومن رجال القانون في الخمسينيات، كان رئيساً لمحكمة الجزاء الكبرى في البصرة ونائباً لرئيس محكمة الاستئناف فيها، ثم اشتغل مشاوراً قانونياً في القصر الجمهوري بعد أن عمل في وزارة الإصلاح الزراعي (مشاوراً قانونياً) بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨. يمتاز القاضي الأستاذ حسين محي الدين - وهو من أهالي الأعظمية - بنشاطه الجم وقدرته التحليلية الواسعة في معالجة الادعاءات وحسمها وبذمته التي لا غبار عليها ولا أدري إن كان لا يزال إلى الآن مشاوراً في القصر الجمهوري، أم إنه قد تقاعد بعد الأحداث الأخيرة.

(٢) مهدي منصور العمّار: ابن الحاج منصور العمار وكان قاضياً في محكمة البصرة عادلاً وفاضلاً وقوياً في تطبيق القانون واتباع ما يعتقد أنه الحق من حيث الإجراءات والموضوع، ومن نمط الرجال الذين لا يرعبهم ذو سطوة ولا تأخذهم في الحق لومة لائم وله مواقف قضائية مشهورة تمسك بها بالموقف القانوني تجاه ما يخالفه من مواقف السلطة أو المتنفذين أو الملتزمين بالسلطة. وكان مهدي العمار تقدمي الفكر والتصرف قريباً من الحزب الوطني الديمقراطي على جبهة اليسار قبل ثورة تموز سنة ١٩٥٨ وقد رشح نفسه في انتخابات مجلس النواب على مبادئ الحزب الوطني الديمقراطي ونال تأييد أوساط واسعة من الناس وإنما أخفق في دخول مجلس النواب في احتساب أصوات قليلة محدودة العدد والتمثيل، وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ أصبح مديراً عاماً للاستيراد في وزارة التجارة، وهي من أهم المديريات العامة في الوزارة بل في القطاع المالي والتجاري في الدولة وقد رشحته - في حينه - لهذا المنصب لفكره النقدي وعدله وقوته في تحكيم القانون في تصرفاته، وبعد عام ١٩٦٣ أوقف وسجن ثم أعيد بعد عام ١٩٧٠ إلى وزارة التجارة مديراً لمصلحة الحبوب العامة. وقد ساعد في استيراد حاجات العراق من الحنطة عاملاً مع الوزير السيد حكمت العزاوي في هذا المجال وفي مجال إكمال =

الحجاج[1] الذي كان يحبهما ويكثر من مدحهما بأبيات من الشعر العربي كمثال على إطرائهما فكان يستشهد عندما يرى الحاكم حاتم الحجاج بالبيتين العربيين الشهيرين القديمين:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة ... تتبّع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة شفاها

كما كان يتودد إلى زين العابدين النقيب وأحد القضاة من آل

= شبكة مخازن الحبوب (السايلوات) للحنطة والرز في مختلف أنحاء العراق وبعد أن تقاعد سجل في نقابة المحامين ببغداد.

كان الحاج منصور العمار - والد مهدي - من أهالي الأحساء أصلاً، وهو شخص وجيه وكريم وعادل ومحترم شعبياً في البصرة منذ العهد العثماني، وقد خلف أولاداً خمسة هم كل من عبد الحسن وعبد الأمير وعبد الرسول وعبد الهادي من الأشقاء وقد كان عبد المحسن رجل أعمال ذو سمعة حسنة وصدق، أما عبد الرسول فمن ضباط الجيش العراقي المثقفين وقد توفي في حادث طائرة مؤسف وما زال موته المبكر مثار أسف عارفي عبد الرسول وأصدقائه إلى الآن أما عبد الهادي فيعيش في إنكلترا مع ابنه الذي يعالج ويعمل هناك. كما ترك المرحوم منصور العمار أحفاداً من ابن توفي قبله ليس بشقيق لأولاده الآخرين.

إن مهدي يتميز - عدا عن قوته في الحق وتطبيق القانون بالعدل والمساواة - بالتعقل والتصرف المتزن المدروس والكرم وكان ولا يزال - ممن أثق بهم وأعتمد عليه في غالب الشؤون.

(١) حاتم حاجم الحجاج: من كوت الحجاج القرية المعروفة القريبة إلى شمالي البصرة والمحيطة بالبساتين الواقعة في تلك الجهات من البصرة. تخرج من كلية الحقوق العراقية سنة ١٩٤٧ ثم أصبح بعد ثورة ١٩٥٨ حاكماً في محكمة بداءة البصرة وتدرج في محاكمها جميعاً من حقوقية وجزائية وكان في غاية النزاهة والحياد وثقة الناس في البصرة وحاز حبهم واحترامهم سيما وأنه مع ذويه من الأشخاص المعروفين اجتماعياً في البصرة، وقد كان أبوه بزازاً يبيع الأقمشة بعد شرائها من سوق بغداد أو استيرادها رأساً من منشئها في الخارج. وقد وصل حاتم إلى درجة نائب رئيس استئناف وترأس المحكمة الكبرى للجزاء في البصرة. لقد قضى الأستاذ حاتم الحجاج حياته القضائية موثوقاً بعلمه وعدله قاضياً ممدوحاً، ويعمل الآن في بغداد منصرفاً إلى الأعمال الحرة بعد أن تقاعد من العمل الرسمي.

السعدون وغيرهما من القضاة من (شيوخ الأصل). أما المحامون، فكان المرحوم الحاج علي البسام محباً لعبد الله يوسف الإسماعيل وحسن عبد الرحمن وعبد الرحمن العمر، والمحامين المسيحيين حيث يسميهم الحاج علي (بأخوة هارون) مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء ولا كانت أمك بغياً﴾، أما المحامون من «خضير» من أبناء الزبير فكان يعاديهم ويهجوهم بغليظ القول، كما كان يحب أبناء عمه الدكتور عبد العزيز إبراهيم البسام[1]، وإخوته أحمد وعبد الرحمن وعبد الله وابن أخته محمد عبد الرحمن الذكير[2] وكان المرحوم الحاج علي مخيفاً لأعدائه وأصدقائه وأقربائه معاً. فخوف أعدائه أمر مفهوم، ما دام أنه يقرعهم تقريعاً شديداً من الصعب عليهم مجابهته والرد عليه، لأنه كان ـ رحمه الله ـ شخصية محترمة كريمة وراسخة ومثقفة، وعالم حقيقي فيما هو

---

(١) عبد العزيز إبراهيم البسام وإخوته: إن الدكتور عبد العزيز وإخوته المرحوم عبد الله والمرحوم عبد الرحمن والدكتور أحمد هم أولاد عم علي السليمان البسام وكان الدكتور عبد العزيز قد تخرج من جامعة إنكليزية في مادة التربية وعلم النفس بدرجة دكتور حيث عين أستاذاً في دار المعلمين العالية ببغداد ثم مديراً في وزارة المعارف العراقية ثم أستاذاً في جامعة بغداد وأخيراً شغل منصب مديراً لجامعة العين في أبي ظبي بالإمارات العربية المتحدة. أما الأخ الأستاذ عبد الله فقد عمل بعد تخرجه من كلية لندن للاقتصاد في ضريبة الدخل في وزارة المالية بالعراق ثم عمل رئيساً لقسم الترجمة في وزارة العدل العراقية ـ وكان من أعرف الناس بتاريخ أقطار المنطقة العربية وتطورها السياسي وشخصياتها وما كتبه الغربيون من المستشرقين والرحالة عن كل ذلك. أما الدكتور عبد الرحمن ـ وهو أخوهم غير الشقيق ـ فقد كان أستاذاً في كلية الحقوق العراقية. أما الدكتور أحمد ـ أصغرهم سناً ـ فكان أستاذ القانون التجاري في كلية الحقوق العراقية ثم تولى إدارة الشؤون القانونية في مؤسسة النفط الكويتية، والأخوة الأربعة جميعاً متميزون بالكفاءة والتعقل واحترام النفس والإعجاب بهم من قبل الناس ونَيْل الرضا العام.

(٢) محمد بن عبد الرحمن الذكير: هو ابن أخت الحاج علي البسام وكان يسكن معه في داره في الزبير، وهو شاب طيب جمع إلى جانب ذكاء أخواله آل البسام طيبة ونشاط أعمامه آل الذكير وتذوبهم في الناس، ولا أعلم أين استقر به المقام الآن.

مهتم به من شؤون عربية وإسلامية، لا بل إنه من حيث علمه بالتاريخ العربي وآداب الإسلام ـ وأخباره الأولى سواء كانت تاريخية تقليدية أو فلكلورية، تتعلق بأنساب العرب في الجزيرة أو بأخبار الخليج والنبط أو بالشعر الكلاسيكي أو الشعر الحديث أو النبطي ومدائح القدماء ومدائح المحدثين من شيوخ آل سعدون ـ أكثر من رأيتهم علماً ومعرفة وسعة اطلاع. أما أصدقاؤه وأقاربه فكانوا يخافونه لتقريعه إياهم وتأنيبهم بقسوة على تفرقهم وتقاعسهم عن نصرة بعضهم وتكافلهم وتعاونهم ضد خصومهم وانصرافهم عن عمل الخير والشهامات والمعروف إلى التجارة والكسب وحب المال وجمع الثروات بعيداً عن العزة والكرامة والمروءة ويسميهم دوماً (خرفان كراجي) التي تمتاز بإليتها الشحمية الكبيرة، وعجزها عن أي عمل جيد منتظرة ذبحها للأكل، وكان هذا التشبيه (خرفان كراجي) قد أخذه المرحوم علي عن بيت نبطي في بعض أغنياء النجديين المولعين بالمال والكسب والمرعوبين خوفاً من العراك والحرب.

نلكى ليا ياهم توامى   مع سوك مصعب يركضون
إن صاح صباح تخبوا   أو جا حليب ينزعون

وكان يكثر من مجابهة ابن عمه خالد[1] عبد العزيز العبد الله البسام ـ وهو رجل محترم ـ لأنه كان يخاف من لسانه ذلك أن المرحوم علي كان يتهمه بخذلان المواقف الحقة والشجاعة ركضاً وراء الكسب والتجارة.

وقد تطورت رسائل المرحوم الحاج علي في الأخير إلى حد أنه كان

---

(١) خالد عبد العزيز العبد الله البسام: كان في الخمسينات إلى الستينات يدير مكتب عبد العزيز البسام وأولاده في البصرة ويسكن مع عائلته وأبيه في الدار الواقعة على كورنيش شط العرب قرب دار متصرف اللواء، أما أخواه عبد الرحمن وعبد الله فكانا يديران محاسبة في بومبي بالهند، وخالد البسام إنسان فاضل إلى حد معجز بأدبه واستقامته ويقال أنه الآن يشكو من داء فقدان الذاكرة كلياً شافاه الله.
أما أخوته الصغار والعائلة فيسكنون آنئذ في البصرة أو دار الزبير ولهم دار ريفية في مزارع الأثل بالزبير كان والدهم الحاج عبد العزيز يقضي بها أوقاتاً كثيرة.

يرسم صورة خروفين يتناطحان باعتبارهما يمثلان عائلتين من الشيوخ متنافسان على كسب المال والتجارة تاركين ومعرضين عن المجد والشهامات، وكان ذلك مدعاة لتنكيت المرحوم الصديق الرائع عبد الله سليمان الذكير[1].

الفصل السادس

لقد كانت المودة والاحترام الذين انعقدا وانعقدت أواصرهما وتوطدت بيني وبين المرحوم علي سليمان البسام مما اعتز به وبذكرياته حقاً لأنه يعكس صلة وثيقة برجل شريف ومثقف ونبيل فوق أنه مما عاد علي

(١) عبد الله سليمان الذكير: هو الابن الأكبر للحاج سليمان المحمد الذكير ومدير مكتبهم في البصرة (شركة سليمان وحمد المحمد الذكير وأولادهما)، حيث ساهم فيها أولاد المرحوم الحاج حمد المحمد الذكير صالح وعبد الكريم؟ وكل من أولاد الحاج سليمان الأخوة الأشقاء عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الله، أما محمد سليمان الذكير أخوهم غير الشقيق فهو مستقل عنهم بمكتب مستقل في العراق.

كان المرحوم الحاج عبد الله السليمان من الشخصيات النادرة مستقيماً وقوياً في الحق وعنوداً بما يؤمن به ولم يكن مستعداً للمساومة أو التساهل في مبادئه أو معتقداته أو مصلحته وهو ما كان العمل في التجارة وإدارة الاملاك يقتضيه في العراق، الأمر الذي كثيراً ما أدى إلى الإضرار بأعمال آل الذكير ومصالحهم وأدى بهم إلى نتائج سلبية.

خلف الحاج عبد الله ابنه ماجد ـ الكبير ـ ويعمل الآن تاجراً في الدمام بالسعودية ويوسف الذي يعمل هناك مديراً لمستشفى يملكها، وهو طبيب متخرج من هامبورغ في ألمانيا. إن ماجد ويوسف وخالهما صالح الذكير الذي يعمل بالتجارة في الدمام يسكنون هناك مع عائلة المرحوم الحاج عبد الله.

لقد كان للحاج عبد الله الذكير معرفة واسعة وصلات وثقى بأوساط العقارات والنخيل والتصدير والاستيراد والشحن البحري وكان يمارس مع أخيه عبد العزيز العمل في مكتبه بالبصرة، أما أخوهم المرحوم عبد الرحمن فقد توفي في السبعينيات وكذلك توفي في التسعينيات أخوهم أحمد في لندن.

بجنوى [illegible] تمتعت بها لأنها تنقلني الى أجواء أدبية عربية [illegible] في أجواء [illegible] تدى مشايخ العرب [illegible] نجد والكويت والبصرة في أواخر القرن الماضي - في [illegible] عربية قديمة - وفي مقتبل عصر الحضارة [illegible] رشيد وآل صباح وآل [illegible] وعوائل الزبير وهي الأجواء [illegible] التي [illegible] في صغري في مجلس عمي عبد الملك [illegible] ولكن أجواء مجلس عمي لم تكن تشمل أشعار النبط [illegible] القرن التاسع عشر و[illegible] النشاطات الأدبية والاجتماعية والسياسية [illegible] بها، فمعارك آل سعدون وآل سعود وآل الصباح وآل الرشيد [illegible] من الشعراء [illegible] في ذلك العهد مثل ابن ربيعة [illegible] والعوني[2] وغيرهم [illegible] مسمع بها في مجالس الكرخ [illegible] بعيدة عن [illegible] ومجالسهم، كما أن أخبار العوائل العربية [illegible] كانت هي الأخرى مجهولة في المجالس البغدادية إذ سمعت [illegible] علي [illegible] عن [illegible] الصوالح والذكير والفداغ والمشري [illegible] والنقيب و[illegible] و[illegible] والزهير والبابطين وأبو الخيل [illegible] يسكنون الزبير [illegible] أصولهم في نجد والجزيرة العربية [illegible] لاقتصاد [illegible] في [illegible] في الستينيات والسبعينيات وأصبح [illegible] دوره [illegible] في [illegible] اقتصاد بلادهم الأصلية.

وذكر [illegible] عن قصيدة تسمى (قصيدة العنز) [illegible] المرحوم جدي لأبي ([illegible]) من باب قصائد الأهوائيات [illegible] نفقت عنزة [illegible] في [illegible] عند ولادتها بعد أن كانوا [illegible]

(٢) [illegible] من أشهر شعراء النبط (عامية [illegible] عربية [illegible] في القرن التاسع عشر، وتشيع قصائده في [illegible] [illegible] العربية وبين مشايخها وقبائلها، [illegible] مجموعات [illegible] للنبط ولهجتهم [illegible] الأوساط [illegible] الأدبية والاجتماعية في نجد والكويت [illegible] [illegible] حيث يعتبر [illegible] تقليدياً موروثاً قديماً.

ويمولودها، وقد رثاها المرحوم جدّي وأرسل الرثاء إلى صديقه المرحوم الحاج إبراهيم المنديل[١] (والد المرحوم الحاج عبد اللطيف المنديل) حيث أرسلها المرحوم إبراهيم المنديل إلى نجد اعتزازاً بها، فشطرها بعض شعراء نجد وخمسها البعض الآخر وعارضها آخرون حتى كان مجموع ما يتعلق بها كتاباً أطلق عليه اسم «ديوان العنزة» وقد طلبها المرحوم الحاج علي مني وكنت قد عثرت عليها صدفة في أوراق قديمة ومن أبياتها بيت موجه إلى السيد رجب النقيب[٢] نقيب البصرة ووالد السيدين طالب النقيب وحامد النقيب والبيت نصه:

---

(١) إبراهيم المنديل: من كبار الشخصيات العربية في القرن التاسع عشر ومكانه وعميد أسرة المنديل الشهيرة في العراق، وهو والد كل من الحاج عبد اللطيف باشا المنديل (أول وزير للتجارة في العراق في حكومة السيد عبد الرحمن النقيب الكيلاني) بعد الحرب العالمية الأولى، كما أنه والد كل من يوسف وعبد المجيد المنديل وجد آل المنديل في فرعهم العراقي البصري وهو المؤسس لهذه العائلة الكبيرة في جنوب العراق (البصرة والقرنة وملحقاتها) بعد أن هاجر الحاج إبراهيم من نجد إلى سوق الشيوخ في مرحلة هجرته الأولى. لقد اشتهر الحاج إبراهيم المنديل بذكائه الخارق وحسن تدبيره ومكانته الاجتماعية، وتروى عنه نوادر شتى من روائع الكلم ومن الإجابات المسكتة وهو جد المرحوم الأخ مالك عبد اللطيف المنديل وجد الأخوين ماجد وإبراهيم المنديل وغيرهما ومكون ثروة آل المنديل من بساتين النخيل والأراضي الزراعية في عيون المناطق على شط العرب في البصرة.

(٢) السيد رجب النقيب: هو ابن السيد محمد سعيد النقيب الرفاعي الذي كان نقيباً لأشراف البصرة بعد أخيه السيد عبد الرحمن. تولى السيد محمد سعيد نقابة البصرة عام ١٨٧٤ وقد عين مديراً لأملاك السلطة ورفض استيفاء راتب عن هذه الوظيفة بحجة أنه لا يمكن له أن يتقاضى أجرة عن خدمة يقدمها لسلطان المسلمين ولي أمر الجميع.

لقد ولي السيد رجب نقابة البصرة عند وفاة والده سنة ١٨٩٦ وهو والد السيد طالب باشا وزير داخلية العراق في عهد المرحوم عبد الرحمن الكيلاني رئيس وزراء العراق في أول تشكيل الحكومة العراقية حيث كان السيد طالب يعتبر أقوى شخصية في البلاد العربية اعتباراً من أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين وكان قد عُيّن منذ ١٩٠٢ متصرفاً للواء الاحساء ورشح والياً للبصرة ثم =

فأعجب لهذا الحظ واحدة لنا   تفدى بها معزى القبائل كلها

بعد أن سرد حكاية العنزة وكيف خرج الجميع بها ثم ولدت توأمين ونفقت بعد ذلك.

وقد طلبت من المرحوم علي البسام أن يستنسخ مما يحتفظ به من الشعر العربي ـ بديلاً ـ عن قصيدة العنزة ـ قصيدة لأحد الشعراء المتصوفة القدماء يقول فيها الشاعر المتصوف في أحد أبياتها:

لمعت نارهم وقد عسعس الليل   وخاب الحادي وضلّ الدليل

انتخب مبعوثاً (نائباً) عن البصرة في مجلس المبعوثان في الاستانة بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

كان السيد رجب له ولد آخر أصغر سناً هو السيد حامد النقيب الشخصية المشهورة وعضو مجلس أعيان العراق وقد توفي في الخمسينيات من القرن العشرين عن أبنائه السادة محمد سعيد وأحمد ومحمود ودفن في مقبرة عائلتهم في الزبير.

وقد كان لآل النقيب نشاط سياسي ساهم في تصريف المهام الكبرى في شمال الخليج والجزيرة العربية عشية الحرب العالمية الأولى وبناء الاقتصاد النفطي وتشكيل الدول في إيران والعراق ونجد والحجاز.

إن السيد رجب النقيب من نسل السيد أحمد الرفاعي، هاشمي صحيح النسب. ويقال ـ إن آل النقيب وبيت الشيخ إبراهيم الراوي (بيت الشيخ في راوه وعانة) من ذرية الشيخ أحمد الرفاعي المتصوف المعروف وشيخ الطريقة الصوفية المدفون في العراق قرب واسط (الحي).

إن المرحوم السيد طالب النقيب وضع بصمات شخصيته في تاريخ بلدان منطقة شمالي الخليج والجزيرة وكانت أدواره السياسية في جنوبي العراق ـ ولاية البصرة أولاً ثم في العراق عامة، وفي الكويت، وفي المحمرة وإيران وفي نجد والحجاز أدواراً معروفة ومؤثرة وقد لاقى في سبيلها العنت والإرهاق والاحتجاز والنفي وقد نصحت الكثير من طلبتنا في أوروبا أن يجعلوا من تاريخ السيد طالب أو تاريخ نقباء البصرة عناوين لأطروحات أكاديمية تلقي الضوء على تاريخ العراق الحديث وتاريخ منطقة الشرق الأوسط لا سيما وأن هناك كثير من المصادر الثرية في الغرب عنهم.

ثم يقول:

ونـزلـنـا بـعـد الـعـشـي بـقـوم   صرعتهم قبل المذاق الشمول

كما أتذكر أني بعثت له من القاهرة ـ وكنت أسكن فيها سنة ١٩٧٠ ـ كتاباً يحتوي على مجموعة مختارة من شعر العرب لأحد أدباء مصر وقد كتبت على الكتاب إهداء بيتين من الشعر من نظم جدي الحاج طه الشواف وقد كان ساكناً في سوق الشيوخ من أقضية لواء الناصرية ومطلع القصيدة هو:

لنا في البصرة الفيحاء صحب   وفي أرض الزبير لنا حبيب
وفي سوق الشيوخ لنا مقام   وفي بغداد خلفت القلوب

فأرسل لي المرحوم علي أبياتاً من الشعر أظن أنها من نظمه مطلعها:

أيا من بالكنانة قد أقاما   ربى الفيحاء تهديك السلاما

الفصل السابع

رحم الله ابا سليمان الحاج علي البسام الذي فارق الحياة في الزبير في أوائل الثمانينات فلقد كان إنساناً عربياً من طراز ذوي الثقافة والمزاج العربي القريب إلى بداوة الأعراب الأولين وقيمهم وادعاءاتهم والذين يعتمد توسع معارفهم وثقافتهم ومكانتهم العلمية والفكرية في مجتمعهم على الرواية والأخبار والسماع شأن أدباء العرب في صدر عصر تسجيل الثقافة العربية في الدولة الأموية وأوائل أيام العباسيين ممن كان يعودون الى بطن البوادي والقفار وصحارى بلاد العرب للتأكد من مسموعاتهم في الشعر والتاريخ واللغة والأدب أو لتسجيل ما هو جديد من ذلك كله، وقد كان حجر الزاوية في حياته وشخصيته هو محاولة الاتساق والمعايشة والمطابقة بين هذه الثقافات العربية الإسلامية الأصيلة وبين الموقف الاجتماعي والديني المستند إلى الخطابات القرآنية والسنة النبوية وأدبيات العرب وأمثالهم وقيمهم واخلاق العصر الإسلامي الأول المرتبط بالغزو والكرامة والغلبة لنشر الدين، وبين السلوك الاجتماعي والأخلاقي اليومي العربي في

القرن العشرين، ولئن حدثت نتيجة ذلك ـ أمام ناظرين وعقله الباطن ـ هوة أدت إلى شوائب وحور في مشاعره ونفسيته، فإن ضغوط الحياة الحديثة المادية والمعاشية والقيم الجديدة وبراعمها في الزبير في أواسط القرن العشرين حيث كان المرحوم علي يسكن ويعيش، والتي أثرت حتى على النظرة العربية الإسلامية للحياة والتي كانت في الحقيقة بالنسبة إلى حياة الناس في الزبير ديكوراً سينمائياً يفتقد عمق الحقيقة وصلابة الحق والصدق والرأي العام للناس زلزلت من الحاج علي نفسيته وتوازنه ولم يستطع أن يتعايش أو يتأقلم معها.

لقد كان سبب لجوء الحاج علي البسام إلى المحكمة أنه كان يتصور أنه يستطيع اللجوء إلى مقولات المساواة بهها ونظرته عنها بدون أن تطوله اتجاهات السلفية الوهابية الإخوانية مما كان سائداً في الوسط الزبيري منذ القرن التاسع عشر، ثم النظرة الديمقراطية الغربية التي انتشرت في بلاد العرب بعد الدستور التركي ١٩٠٨ واستفحلت بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة الاحتلال الغربي، ثم أفكار المساواة الإسلامية بين المسلمين في الزبير حيث كان يحمل هذه الأفكار بعض علماء الإصلاح من الزبيريين وتبلورت في جمعية الإصلاح ومدرسة النجاح.

لقد كان للمرحوم الحاج علي سليمان البسام موقف في المناظرة اليومية مع هذه العناصر الثلاث يخالف نبضه اليومي باختلاف نبض هذه العناصر وتصاعد وتيرتها وتباين مظاهرها، ولكنه كان ثابتاً لم يتغير في وفائه وكرمه وحبه للخير وإكرامه لأصدقائه ومن يعرفهم أو يحبهم، ولئن لم يستطع وهو محاط بهذا المناخ المحافظ المحب لتقاليد قومه أن يماشي التطورات التي أدخلها عنوة على مجتمعه التوسع الاقتصادي النفطي وعواقبه وما أثره على بيئته الزبيرية فعذرة أن المد التغييري في المجتمع كان مداً فيضانياً لا يمكن لشخص حساس مثله أن يواكبه سرعة أو وتيرة، لذلك فقد عاش أبو سليمان ومات شريفاً صادقاً ونبيلاً لم تدنس،روحه الظواهر المتفاقمة في المجتمع مما هو بعيد عن همومه وهواجسه.

وإذا ما كانت المقارنة بين الأشخاص والظواهر والأفكار والثقافات، من الاساليب المساعدة على التعرف وإيضاح الغامض والمبهم فيها، والقاء الضوء على بواعثها وأسبابها وآفاق تطورها مع الاعتبار الكامل لخصوصية المرحوم علي البسام وخصوصية مجتمعه مجتمعه شبه البدوي، وخصوصية ظروفه كمثقف إسلامي من تجار واستقراطية الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين وفي مشارف التغيرات الكبرى والهزة التي أحدثها تربع الاقتصاد النفطي وإنتاج النفط والحياة الغربية على المجتمع العربي لا سيما في نجد والكويت وجنوبي العراق، وهو مجتمع ديني إسلامي ما زال متأثراً بالدعوة السلفية الوهابية في قيمه وثقافته وخطه العام، وبمفاهيم البداوة والرعي من حيث تطوره الاقتصادي ـ وفي غمرة المخاض الذي أحدثته السياسات الدولية في المنطقة في نفس الوقت ـ فإنه قد يكون مفيداً ومساعداً لنا في فهم شخصية المرحوم علي السليمان البسام وظروف حياته وتطور أفكاره ومزاجه الروحي وتأثير ذلك على توازنه الداخلي وحتى على وضعه الصحي العصبي، أن ننتبه إلى الفيلسوف والأديب الألماني «نيتشه»[١] الذي نشأ في القرن التاسع عشر، وفي كنف الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وروادها من أمثال كانت وهيغل وشوبنهاور والموسيقي فاكنر

(١) نيتشه: أديب ومفكر ألماني الأصل تجنس بالجنسية السويسرية وهو واضع حجر الزاوية للتيار الوجودي في الفلسفة الألمانية وهو التيار القائل بالصراع وإرادة التفوق والاتجاه نحو الأفضل والأسمى والأقوى مما كان أساساً أخلاقياً وفكرياً للآراء والتصرفات المثيرة والعنيفة التي نادت بها الفاشية في أوروبا في القرن العشرين ودخلت على أساسها الأيديولوجي في الحرب العالمية الثانية والمناقضة لمبادئ المساواة والديمقراطية والحرية والمقولات الوطنية والدين والفن وغير ذلك مما تدفع إليه الغرائز الإنسانية. من أهم مؤلفات نيتشه كتاب (نشأة التراجيديا) و(هكذا تكلم زرادشت) و(إرادة القوة) ووضع جدولين للقيم (جدول للعامة) و(هدف الخاصة) أي للأقوياء، إذ إن القوة هي أساس مذهب نيتشه وسبيلها إلى مكانها في عالم الفكر والحياة الإنسانية وهي الدفع بالإنسان للمجابهة إلى أعلى والارتفاع إلى الأفضل.

ومؤلفاتهم الأساسية (العالم كاراده وتصور لشوبنهاور، والدين والوطنية لفاكنر) وفي غمرة الثورة السياسية الفرنسية والثورة الصناعية الإنكليزية والفلسفة الألمانية وعواقبها الاجتماعية والسياسية والثقافية في أوروبا حيث نشأ التيار الديمقراطي خلف دعوة الثورة الفرنسية كتيار أساسي، ونشأة الفكر المناقض لهذا التيار، فكر الصراع والقوة والتفوق بالاتجاه نحو الأفضل وإرادة الأسمى وهو (فكر نيتشه) بالرغم من آلامه الجسدية والعصبية، بل كان هذا الفكر هو أحد التفاسير لهذه الآلام وتغلغلها.

لقد وضع نيتشه بشكل ذي طبيعة فلسفية ـ كما فعل المرحوم علي البسام بشكل أدبي إسلامي شعري ـ جدولين للقيم أحدها للعامة والآخر للخاصة والأقرياء في المجتمع، وكان يرى أن يبقى الرق منتشراً للقيام بالأعمال اليومية في المجتمع كالزراعة والصناعة ومجمل الأعمال التي لا تتعلق بطبيعة الأشياء والتي ترمز إلى الضعف والانهيار، أما طبقة الأسياد فيجب أن يتوفر لها من الحياة ما يسمح لها بالابداع وتذوق العقل والتجدد والصراع نحو الأفضل، مهاجماً المقولات التي نادت بالمساواة وبالرأفة المسيحية وبالعدالة والمحبة وتساوي أصناف البشر لمخالفتها للطبيعة التي لا تعرف إلا الصراع والقوة والبطش وإرادة الصيرورة إلى الأعلى كنظام للطبيعة والإنسان، ومُنكراً حتى على الفلسفة اليونانية ـ التي هي الأصل للفكر الأوروبي والروح الأوروبية بمختلف مذاهبها ـ نزوعها في عهودها المتأخرة، عهود سقراط وبريكليس وأثينا إلى الديمقراطية مشيداً ببواكير حضارة اليونان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد حيث كان اليونانيون منصرفين إلى الإبداع وتذوق الفن والتجدد والابتعاد عن الكسب ومشاغل الحياة اليومية، وهو شيء شبيه مما كان قد تطور لدى الحاج علي البسام من آراء حول مسألة (الخضير وشيوخ الأصل) والنزاع الابدي بينهما.

الفصل الثامن

لقد كان الحاج علي البسام في مظهره الخارجي وفي بزته شخص

بدوي شرقي محض، ولكنني رأيت أشخاصاً من كبار أبناء الحضارة والحياة الأوروبية يحبونه ويطربون لسماع إنشاده الحماسي للشعر وتألقه الروحي عند روايته، وقد قال عنه محافظ البنك المركزي الدانمركي[1] في عام

---

(١) بنك الدانمرك المركزي: ـ يحتفظ المصرف الوطني الدانمركي (المركزي) بعلاقات تعاون وثيقة منذ الخمسينيات مع البنك المركزي العراقي بعد تأسيسه وتحمله مسؤولية إدارة شؤون العملة والصيرفة المركزية وحفظ حسابات الحكومة في بغداد.

وكان أحد خبراء المصرف المركزي الدانماركي قد وضع تقريراً لتطوير المصرف العراقي ـ قانونه ومهامه يعتبر أحسن مطبوع في موضوعه، كما يتضمن ما يراه الخبير من اقتراحات لتعديل قانون البنك المركزي العراقي والقواعد التي يقوم بها بمهامه وواجباته وذلك بعد أن زار بغداد موقعياً على الوضع الاقتصادي والمالي والنقدي في العراق. وبعد ثورة تموز اقترح محافظ بنك الدانمرك إرسال أحد موظفيه وكبار خبرائه (شليرن) لمساعدة البنك المركزي العراقي بما أخذ نفسه به من تنظيم وتنفيذ السياسة النقدية العراقية في ضوء التوجهات الاستقلالية التي نادت بها سياسة الثورة، ولتنظيم علاقة العراق بالإسترليني والكتلة الاسترلينية وبنك إنكلترا. وبناء على هذه الصلات الإيجابية المستمرة فقد كتب محافظ البنك المركزي الدانمركي (السيد نلسن) يطلب أن يعود الى العراق قبل أن يحال على التقاعد في سنة ١٩٦٩ لبلوغه السبعين. فما أن وصل بغداد حتى قمت بتهيئة وإجراء برنامج مناسب له ـ ليزور الميناء في البصرة ومزارع الأثل والخضار في بادية الزبير، وبساتين التمر في نواحي أبي الخصيب، وإحدى المدارس الإسلامية القديمة في بغداد.

في زيارته للبصرة والزبير استضافنا المرحوم الحاج محمد العقيل عميد عائلة العقيل التجارية الكبيرة في البصرة في مزرعته في صحراء الزبير التي تسقيها مياه الآبار بعد استخراجها بواسطة المضخات النفطية. وكان المرحوم الحاج علي البسام أحد ضيوفنا الذين لازمونا خلال السفرة وقد استمتع الضيف الدانمركي بما شاهد من أساليب الزراعة وتربية الدواجن والحياة البدوية العراقية مقارناً إياها ببلده الدانمرك الذي هو بلد زراعي وبلد تربية دواجن وبلد ريفي أوروبي متقدم.

لقد استمرت العلاقات مع البنك المركزي الدانمركي إلى حين انتهاء مهمة (السيد شليرن) حيث غادر بغداد إلى كوبنهاكن وما زال مرتبطاً بصداقة العمل مع البنك العراقي في تلك الأيام مع لفيف من الموظفين الذين كانوا يساهمون معه في العمل بالبنك، ومنهم الصديق الشهم عدنان الطيار الذي أخبرني أنه زار شليرن في =

١٩٦١ (السيد نلسن) عندما زار العراق وزار منطقة الأثل في الزبير ومنطقة النخيل في أبي الخصيب أنه انبسط كثيراً لصحبة المرحوم علي البسام مع أنه ـ أي نلسن ـ كان لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم شيئاً من الشعر الذي كان يلقيه علي البسام إلا إن هيئته وهو ينشد الشعر مشيراً بيديه ومحركاً جسده وتعبيرات وجهه وصوته تجعله ممثلاً بارعاً ينقل أحاسيسه إلى مشاهديه وإنه مسرور جداً بلقائه كنموذج عربي لهذا الأسلوب في نقل المشاعر والأحاسيس، وفي هذا الكتاب بعض صور السفرتين[1] التي كان فيها نلسن وعلي البسام ضيفين في الزبير وفي بساتين أبي الخصيب.

= الدانمرك في الثمانينيات حيث حل عنده ضيفاً وأنه كان آية في الوفاء والكرم، وذلك في الطريق بين بغداد وأميركا الجنوبية حيث عمل الأخ عدنان سفيراً لفرع الراوين هناك.

(١) لم نحصل على هذه الصور مع الأسف الشديد. الناشر.



القسم الخامس

عبد الجليل پرتو

عبد الجليل پرتو

الفصل الأول

الاغريق[١] هم الاباء الروحيون للحضارة الغربية الحديثة، ومنطقها

(١) كان الاغريق وهم الذين وضعوا الأسس الفكرية الاولى للحضارة الحديثة وعبروا بشكل دقيق ومعجز عن المفاهيم الاصيلة للحياة ومظاهرها الروحية كما انتهى لفلاسفتهم وشعرائهم ومفكريهم من اجواء البحث والتفكير والمعرفة في المفاصل والعقد ومظاهرها الروحية والاجتماعية لهذه الحياة يتخذون من البشر المميزين او من الصورة التي صورتها لهم الاساطير آلهة على هيئة البشر يتصفون بما يتصف به البشر من سمات وصفات مادية ونفسية فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وينجبون أولاداً وبنات وقد يحبون اولادهم وذويهم او يختلفون معهم وقد يرتكبون المآثم والمعاصي ويحل بهم غضب رؤسائهم وعقاب الالهة القوية وقد يشيخون ويفنون.

وقد تصور الاغريق الهتهم بصورة حيوانات اوانسان مشوه ـ على غرار الحضارات الشرقية المجاورة بعد ان اتصل بها الاغريق وتأثروا بها في مصر والاناضول وبلاد بابل وكريت حتى ان بعض الادبيات اليونانية المتأخرة اتهمت الالهة بالسرقة والزنا والخديعة وان كانت أدبيات أخرى قد عارضتهم في ذلك وتركت الالهة المتهمين. لقد كان عدد الهة اليونان غير محدد فهي تعبر عن جميع مظاهر الطبيعة والنفس البشرية والاجتماع فأثينا هي الهة الحكمة، وديونيوس الهة الكرم، وأفروديت الهة الحب والجمال واوريس اله الحرب وفينوس اله الشمس وديمتر اله القمح وزيوس كبير الالهة وحاكم الارض والسماء الناطق في جبل الولمب وزوجته الالهة هيرا ملكة السماء وأخوها پوسيدون سيد الماء وهاريس اخوها ايضا ملك العالم الأسفل وابن ايولو وهم جميعا منشغلون بما في هذه الحياة من المشاكل والهموم ولا شغل لهم بالحياة الاخرى. لقد كان لتصور =

وتوجهها العقلاني، ومجتمعاتها المتمدنة المعاصرة، بمظاهرها الفنية والفلسفية والاجتماعية، اذ يتسم تاريخ الاغريق الثقافي بالاصالة والعمق، وتتوزع حياتهم الروحية بين الابداع، والاسطورة، والواقعية الانسانية، فهم من جهة قد اتخذوا لهم آلهة ولكن بصفات البشر الطبيعية الجسدية وبالطبائع والأهواء والمزاج والصفات البشرية المادية والمعنوية الأخرى وبالعصبيات أيضاً، فكانت الالهة عندهم تصيبها الشيخوخة والكهولة والامراض والفناء وتتصف بما يتصف به بنو البشر من نوازع الحب والبغض والحسد والطمع والكرم والوفاء والصداقة والعداوة والشهامات والمروؤات. وكان ما يميزهم عن غيرهم من بني البشر الاخرين المتصفين بعين الصفات هو القوة والجمال والكمال والتركيز الواضح على الخلال والصفات التي جعلت من كل منهم متميزاً عن نظرائه من بني البشر في هذه الخلال وجعلت من كل منهم إلهاً مختصاً بها بوصفه إلهاً لها.

لقد استلهم الإغريق هذه الآلهة وصفاتها من طبيعتهم الإغريقية ومن بيئتهم وأساطيرهم وأبطالهم وتاريخهم ومعالم مجتمعهم وتطوره، فكان لكل مظهر من مظاهر الطبيعة عندهم إله مستقل فالأرض والماء والبحر والرياح والمطر والشمس والأنهار والفصول لكل منها إله يدير شؤونها ويتصرف فيها، كما ان لكل مظهر من مظاهر الاجتماع والعمران المحمودة التي حفل بها التاريخ الإنساني كالشعر والحكمة والرقص والجمال إله خاص أيضاً، وللصفات الإنسانية آلهة خاصة كذلك كالشباب، والجمال، والحب،

= الاغريق الهتهم على غرار البشر وهيأتهم وأمزجتهم اثر في تحرير عقولهم وتمجيدهم للانسان او النظر اليه عين النظرة الى الالهة مع فارق في الدرجة لا في النوع وكان لذلك اثر حاسم على مقدمات الحضارة الحديثة وعواقبها العلمية والاجتماعية والفنية والسياسية والادبية. والخلاصة فان الالوهية الاغريقية موضوع معقد يتشعب في أعماق المجتمع اليوناني ومتصل بتفاصيله في ميادين تاريخية وجغرافية ومدنيه وهو في الاخير خليطا من الدين والفلسفة والعلم والسلوك الاجتماعي. وقد بقي طابعا للحياة الاغريقية ثم اتصل بالحضارة الحديثة والحياة المعاصرة في العصور اللاحقة.

والعلاقة الجنسية، والانتقام، وللشعر آلهة خاصة أيضاً، وكثيراً ما خلّف الاغريق من ضمير الشعب وأساطيره وحقائق حياته مثلاً عليا تتحقق في الآلهة فجعلوا من تقاليد إحدى المدن وانفتاحها على الحرب او حب السلام الذي يؤثر على جذور المجتمع وأصوله وساكنيه أمثلة في المجتمع وخلفوا لهذه الامثلة التي يهتم بها الناس ويحتذون حذوها في اخبارهم وسيرهم فتؤثر بذلك هذه الامثلة على جذور المجتمع وقيمه وأصوله وتحدد شعارات الناس وما اليه يسعون، وإلى تحقيقها في الحياة يهدفون.

وقد كانت همومنا مركزة نحن ابناء الجيل العراقي الذي واكب الحرب العالمية الثانية تحت النفوذ الانجليزي وعاش أيام الحرب ضد النازية الالمانية والفاشية الايطالية والعسكرية اليابانية والنضال الواضح الذي أعقب ثورة العشرين والذي تأثر الى حد نسبي بالليبرالية المتأثرة بالنفوذ البرلماني الانجليزي المتحكم ضد القهر العرقي والاستبداد والتحكم وكنا عموماً مع التجدد والحريات والتقدم والمساواة الدينية والقومية وحقوق الانسان لجميع ابناء المجتمع ولذلك كنا نتطلع الى العالم الافضل الذي رسمه وتطلع اليه الاغريق ونرسم على غراره للاشياء الجيدة والزمن الافضل آلهة تحقق لنا المثل العليا في الحياة.

وفي هذه الفترة وتحت هذه الظروف كنا نرى في عبد الجليل برتو المحامي في البصرة والذي كثيرا ما سمعت عنه من أهلي وأصدقائي في بغداد والبصرة ومن اصدقائه في البصرة أيضا وعن صدقه ومنطقه عند تعامله مع الناس من جميع الأصناف والطبقات والفئات سواء كان رئيساً وهو المهم ـ أو مرؤوساً ـ علامات على عدله وآيات على تمسّكه بالمنطق والفاضل في الصفات والتصرفات بحيث اني استطيع ان أقول ـ بكل ثقة ـ انه لو كان يسودنا في العراق نظام فكري ومادي وروحي شبه النظام الاغريق قبل ألفي عام (لا غير) لكان الاستاذ عبد الجليل برتو الها اغريقيا للصفات الوطنية الحسنة فيه والتي كان يرنو إليها الشباب الوطنيون آنئذٍ.

وكان هذا النزوع سببا من أسباب عدم الرضا والرغبة بالتغيير ثم

التململ والثورة التي اندلعت ونادى بها الناس في تلك الايام والتي انتهت بالاستقبال الحماسي الذي قوبلت به ثورة تموز العسكرية شعبياً في شمال العراق وجنوبه لدى ابناء العراق المثقفين وغيرالمثقفين. فقد كان المرحوم عبد الجليل وقوة ارائه وجرأته في الافصاح عنها امام السلطة والمجتمع يتمتع بشكل اله اغريقي متناسق وجميل يساعده في ذلك قامة فارعة مستقيمة وكتفين عريضين موازيين ونظرة حادة وصوت جهوري جميل ووجه رجولي صبوح وكان في مجمل تصرفاته مع الناس ومنهم مراجعيه وابنائه وموكّليه وموظفيه ومنهم الرئيس والمرؤوس والمحب والمبغض والرجعي والتقدمي - الها اغريقيا يتمتع بالشخصية المنطقية والمنطق المحصن الذي يميز هذه الآلهة. وكان بصفاته هذه ونتيجة خلقه وتسلكاته ومعاملاته ونكاته وعفويته وبساطته وصدقه وغير ذلك مما يتناقله الناس عنه - الها اغريقياً جديداً في القرن العشرين.

الفصل الثاني

لم أر الاستاذ عبد الجليل برتو ولم التق به عند وصولي للبصرة حاكما وقاضيا مدنيا في محاكمها سنة ١٩٤٧، اذ كان قدانتقل قبل ذلك بسنوات قليلة الى وظائف حكومية وادارّية وقضائية خارج البصرة في كركوك وبغداد ولكن سمعته وجرأته واخلاصه ونظافة يده وضميره كانت مضرب الامثال في الصدق والصراحة والطهارة والنكتة القوية التي تعكس رجولته الحقة كما تنعكس فيها أعماق شخصيته وأعماق نفسه القوية.

الفصل الثالث

اما أصله وعشيرته فأن المرحوم عبد الجليل لم يكن بصريا وإنما من احدى المجموعات العراقية التي سكنت البصرة في القرون الماضية، وكان يتكون من اختلاطها ومعايشتها المشتركة هذاالمجتمع البصري المعروف والمتميز بأخلاقيته وكرمه وسماحته وبشكله البيولوجي الاسمر أيضا، فلم

يكن من ملاكي او زراع النخيل في جنوب العراق في أبي الخصيب وضواحيها في الجنوبات (كما يسميهم البصريون) وهم أصلاء البصريون وفلاحو النخيل منذ العهد العباسي الاول، كما لم يكن من نجد او أعراب الخليج والحجاز ولا من أهالي القرنة او قبائل البطائح في المنتفك او العمارة او أعراب الخليج من الاحساء او عُمان او عربستان والسواحل الايرانية ولم يكن سليلا لواحد من أهالي كركوك او تركمان شمال العراق او اكراد شهرزور او أهل الموصل او سائر ابناء محلة باب الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد ممن استوطنوا البصرة او مهاجرين اليها بدافع الرزق اما موظفين او عاملين في التجارة او النقل النهري او المهن الاخرى لادارة الأعمال في الميناء او المراكب والعمائر البحرية الشراعية.

لقد تأكدت أخيرا إن عبد الجليل من أصول تركية في الاناضول او الاستانة وان ربطته علاقة مصاهرة بأمين صندوق البصرة في أيام الدولة العثمانية (صبري)[1] وهو الشخصية المعروفة بانها المقصودة في الاغنية

---

(١) صبري افندي محمد: من الشخوص الفلكلورية الشهيرة في الغناء الشعبي البغدادي والعراقي (المقام) - اذ لا يزال اسمه الى اليوم يتردد في البستة التي يتغنى بها قارؤوا المقام والتي مطلعها - •يا رب سلم صبري صندوق امين البصرة) وكانت تغنيها مستقلة عن المقام المصاحب لها المغنية البغدادية الشهيرة في النصف الاول من القرن العشرين (صديقة الملاّية) كما كان يغنيها في ختام بعض المقامات باعتبارها (بستة) وبعد مرحلة تسليم المقام ويضيف اليها القراء ما يرغبون من الكلمات على عادتهم في مثل هذه الحالات بشرط ان تنسجم الكلمات المضافة مع اللحن والمقام المقروء وعليه نسمع مع مطلع اغنية (يارب سلم صبري) أبياتا من اغنية تقول:

يخيمون يخيمون بالبر يخيمون   عكب الحليب والجاي مالح يشربون

ياعسكر السلطان بالبر يخيمون

او القصيدة التي كلماتها:

يلبلام يلبلام جدمن يلبلام   بحمولة ابن زهير جدمن يلبلام

وذلك في اطراء العائلة البصرية المعروفة في القرن التاسع عشر (بيت الزهير)، =

الفلكلورية في الغناء الشعبي العراقي والتي يرددها الى اليوم قراء المقام البغدادي في بستة:

يا ربي سلّم صبري ـ صندوق أمين البصرة

= والقصيدة التي من كلماتها:

بطرگ الصديري بطرگ الصديري   واكَف على العشار يومي على غيري

أو التي من أبياتها

فوگ النخل فوگ فوگ النخل فوك   مادري لمع خده مادري الگمر فوگ

أو غير ذلك من كلمات البستات الشهيرة التي يختتم بها المقام والأغنيات. لقد رأيت صبري أفندي (صندق أمين البصرة) عندما التقيت به في أواخر الأربعينيات وكان رجلاً مسناً في السبعين او الثمانين من عمره ممشوقاً طويلاً حسن الصورة ابيض اللحية والعارضين وشعر الراس يبدو وانه كان بصحة موفورة ونشاط لا بأس به بالنسبة الى عمره وكنت أراه وهو يتنزه في سيارة صديق له من بغداد من باب الشيخ يقيم عمّة بغدادية حريرية صفراء مما يعتم به اغنياء البغداديين في العهد العثماني وتسمى بالعامية (كشيدة) ولا أعلم أصل هذه الكلمة. كان صبري يقف في اخر كورنيش البصرة وجسر الخوره مع صديقه الشيخلي ليتمتعا بمناظر شط العرب والهواء الرطب المنعش هناك.

لقد كان صبري افندي يضع على رأسه الطربوش العثماني الاحمر منذ أن كان (أمين الصندوق) لولاية البصرة في العهد العثماني المتأخر وقد استمر صبري حيا الى سنة ١٩٦٣ وأذكر انه عام ١٩٦١ في مقابلة مع إذاعة بغداد تكلم فيها عن الضريبة التي كانت تصل الى ولاية البصرة من الكويت وذلك باعتبارها جباية من قضاء الكويت كدليل على كونها تابعة للبصرة وذلك اثناء مطالبة المرحوم عبد الكريم قاسم بالكويت عام ١٩٦١ مما اثار نزاعا كويتيا عراقيا حول الموضوع بمناسبة اعلان استقلال الكويت وانسحاب الانكليز منها. وان صبري (صندوق أمين البصرة) أصهر بعد زوجته الاولى والدة احمد أيوب صبري (كاتب أول محكمة صلح البصرة) الى المرحوم عبد الجليل برتو وتزوج من أخت عبد الجليل وخلفت له بعض اولاده الاخرين وقد كان صبري يملك في حينه بعض العقارات في محله الصبخة قرب محكمة البصرة ومقابل رئاسة البلدية وقد بنى عليها بعض الدور غربي المحكمة وشرقيها ويبدو انه كان في العهد العثماني مسرفا وزير نساء اما اصوله العرقية فيبدو انه ذو اصول تركية اناضولية او كركوكية من ولاية شهرزور التي كثيرا ماعمل ابناؤها كموظفين في دوائر البصرة المتفرقة في تلك الازمان.

أو

الله يخلي صبري صندوق أمين البصرة

كما ان لعبد الجليل برتو علاقة قربى مع آل المدرس الذين صاهرهم المرحوم عبد الجليل وهم أخوال اولاده (فاروق واخوانه واخوانه) كما صاهر الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم[1] فتزوج فاروق عبد الجليل برتو ابنة

---

(١) عبد الفتاح إبراهيم: ينتمي الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم الى أسرة دينية بغدادية معروفة تعود في أصولها الاولى الى بلدة عانة وهي بلدة تقع على الفرات الاعلى مما يبعد بحوالي (مائة كيلو متر عن البوكمال والقائم على الحدود السورية ـ العراقية). وتتخلل دورها المزارع والبساتين وتشرف النواعير على بساتينها وتقع المزارع والجزر الى خارجها على أن هذه البلدان قد هددها السد الذي بنته الحكومة مؤخراً في أعالي الفرات والبحيرة التي تكونت في اعقاب بناء السد المذكور مما أدى الى اغراق البساتين والنواعير التي كانت تميز هذه المنطقة التي تقع في واد بين سلسلتين من التلال تحيطان بالوادي الذي يجري فيه الفرات على حدود لواء الدليم وسواد العراق.

ان عانه وراوه تمثلان مصدرا ومستودعا للهجرة البشرية الى بغداد والمدن العراقية الاخرى كالحلة وسامراء والفلوجه والرمادي وصولا الى البصرة والعماره والفاو وغيرها من الجهات السكنية وهناك تفاعل بني عوامل الطرد والجذب المتبادلين بين عانه والعراق من فقر مدقع وشح في الارزاق ناجم عن ضيق الارض الزراعية الى وفرة في الطلب على الزراعة والتجارة في العراق الى جنوبها مما دفع عناصر من الساكنين في هذين البلدين (عانه وراوه) منذ القديم الى الطموح والى الهجرة سواءً وراء ثقافة دينية أعلى أو من أجل حياة أفضل في التطور الاجتماعي من البيئة الزراعية اليدوية. ولذلك فإن عانة وكذلك راوه بلدان يعود اليهما أصل كثير من الاسر البغدادية التي هجرت موطنها الاصلي وسكنت بغداد لضيق سبل العيش في عانه وما جاورها وفقر المنطقة المدقع حيث ينخفض مستوى مياه الفرات كثيراً عن ضفاف الوادي الذي تقع فيه اراضيها والتي هي عبارة عن تلال ـ كما قلنا انفا محيطه بوادي الفرات من جهتيه.

وهكذا كانت الحال مع اسرة الاستاذ عبد الفتاح التي يبدو انها هاجرت من عانه في القرن التاسع عشر وانصرف ابناؤها في بغداد الى متابعة دراسة الجادة العلمية الاسلامية على عادة ابناء عانه في تلك الايام. وكانت الجادة الاسلامية =

= العلمية تشمل علوم العربية والدين من نحو وصرف ومعان وبديع وأدب وفقه عبادات وفقه معاملات وفرائض، مع ما يتصل بذلك من علوم المنطق والكلام وأصول الفقه وعلوم البيئة والعقائد الاسلامية وغير ذلك من علوم الحضارة الاسلامية التي كانت تدرس في مساجد بغداد ومدارسها على شيوخ متخصصين على الطريقة الاسلامية القديمة في بلاد العرب والعجم من بلاد العالم الاسلامي الموحد والمتناثر الاجزاء.

ولقد سكن بعض رجال اسرة الاستاذ عبد الفتاح كعمّه عبد الرحمن الملقب الجلجلوتي في الجانب الغربي من بغداد في الكرخ على عادة أهل شمال الفرات في السكنى في الكرخ وهي عادة أهل نجد من التجار والعاملين بالنقل في قوافل الابل الامر الذي جعل من الكرخ بيئة مشابهة لبيئات القرى الاسلامية القديمة من ناحية اجتماعية وثقافية. اما والد الاستاذ عبد الفتاح فقد سكن في منطقة بغدادية اخرى شبيهة بالبيئة الكرخية اجتماعياً هي القريبة من مرقد الامام الشيخ عبد القادر الكيلاني في الرصافة وهي المنطقة المسماة (باب الشيخ) حيث تكونت بالتدريج وبتأثير من مرقد الشيخ الكيلاني ورواده ومريديه بيئة دينية وصُوفية للعناية بالحضرة الكيلانية وسلالة الحضرة الكيلانية كآل النقيب. ومن هناك انتقل والد الاستاذ عبد الفتاح الى جنوب العراق في الناصرية والبصرة بعد اكمال دراسته في باب الشيخ ببغداد حيث استقر به العمل في احدى الوظائف الدينية في أواخر أيام الحكم العثماني وتزوج من ابنة احدى الاسر المتوطنة هناك ممن كان رجالها يشتغلون بالتعليم الحكومي الحديث ومن الموظفين ذوي الاصول التركية العثمانية الذين كانوا يفدون كموظفين للعمل في البصرة ونواحيها، أو الناصرية التي بُنيت حديثاً في عهد الوالي مدحت باشا وقد صار إبراهيم (والد عبد الفتاح) بذلك عديلاً لأحد القادة العراقيين من ذوي الأصول التركية أيضاً ووالد كل من الزعيم علي غالب عزيز والزعيم الطيار يوسف عزيز من قادة الجيش العراقي المعروفين على عهد عبد الكريم قاسم حيث كان الأول معاوناً لرئيس أركان الجيش وكان الثاني ضابطاً متقدماً في القوة الجوية العراقية ويتمتع بمكانة واحترام بين أقرانه العسكريين.

كما أصبح والد الأستاذ عبد الفتاح عديلاً للحاج كاظم والد الأخ نوري كاظم المدعي العام والسفير السابق وأصبح بذلك عديلاً للحاج عبد الله الرشيد (الوجيه والملاك البصري والنجدي الأصل ووالد السيد عبد الصمد الرشيد) أما خالا الأستاذ عبد الفتاح فهما خالص ومخلص وهما شخصيتان اجتماعيتان معروفتان كان ثانيهما مخلص معلماً مشهوراً في البصرة وكان أولهما المرحوم خالص موظفاً في وزارة العدل وفي محكمة بداءة الأعظمية إلى أواخر الأربعينيات وقد رأيته أثناء =

عملي عندما كنت نائب حاكم هناك سنة ١٩٤٦ وهو والد المرحوم الدكتور صلاح خالص المثقف التقدمي المعروف ورئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة.

أما المرحوم محمود أحمد السيد الأديب والصحفي العراقي ومن روّاد القصة العراقية فهو ابن عم الأستاذ عبد الفتاح وكان يسكن في باب الشيخ أيضاً وكان معروفاً بآرائه المتجددة وميوله الاجتماعية الإصلاحية وقد ذكره المرحوم الشاعر الشعبي الملاّ عبود الكرخي كشخصية سفورية إذ كان ينادي بالسفور في المعركة بين السفوريين والحجابيين التي احتدمت في بغداد في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

نشأ عبد الفتاح قبيل الحرب العالمية الأولى في البصرة وتعلّم في بداية الحكم الوطني في المدارس الرسمية وانخرط منذ شبابه في تيار الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال والحكم البريطاني والتي كانت تعزو لهذا الاحتلال كل النواحي السلبية والمآسي التي شملت الحياة بمظاهرها المختلفة من اجتماعية وسياسية وثقافية وأدّت إلى ثورة العشرين المسلّحة ضد الاحتلال البريطاني بتأثير هذه الأفكار التي تمت في الحركة الإسلامية والتراثية والعربية، والأفكار الاجتماعية التقدمية التي نادى بها الشيوعيون في روسيا وعلى رأسهم لينين بعد ثورة ١٩١٧، حيث وجّه لنين الدعوة إلى مسلمي الشرق ومنهم العرب والأتراك والفرس ضد النفوذ والاستثمار الرأسمالي الغربي.

ويبدو أن الأستاذ عبد الفتاح كان متأثراً في عهد تأسيس الحكومة الوطنية في العراق بهذه الأفكار وقد عمل بنشاط في مختلف مراحل حياته الثقافية والسياسية في تنظيم تيار موحّد للدعوة لهذه المبادئ. وكان حجر الزاوية في الفكر السياسي لهذه الدعوة هو النظر الى الاستعمار كعامل تخلف في تطور العراق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي.

وبين عامي ١٩٢٦/١٩٢٨ التحق الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم بالبعثة الحكومية العراقية الى الجامعة الامريكية ببيروت وكان بين اوائل الطلبة العراقيين في تلك الجامعة وحصل منها على شهادة BA في علم الاجتماع واطلع هناك ضمن دراساته في مواضيع الاستعمار الاوروبي وهو موضوعه الاثير على كتاب الاستعمار للبروفسور NOON الاستاذ بجامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الامريكية الامر الذي حبب اليه الاتصال بالاستاذ المذكور ومن ثم التحاقه من بغداد في سنة ١٩٣١ بجامعة كولومبيا في امريكا وهناك وبعناية من البروفيسور نون بدأ عبد الفتاح بكتابة اطروحته للحصول على الماجستير والتي تطورت لتصبح كتابه الاول الشهير =

= المسمى (على طريق الهند) والذي يعتبر من المعالم البارزة (فكريا) في المُحاولات الثقافية التي تبحث في قضية التغلغل والسيطرة الاستعمارية في بلاد الشرق الادنى والخليج وما أحاط بها من بلدان العرب وفارس وفي وضع اللبنات الثقافية السياسية الاولى في الاقتصاد النفطي الدولي في الخليج والعالم وما أحاط بها من الدسائس والمكائد السياسية والحروب، والتكوين الأوّلي للدول والسياسات والحدود في المنطقة. وقد استعان الاستاذ عبد الفتاح للتعرف على تاريخ الخليج ومنعطفات أحواله السياسية المثيرة في العصر الحديث وتطفل القوة الاوروبية الاستعمارية فيه بما تحتوي عليه مكتبة جامعة كولومبيا ومكتبة بلدية نيويورك ومكتبة الكونجرس الشهيرة في واشنطن من الدراسات والكتب اذ كانت هذه المكتبات مفعمة بالوثائق والمعلومات والكتب والدوريات عن الخليج انعكست في كتاب (على طريق الهند) وما انطوى عليه من المعلومات الاصلية الكثيرة والتي شملت التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والمجتمع الخليجي وسواحله العربية والايرانية معا الى عام ١٩٣١ (عام بدء تأليف الكتاب).

وبعد ستة شهور قضاها الاستاذ عبد الفتاح في امريكا اضطر للعودة الى العراق لأسباب عائلية ومعه كتاب (على طريق الهند) غيركامل مما جعله يكمل تحريره في بغداد وقام بطبعه مرتين، كأول منشورات (دار الاهالي) التي أنشأها عبد الفتاح حين عودته الى بغداد مع كل من الاستاذة عبد القادر اسماعيل وحسين جميل وخليل كنه وبعض الشبان العراقيين كجمعية سياسية عرفت باسم (جماعة الاهالي) للتبشير بمبادئهم في الثقافة والحرية والاستقلال والتقدم وفي العمل السياسي لمكافحة الاستعمار. وقد بقيت جماعة الاهالي على صلة بالاستاذ محمد حديد الذي غادر بغداد ملتحقا بكلية الاقتصاد في جامعة لندن. وانئذ كان جماعة الاهالي قد قرروا اصدار جريدة تعبر عن ارائهم السياسية والاجتماعية باسم (جريدة الاهالي) التي صارت اسما متميزا في عالم الصحافة السياسية وأصبحت بعد اجازة الاحزاب في العراق سنة ١٩٤٦ لسان الحزب الوطني الديمقراطي في العراق وأساساً لأخواتها من عائلة الاهالي كصوت الاهالي وصدى الاهالي ونداء الاهالي التي صدرت بعد ذلك في الستينات في بغداد والبصرة من مدن العراق. كما ان هذا الاسم كان الأساس لجريدة الاهالي المصرية عندما اصدرها جماعة اليسار بقيادة الاستاذ خالد محي الدين في مصر أيضا.

ومما يذكر في مجال نشاط الاستاذ عبد الفتاح السياسي والثقافي انه عقب عودته من امريكا وتشكيل جماعة الاهالي - أصدر بالاشتراك مع الاستاذ محمد حديد والاستاذ علي حيدر سليمان رسالة (الشعبية) في جزئها الاول وقد شرح فيها =

الاطار والمبادئ للعمل السياسي الذي كان يزمع العمل به وقد تبلور وتطور نتيجة تطور وضع جماعة الاهالي ودخولهم مرحلة جديدة في العمل السياسي المحلي - بالعمل مع المرحوم الحاج (جعفر ابو التمن) والمرحوم الاستاذ كامل الجادرجي حوالي عام ١٩٣٥ وقد طبع الجزء الثاني من (الشعبية) كمنهج وبرنامج لعمل الجماعة بعد استمرار تطورها وتكاملها تحت اسم (جماعة الاهالي) كما انتهى اليه تكوينها بدخول المرحوم حكمت سليمان اليها، كما انضم عدد من الشباب منهم صادق كمونه وغالي زويد وجعفر البدر علاوة على عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد وحسين جميل وكامل الجادرجي وعبد القادر اسماعيل ونشوء ملتقى ثقافي وفكري فيها بين شباب مثقفين ثقافة اوربية ومؤمنين بالدمقراطية ومصلحة الشعب والعلمانية وباخلاقية الحوار الملتزم لمصلحة الجماهير العراقية مما حال بينهم وبين التنافس الشخصي.

ولقد واجهت جماعة الاهالي - بعد ان تكونت في عهدها الاول وكان الاستاذ عبد الفتاح منظرها وايديولوجيها الاساسي - امتحانها الأول وهي لما تزل هشة على غرار العلاقات الشخصية بين أعضائها وبإطارها الأساسي عندما انضمّ إليها كل من كامل الجادرجي وجعفر ابو التمن وحكمت سليمان ثمّ بكر صدقي العسكري وانشغال هؤلاء الاعضاء الجدد المهمين والاقوياء والمسيطرين بالهموم والمطامح والتدابير اليومية التي كان يتطلبها الصراع مع زميلهم القديم في السلطة والمعارضة المرحوم ياسين الهاشمي (رئيس الوزراء) آنذاك وانصرافهم الى تدبير محاولة انقلابية يشترك فيها العسكريون بقيادة بكر صدقي الذي كان يتمتع بسمعة عسكرية بارزة نتيجة حربه ضد التحركات الاثورية في الشمال وتحركات العشائر في جنوب العراق. وكان هذا الامتحان الذي عجزت عن احتوائه البيئة التنظيمية لجماعة الاهالي، بمثابة انعطاف جديد حدث للجماعة وخروج عن الدور الأساسي الذي رسمه لها الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم الذي كان يرتكز على العمل التثقيفي السياسي التقدمي وليس على المناورات والدخول في كواليس السياسات العسكرية والانقلابات والخصومات السلطوية وأساليبها اليومية وممارساتها البعيدة عن الروابط الخلقية لأصدقاء او خصوم يعيشون في قرية واحدة هي بغداد التي لم تكن آنئذٍ ليمكن وصفها بأكثر من ذلك، وعلى كل حال فإنّ الهشاشة التنظيمية للجماعة لم تستطع أن تحافظ على تماسك جماعة الأهالي منذ دخول المرحوم الفريق بكر صدقي العسكري إليها واعتباره عضواً في جماعة الأهالي وتأثير ذلك على أعضائها، ويروي الأستاذ عبد الفتاح أنّه في الاجتماع الأول للجماعة الذي حضره المرحوم بكر صدقي العسكري بترشيح من المرحوم حكمت سليمان تشاور =

= المرحوم بكر مع حكمت باللغة التركية التي يجهلها الحاضرون ولم يحلف المرحوم بكر اليمين المقررة للدخول في عضوية الجماعة.

قد أفاد المرحوم حكمت سليمان أن المرحوم بكر صدقي قد حلف تلك اليمين أمامه ـ أمام حكمت فقط ـ في محل آخر ممّا أدّى إلى تكهرب الجوّ في الاجتماع وعدم مناقشة البرنامج الذي كان هو الموضوع الأساسي للاجتماع بعد أن يحلف المرحوم بكر اليمين (يمين العضوية) وقد أدّت هذه الواقعة إلى إثارة شكوك عنيفة بين أعضاء الجماعة انسحب على أثرها الأستاذ عبد الفتاح من اجتماعات الجماعة وترك حضورها لتصادمه ـ في حينها ـ مع المرحوم حكمت سليمان الذي كان مصرّاً على أن تعمل جماعة الأهالي في السياسة اليومية وخصومات السلطة خلافاً لرأي الأستاذ عبد الفتاح الذي كان يؤيده فيه المرحوم جعفر أبو التمن علماً أن عضو أساسياً هو المرحوم الأستاذ عبد القادر اسماعيل كان قد ارتبط بالحزب الشيوعي وكان الباقي الذي يربطه إلى جماعة الأهالي علاقات شخصية تقدمية غير تنظيمية مع أنّه كان رسمياً مديراً مسؤولاً لجريدة الجماعة (الأهالي) وكان هذا من أسباب اعتراض الأستاذ عبد الفتاح أيضاً الذي آكّد وجوب عدم ازدواجية العمل في الجماعة وترك العمل في السياسة اليومية خلافاً لرأي بعض الأعضاء ومنهم المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي الذي أيّد حكمت سليمان وكان يظن أنّ مخالفة الأستاذ عبد الفتاح إنّما كانت لمآرب شخصية هي رغبته في التعيين بوظيفة حكومية وليست لخلافات سياسية عامة ، وبعد انسحاب الأستاذ عبد الفتاح من عضوية جماعة الأهالي انصرف إلى فكرته السياسية الأولى وهي بناء أساس ثقافي فكري لحركة سياسية تعتمد على العلمية والمعاصرة والتقيد بمصالح الشعب كلّه لاسيما الطبقات الشعبية الفقيرة واتفق مع كل من الدكتور فاضل الجمالي والدكتور عبد الجبار عبد الله (رئيس جامعة بغداد عام ١٩٥٩) والمرحوم كامل قزانجي المحامي على إصدار مجلة (العصر الحديث) التي عطلت في عام ١٩٣٨م حيث عمل على تأليف كتاب (مقدمة في علم الاجتماع) تمهيداً لإصدار كتاب (مقدمة في الديمقراطية) الذي حالت الحرب العالمية في أيلول ١٩٣٩م دون إكماله وإصداره. وقد تمّ طبع كتاب الاجتماع مرة ثانية تحت عنوان (دراسات في الاجتماع) ممّا أدّى إلى غضب السلطة الحكومية عليه ونقله إلى وظيفة (معلّم رياضة) في عانه وذلك باعتبار أنّ علم الاجتماع يتضمن نشر للمبادئ الهدّامة وفي عانه توثقت علاقة الأستاذ عبد الفتاح بالعانيين من قائمة التقدميين كعزيز شريف وعائلة الدكتور (عزة مصطفى) وابن أخته الدكتور شاكر وشريف الشيخ وغيرهم. وقد قضى الأستاذ عبد الفتاح طيلة أيام الحرب العالمية الثانية في وزارة المعارف العراقية =

= معلّماً للعلوم الاجتماعية والتاريخ للدراسة الثانوية والمتوسطة وتتلمذ على يديه الكثير من شخصيات العراق ونافذيه.

كما أنه قام بتأسيس شركة الرابطة للنشر والطباعة وقام ببناء دار لها ولمطبعتها على عرصات الصرافية قرب باب المعظم ببغداد حيث كانت مطبعة الرابطة التي أسسها الأستاذ عبد الفتاح مستورداً إيّاها من أحدث المطابع وأكثرها كفاءة في الشرق وكما أنّه ساهم في تأسيس شركة الجوت العراقية وهناك توثقت معرفته بالكثير من رجالات الصناعة الوطنية في العراق كالمرحوم عبد الهادي الجلبي والمرحوم نشأت السنوي والمرحوم عزة الخضيري وغيرهم وقد روى لي الأستاذ عبد الفتاح أنّه زار الهند ومكث فيها لدراسة تجربة المهاتما غاندي وتجمع حزب المؤتمر الهندي ولدراسة المجتمع الهندي بصورة عامة (الذي كان الكثير من المثقفين يرى آنئذٍ أنه كان سبباً في تغلغل الاستعمار في العراق) حيث كان كتاب (على طريق الهند) يمثّل هذا الاتجاه أيضاً.

وفي سنة ١٩٤٦ قام الحكم الملكي لغرض احتواء المدّ الشعبي واليساري الذي خلفه النصر السوفييتي في الحرب العالمية الثانية مع الحلفاء ضد النازية بالموافقة على تأسيس أحزاب وطنية شعبية يسارية منها الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني.

وقد أسس كلّاً من هذه الأحزاب المرحوم الأستاذ الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل للحزب الوطني الديمقراطي والمرحوم عزيز شريف وعبد الرحيم شريف وعبد الرزاق زبير وقاسم أحمد العبّاس لحزب الشعب والأستاذ عبد الفتاح وناظم الزهاوي والجواهري والسيد ناصر الكيلاني لحزب الاتحاد الوطني. كما أن الشيوعين قدموا طلباً لحزب (التحرر الوطني) وطلباً بتأسيس جمعية باسم (عصبة مكافحة الصهيونية) رفضت السلطة إجازتهما، وكانت جريدة السياسة كتبت تعليقاً على كلمة المرحوم الشيخ أمجد الزهاوي (الفقيه والمتصوّف ورئيس مجلس التميز الشرعي السني ببغداد) في الدفاع عن ابن أخيه المرحوم ناظم الزهاوي والكلمة هي (خير الأشخاص من يرشد وخير الحكومات من تسترشد) حينما سيق المرحوم ناظم إلى محكمة الجزاء إثر مقالة كتبها في جريدة السياسة، لسان حال الاتحاد الوطني يعالج مشاكل السياسة العراقية في حينها. لقد أثارت مقالة الأستاذ عبد الفتاح التي جعل كلمة الشيخ أمجد الزهاوي عنواناً لها ضجة في الأوساط السياسية والثقافية حينذاك لما يتمتع به كل من الأستاذ عبد الفتاح والأستاذ ناظم والشيخ الزهاوي من مكانة محترمة في جميع الأوساط. =

وفي صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ حينما أعلنت الجمهورية العراقية وسقوط العهد الملكي لم يقم الثائرون بإعلان اسم الأستاذ عبد الفتاح وزيراً بالرغم من تبوئه مكانة رئيسية في إحدى فصائل الحركة الوطنية فيما سبق التاريخ المذكور، والذي كان أغلب وزرائه أقصر باعاً منه في الحركة الوطنية المعاصرة في أواخر العهد الملكي في العراق. وقد يكون أن الأستاذ عبد الفتاح لم يكن على رأس حزب مشارك في جبهة الاتحاد الوطني التي تمثّل المعاصرة للعهد الملكي المكونة من الحزب الوطني الديمقراطي والشيوعيين والبعث والاستقلاليين وفئة من المستقلين ولما كان معروفاً في الأوساط القريبة من الضباط الأحرار الذين قاموا بتفجير ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عن المزاج المتشدد للأستاذ عبد الفتاح في مخالفته في الرأي للاتجاهات التسلطية غير الديمقراطية المطلوبة في الفترات الانتقالية كإعلان الجمهورية وربما كان ذلك لابتعاده عن التأثيرات العربية أيام الرئيس عبد الناصر وانعزاله عن الحياة السياسية آنذاك.

وعلى كل فإنّ الأستاذ عبد الفتاح لم يتردد في التعاون مع ثورة تموز وسلطاتها بعد ذلك وقبل منصباً في وزارة الاقتصاد حينما عرض عليه إبراهيم كبه مديرية مصلحة مصافي النفط الحكومية ورئاسة مجلس إداراتها وهي مهمة أساسية تتعلّق بإنتاج وصناعة النفط ولها علاقة بالعمّال والمهندسين والضمانات والمزايا الاجتماعية كما أنه كان في سنة ١٩٦٠ عضواً في مفاوضات النفط مع وفد الشركات في مرحلة المفاوضة الأولى في القصر الأبيض قبل انتقالها إلى وزارة الدفاع وخضوع الوفد العراقي لرئاسة عبد الكريم قاسم. وأذكر انّه دعي إلى معرض لابيتزغ في أوائل سنة ١٩٥٩ وكان ممثلاً لدائرته في برلين أثناء المعرض المذكور وبقي في علاقات وظيفية مع سلطة عبد الكريم قاسم حتى السماح بإعلان الأحزاب في ١٩٦٠ حيث قدم مع جمهرة من أساتذة الجامعات والمثقفين طلباً بتأسيس الحزب الجمهوري عندما أجيزت بعض الأحزاب بعد صدور قانون الجمعيات مثل الحزب الوطني التقدمي بقيادة الأستاذ محمد حديد والحزب الشيوعي بقيادة المرحوم داود الصائغ وغيرهما.

وفي هذه الفترة في حياة الأستاذ عبد الفتاح توفيت زوجته تاركة له سبعة أولاد منهم ثلاث أبناء، كبيرهم سنان وسمير وسعد وأربعة بنات كبراهن سوسن زوجة فاروق برتو وسحر وسرى وسلوى ويعتقد الكثير من أصدقاء الأستاذ عبد الفتاح ومريديه وتلاميذه وهم كثيرو العدد في مختلف المناطق والطبقات والفئات في العراق (إنّ من لطف المقادير أن يكون الأستاذ عبد الفتاح قد سافر إلى ألمانيا في الأيام التي سبقت ١٤ رمضان المصادف ٨ شباط ١٩٦٣) ذلك أنّهم يعتقدون أن =

في الرصيد الوطني للأستاذ عبد الفتاح وفي مزاجه وتاريخه السياسي ما كان مؤكداً أن «يجازى عليه» بقتله وتصفيته مع مَن صُفي في تلك الأيام من رجال الحركة الوطنية، وعلى كل حال فقد حجزت أمواله المنقولة وغير المنقولة ووضعت داره تحت المراقبة والتفتيش من قبل سلطات الأمن وميليشيات الحرس القومي واستولى الثوّار على مكتبه في مطبعة الرابطة وعلى المطبعة نفسها ومسودّات المطبوعات. ولم يصدر القانون بتأميم الشركة والمطبعة إلّا بعد بضعة شهور كانت المطبعة أثنائها تُدار عشوائياً.

وكان عبد الفتاح وأولاده خارج وداخل العراق يفتقرون إلى الاستقرار وإلى الإنفاق للدراسة والعيش إذ كان بعض أبنائه وبناته في ألمانيا لدراسة الطباعة وفي الاتحاد السوفياتي لدراسة الطب والهندسة وكانت صغرى بناته سلوى مع والدها بين ألمانيا وبراغ ثم في بيروت حيث استقرّ في محلة ساقية الجنزير بجوار دار الشاعر بلند الحيدري وبعناية منه ومن زوجته مشكورين بالأستاذ عبد الفتاح، وقد استمرّ هذا الوضع إلى أن عاد إلى بغداد في أواخر العهد العارفي وفي زمن وزارة العميد ناجي طالب وبمساعدة من الأستاذ عبد القادر الشيخلي تلميذ الأستاذ عبد الفتاح في إحدى ثانويات بغداد. وقد راجعتهما معاً لأجل إلغاء مذكرة التوقيف بحقه في المطار الصادرة عام ١٩٦٣، وعلى كل حال فقد تمّ إلغاء مذكرة التوقيف وحجز الأموال وصدر قانون التأميم للتعويض بالقيمة الاسمية (١٠٠,٠٠٠ دينار) لشركة الرابطة مع أنّ موجودات المطبعة والبناء تعادل أكثر من ذلك بكثير، وقد دفع مبلغ التعويض مقسطاً على عشر سنوات، وقد ساعد ذلك في قيام الأستاذ عبد الفتاح بمشاركة أبنائه في تأسيس مشروع معمل الأواني البلاستيك في المدينة الصناعية في الصرافية، ويعيش الأستاذ عبد الفتاح الآن في داره بالصليخ في الأعظمية ببغداد مبتعداً عن الحياة العامة عدا صلته بأولاده وابن خالته الشهم الألمعي الطيار المتقاعد يوسف عزيز وبعض الأصدقاء حيث يستقبلهم صباح أيام الجمع ومنهم محمد حديد عندما يكون في بغداد. وإنّ آخر ما كتب الأستاذ عبد الفتاح من الكتب هو دراسة عن مقدمات الماركسية (الاقتصاد الإنجليزي والثورة الفرنسية والفلسفة الألمانية) وقد تمّ طبعه في دار الطليعة اللبنانية بمساعدة من الأخ الدكتور خير الدين حسيب في بيروت. وكنت قد سافرت مع الأستاذ عبد الفتاح إلى بيروت في السبعينيات وتمّ الاتفاق آنئذٍ على طبع الكتاب الذي منع نشره وتداوله في العراق. انّ الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم من أساتذة الجيل في العراق وهو أول من نبّه في كتابه (على طريق الهند) إلى نظرة الاستعمار الغربي إلى منطقتنا نظرة متكاملة كما أنّه من أوائل مَن نبّهوا المثقفين العراقيين إلى أهمية =

الاستاذ عبد الفتاح الكبرى (السيدة سوسن). أما والد المرحوم عبد الجليل فهو حسن بن برتو، وبرتو هذا كان احد الموظفين الاتراك الذي جاء الى بغداد في العهد العثماني من اسطنبول وسكن في محلة (القراغول) في بغداد. وقد تزوج من امرأة بغدادية وأصبح بغداديا بعد ان سكن بغداد بصفة دائمة (كما يسمي الناس كل العثمانيين الذين يتزوجون ويسكنون في بغداد) ويبدو ان لبرتو امرأة تركية اخرى بقيت مع ابنها وهو ضابط عسكري تركي في اسطنبول وهي جدة توفيق برتو المشهور في بغداد في بداية الحكم الوطني وهو ابن العسكري التركي المشار اليه. ان توفيق برتو ابن عم عبد الجليل وقد كان يتردد لزيارة اقربائه في بغداد ثم استقر عند تأسيس الحكم الوطني ببغداد وأصبح نائباً محسوبا على جماعة المرحوم نوري السعيد ، وشخصاً مشهوراً في بغداد وهو اب لشاب اسمه (برتو) كان مهندسا في شركة نفط العراق في كركوك وقد توفي برتو شابا وله اربع اخوات هن بنات توفيق تزوجت كبراهن (نظيمة) من المرحوم تحسين العسكري (اخ المرحوم جعفر العسكري) ـ وقد كان المرحوم تحسين احد رجالات العهد الملكي ضابطا عسكريا عثمانيا وهو من بناة الجيش المعروفين وقد صار وزيرا للداخلية في احدى وزارات العهد المذكور. أما البنت الثانية فهي (معزز) وكانت من اوائل النساء العراقيات اللواتي اشتغلن بالتعليم في العراق ثم تزوجت من الدكتور اللبناني (يوسف روضة) استاذ الامراض الجلدية في كلية الطب بالجامعة الامريكية في بيروت وقد كان الدكتور روضة شخصية اجتماعية معروفة وصديقا للسياسين العراقيين اما البنت الثالثة فهي مديحة زوجة المرحوم ابراهيم كمال (توحلة) وزير المالية الاسبق مع جميل المدفعي في العهد الملكي ايضا، وعضو مجلس الأعيان

= الأيديولوجيا والنظرية السياسية في العمل السياسي والأحوال السياسية في البلاد. وتربطني به صلات شخصية أعتزّ بها غالي الاعتزاز وقد سكنت معه في دار واحدة في القاهرة عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م وكنّا هناك معاً أثناء وفاة عبد الناصر وكان مثال الثقافة والأمانة والكرم والسماحة وصدق اللسان واليد والضمير.

وهو من عوائل الموصل المعروفة بالقوة والنفوذ، اما البنت الرابعة فقد تزوجت بالعراق أيضاً من المرحوم مظفر أحمد (ابن خالتها) وكان متصرفا للواء البصرة أيام الحرب العالمية الثانية وهي أم نزهون زوجة المهندس المعروف صديقنا نذير قيردار من وجهاء كركوك وكان والده من نواب كركوك في بداية العهد الملكي. إن عبد الجليل برتو ـ كما يبدو ـ من عائلة من أتراك اسطنبول وليس من تركمان كركوك او المناطق الاخرى كما يعتقد البعض، اذ كان افراد عائلة توفيق برتو يتكلمون التركية باللّهجة الاسطنبولية وليست بلهجة أهل كركوك ولا علاقة لكركوك بهم الا أن ابنهم برتو بن توفيق قد اشتغل مهندساً في شركة نفط العراق البريطانية لمدة محدودة.

ويقول الاخ فاروق عبد الجليل ان برتو جد عبد الجليل كان موظفا عثمانيا معروفا في بغداد وان عبد الجليل لا يتذكر عن جده شيئا لأنه كما يبدو قد عاد الى تركيا او توفي قبل ولادة حفيده عبد الجليل وقد ذكر له يوسف حنظل ان دار برتو كانت في محلة القراغول في الرصافة ببغداد وإنه كان في صغره يخشى المرور أمامها خوفا من حراسها الجندرمة (الشرطة)[1] المسلحين المعروفين بالقسوة وجفاء القلب في تلك الايام. اما

(١) الجندرمة ـ جهاز عسكري مسؤول عن الامن الداخلي وتنفيذ الاوامر الحكومية في زمن الدولة العثمانية في عهودها الاخيرة وبعد ان تبنت التنظيمات الادارية الاوروبية في عهد السلطان محمود الثاني في اوائل القرن التاسع عشر. ويبدو ان الكلمة فرنسية الاصل لأن السلطان محمود كان قد اقتبس نظام الجندرمة من الادارة الفرنسية وقد عُربت الى كلية الشرطة ونظامها بعد الحرب العالمية الاولى.

لقد كانت الدولة العثمانية تأخذ بنظام (الهايته) وهي منظمات شبه عسكرية تقوم بمسؤوليه الامن الداخلي وتنظيم الدولة قبل ان يطبق نظام الجندرمة في زمان المماليك وما زال البغداديون يذكرون رئيس الهايته (الحاج احمد اغا) كشخصية معروفة في بغداد اقرب الى الشخصية الاسطورية في التصرف الكيفي للحاكم الجاهل الظالم المستهزئ بالحرية والمنطق والقانون وقد بقي من نظام الهايتة الى عهد قريب بعض الاثار الكيفية وتصرفات الحاكم الشرقي الجاهل وإني لأذكر ان مدير شرطه البادية في العراق الى الثلاثينات من القرن العشرين كان امياً لا يحسن الكتابة والقراءة ولكنه يتصرف بالصحاري الغربيه شرق الوادي والنجف وشمالي =

زوجة برتو العراقية (والدة حسن برتو وجدة المرحوم عبد الجليل) فكانت احدى ثلاث شقيقات احداهن جدة نشأت السنوي (الوزير والمحامي والسياسي وأمين العاصمة السابق في بغداد في العهد الملكي وقد اصبح بعد ذلك رجل اعمال نشيط وصناعي عراقي معروف وتوفي بعد ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣) وكذلك فهي جدة كمال السنوي المحامي المعروف، وال السنوي من الاسر المعروفة ببغداد، الكردية الاصل ذات الثقافة الدينية الاسلامية ومن بلدة (سنة) من كردستان الايرانية في غربي ايران على حدود العراق. اما الشقيقة الاخرى فهي جدة عائلة متولي اوقاف جامع الامام الاعظم ابي حنيفة في العهد العثماني.

ومن هنا تأتي علاقة المرحوم عبد الجليل بهاتين العائلتين المعروفتين، وما ثار من مشاكل أوقاف متولي الاعظمية والمرتزقة فيها وخصوماتها مما جر الوبال على المرحوم عبد الجليل عند اعتقاله بعد ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣. اما أم عبد الجليل زوجة حسن برتو فهي امرأة كردية من السليمانية من عائلة دينية اسمها (فاطمة) وكانت امرأة متدينة تحفظ القران الكريم عن ظهر قلب، وتتمتع بتلاوته وتحافظ على التقاليد بتشدد، بعكس زوجها حسن برتو الذي كان متلافا كما يذكر حفيده الدكتور فاروق ولذلك فقد طلق حسن زوجته في طفولة ابنها عبد الجليل وانتهى الامر بحسن كمدير ناحية ينتقل بين نواحي محافظات البصرة والعمارة والديوانية، وكانت عنده بالاضافة الى المرحوم عبد الجليل بنت واحدة اكبر من عبد

= العراق تصرفا كيفيا بعيدا عن القانون على طريقة اسلافه في نظام الهايته العثمانية. ويبدو ان الحاج احمد اغا كان مخيفا لدى اهل بغداد حتى إني قرأت رسالة مكتوبة عن ابي الثناء الألوسي صاحب تفسير (روح المعاني) الشهير وهو شخصية بغدادية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وعالم ديني شهير وكان يكتب الى صديقه رئيس بلدية الكرخ محمود جلبي والد الاستاذ محمد القشطيني رئيس محكمة تمييز العراق سابقا وفي بعض محفوظاته الشخصية عن والده رسالة يذكر فيها الألوسي اسم احمد اغا باسم (مولانا الاغا) احتراما له وتحاشياً عن ذكر اسمه على طريقه القدماء في الاحترام والتبجيل.

الجليل من نفس الام اسمها نجيبة وهي زوجة صبري افندي امين صندوق البصرة، وقد خلفت منه ابنها كمال وكان موظفا في شركة نفط البصرة كما خلفت بنتا اسمها فاطمة تزوجت من عبد المجيد يوسف السالم البدر وكان ضابطا في الجيش العراقي. اما ابناء صبري أفندي الاخرون فاضل والد عباس فاضل وكان موظفا ببلدية البصرة وأحمد ايوب صبري الذي كان كاتب أول في محكمة صلح البصرة فهما من زوجة صبري افندي الاولى.

الفصل الرابع

لقد نشأ المرحوم عبد الجليل متنقلا بين والده في النواحي العراقية وبين دار صبري افندي عند شقيقته الكبرى نجيبة في حياة صعبة اذ كان يقوم بالعناية بوالده وتدبير اموره عندما كان أبوه يعيش معه أو في دار شقيقته عند صبري افندي الذي يبدو انه كان في عيشة ميسورة راضية وكان كما يروي الدكتور فاروق مضيافا كريما، ومن هنا فيبدو ان المرحوم الاستاذ عبد الجليل نشأ عصاميا مجداً منصرفا الى دراسته في المدرسة الرسمية المسماة بالمدرسة الرشدية في العمارة والبصرة، وبعد تخرجه منها اشتغل لفترة قصيرة كاتبا في دائرة البريد واللاسلكي في البصرة في اوائل ايام الاحتلال البريطاني للبصرة عام ١٩١٥، ثم انتقل الى بغداد وعمل كاتبا ورئيس كتاب في وزارة المعارف ثم التحق بكلية الحقوق وتخرج بين السنتين ١٩٢٤ و١٩٢٥ وتزوج في تلك الايام من السيدة حورية بنت مصطفى المدرس[1] (إمام جامع جديد حسن باشا) ومدرس اللغة العربية في المدرسة العسكرية.

إنَّ مصطفى المدرس هو ابن عم السياسي والكاتب العراقي المعروف

(١) آل المدرس: هم انسباء المرحوم الاستاذ عبد الجليل برتو ويبدو لي انهم من القيسية البغدادية (الكرويه) الذين ينتسب اليهم الدكتور احمد عزة القيسي والحاج قاسم القيسي مفتي بغداد وآل حقي الشبلي وآل جميل عبد الوهاب وغيرهم، ومنهم السياسي والكاتب المعروف (فهمي المدرّس).

الاستاذ فهمي المدرس وقريب عبد الوهاب الدبّاغ[١] وقد فضل المرحوم عبد الجليل العمل في المحاماة على ان ينخرط في احدى الوظائف بعد تخرجه من كلية الحقوق اذ كانت الوظائف متوفرة وتعرض في بداية تشكيل الجهاز المدني في العراق على خريجي كلية الحقوق وذلك تعزيزا للجهاز المدني في العراق في ذلك الحين، وقد عاد المرحوم عبد الجليل الى البصرة حيث اشتغل بالمحاماة مشاركة في مكتب المرحوم محمد زكي محمود المحامي[٢]لعدة سنوات قبل ان يستقل لنفسه بمكتب منفصل. وقد انتخب المرحوم عبد الجليل في الثلاثينات والاربعينيات عضوا في المجلس البلدي بالبصرة الذي كان يتسم بمزايا استثنائية اجتماعية وادارية تميزه عن باقي البلديات في المدن العراقية الاخرى وفي اوائل الحرب العالمية الثانية قبل بالتعيين رئيساً لبلدية البصرة بالحاح متصرف البصرة انذاك ـ عبد الحميد عبد المجيد ـ ثم اقنعه المرحوم داود الحيدري (وزير العدل حينذاك) بالتعيين رئيسا للتسوية في الديوانية ومنها اقترح صالح جبر[٣](ابان

(١) عبد الوهاب مصطفى الدباغ: الذي يعد من كبار الشخصيات الوطنية والاداريين المعروفين بالنزاهة والكفاءة والاتجاهات الوطنية، وصل الى متصرفية لواء الرمادي في العهد الملكي. وفي زمن ثورة ١٤ تموز كان مديرا عاما لشركة التأمين الوطنية وعمل في هذا المجال كثيراً وتوفي في الستينات. وهو من اصل بغدادي من محلة (باب الشيخ) وصديق لقادة الحركة الوطنية في مشارف ثورة تموز ومن الناس الممتازين.

(٢) محمد زكي محمود: من الشخصيات الاساسية في العهد الملكي في العراق بدأ حياته محاميا ناجحا في البصرة اذ انه من الضفة الشرقية لشط العرب. ثم عمل في السياسة وصار وزيرا للعدلية ورئيسا لمجلس النواب في الحكومة التي قوضها انقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦. وقد بقيت سمعته محمودة في البصرة كمحام وسياسي متمسك بالمصالح الوطنية العامة. واخوه الاصغر هو المرحوم الاستاذ عبد الوهاب محمود نقيب المحامين العراقين الاسبق وكان من زملاء محمد زكي المحامي في البصرة نجيب ثنيان وسليمان فيضي ومحمد احمد خان بهادر وسليمان الشواف.

(٣) صالح جبر: هو السياسي العراقي المعروف تخرج من كلية الحقوق العراقية في =

وزارة حمدي الباججي)[١]بان يعمل رئيسا لمشروع اعمار الدجيلة[٢]، ثم استقال المرحوم الاستاذ عبد الجليل من رئاسة المشروع وعاد الى البصرة حاكما في محاكمها لمدة قصيرة حيث نقل بعدها للتفتيش الاداري وكانت هذه الوظيفة بمثابة استبعاد وراحة مؤقتة عن العمل يحال اليها المغضوب عليهم لعدم الرضى عن سلكوهم من كبار الموظفين في الدرجة الاولى كما حدث للمرحوم عبد الجليل اذ أعيد الى التفتيش أيضا بسبب حديث أدلى به وهو متصرف (محافظ) كركوك لإحدى الصحف البريطانية ينطوي على نقد للحكومة العراقية على ضيق صدرها بالصحافة وحرية الرأي وعلى عقابها ممارسي حرية النقد وابداء الرأي ولومه السلطات على ممارسة ذلك تجاه

اواسط العشرينيات وعين حاكما ثم انتقل الى الادارة في اوائل الثلاثينيات كمتصرف للواء البصرة وعرف بفتحه شارع كورنيش البصرة وبحزمه وادارته وعدله في اللواء. ودخل وزارة حكمت سليمان في عهد بكر صدقي العسكري وبعد ان اصبح صالح جبر من اكثر الرجال في العراق قوة وقريبا للحاكمين من السياسيين ووزيراً في معظم الوزارات صار رئيسا للوزراء في وزارة انتهت بمظاهرات عارمة وتتلى فيما سمي بوثبة سنة ١٩٤٨ بعد عقده اتفاقية جبر - بيفن وزير خارجية بريطانيا ومعاهدة بورتسموث تعديلا لمعاهدة ١٩٣٠ البريطانية العراقية. وقد شكل المرحوم صالح جبر حزب الامة الاشتراكي بعد ذلك ودخل الانتخابات ويعتبر من السياسين الملتزمين المبادئ البرلمانية.

(١) المرحوم حمدي الباججي من العوائل البغدادية الشهيرة كان رئيسا للوزراء في ايام الحرب العالمية الثانية وكان المرحوم صالح جبر من مراكز القوة في هذه الوزارة ووزيرا فيها.

(٢) مشروع اعمار الدجيلة: مشروع اعماري تنموي كما وضع في العهد الملكي لتنمية اجزاء من مناطق وسط العراق زراعيا واقتصاديا واجتماعيا بعد اكمال سد الكوت ويبدو ان المشروع كان يستهدف توزيع المياه على نواظم تخترق الارض الزراعية التي توزع على الفلاحين هناك ملكيّات صغيرة مع انشاء صناعات مكملة كالمحالج بالنسبة لزراعة القطن وتوفير حياة اجتماعية ثقافية مكملة. وقد رأيت عام ١٩٥٩ مكائن محلج كامل مستورد في اطار المشروع قبل سنوات ومخزون في مخازن يعج فيها البوم ويطير الخفاش اذ لم ينجح المشروع في حينه لكثرة الاملاح في الارض كما يزعمون مع انه كان يراد به ان يكون على غرار وادي (تنسي) في الولايات المتحدة.

المواطنين. ومن وظيفته في التفتيش الاداري انتقل ـ بصورة هادئة وبالتدريج الى المحاكم العدلية رئيسا لاستئناف منطقة عدلية ثم وصل الى عضوية محكمة تمييز العراق ثم انتقل رئيسا لمجلس الخدمة العامة، وبعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ انتقل الى رئاسة ديوان مجلس الوزراء.

لقد حاضر المرحوم عبد الجليل برتو في كلية الحقوق في تلك الفترة في أصول المحاكمات الجزائية وألف كتابا في شرح اصول المحاكمات الجزائية في العراق، كما ألف كتابا آخر في أصول المحاكمات الحقوقية (المدنية). ولا أدري ان كانت له مؤلفات حقوقية اخرى علمانه كان يعتبر من العقليات القانونية المتميزة بالتحقيق والاحاطة والبديهة الحاضرة والذكاء والتفوق في الاعمال القانونية في المحاماة والقضاء وفي أعمال الادارة أيضا.

الفصل الخامس

وانى لأتذكر ان مجلس الوزراء في العهد الجمهوري سنة ١٩٦٠ قد اتجه الى اعادة تنسيق الجهاز الحكومي ودراسة ملاك الموظفين في الدولة العراقية في اتجاه نقل الموظفين الزائدين عن حاجة العمل في بعض الدوائر والمؤسسات الحكومية الى حيث يكون الجهاز بحاجة اليهم في دوائر اخرى وذلك على الخصوص في نقل الموظفين الزائدين في وظائف الادارة الى التعليم او نقل مفردات الملاك من الدوائر التي يفيض عددها عن حاجتها الى الدوائر الاخرى التي يحتاج ملاكها الى توسع واستزادة في عدد الموظفين ـ اي ان جوهر الاقتراح كان اعادة دراسة ملاك الدولة العراقية واعداد المقترحات لتوزيع جديد لموظفي الملاك على الدوائر والمؤسسات بغرض تهيئة الموظفين واعدادهم الى حيث تقوم الحاجة اليهم بدون ان تتكلف الدولة رواتب ومخصصات ادارية جديدة وذلك بالنظر للتضخم المفرط في جهاز الدولة بما لا تتسع له ولا تغطّية موارد الميزانية العامة المتوفرة.

وقد فضل المرحوم عبد الكريم قاسم على عادته في عدم تشجيع الخبرة الادارية الاجنبية ـ ان يقوم مجلس الخدمة العامة بهذه الدراسة

واعداد المقترحات المفترضة للتنسيق، لان خبرائنا العراقيون اعرف بالخصائص العراقية علاوة على التطلع الى تشجيع المؤسسات العراقية على الدراسة والتوجيه وإلى تراكم الخبرة العراقية الفنية لدى مؤسسات وطنية لتصبح بالتدريج اقدر على الدراسة واعادة النظر في تخلف مؤسسات الدولة. وبعد ان تبلغ رئيس مجلس الخدمة المرحوم عبد الجليل برتو بهذا التكليف ـ قابلته صدفة ـ وكنت اشغل وكالة وزارة المالية وكان اقتراح اعادة دراسة وتنسيق ملاك الدولة صدر عن طريق وزارة المالية فناداني بلهجته المحببة الجريئة سائلا عن هذا الاقتراح وهل هو اقتراح جدي لتنسيق الملاك، ام مناورات سياسية لا تستهدف التحقيق والتنفيذ العملي بل الدعاية الاعلامية، او اي غرض آخر، ولقد اكدت له جدية الموضوع فلم يصدق وأجاب بتشكك كوميدي ـ كان يتميز به اسلوب المرحوم عبد الجليل ـ بانه سيقوم بدراسة التنسيق لدائرة ملاك مجلس الوزراء اولا على سبيل التجربة لنرى مدى الجدية في قبول مقترحاته.

ولقد قام فعلاً بالدراسة وأرسل تقريره المعد عن مجلس الوزراء (الديوان) مقترحا تقليص ملاك ديوان مجلس الوزراء والغاء ونقل كثير من مفردات الوظائف من الملاك لا سيما وان اكثر الوظائف حينذاك ليست مشغولة لان اعمال المجلس كان يقوم بها سكرتيرو وزير الدفاع ومرافقوه ما دام رئيس الوزراء هو وزير الدفاع عبد الكريم قاسم نفسه ولم تكن هناك خطة لاستقلال رئيس الوزراء عن وزير الدفاع واختصاصه بمحل وادارة مستقلة. وقد رفض المرحوم عبد الكريم قاسم في حينه مقترحات عبد الجليل برتو لان اعادة النشاط في ديوان مستقل لمجلس الوزراء كانت امنية من اماني عبد الكريم قاسم ولكن بعد انهاء الوضع الاستثنائي الذي ابتدأ بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ حيث تعود آنئذ بعد انتهاء الوضع الاستثنائي الحاجة الى الوظائف المحددة في ملاك مجلس الوزراء التقليدي والمديريات العديدة المخصصة له بعد انتهاء تجميع السلطة وممارستها في وزارة الدفاع وجهاز الوزير ومعاونيه فيها على اختلاف اختصاصات ديوان مجلس الوزراء وأهمية الدراسة العلمية فيه. وقد ترك مشروع تنسيق الملاك برمته بعد ذلك.

الفصل السادس

كان المرحوم عبد الجليل أحد الاشخاص الذين كان الرأي العام الوطني في العراق يرشحهم لتبوأ منصب اداري أساسي في السلطة المدنية التي تعقب أي تبدل في السلطة الملكية في السنوات التي سبقت ثورة تموز سنة ١٩٥٨ وكان هو مع عبد الوهاب الدباغ وهاشم جواد وناظم الزهاوي وعبد الرزاق الظاهر وعبد الرزاق زبير[1] وأحمد جمال

(١) عبد الرزاق زبير: هو حفيد الحاج عبد الرحمن الشيخلي وكان جده من رجال الدين من بغدادي اواخر القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين وكان يسكن وينتسب الى محلة (باب الشيخ) حيث يوجد بها مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الطريقة القادرية الصوفية المعروفة في العالم الاسلامي سيما في الهند وباكستان والافغان والعراق. والحاج عبد الرحمن الشيخلي هو الصديق الاقرب والحميم من عائلة جدي طه الشواف وابنائه عبد الملك وابراهيم وأبي علي وأخيه احمد الشواف وولديه عبد العزيز وعبدالله وكذلك حسين وحسن الشواف ابناء أبي محمد علي. ولقد كنا اطفالاً في الثلاثينات نزور الشيخ عبد الرحمن في دكانه القريب الى سوق الصفافير في الرصافة حيث يبيع الحاجات الحريرية القديمة المصنوعة من الحرير المنتج قرب بغداد لا سيما الانطقة والحزم الحريرية التي كثيرا ما استعملها وجهاء بغداد في الملابس التقليدية الشعبية لارتفاع ثمنها. وكان يجمع في دكانه كبار وجهاء بغداد من امثال السيد عاصم افندي بن عبد الرحمن النقيب الكيلاني والحاج عبد اللطيف ثنيان والسيد طاهر الراضي (والد خليل واسماعيل وعمر الراضي وكان من كبار وجهاء بغداد وأشرافهم ايضا) وغيرهم.

كان الشيخلي طويل القامة نحيفا رشيقا نشطا اذ كان في شبابه احد رواد الزورخانه في محلة باب الشيخ والزورخانه مربع لممارسة العاب القوة والرياضة مخلوطة بطقوس دينية تمجد ذكرى امام الرياضة الاول في الاسلام علي بن أبي طالب وكانت هذه المرابع الى آخر العهد العثماني منتشرة في بغداد. كما ان الشيخ عبد الرحمن كان من اشهر المشاءين من البغداديين يسير في يوم واحد من باب الشيخ الى الكرخ حيث دار الشواف ويصلي صلاة الفجر في الشيخ معروف الكرخي ماشيا الى الكاظمية فالاعظمية فباب الشيخ وعائدا الى داره مشيا على قدميه وعندما رأيته وهو شيخ كبير السن كان مثال الانسان الودود السمح الرضي المحبب الى الصغار والكبار. وقد توفي رحمه الله بعد ان تجاوز التسعين عاما في =

الدين[1] وعبد الجبار الجلبي من بين الاسماء التي كانت تتردد كثيرا لأشغال مناصب هامة في الجهاز المدني الجمهوري وقد تم تعيين المرحوم هاشم جواد وزيرا للخارجية وناظم الزهاوي وزيراً للتجارة وكان المرحوم عبد الجليل برتو مرشحا لوزارة العدل بعد استقالة الاستاذ مصطفى علي وهوالمركز الذي أشغله المرحوم رشيد محمود في حينه الى ان حدثت ثورة ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ وانتهت الجمهورية الاولى في رمضان ١٩٦٣ ثم اعتقال المرحوم عبد الجليل برتو في المعتقل رقم ١ في معسكر الرشيد وقد

= أواخر الخمسينيات من القرن العشرين وكان الى حين وفاته صديقا لآل الشواف اثيرا عندهم حبيبا اليهم عزيزا عندهم جميعا. وقد سمعت منه في أواخر ايامه عتاب على عمي المرحوم ابراهيم (أبي حامد) لانقطاعه عن تفقده وزيارته مدة طويلة. ويبدو ان ابن عبدالرحمن والد عبد الرزاق وكان يسكن العمارة مع انسبائه اخوال عبد الرزاق وهم من باب الشيخ ايضا، وقد توفي ووالده الحاج عبد الرحمن على قيد الحياة. وقد نشأ عبد الرزاق واخوانه في العمارة وتخرج من كلية الحقوق وعمل محاميا في محاكمها ثم رئيسا للبلدية فيها علما انه تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٤١ في دورة ابراهيم كبة وطلعت الشيباني وزكي عبد الوهاب ثم انضم الى حزب الشعب بقيادة عزيز شريف وعمل في رئاسة بلدية العمارة اثناء ما كان المرحوم سعد صالح وزير الداخلية الاسبق متصرفا فيها. ترشح عبد الرزاق نائبا عن العمارة اكثر من مرة. وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ اصبح احد الموظفين الاساسيين في وزارة الاصلاح الزراعي لان هذا الموضوع كان اثيرا لديه وقد كتب فيه وعمل عضوا في لجنة وضع قانون الاصلاح الزراعي الاول وفي تعديلاته بعدئذ لأهمية الموضوع وتطبيقاته في منطقة العمارة. وفي السبعينات عمل مستشارا في التدوين القانوني ومحامياً في بغداد بعد ان تقاعد عن العمل الحكومي. وقد تزوج الاستاذ عبد الرزاق من ابنة خاله في العمارة وقد توفيت الى رحمة الله وكان قد خلف منها اولاداً وبنات يسكن بعضهم ويعمل في لندن.

(١) احمد جمال الدين: من الشخصيات العراقية البارزة منذ ما قبل ثورة تموز سنة ١٩٥٨. اصله من النجف درس الفقه كالاساس الثقافي والعلمي له، تخرج من كلية الحقوق وعمل قاضيا وقانونيا وسياسيا تقدميا قريبا من الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم في حزب الاتحاد الوطني والحزب الجمهوري كما عمل مستشار قانونيا في ادارة الاصلاح الزراعي وهو معروف بالكفاءة والحزم والصراحة.

بقي في المعتقل حوالي الشهرين ولم يستطع نفسيا ان يفسر لنفسه أو يقنعها سبب حبسه واعتقاله، وقد زرته بعد اطلاق سراحه في داره التي كانت تقع في الشرق من المنصور في منطقة عمارة المنصور وقد شيد فيها رحمه الله دارين متلاصقين صغيرين ما زالت زوجته تسكن في احداهما الى الآن، وقد لاحظت في نظرة المرحوم الاستاذ عبد الجليل وتعليقاته علامات الاسى والحزن والرضا بالقدر ـ رضا العجز عن تفسيره او تبريره وعلى عادته قال رحمه الله (هذا الامر ـ الاعتقال جربناه ايضا لئلا نموت قبل ان نعرفه) وقد سمعت في حينه انه عومل بقسوة في المعتقل، معاملة غير لائقة بمكانته الاجتماعية والعلمية ومنصبه ومنزلته ومن هو في فضله وقد بلغ حوالي الستين عاما من العمر او يزيد وقد جرى تسفير المرحوم عبد الجليل محمولا على نقالة الى لندن بعد ان اشتد عليه المرض الذي اقعده عن ممارسة انشطة الحياة وهو مرض لم تعرف أسبابه طبياً.

وفي مارس ١٩٦٤ توفي ودفن في بغداد وبذلك انطوى علم من أعلام الخلق الرصين والصدق والجرأة والصراحة وحب الناس والاهتمام بأمورهم والتذوب في المصالح العامة والتقدم في الفكر والسلوك وممثل بارز لجهاز الخدمة المدنية الذي كان يتميز به العراق والوضع السياسي والاداري فيه قبيل ثورة تموز ١٩٥٨ حيث تكون في العراق تدريجيا خلال العهد الملكي جهاز للخدمة المدنية كان على رأس المنطقة وأجهزتها من حيث الكفاءة الفنية والادارية والعلمية اذ تكون تدريجيا من بقايا موظفي الدولة العثمانية القديمة ومن مبرزيهم وهي دولة قديمة كانت تنافس الدول الكبرى في التنظيمات الحربية والمدنية ممزوجة بأساليب الادارة البريطانية المنطقية واللبرالية بعد الاحتلال، وكل ذلك ضمن شعارات الاصلاح والاحياء الاجتماعي والديني التي أدت اليها المسألة الشرقية والصراع مع الغرب الاستعماري وشعارات المساواة والاخوة والحرية للجميع التي ارتفعت خلال عهد ثورة المشروطية في تركيا عام ١٩٠٨ وما أعقب ذلك من دعوات الجيل العراقي أيام ثورة العشرين والدعاوى القومية التي واكبت تشكيل الحكم الوطني الى تأسيس دولة في العراق كقاعدة لوحدة عربية أساسها الاصلاح الاداري والاجتماعي والسياسي

تهيء لهذه البلاد وقاطنيها المجد والرخاء والتقدم وتكون بالنسبة للعرب ماكانت عليه بروسيا بالنسبة للالمان في شتى اقطارهم. لقد مات المرحوم عبد الجليل برتو بعد ان كان على رأس الجهاز المسؤول عن تكوين وتطوير الخدمة المدنية العراقية ووضعه في خدمة الناس وتقدم المجتمع، ولكنه مات حزينا ويائسا ومحبطاً بعد ان وجد ان ما بذرته يداه وتوخاه بجهده وحياته قد انتهى بالإساءة اليه شخصيا بما يخالف تطبيق قواعد الخدمة والقرار الاداري الذي يضمن حرية الناس وأموالهم وذلك بعد حياة حافلة بالعمل الوطني والعلاقات الواسعة مع الناس في نشاط عملي وفكري واجتماعي وجدية والتزام بالعمل والواجب مع دراسة متأنية متسعة لكل ما كلّف به من عمل مع نظافة في اليد والضمير وحرص على إحقاق الحق في ما كان يعن له ويواجهه من مشاكل الناس، وسعة أفق وخيال وتخيل لكل ما هو جديد ومخالف للسنن القديمة الرديئة التي كونت أسباباً وبزوراً للتخلّف ولو خالفت العقل والمنطق الذين دعا المرحوم عبد الجليل إلى تحكيمهما بما هو معروف عنه من الصدق والإخلاص وحب النكتة والمزاج اللطيف Sencse of humour مما كان يمتاز به المرحوم عبد الجليل في تعامله وفي معايير اختياراته وقراراته.

الفصل السابع

لقد خلف المرحوم عبد الجليل برتو بعد وفاته ثلاثة ابناد أكبرهم الدكتور فاروق الطبيب الذي انتهى المطاف به في مركز أساسي (مديراً عاماً مساعداً) في منظمة الصحة العالمية في جنيف قبل ان يحيل نفسه الى التقاعد ويستقر في سويسرا، والثاني اميل الذي اكتسب الجنسية الالمانية وعاش طيلة حياته في اوربا (كرجل اعمال)، والاصغر عماد وهو مهندس يعيش ويمارس مهنته في انجلترا، كما خلف ثلاثة بنات كبراهن بشرى زوجة المرحوم الدكتور رحيم عجينه والثانية هناء زوجة وليد اسماعيل صفوت[1] الثالثة عوالي زوجة

(١) اسماعيل صفوت: هو والد وليد وهشام صفوت. كان ضابطا كبيرا من خريجي المدرسة العثمانية العسكرية ومن ضباط الجيش العراقي واحد بناته مع المرحوم طه الهاشمي وبكر =

الدكتور فيصل حبة، وابناؤه من الملتزمين المخلصين المعروفين بنصرة الحركة الوطنية وكان كل من الدكتور فاروق والسيدة بشرى في أيام الحركة الوطنية في العهد الملكي عضوين بارزين في الحركة الطلابية وبقيا كذلك في عهد ثورة تموز عام ١٩٥٨ وما تبعها من مخاض واضطراب في عهدها الاول ولعل وضعهما في الحركة الوطنية هو الذي انعكس على المرحوم عبد الجليل بعد ٨ شباط سنة ١٩٦٣ مما كان احد اسباب اعتقاله ومعاملته معاملة سيئة قاسيه، ذلك انه يرحمه الله لم يكن منحازا او متعنتاً او ظالما او مسيئا لأحد حتى في تلك الايام الحالكة السواد التي كانت موازين العدالة والمنطق قد انهارت فيها ولذلك انهار التوازن والانسانية في معاملة الناس والحكم عليهم بل انهار ذلك حتى في التعامل السياسي بين القوى الوطنية بمجملها بل كان في فضله وعلمه وسنه وسعة دائرة اصدقائه ومعارفه بعيدا عن الخلافات والنزعات والميول الضيقة وانحيازتها وهوما ساد الحياة السياسية والاجتماعية فيما بين عامي ١٩٥٨ الى ١٩٦٣.

الفصل الثامن

لقد سألت الدكتور فاروق عن اصدقاء ابيه في البصرة وبغداد فاجابني بان اصدقاءه في البصرة هم كل من محمد زكي المحامي وعبد الحميد احمد السلمان[١]

= صدقي وأمين العمري وغيرهم وكان صديقا للمرحوم بكر صدقي. وقد ذهب الى اليمن في البعثة العراقية الاولى لتنظيم الجيش اليماني مع المرحوم جمال جميل. وفي سنة ١٩٦٣ سلّم بيده ابنه هشام وكان مهندسا للطيران في القوة الجوية وكان شيوعياً واسع الافق تقدمي التوجه، الى سلطات ٨ شباط ١٩٦٣ العسكرية، وكانوا من مرئوسيه سابقا ومعارفه ولكنهم قاموا باعدامه. وسنة ١٩٦٧ جرى ترشيحه رئيساً للجمهورية في محاولة الانقلاب التي أعد لها المرحوم سليم الفخري لانه عسكري كبير واسع الافق قوي الارداة مطلعا على مشاكل البلاد وحلولها.

(١) عبد الحميد السلمان: راجع كتابنا (شخصيات نافذة) حيث جاء في حاشية الفصل عن الحاج حمد المحمد الذكير نبذة عن المرحوم عبد الحميد السلمان.

شقيق حسن احمد السلمان[١] ومحمد احمد المحامي (مرزا محمد)[٢] وحسن عبد الرحمن المحامي[٣] وعبد الرحمن

(١) حسن احمد السلمان: اخ المرحوم عبد الحميد السلمان الاصغر كان موظفا كبيرا ممدوح السيرة وقد تقلد في سنة ١٩٥٩ منصب وكيل وزارة الصناعة في عهد وزيرها محمد حديد.

(٢) محمد احمد خان بهادر: شخصية اجتماعية مشهورة في البصرة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ورئيس لجنة انضباط المحامين في البصرة سنين عديدة. وأصله كما يبدو من الجانب الشرقي للخليج وقد جاء الى العراق مع الحملة البريطانية سنة ١٩١٥ وبعد ان اشتغل حاكم جزاء في البصرة والحلة ايام الحرب الاولى تقاعد وانصرف الى المحاماة واشترى دارا وحديقة قرب دار متصرف اللواء على شارع كورنيش شط العرب ضم فيها عيون الكتب القانونية والتاريخية بالانجليزية (التي سمعها او كتب بها كاللغة الام الاولى). لقد اصبح الاستاذ محمد احمد بعد انصرافه الى المحاماة محاميا عن الشركات والمصارف البريطانية التي كانت تتخذ من البصرة مقرا لأعمالها مثل (شركة نفط البصرة I.P.C) والشركة الافريقية المسماة بيت افريكان وشركة اندروير (التي احتكرت تصدير التمور في البصرة) وشركة سبنس والشركة الاميريكة لتصدير التمور (بيت جوك) كما اصبح مركزا لتصفية تركة الشيخ خزعل امير المحمرة وجمع ثروة من اعمال المحاماة يقال انها ضاعت لأنه ساهم في بنك تم نهبه وتصفية اعماله بعد تقسيم الهند على حكومتين في الهند وباكستان. ويقال ان الدكتور بور انسنك وهو طبيب هندي من اذكياء البشر، هو الذي شجعه على هذا الاستثمار. وكان بور انسنك طبيبا موهوبا من طائفة السيخ في البصرة الى عام ١٩٦١. لقد تقلصت اعمال الاستاذ محمد احمد قبل ثورة تموز عندما فضلت الشركات الاجنبية ان تتخلى عنه وكان عنده ابنان سليمان وفريدون وجاء الى بغداد اوائل الستينات وطلب مني الاشتراك مع المرحوم عبد الجليل برتو بخطبة عروس لابنه فريدون ابنة مدير شرطة من عائلة الصندوق تقع داره في محلة العلوية وقد استجبت لأمره وخطبنا لابنه المذكور. اما سليمان فقد اشتغل في شركة نفط الكويت، ولا اعلم عن اي منهما شيئاً الى الآن.

(٣) حسن عبد الرحمن: محامي - شخصية عامة معروف ومثقف ومتدين وعضو مجلس النواب العراقي في منتصف الخمسينات من القرن العشرين عن مدينة البصرة، ويوصف في العراق بالرجولة والشجاعة والكرم. وكان الحاج عبدالرحمن والد =

حسن يلقب (ابو الشيمه) وتعتبر شهامته مضرب المثل في منطقة الفرات الاعلى من هيت الى البوكمال.

بعد أن اكمل حسن دراسته في كلية الحقوق ببغداد في الثلاثينات عين حاكماً (قاضياً مدنياً) في البصرة، ثم استقال من خدمة الحكومة منصرفاً الى مهنة المحاماة حتى أصبح من كبار المحامين في البصرة حيث يتمتع المحامي بالوضع الممتاز بالنسبة لكل انسان فيها وذلك لتمتع ذوي المصالح التجارية والعقارية بمكانة ودور متميز مما جعل للمحاماة فيها اهتمام خاص وللوضع القانوني للفرد ومشاكله وهمومه القانونية اثر بارز في شخصيته ومكانته. وذلك اكثر مما كان للقانون والمحاكم من اثر في بغداد، ولعله من عواقب كون البصرة من أوائل بقاع العراق التي اتصلت بالغرب والتجارة الغربية والحضارة المرتبطة بهما، حيث كانت الصلات دائبة بالهند وشركة الهند الشرقية وتجارة الخليج والقنصليات والمدارس والبعثات الاوروبية منذ القرن السادس عشر حيث اتصال الخليج بالمصالح والشركات التجارية الغربية.

لقد اشتغل الاستاذ حسن عبدالرحمن واهتم بالمسائل الشعبية فوق اهتمامه بالعمل القانوني والدفاع عن حقوق موكليه من تجار البصرة وملّاكها، وقد صار في وقت من الأوقات نظيراً لكبار المحامين في ميناء البصرة مثل محمد احمد خان بهادر وآكوب جبرائيل وسليمان فيضي وسليمان الشواف واسكندر منصور وعبدالرزاق الحمود وغيرهم. وقد استوزر قبل الجميع من هؤلاء في وزارة الدكتور فاضل الجمالي وزيراً للشؤون الاجتماعية سنة ١٩٥٤، وهي الوزارة التي اشتهرت بضمها العديد من الشباب الوطني المثقفين والأكفاء ومنهم الاستاذ شفيق العاني والاستاذ عبد الرازق الظاهر والدكتور عبد الرحمن الجليلي وغيرهم. ويتميز الاستاذ حسن عبد الرحمن بالحس القانوني الدقيق المرهف وكان يسود تحليلاته ومرافعاته وارائه القانونية الطابع الواسع والقوة والعدل وسيادة المنطق والروح الدينية الفقهية الاسلامية مما كان يؤثر بعرضه على القضاء بالوضوح والاقناع على محمل الفقهية ويكسب بذلك حقوق موكليه ويجعله ناجحا في عمله. على اني اعتقد ان حجر الزاوية في شخصية الاستاذ حسن وقد عرفته معرفة جيدة وزاملته كقاضي في محكمة بداءة ومحكمة صلح البصرة ولما يزيد على عشرة سنوات في المحكمة المذكورة هو ما يملكه وتنطوي عليه شخصيته من كوابح حقيقيه قوية تجعله في منآى يمنع عند الخبائث والشرور والمظاهر بعيدا عن الاغراءات السلبية المادية والمعنوية معتمدا على حب العمل والكسب والنجاح في حياته المهنية والسياسية.

(١) المحامي وأحمد زكي المدرس وعبد الهادي البجاري والحاج عبد العمر

لقد كان الاستاذ حسن في حياته العلمية وكان المتصلون به مطمئنين الى وقوفه الى جانب الحق والصدق بعيداً عن الظلم والابتزاز والاضرار بالغير حتى لو كان الاضرار بالغير مستطاعا. وكان في امكانه مواجهة الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يؤمن بها بالكوابح التي كان يملكها وتمنع عنه الوقوع في الظلم والخطأ وهي كوابح دينية فيما اعتقد ومبنية على الايمان بالله وقدرته. ويعيش الاستاذ حسن الان في دارة في حي المحامين والقضاة في بغداد بعد ان ترك البصرة وأملاكه العقارية فيها مع ابنته الدكتورة زينب. وقد توفي ابنه البكر مصعب في لندن بحادث مؤسف فخسرنا بذلك شابا كفؤا قوي الخلق والمراس وبقي عنده الآن ابنه فالح وكان علي يعمل محررا بجريدة الحياة التي تصدر في بريطانيا بعد دراسة الفلسفة في الجامعات البريطانية وهو من الشخصيات العراقية المعروفة في بريطانيا بالتوجه الوطني والنضوج السياسي والاجتماعي. اما اخ الاستاذ حسن الاكبر فهو المرحوم احمد نافع وابنه الطيار الاول في الخطوط الجوية العراقية نافع احمد.

(١) عبد الرحمن العمر المحامي: والده الحاج احمد العمر من تجار التمور القدماء في البصرة وملاكي النخيل في ابي الخصيب وجنوبي البصرة ومن الاسر المعروفة في أبي الخصيب. وقد اشتغل الاستاذ عبد الرحمن العمر شريكا في مكتب واحد مع الاستاذ حسن عبد الرحمن في البصرة بعد تخرجه من كلية الحقوق ببغداد وعملا في المكتب الكائن في السيف في البصرة لسنوات طويلة وكان مكتبا ناجحا وشراكة ناجحة لتشابه صاحبي المكتب الاستاذ عبد الرحمن والاستاذ حسن في اعتدال الخلق والسمعة الحسنة ومعاملة الناس والموكلين على اختلاف مهنهم وطبقاتهم وأديانهم بالحسنى والصدق والحق مع الاهتمام بقضاياهم حتى اصبح مكتبهما في الخمسينات والستينيات أكبر مكاتب المحاماة في البصرة وأكثرها نشاطا وحيوية. وكان الاستاذ عبد الرحمن منصرفا علاوة على المحاماة في البصرة الى انتاج التمور في أملاكه في بساتين النخيل في أبي الخصيب وضواحيها وإلى كبس التمور وتصديرها بالاتفاق مع جمعية التمور وشركة التمور العراقية وإلى امتلاك المسقفات او الدور وبنائها وتأجيرها في العشار (محلة الكزارة) والدكاكين على طريق العشار - بصرة الجنوبي في محلة البريهة في العمارة التي قام ببنائها على الطريق العامة مقابل متصرفية البصرة والتي استأجرتها وزارة الصناعة مسكنا لخبرائها السوفيت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات). وقد ساعدته في بناء دار على عقار له في الكرادة استأجرتها منه بعد اكمالها وكانت بالرغم من صغرها من أحسن البيوت التي سكنتها بعد ذلك او قبله في البصرة او بغداد.

= يمتاز المحامي عبد الرحمن العمر بالوضوح وصفاء الرؤية والبساطة في النظر للأمور والتعامل معها والنية الحسنة والبعد عن التعقيد والمناورات والطمع وحب الكسب وقد رأيت ذلك في سفري معه الى جيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي سنة ١٩٦٠ في وفد حكومي كان فيه الاستاذ عبد الرحمن يمثل شركة تجارة التمور العراقية الحكومية مع مديرها المرحوم نوري عبد الاحد فكان مثال رفيق السفر الحسن الضمير واليد واللسان في حله وترحاله والمخلص الدؤوب في عمله والصادق الشهم في معاملاته. ثم ترك العمل في جمعية التمور وشركة تجارة التمور العراقية بعد سنة ١٩٦٣ وترك المحاماة بعد ذلك منصرفا الى ادارة أملاكه من مسقفات وبساتين. وفي أواخر الثمانينات ترك عبد الرحمن البصرة وسكن في احدى شقق عمارات الصالحية ببغداد مع زوجته ام وليد ثم غادرها الى لندن واميركا لزيارة أولاده هناك (وليد وعامر ووقاص) وما زال في انجلترا حسب علمي الى الآن.

من اصدقاء الاستاذ عبد الرحمن العمر القريبين الى قلبه المرحوم عبد الجليل برتو وكان دائم التذكر له ولموافقة وأحكامه وجرأته ويبدو ان تكامل طباعهما كان سببا في هذاالحب والاعجاب المتبادل بينهما.

كما كان من اصدقائه المرحوم احمد زكي المدرس متصرف الموصل في الخمسينات ثم رئيس التشريفات في البلاط الملكي في زمن المرحوم فيصل الثاني ملك العراق السابق وقد توفي في السبعينيات من القرن العشرين. ومن اصدقاء عبد الرحمن أيضا قاسم عبد الباقي الزهير الوجيه البصري والمشاور الحقوقي لمديرية الموانئ العامة الذي توفي في الثمانينات في قبرص اذ ترك العراق الى الكويت أولا عاملا في ميدان الاستشارة القانونية للنقل البحري.

ومن اصدقاء عبد الرحمن أيضا صديقنا الشهم الكريم محمد أمين الرحماني المحامي والاستاذ نوري عبد الوهاب الخضيري ونوري عبد الاحد وعبدالله سليمان الذكير. وقد كان عبد الرحمن على استقامته وتدينه الحقيقي غير دعائي ولا انفعالي.

كان يحب المقامرة وكثيرا ما اجتمع المقامرون وهو من بينهم في نادي المحامين عندما كان في بناية مستأجرة من آل المنديل في آخر كورنيش البصرة على الخورة. وإن كلاً من قاسم الزهير ومحمد أمين الرحماني وبرهان الدين باش أعيان وأدور فتوحي وناصر الشذر وزكي الخضيري كانوا من أعضاء فريق المقامرة المذكور وكثيراً ما كان عبد الرحمن ينتصر عليهم جميعاً فيكون ذلك مبعثاً لمزاحهم ونكتهم وفرحهم جميعاً.

ان الابن البكر لعبد الرحمن هو صديقنا الأستاذ وليد العمر المهندس وأخصائي =

الرحمن الذكير[١] والمحامي عزيز شريف وعبد الجبار اسماعيل (مدير البريد في البصرة وصديق طفولته وشبابه)، وحسين جميل[٢] وعبد الوهاب محمود[٣] وعبد الحافظ طه[٤] واصدقاؤه ببغداد كل من يوسف عز الدين ابراهيم[٥] وعلي محمود الشيخ علي[٦] ومحمود خالص وابراهيم كمال

= التبريد وأستاذ في كلية الهندسة في جامعة البصرة ثم رجل الأعمال المعروف في العراق والسعودية ولبنان إلى اليمن الديمقراطية ويسكن الآن في أميركا مع أخيه عامر. أما أصغر الأولاد وقاص فيعيش الآن بلندن بعد أن ترك العمل في السعودية

(١) عبد الرحمن الذكير : راجع كتابنا (شخصيات نافذة) حيث يحتوي على فصل مستقل عن الحاج حمد محمد الذكير كما فيه حاشية عن الحاج عبد الرحمن واحمد صالح الذكير.

(٢) حسين جميل بن عبد الحميد جميل: من كبار سياسيي العراق منذ منتصف الثلاثينيات الى منتصف الثمانينات ومن القانونيين البارعين والشخصيات الاجتماعية المرموقة. أنوي كتابة فصل عنه في شخصيات نافذة ان شاء الله.

(٣) عبد الوهاب محمود: نقيب المحامين الاسبق ومن الشخصيات التقدمية الاساسية أنوي كتابة فصل مستقل عنه.

(٤) عبد الحافظ طه: من عائلة دينية تعود الى احدى القرى القديمة جنوبي البصرة وشمالي ابو الخصيب. كان المرحوم عبد الحافظ ابن اخر من تولى افتاء البصرة الحاج مصطفى الطه الذي كان شخصية اجتماعية وملاكا ورجل دين توفي في أواخر الخمسينات. اما ابنه عبد الحافظ فقد اشغل منصب القضاء بعد اكمال الحقوق العراقية في محاكم العراق المختلفة في الثلاثينيات والاربعينيات ثم تولى رئاسة الدائرة القانونية في شركة نفط العراق بعد اكتشاف النفط في منطقة امتياز الشركة في البصرة في الخمسينات. كان عبد الحافظ اليه من اشخاص البصرة البارزين وكان من اصدقاء احمد مختار بابان ومحمود خالص وعبد العزيز الشواف وابراهيم السعدي عندما كانوا يتولون القضاء في مناطق البصرة والحلة فالموصل وفي انحاء العراق الاخرى.

(٥) يوسف عز الدين ابراهيم: من العناصر السياسية الكردية المحترمة تولى الوزارة بعد انقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦ كوزير للمعارف وخرج منها بخروج العناصر اليسارية. وكنت أراه في دار المرحوم الاستاذ الجادرجي اذ كان يسكن جارا لهم وهو قريب من التاجر العراقي والصناعي المعروف عبدالله لطفي.

(٦) علي محمود الشيخ علي: هو السياسي والمحامي القانوني العراقي الشهير في =

= الثلاثينيات الى الخمسينيات من القرن العشرين في العهد الملكي وينتمي عشائريا الى قبيلة العبيد القوية في الشمال والشمال الشرقي من بغداد في العهد العثماني.

لقد سكنت اسرته منذ اوائل القرن التاسع عشر في بغداد وأصهروا الى آل السعدي مصاهرات عديدة واختلطوا بهم بحيث أصبحت العائلتان آل الشيخ علي وآل السعدي بمثابة عائلة واحدة وكان آل الشيخ علي يسكنون الكرخ الى جوار آل السعدي والشاوي من العبيد أيضا وقد ربطتهم بآل الشاوي روابط صداقة متينة ومتشعبة اذ كان لعبد المجيد الشاوي أحد اذكياء بغداد وساستها البارزين في اوائل العهد الملكي تأثير كبير على أقرانه في الكرخ ومنهم علي محمود الشيخ علي.

كان الاستاذ علي محمود على الجانب القومي الوطني المناهض للاستعمار البريطاني ذلك حين اصطفت القوى الوطنية اصطفافا قسمها الى قوميين وتقدميين بعد ان تصاعدت الشيوعية السوفيتية وتشكل الحزب الشيوعي العراقي وجماعة الأهالي اليسارية بعد الثلاثينيات. فكان المرحوم على محمود من الكتاب السياسيين المعروفين ومن محرري افتتاحيات الصحف القومية المعارضة ومن أقطاب حزب الاخاء الوطني ثم بعد ذلك في حزب الاستقلال. وقد اشترك في وزارة حكمت سليمان ايام انقلاب المرحوم بكر صدقي العسكري. وذلك بعد ان تحول الانقلاب المذكور الى الجانب القومي وخرج منه الوزراء الذين اعتبروا من معتنقي التوجهات اليسارية. وقد دخل الوزارة في هذا التبدل الوزاري المعروف في التاريخ السياسي العراقي المرحوم صالح جبر ورؤوف البحراني وعلي محمود وخرج منها المرحومان جعفر جلبي ابو التمن وكامل الجادرجي.

وبعد استقالة وزارة حكمت سليمان بعد مقتل بكر صدقي العسكري في الموصل وهو في طريقه الى زيارة برلين انصرف علي محمود الى المحاماة والسياسة العراقية حيث كانت آنئذ مفعمة بالتدخلات والمؤامرات العسكرية وكان مع قريبه المرحوم داود السعدي المحامي يمثلان محورا سياسياً فعالاً وجريئا في أواخر الثلاثينيات وكانا كثيراً ما يديران المجالس والمنتديات السياسية من دار المرحوم داود الواقعة في طريق الصالحية الى المطار المدني ومحطة قطار البصرة التي اصبح معظم دورها القديمة محلات تجارية لبيع الاثاث الآن. وفي عام١٩٤١ كنت احد طلاب المرحوم علي محمود في الصف الاول من كلية الحقوق في بغداد حيث كان يحاضر في قانون العقوبات (القسم العام) وكثيرا ما كان يستطرد في محاضراته الى التنديد علانية بالوصي على عرش العراق المرحوم عبد الإله ويلقبه (بالشاب النزق).

وفي انقلاب المرحوم رشيد علي الكيلاني اصبح علي محمود عضوا في الحكومة الاولى المسماة بـ (مجلس الدفاع الوطني) ثم وزيرا للعدلية في وزارة الكيلاني في زمن وصاية الشريف شرف الذي عينه مجلس النواب وصيا على عرش العراق بدلاً من عبد الاله. وقد هرب علي محمود بعد فشل حركة الكيلاني وغادر الى ايران ثم أعيد الى العراق وحوكم امام المحكمة العسكرية العرفية وحكم عليه بالاعدام وخفف الحكم الى السجن حيث خرج من السجن وعاد الى الاشتغال بالمحاماة واشترك بتأسيس حزب الاستقلال عندما أجيزت الاحزاب السياسية في وزارة توفيق السويدي عام ١٩٤٦. وتوكل عام ١٩٤٨ مدافعا عن شفيق ابراهيم عدس التاجر اليهودي المعروف في البصرة والذي اتهم بشراء السلاح من مخلفات القاعدة البريطانية في الشعيبة وتهريبه الى اسرائيل بعد اعلان دولتها في مايس ١٩٤٨ بعد حرب فلسطين الاولى. وكان هذا التوكل من دواعي هياج الرأي العام البغدادي ضد علي محمود الشيخ علي اذ لم يكن الرأي العام انذاك ولا الجماهير المعبأة ضد إسرائيل ومناصريها ليفرق بين المحامي والمتهم مما كان له أبعد الأثر على نفسه وأدى به في نهاية الأمر إلى تأليف كتاب حول الموضوع يدافع به عن نفسه. وقد أوصى المرحوم علي محمود بأن لا ينشر هذا الكتاب قبل وفاته وهو يشرح فيه موقفه كمحام بما يمكنه من استعمال صفته القانونية في الدفاع عن نفسه وهو تصرف غير معيب في مقاييس المحاكم والتطبيقات القانونية.

لقد استوزر علي محمود سنة ١٩٥٢ مع مصطفى العمري ثم مع نور الدين محمود رئيس أركان الجيش على أثر المظاهرات الواسعة التي اندلعت في بغداد مطالبة بجعل انتخابات مجلس النوّاب انتخابات مباشرة بدلاً من انتخابات على درجتين يختار الناخب في المرحلة الأولى منها منتخبين ثانويين يقومون هم بانتخاب النوّاب في المرحلة الثانية كما كان الوضع القانوني قبل انتفاضة ١٩٥٢ وهو الاسم الذي أطلقته أحزاب المعارضة على المظاهرات والمطالبات بتعديل قانون انتخابات النواب).

وأذكر في هذا المجال أن المرحوم ناظم الزهاوي كان قد عمل لدى علي ممتاز الدفتري وزير المالية لإصدار أمر بالاستعانة بخدماتي ونقلي من محاكم البصرة إلى وزارة المالية في مديرية الأموال المستوردة في بغداد بموجب مادة خاصة في (قانون تنظيم الحياة الاقتصادية الصادر عام ١٩٤١). وقد عملت في مديرية الأموال المستوردة في بغداد ابتداء من عام ١٩٤٨ مميزاً لقسم الاسترليني مع الأستاذ شكري صالح زكي الذي كان هو الآخر مميزاً للاسترليني أيضاً وكنّا ننظم التجّار المستوردين حسب الحروف الهجائية التي تبدأ بها أسماؤهم وكان =

وعلي ممتاز الدفتري وخيري عبد الرحمن (مدير الطابو العام سابقا وهو صديق طفولة وشباب للمرحوم عبد الجليل برتو) ومحمد علي محمود ونشأت السنوي وكمال السنوي ومظفر احمد والثلاثة تربطهم القرابة النسبية مع المرحوم عبد الجليل، وعبد الجبار التكرلي (وزير العدلية الأسبق)[1].

= المرحوم حسين عبد العال ثم المرحوم الدكتور طلعت الشيباني مسؤولين عن الاستيراد في قسم الدولار كما أصبح فيما بعد الأخ الأستاذ المرحوم زكي عبد الوهاب مسؤولاً عن الدولار. كذلك كان نجيب المانع وبدر السياب وإبراهيم العنبزي وعبد الواحد القيسي وعبد الجبار وهبي وعبد الرزاق الشيخ علي وأكرم الوتري وغيرهم موظفين في مديرية الأموال المستوردة مما جعل من الدائرة تجمعاً لشباب معارضين من ثوريين وقوميين ومن قوى اليسار الأمر الذي أدّى بالمرحوم علي محمود الشيخ علي في سنة ١٩٥٣ إلى «إعادة تنظيم الدائرة»، حسب اصطلاح تلك الأيام والمعني بذلك هو إخلاؤها من كثير من موظفيها المشبوهين. وكان من الإجراءات التنظيمية الجديدة إلغاء أمر الاستعانة بخدماتي وإعادتي إلى وزارة العدل في محكمة البصرة. ولم تشفع لي قرابتي من اسماعيل الشيخ علي ابن خالي الذي هو ابن عم علي محمود وصهره في منع أو تأخير صدور أمر الإلغاء المذكور.

إنّ علي محمود الشيخ علي عيّن بعد استقالة وزارة نور الدين محمود عضواً في محكمة تمييز العراق وكان من أبرز أعضائها علماً وخلقاً وكفاءة وقد توثقت علاقتي حينذاك بالمرحوم علي محمود الذي كثيراً ما كان يشارك في تدقيق أحكامي التي أصدرها في محكمة البصرة بالدرجة الأولى وتميز في محكمة التميز. وقد سمعت بعد ثورة تموز حديثاً أثناء زيارتي له في داره عن التقادم ومرور الزمان شرح فيه هذه الفكرة القانونية كما وردت في القانون الفرنسي والإنكليزي والعثماني وموقف الشريعة الإسلامية شرحاً مستفيضاً كأنه قد درسه وراجعه بالأمس. وقد أعجبت حقاً بكفاءة المرحوم علي محمود القانونية إعجابٌ كبيراً. وقد توفي الأستاذ علي محمود بعد أن أصيب بمرض يتعلّق بالدورة الدموية والقلب بعد أن عاد من زيارة إلى فيينا في أوروبا عن ولدين هما حسين وحسن وأربع فتيات. رحم الله علي محمود فقد كان من الأذكياء والأكفاء الطموحين ولكن تميز الوضع السياسي في العراق بحدته قد جعله يستوزر في الانقلابات العسكرية وسلبياتها وقد طبعت مذكراته وسيرته ومحاكمته.

(١) عبد الجبار التكرلي: شخصية عراقية بارزة منذ العشرينات الى الخمسينيات كقانوني =

الفصل التاسع

لقد تزوج الاستاذ عبد الجليل پرتو، كما أسلفت، من حورية بنت

كبير وقاضي في محكمة التميز معروف بالنزاهة والرضا والحياد والكفاءة العالية. وهو يعود في الاصل الى ذرية المتصوف الشهير السيد عبد القادر الكيلاني باعتباره يتصل بابن الشيخ عبد القادر وهو السيد عبد العزيز اخ السيد عبد الوهاب (جد السادة الكيلانية في العراق والهند). وقد أدى ذلك الى نزاع قضائي في المحكمة الشرعية يتعلق باستحقاق آل التكرلي في بعض أوقاف السيد الكيلاني. ولا أعلم من أين جاء لقب التكرلي الى هذا الفرع من العائلة الكيلانية التي يلقب به السيد عبد الجبار والسيد مصطفى أخ السيد عبد الجبار والذي كان مثله قاضيا في محكمة تمييز العراق.

استوزر المرحوم السيد عبد الجبار كوزير للعدل بعد ان وصل الى درجة قاضي في محكمة تمييز العراق. وقد كان في عام ١٩٥٦ على أثر الاحكام العرفية التي أعلنت في العراق لعلاج المظاهرات المعارضة للاعتداء الثلاثي على مصر ان عينت أنا والمرحوم شاكر هلال نائب رئيس استئناف البصرة قاضيين مدنيين في المحكمة العرفية العسكرية في البصرة اذ كانت المحكمة تتشكل من خمسة اعضاء اثنان منهم من القضاة المدنيين. ولما كنا نتقيد كقضاة في تطبيق القيم والاجراءات القضائية القانونية فقد خشينا مع وصل بعض الدلائل بان الادارة والسلطة العسكرية غير راضية عن سلوكنا في المجلس العرفي العسكري مما أدى الى مقابلتي لوزير العدلية المرحوم عبد الجبار التكرلي. وعندما عرضت عليه المسألة وقلت له اذا كان لدى الحكومة سياسة معينة فقد كان الاجدر تعيين قضاة آخرين مقتنعين بتنفيذ تلك السياسة خير منا انا والاستاذ شاكر. فأجاب السيد عبد الجبار رحمه الله (نحن اخترناكم وقد وثقنا بكم وليس لنا أية سياسة او هدف غير تحقيق العدالة ورضى الناس فاذهب الى البصرة وقم مع الأخ السيد شاكر بما تمليه عليكم ضمائركم وعلمكم القانوني كما سوف لن اسمح للادارة او للسلطة العسكرية ان تضايقكما بأي شكل من الأشكال. فرجعت الى البصرة وأخبرت الأخ المرحوم شاكر هلال واستمرت سياستنا في المحكمة على حالتها في تحقيق العدل وتطبيق القانون وحماية الناس. ولم تستطع لا سلطة الادارة ولا السلطة العسكرية ايقاع أي ضغط علينا.

توفي المرحوم عبد الجبار التكرلي عام ١٩٦٥ مرضياً عليه من الجميع.

مصطفى المدرس وهو رجل دين من بغداد معروف فيها وامام جامع جديد حسن باشا وقد عمل مصطفى المدرس في اوائل تشكيل الجيش العراقي مدرسا للغة العربية في الكلية العسكرية ويرتبط بصلة القرابة مع الاستاذ حقي الشبلي (الممثل العراقي المعروف منذ أواخر العشرينيات ويعتبر عميد المسرح العراقي ورائده في بغداد منذ ذلك التاريخ الى السبعينات) كما يرتبط بصلة القرابة مع الشخصية الوطنية والثقافية المعروفة في الحياة السياسية العراقية طيلة الثلاثينات والاربعينات فهمي المدرس عندما كان مديرا للتشريفات الملكية في بلاط المرحوم الملك فيصل الاول الهاشمي في العراق وبقي شخصية اجتماعية وسياسية وثقافية هامة الى الاحتلال الانجليزي الثاني سنة ١٩٤١ عقب ثورة رشيد عالي الكيلاني، وعلى ذكر ثورة رشيد عالي فإني سمعت في حينها وبعد ذلك، كمية هائلة من الخطب والتصريحات النارية عن فداحة مظالم الاستعمار ورجاله من ضباط الجيش الانجليزي وتعاون الطبقة الحاكمة المحلية معهم ولكن بالرغم من اهتمامي بهذه الخطب والتصريحات واهتمامي بموضوع عواقب الاستعمار وتطوراته في العراق استطيع القول باطمئنان بأنني لم أسمع كخطاب المرحوم فهمي المدرس الذي ألقاه في اذاعة بغداد في مايس ١٩٤١ والذي كان خطابا يعتبر آية في التدليل المنطقي على مظالم الاستعمار البريطاني وعلى تصرفاته ونهبه لثروة البلاد منذ البدء مما يعتبر من المعالم البارزة للخطب السياسية التي القيت في تلك الايام والتي كان الكثير منها من باب الخطب العاطفية او الفتاوى الدينية او الوطنية التي تدعو للجهاد!.

الفصل العاشر

لقد خلف المرحوم مصطفى المدرس ثلاثة ابناء معروفين في الاوساط البغدادية هم أخوال فاروق برتو وابناء المرحوم عبد الجليل الاخرين اولهم هو الاستاذ عبد الوهاب المدرس الذي التحق (كتائب احكام) في الجيش العراقي مسؤولاً عن الامور الحقوقية في الجيش المذكور بعد تخرجه من كلية الحقوق عام ١٩٤٤ وتدرّج حتى صار برتبة زعيم أو لواء والسيد عبد

الوهاب معروف بنزعته القومية اما الثاني فهو السيد ابراهيم المدرس وهو قاضي مدني في محكمة بغداد وقد سمعت انه كان ينطوي على اهتمامات سياسية قبل ذلك وقد كان شيوعيا ومن جماعة المرحوم زكي بسيم الزعيم الشيوعي الذي تم اعدامه مع فهد سكرتير عام الحزب الشيوعي وحسين الشبيبي احد اعضائه المبرزين في العهد الملكي وفي اول تنفيذ لأحكام الاعدام بحق الشيوعيين في العراق، اما الثالث فهو عبد الرحمن المدرس احد كبار موظفي وزارة المالية السابقين ويعيش الان في لندن وهو انسان رضى محترم ومحمود ومحبوب شأن اخوية الاخرين.

الفصل الحادي عشر

كان المرحوم ابو فاروق عبد الجليل برتو ـ شأن آلهة الاغريق كما حددت خصائصهم في الميثولوجيا اليونانية وفي التماثيل اليونانية الموروثة لنا من ايامهم كما قلنا انفا سواء من الناحية البدنية (البيولوجية) او الخلقية او النفسية (السيكولوجية) فهو طويل القامة متماسك البنية معتدل الوزن مليئاً بالصحة والحيوية والشباب وذلك الى ان أوقف في سنة ١٩٦٣ في سجن رقم ١ بمعسكر الرشيد ببغداد فكان ممن يصح ان يطلق عليه البغداديون ويصفونه (بالرجولة وحسن الصورة) وهو في كل ذلك يعكس صورة الرجل الشرقي واضح الشخصية، وأضح الاتجاه، حسن الالقاء لأفكاره وحسن التلقي والاصغاء لأفكار غيره على غير عادة الكثير من زملائه من رجال السلطة في العهد الملكي في العراق. كما كان واضح الحجة قوى التعبير مع ميل الى روح الفكاهة او الدعابة وذلك مما ينطبع به اسلوبه في الحديث وصوته، حيث كانا يتميزان بروح الدعابة المتصلة بالبساطة وحقائق الاشياء اكثر من اتصالها بالشكليات والظواهر الاجتماعية الى حد السخرية من المقولات والمواقف الاجتماعية والفكرية غير المخلصة كما كان رحمه الله حريصاً في كل تصرفاته عندما كان محاميا او موظفا على الموقف المنطقي محبا للمقاييس العقلية مهتما بها اكثر من اهتمامه بالمقولات والمحددات التقليدية المتوارثة بلا اقتناع. والخلاصة فقد كان رحمه الله صادقاً مع نفسه

ومع ذويه وأولاده ومع الاخرين من مؤيديه وخصومه على حد سواء وهذا هو انطباع كل اصدقائه ومعارفيه وزملاء جيله الذين ترك رحيله لديهم حسرة الخسارة ولوعة الفراق لانسان فريد الصفات.

فهرس شخصيات الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

القسم الخامس

الفهرس

القسم الأول

عبد الكريم قاسم

القسم الثاني

سالم عيسى الوجيه

القسم الثالث

نجيب المانع

القسم الرابع

علي السليمان البسّام

القسم الخامس

عبد الجليل پرتو

عبد اللطيف الشواف:

شخصية بغدادية فذة تتمثل بها القيم والأخلاق البغدادية الأصيلة من حب للخير وإنصاف للناس ومساعدتهم وتعفف في اليد واللسان وانفتاح في الفكر والروح على الجميع، وحينما كان يكتب المرحوم الشواف فإنه يجسد تلك الأخلاق بخط يده فهو الوزير والقاضي والقانوني والأديب.

ماذا في الكتاب:

عند قرائتك لهذا الكتاب تجد نظرة ثاقبة وتحليل عميق للأحداث والوقائع وقلق على المستقبل. إن ما يشهده العراق حاليا من صراعات لا يبتعد كثيرا عما كان قائما في زمن الجمهورية الأولى بل هو مشابه له في اغلب المفاصل وهذا ما شخصه الاستاذ الشواف (رحمه الله) في كتابه. انه يسلط الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ العراق الحديث بنظرة موضوعية بعيدة عن الأهواء والتجاذبات.

إن تقييمنا لهذه الذكريات والانطباعات، بأنها من انضج واهم الدراسات العراقية حيث تتناول الإحداث التي رافقت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨بموضوعية كبيرة.

يختلف العراقيون كثيرا حين يقيمون شخصية الزعيم عبد الكريم قاسم، فمنهم من يغالي في حبه ومنهم من يبغضه بغضاً شديداً ويتحامل عليه ومنهم من ينصفه للتاريخ و الشواف من الصنف الأخير.

ماجد شبر

ISBN 1900-700-61-1
9 781900 700610